

# ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام للعامة دوزي مترجمة بquam

مالكيلاني

«وأستقر على نفسي ألا أعرض لهذا  
ما أعينده ، مما أحده محامات اسمه ، في  
الفرس غير ارد ، و نصير غير سعد  
«غير ليس يابح

الطبعة الأولى — ١٩٣٣ م — ١٣٥١ هـ  
كل الحقوق محفوظة

عيت مشرعة مكتبة ومطبعة عيسى الماني في بيروت  
ميدوق بربال في بيروت ٢٦ بالمساحة



## تصدير

هذه فصول مترجمة من كتاب العلامة المستشرق «دوزى» وقد آثرنا نقلها الى العربية اثباتاً وجهة تفكير عالم أوروبى كبير ، وهى - وإن خالفت آراءنا أحياناً فى بعض مناحيها - جديرة أن تقرأ بعناية فائقة ، فليس كل ما لا نرضاه من الآراء خالياً بالطرح والإهمال . وإذا كان العلامة « فخر الدين الرازى » يقول فى مقدمته لشرح « الإشارات » لابن سينا :

« إن التقرير غير الرد ، والتفسير غير النقد »

فما أجددنا أن نقول بدورنا : « والترجمة أيضاً غير النقد »

لهذا اقتصرنا على نقل آراء ذلك المستشرق بلا مناقشة أو تعليق إلا ما يقتضيه المقام من توضيح لما أعتقد أن أكثر القراء فى حاجة إليه .

\*\*\*

٦

على أنى لم أكيد أنشر الفصل الأول من هذا الكتاب فى « ديوان ابن زيدون » حتى نال من استحسان القراء أكثر مما كنت أقدره له .

وقد وعدت بإظهار هذا القسم كاملاً بعد أن أنجزَ شرح «ديوان  
 ابن زيدون» ثمَّ منعتني عَوَادي الزمن ومشاغله عن إنجاز هذا الوعد،  
 ثمَّ تَعَلَّبت العزيمة على التردد والتسويف . ورأيتُ أن أفيَّ ببعض  
 ما وعدتُ به القراء ، فأنجزتُ ترجمة هذا الكتاب وكُلِّي أملٌ في  
 أن الحَقَّه بالكتاب الثاني الذي وعدتُ به القراء وهو :

«ابن زيدون — أدبه وعصره» . فإذا انتهيتُ منه شرعتُ في إظهار  
 ديوان ابن حمديس . وأنا أستمَد من الله العونَ على إنجاز هذا الوعد ،  
 وأُستَهِمُه لرشد السَّدد .

عبد الكريم



١

ملوك الطوائف

## الفصل الأول

١ — بعد إلغاء الخلافة

منذ سنين عدة تقلص ظل السلطة العامة عن الولايات الإسلامية في بلاد الأندلس وأصبح أمر كل منها بيدها ، ولم يكن تفكك السلطة مما يرغب فيه أهل تلك الولايات عامة أو يتفق ومصالحهم وآمالهم . وقد جزعوا لهذا التفكك وذهب بهم التفكير إلى أبعد مداه أسفاً على الماضي وجزعاً من المستقبل<sup>(١)</sup> .

---

(١) كتاب «تواريخ» بطونج بعد أن اضمحل أمر الخلافة الأموية بالأندلس ، فقد استبد بالأمر منصور بن أبي عامر « وأعقبه ، وأسسوا الدولة العامرية ، وحالفوا بربر » صنهاجة ، واستعانوا بهم في واقفهم من دون العرب ، ثم ثارت الفتنة بعد ذلك فتمردت دولة العامريين وانتهب النصارى دورهم وأدبل لبني أمية ثانية ، ثم تهور بنو حمود وبني الأُمراء والنوايا والوزراء وكبار العرب وأعيان البربر وقام كل واحد منهم بامر في ناحية . وما زال جبل الأمن في اضطراب حتى ولى الأمر « محمد بن جهور بن محمد بن جهور » في قرطبة ، وانطوى بساط الدولة الأموية وصار لأمر بني رُقُساء البلاد . وولى بنو عباد « أستبيلية » وغرب الأندلس . وقد شغل هؤلاء بطونج بتغلب بعضهم على بعض والتجشوا إلى ملوك الفرنجة . - عسرين بهم حتى جاءهم « يوسف بن تاشفين » وأقام في بلاد الأندلس دولة شريفة .

ولم يكن يستفيد من هذا الانحلال والتفكك في تلك البلاد إلا ملوك  
الإفرنج وحدهم ، وقد كان من نتائجه أن اقتسم قواد البربر جنوب  
الجزيرة فيما بينهم ، وحكم الصقالبة الشرق ، وأصبح ما بقي بعد ذلك من  
بلاد الأندلس شهبا مقسما بين ذوى المطامع من المغيرين المتوثبين على  
تلك البلاد ، وبين آخرين من بقايا الأسر العريقة ممن سنحت لهم الفرصة  
وساعدتهم على الثبات أمام ضربات « عبد الرحمن الثالث »<sup>(١)</sup> .  
و « لمنصور » التي كانت مصوبة الى الارستقراطية .

---

(١) غرقت إمبراطورية « عبد الرحمن الثالث » العظيمة ، وظهر على ألقاضها عدة  
مدن صغيرة « دويلات » أنشأها الظروف والمصادفات — كما يقول الاستاذ  
« بيكسون » — وكانت يحكمها بعض القادة المنظرين .

وقد أصاب « نيكسون » في تشبيه « أسبانيا » في القرن الحادى عشر الميلادى  
بتاريخ إيطاليا في القرن الخامس عشر ، فقد كان وجه الشبه — كما يقول — كبيراً  
جداً بينهما .

وكان هؤلاء القادة الذين اغتسوا بلاد الأندلس أشبه بأولئك القادة الذين كان  
يضق عيبيهم في إيطاليا اسم « Condottieri » وكان من بينهم ملوك بني عباد  
الذين قضوا أشبهلية . وهم أقوى الملوك الذين أطلق عليهم كتاب المسلمين اسم :  
« معز الطوائف » .

وعنى أن ذلك العصر كان عصر تدهور سياسى ، وعلى أن اسبانيا كانت تشكو  
عجز مواردها الاقتصادية ، فقد وصل المجتمع في تلك الأيام الى مستوى لم يصل إلى  
مثله من قبل .

وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة عند نستطيع أن نستعرض فيها آماننا الشوط البعيد  
المسرى نرى قضاة الأدب والمهوى فى طريق النجاح فى ذلك العصر لئلا يعد أزهى  
عصور الحضارة الإنسانية فى أوروبا .

وقد انتهى ذلك كله بأن تكون من المدينتين الكبيرتين « قرطبة »  
و « أشبيلية » حكومتان شوريتان .

فبينما تري اهرب افاثعين في آسب قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حصارته  
بما لانهاية له فدعوا لها وظهر أثرها فيها ، إذ تراهم لم يكادوا يهبرون صيق  
جبل طارق — في 'قرب — حتى انعكست الآية تماماً .  
ذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع في أيديهم آلاف من المسيحيين من  
كل جهة فتحوها ، وقد عاش أولئك المسيحيون في كنف 'سلمين ، وأخذت الحكومة  
معاملتهم ، ومنحهم الحرية الدينية ، وكثيراً ما رفعتهم إلى مناصب عالية في جيش وفي  
باطل ذلك ، فاعتنق كثير منهم الحضارة الاسلامية واقتن بها افتتاً .

حتى رأى 'مارو' — كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع للميلاد — يولوف في  
أوائل ذلك عصر ، ساكياً من أبناء دينه انصرافهم إلى مطالعة أشعار عرب  
وأساطيرهم وعقيدتهم بمرسة كتابات لاهوتية نسيها في وفانستهم ، وهذ لا يفصرون  
بذلك إلى تنبئها بل يفسدون في تعبهم عن خواجهم ، سوب عرب في رشح صحح .  
وكان 'مارو' —

أتى باح لاس في هذه أيام لم يبق وحدا من أبناء جنسنا يقرأ تفسير  
الآية للكتب مقدسة : ومن ذ الذي يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء  
والحواريين ؟

واحسره : في كل اشد دوى لم يهرب لا عرفون ولا لغرية ولا كتابات عرب ،  
فهم يقرؤونها ويدرسونها بحماسة بالغة مدبها ، كما أنهم يتفقون على الطائل لاقتنائها في  
مكاتبهم ، ولك لمرهم حنا وجدوا — يذهبون أن — ت لآدب جديدة بالاعمال .  
ودا تجاوزت عن ذل وأخذت تخدمهم عن لكتب سبجبة لزور حاتمهم  
وأجوبة باردراء : لنها أسفار ، فبة لاخضر لحد ولا قمنة .

واحسره عيهم ! لهد نسي لسيحون أنفسهم حتى لندر لنعور بين آلاف منهم  
على فرد واحد سطيع أن يحرراى أحد صدقة رسالة لآتية به بأسلوب مقبول ، على  
حين نرى جبرتهم ودرة على لإبانة هم ، في نفوسهم بأسلوب عرب رشح ، وعلى

أما « قرطبة » فقد اجتمع كبار أهلها بعد إلغاء الخلافة — وعمدوا

حين ترى حذقهم في قرض الشعر العربي قد وصل إلى حد فاقوا معه العرب أنفسهم .  
ومهما يكن في كلام هذا الكاهن من إغراق ، فما يترفع عن الجدول والتشكك  
أن الثقافة الإسلامية قد أخذت بألباب المسيحيين الأسبان ، كما افتتن بها اليهود  
الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعدتهم العديدة وكتابتهم التي أنشئوها بلغتهم  
وبلغة أبناء عمهم العرب .

أما المولدون والصابئون من الأسبانيين الذين دنوا بالاسلام فقد استعربوا تماماً  
— عد أجيب قتيلاً — ومن هؤلاء نبي أشهر من ازدان به الأدب العربي .

\*\*\*

وقد كان للشعر العربي — في أوروبا — على الأجل نفس الخصائص التي رأيناها  
في الشعر المعاصر له في الشرق .

فإن الأوزان المصطلح عليها والقيود التي لم يستطع أساطين « بغداد » أن يحرروا  
أنفسهم من ربقتها ظلت — كما هي — في قرطبة وأشبيلية .

وكما تأثر الشعر العربي في الشرق بالأدب الفارسية ، فقد تأثر في أسبانيا كذلك  
بالتحاد الآريين والناسمين واندماجهن شيئاً فشيئاً .

فكان ذلك سبباً في إدخال عناصر جديدة ظهرت في آدابهم بعد ، ولعل أمتع ميزات  
الشعر الأندلسي هي ذلك الوجدان العاطفي الرقيق الذي يندر وجود مثله في الأدب ،  
والذي ظهر كثيراً في أغانيهم عن الحب ، وهو وجدان لا يقتصر على تصوير فروس  
القرون الوسطى ، بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسه إحساساً جديداً بحسن  
الطبيعة التي جعلته .

ولهذه الميزة سهل فيه ذلك الشعر على كثيرين من الآريين الذين ولايسهم  
عندهم تفهم روح المعتقدات أو قصائد المتنبي . انظر كتاب « نظرات في تاريخ  
الأدب الأندلسي » للمترجم .

وقد انتهى ذلك كله بأن تكون من المدينتين الكبيرتين «قرطبة» و «أشبيلية» حكومتان شورتان .

فبينما ترى العرب الفاتحين في آسيا قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حصارتهم بما لانهاية له فأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم ، إذ تراه لم يكادوا يعبرون مصق جبل طارق - في الغرب - حتى انعكست الآية تماماً .

ذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع في أيديهم آلاف من المسيحيين من كل جهة فتحوها ، وقد عاش أولئك المسيحيون في كنف المسلمين ، وأخذت الحكومة معاملتهم ، ومنحتهم الحرية الدينية ، وكثيراً ما رفعتهم الى مناصب عالية في الجيش وفي بلاط الملك ، فاعتنق كثير منهم الحضارة الاسلامية وافتتن بها افتتناً .

حتى رأينا «الفارو» - كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع للميلاد - يولون في أوائل ذلك العصر ، شاكياً من أبناء دينه انصرافهم الى مطالعة أشعار الحرب وأساطيرهم وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتى المسلمين وفلاسفتهم ، وهم لا يقصدون بذلك إلى تقنيدها بل يقصدون إلى النعير عن خواجهم بأسلوب عربى رائع صحيح . وكان «الفارو» يتساءل قائلاً :

«أتى يتاح لإنسان في هذه الأيام أن يفايل واحداً من أبناء جنسنا يقرأ تفسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذى يدرس منهم فصول الأنجيل وسبر النبأ والحواريين ؟

واحسرتاه : إن كل الشبان ذوى انواهب لا يعرفون العربية ولا كتابات العرب ، فهم يقرءونها ويدرسونها بحماسة بالغة منذهاها ، كما أنهم بنفقون المال الطائل لامتناعها في مكاتبهم ، وإنك لتراهم - حيثما وجدوا - يذيعون أن تلك الأدب جديرة بالاعجاب . فإذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية ازور حنسه وأجابوك بازدرأ : «إنها أسفار نافية لاخطر لها ولا قيمة» .

واحسرتاه عليهم ! لقد نسى المسيحيون أنفسهم حتى ليندر العصور بين آلاف منهم على فرد واحد يستطيع أن يحمرالى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب معبوف ، عن حين ترى جهرتهم فادرة على الإبانة عما في نفوسهم بأسلوب عربى رائع . وعلى

أما « قرطبة » فقد اجتمع كبار أهلها بعد إلغاء الخلافة — وعدوا

حين ترى حذقهم في قرض الشعر العربي قد وصل إلى حد فاقوا معه العرب أنفسهم .  
ومهما يكن في كلام هذا الكاهن من إغراق ، فما يترفع عن الجدل والتشكك  
أن الثقافة الإسلامية قد أخذت بألباب المسيحيين الأسبان ، كما افتتن بها اليهود  
الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعدتهم العديدة وكتاباتهم التي أنشئوها بلغتهم  
وبلغة أبناء عمهم العرب .

أما المولدون والصابئون من الأسبانيين الذين دانوا بالإسلام فقد استعربوا تماماً  
— بعد أجيال قليلة — ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الأدب العربي .

\*\*\*

وقد كان للشعر العربي — في أوروبا — على الأجمال نفس الخصائص التي رأيناها  
في الشعر المعاصر له في الشرق .

فإن الأوزان المصطلح عليها والفيود التي لم يستطع أساطين « بغداد » أن يحرروا  
أنفسهم من ربقتها ظلت — كما هي — في قرطبة وأشبيلية .  
وكما تأثر الشعر العربي في الشرق بالأدب الفارسية ، فقد تأثر في أسبانيا كذلك  
باتحاد الآريين والساميين واندماجهم شيئاً فشيئاً .

فكان ذلك سبباً في إدخال عناصر جديدة ظهرت في آدابهم بعد ، ولعل أمتع ميزات  
الشعر الأندلسي هي ذلك الوجدان العاطفي الرقيق الذي يندر وجود مثله في النسيب ،  
والذي ظهر كثيراً في أغانيهم عن الحب ، وهو وجدان لا يقتصر على تصوير فروسب  
القرون الوسطى ، بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسه إحساساً جديداً بحاسن  
الطبيعة التي جلته .

ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على الكثيرين من الآريين الذين قد لا يسهم  
عليهم تفهم روح المعلقات أو فصائد المتنبي . انظر كتاب « نظرات في تاريخ  
الأدب الأندلسي » للمترجم .

إلى « ابن جهور<sup>(١)</sup> » فأسندوا اليه السلطة التنفيذية ، وقد كان مشهوراً عندهم جميعاً بمجدارته وكفايته لتقلد هذا المنصب والاضطلاع بالحكم ، ولكنهم لم يكادوا يعرضون عليه قرارهم حتى رفض - بادئ ذي بدء - ذلك المركز السامي ، ثم قبله بعد أن ألح عليه في ذلك جمهرة من متخبيه ، ولكنه اشترط عليهم أن يكون إلى جانبه في الحكم زميلان له في مجلس الشورى ، هما « محمود بن عباس » و « عبد العزيز بن حسن » وكانا من أعضاء أمرته .

فأجابه أصحابه إلى ما طلب ، ولكن على شرط ألا يكون لهما زميلين إلا صوت استشاري فقط .

وقد حكم السفير الأول « ابن جهور » تلك الحكومة الشورية الجديدة متوخياً في أحكامه العدل والساد ، وكان مخلصاً رشيداً ، وإليه

---

(١) استولى « أبو الحرم جهور بن محمد بن جهور » على مقاليد الحكم ، وكان رئيس الجماعة أيام فتنة بني أمية .

قالوا : ولما خلع الجند آخر خلفاء بني أمية بالأندلس استبد جهور بالأمر واستولى على المملكة بقرطبة سنة ٢٢٢ هـ . وكان على سنن أهل الفضل ، فأسندوا اليه أمرهم إلى أن يوجد خليفة ، ثم اقتصرُوا عليه ، فدير أمرهم إلى أن هلك سنة ٢٣٥ هـ .

وخلفه ابنه « أبو الوليد محمد بن جهور » وما زال على قرطبة ، حتى خلعهُ أهلها سنة ٤٦١ هـ . فأعقبه ابنه « عبد الملك ابن الوليد » فأساء السيرة ، فأخرجوه عنها ، وزحف « المعتمد بن عباد » على قرطبة فلحقها سنة ٢٨٤ هـ . «



يرجع الفضل في استتباب الأمن ورفع المظالم ، فلم يكذب يتولى الحكم حتي أمن أهل « قرطبة » وأصبحوا لا يشكون شيئاً من الإعنات والمظالم التي كانت تترى عليهم من قساة البربر الجائرين .

وكان أول ما عني به أن صرفهم عن الخدمة واحتفظ بيدي « يقرن » وحدهم لأنه رأى أن من المستحيل عليه أن يعتمد على سواهم لما عرفه من ولائهم وطاعتهم له .

وقد استبدل بالآخرين الذين سرحهم من البربر حرساً وطنياً ، وكان يظهر بمظهر من يريد استقرار نظام الحكم الجمهوري ، فإذا طلب إليه تنفيذ أمر بعينه قل لهم :

« ليس من شأني أن أقرر أمراً هو من اختصاص مجلس الشورى ، وما أنا إلا منفذ لأمره وقراراته . »

وكان كلما وردت عليه قصة أو كتاب رسميّ موجه إلى شخصه أبي أن يتسلمه ، وأمر بتوجيهه إلى مستشاريه .

ولم يكن ليصدر قراراً قبل عرضه على مجلس الشورى . أضف الى هذا أنه لم يكن يتظاهر البتة بمظهر الحاكم ، فظل باقياً في مسكنه المتواضع الذي اعتاد سكناه دائماً ، وآثر الإقامة فيه على أن ينتقل إلى

## قصر الخلافة (١).

(١) قال صاحب كتاب المعجب :

« ولما انقطعت دعوة بني أمية بالأندلس ، ولم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة ، ولا من تليق به الرئاسة ، استولى على تدبير ملك « قرطبة » جهور بن محمد بن جهور ، ويكنى : أبا الحزم ، وهو قديم الرئاسة شريف البيت ، كان آباؤه وزراء الدولة الحكيمة والعامة ، وهو موصوف بالدهاء ، وبعد الفور ، وحصافة العقل ، وحسن التدبير ، ولم يدخل — من دهائه — في الفتى الكائنة قبل ذلك ، وكان يتصاون عنها ، ويظهر الزاهة والتهدين والعفاف . فلما خلا له الجو وصفر الفناء . وأقفر التنادى من الرؤساء ، وأمكنته الفرصة وتب عليها فتولى أمرها ، واضطلع بحمايتها . ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً جرياً على ما قدمنا من إظهار سنن العفاف بل دبرها تديراً لم يسبق إليه ، وذلك أنه جعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن ينجى من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك ورتب البوابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحول عن داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم . وصير أهل الأسواق جنداً له ، وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم حصاة عليهم يأخذون ربحها ورؤوس الأموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في كل وقت كيف حفظهم لها . وفرق السلاح عليهم ، وأمرهم بتفرقته في الدكاكين والبواب حتى إذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من يده أو دكانه . وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ، ويعود المرضي جرياً على ضربة الصالحين . وهو مع ذلك يدير الأمور تدبير الملوك المتغلبين ، وكان آمناً وادعاً وقرطبة في أيامه حراماً بأمن فيه كل خائف . واستمر أمره على ذلك إلى أن مات في غرة صفر سنة ٢٣٥ هـ فكانت مدة تديره منذ استولى إلى أن مات — أربع عشرة سنة وأشهرًا ، ثمولى ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه « أبو الوليد محمد بن جهور » ، فخرى في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير محل بسوء من ذلك إلا أن مات « أبو الوليد » المذكور في سابع شوال من سنة ٢٣٤ هـ فغاب عايبها — بعد

وكانت العقيدة في نزاهته ثابتة قوية لا تحوم حولها الشكوك والريب وقد رفض - مع هذا - أن يكون بيت المال في داره وتحت إمرته ، فعهد بحراسته إلى أكبر الناس مقاماً وأكثرهم احتراماً في المدينة .

أمور جرت — الأمير الملقب بالأمون ابن ذى النون صاحب طابطة فديرها مدة يسيرة إلى أن مات ، وخاف فيها بعده من البربر رجلا يعرف بابن عكاشه أظن اسمه موسى ، فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن عباد على ما يأتى بيانه ان شاء الله تعالى . فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها داراً للملك وبعد غلبة المعتد عليها صارت تبعاً لأشبيلية .  
وجاء في كتاب الصلاة لابن يسكوال ما يأتى :

«جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله بن محمد بن الفهر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبيدة رئيس قرطبة . يكنى : أبا الحزم .  
روى عن أبي بكر عباس بن الهذاني ، وأبي محمد الأصيلي ، والقاضي أبي عبد الله ابن مفرج ، وأبي القاسم خلف بن القاسم ، وأبي يحيى زكريا بن الأشج وغيرهم ،  
وسمع منهم وأخذ العلم عنهم . وقد أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عتاب الفقيه ،  
فقال : حدثنا عنه من الشيوخ الأكابر — وهو يعني أبا الحزم هذا — ثم صار تديبر أهل قرطبة إلى أبي الحزم هذا فألفها بالرياسة فيها ، إلى أن توفي يوم الخميس لسبع بقين من المحرم من سنة ٤٣٥ هـ ودفن بداره ، وصلى عليه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور . تولى الأمر من بعده . وكانت سنة يوم وفاته إحدى وسبعين سنة . وكان مولده أول المحرم سنة ٣٦٤ .  
قالوا :

«أما قرطبة فاستولى عليها «أبو الحسن جهور بن محمد بن جهور» وكان من وزراء الدولة العمارية ، موصوفاً بالدهاء والعقل ، ولم يدخل في شيء من الفتن قبل هذا بل كانت يتصاون عنها ، فلما خلا الجو وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى وقام بصحتها ، ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً بل رتبها وديرها تديراً لم يسبق إليه ، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن يحيى من يستحقه وترتب البوابين والحشم على أبواب

وكان - على حبه المال - يؤثر المصلحة العامة التي قضت عليه  
ألا يرتكب عملاً غير شريف . والحق أن « ابن جهور » كان مقتصداً  
بل حريصاً حرصاً يكاد يصل به إلى درجة البخل ، فقد أثرى حتى

---

قصور الامارة ولم يتحول عن داره اليها ، ودعا ما يتحصل من الأموال السلطانية  
بأيدي رجال رتبهم له .

وكان « جهور » يشهد الجنازة ، ويعود المرضى ، ويحضر الأفراح على طريق  
الصالحين ، وهو مع ذلك يدير الأمور تدير الملوك وكان مأمون الجانب . فأمن  
الناس في أيامه ، وبقي كذلك إلى أن مات سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، وقد  
بالأمر بعده أبو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات .

وجاء في المطمح :

الوزير الأجل « أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور » وبنو جهور أهل بيت  
وزارة اشتهروا كاستثمار « ابن هبيرة » في « فزاره » وأبو الحزم هذا أجددهم في  
المكرمات ، وأنجدهم في الملهمات - ركب متون الفنون فراضها ، ووقع في بحور  
الحسن وهو فاضها ، منبسط غير منكش ، لاطأش اللسان ولا رعش ، وقد كان وزر في  
الدولة العامرية فصرفت بجماله ، واعترفت باستقلاله . فلما انقرضت وعاقبت الفتنة  
واعترضت ، تحيز من التدبير مدتها ، وخلق لأخلافه تدبير الرياسة وشدها ، وجعل  
يقبل مع أولئك الوزراء ويدبر ، غير مظهر للانفراد ، ولا متصرف في ميدان ذلك  
الطراد ، إلى أن بلغت الفتنة مداها ، وسوغت ماشاءت رداها ، وذهب من كان  
يمجد في الرياسة ويحب ويسعى في الفتنة ، ولما ارتفع الوبال ، وأدبر ذلك الاقبال  
راسل مستمداً بهم ومعتمداً على بعضهم تخيلاً منه وتمويها وتداهايا على أهل الخلافة  
وذوياً ، وعرض عليهم تقديم المعتد هشام ، وأومض منه لأهل قرطبة برق خبيه  
يشام ، ثقة بسرعة التياها ، وتعجل انتكاشها ، وأنابوا إلى دعائه ، وأجابوا إلى  
استدعائه ، وتوجهوا مع ذلك الإمام ، وألوا بقرطبة أحسن إلام ، فدخلوها بعد فتن  
كثيرة ، واضطرابات مستتيرة ، والبلد مقفر ، والجبل مسفر ، فلم يبق غير يسير .

أصبح أغنى رجل في « قرطبة » ولكنه مع ذلك لم يألُ جهداً  
جهوده المحمودة في توفير اليسر والرخاء على الناس كافة .

وكان يبذل كل ما في وسعه في تحسين العلاقات الودية وتوثيقها  
بينه وبين الممالك المجاورة ، وقد كتب له النجاح في ذلك وحالفه التوفيق  
فلم يمض وقت طويل حتي استتبَّ الأمن وانتشرت التجارة والصناعة  
وهبطت أسعار المواد الغذائية ، وأمنت السبل ، فأُم « قرطبة » طوائف  
كثيرة من السكان أعادوا بناء الأحياء التي دمر البربر أو أحرقوها  
حينما أوقعوا النهب والسلب في المدينة .

---

حتى نبذ واضطرب أمره فخلع ، واختطف من الملك وافتزع ، وانقضت الدولة  
الأموية ، وارتفعت الدولة العلوية ، واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم ،  
ودبرها بالجد والعزم ، وضبطها ضبطاً آمناً خائفاً ، ورفع طاروق تلك الفتنة وطائفتها ،  
وخلاله الجو فطار ، واقتضى اللبانات والأوطار ، فعادت له « قرطبة » على أكمل  
حالتها ، وانجلي به نور جلالها ، ولم تزل به مشرقة ، وغصون الأمال فيها مورقة .  
إلى أن توفي سنة ٤٣٥ هـ فانتقل الأمر إلى ابنه أبي الوليد ، واشتمل منه على طارف  
وتليد ، وكان لأبي الحزم أدب ووفار وحلم سارت بها الأمثال وعلم نادر المنال .  
وقد أثبت من شعره ما هو لائق . وذلك قوله في تفضيل الورد :

« الورد أحسن ما رأيت عيني ، وأذكي ماسقي ماء السحاب الجائد  
خضعت نواوير الرياض لحسنه فتذلت تنقاد وهي شواهد  
وإذا تبدى الورد في أغصانه يزهو ، فذا ميت وهذا حاسد  
وإذا آتى وقع الربيع مبشراً لطلوع صفحته فنعم الوافد  
ليس المبشر كالمبشر باسمه خبر عليه من النبوة شاهد  
وإذا تعرى الورد من أوراقه بقيت عوارفه فهن خوالد . »

على أنه مع تلك الأعمال التي قام بها ، فإن « قرطبة » عاصمة الخلافة القديمة لم تسترد مكانتها السياسية ، ومنذ ذلك الحين أخذت « أشبيلية » — التي سنعنى بتاريخها عناية خاصة — تبرز الشأن الأول في المركز السياسي .

كانت « أشبيلية » — منذ أمد بعيد لا تزال — مرتبطة الحظ بقرطبة ، متأثرة بما يجري من الحوادث فيها ، متأثرة بالعاصمة ، خاضعة للملك الدولة الأموية — على التعاقب — ثم لدولة « بني حمود » ، ومن جراء ذلك كان للثورة التي وقعت في « قرطبة » أثرها السيئ في « أشبيلية » فقد ثار القرطبيون على « قاسم بن حمود » وطردوه ، فعزل هذا الأمير على الالتجاء إلى « أشبيلية » حيث يقيم بها ولداه ، ومعهما حامية من البربر تحت قيادة « محمد بن زيري » من قبيلة « بني ليفورين » .

وأرسل إلى الأشبيليين يأمرهم بإخلاء مائة مسكن لجنوده القادمين معه وقد ترك هذا الأمر أثراً سيئاً في نفوس أهل « أشبيلية » . هذا إلى ما عرف عن جنود « قاسم » الذين هم أفقر أبناء جندهم من أنهم من شرار اللصوص .

وقد أظهرت « قرطبة » للأشبيليين أنه من الممكن أن يتحرروا من

هذا النير الذى يضجون بالشكوى منه . فعولوا على أن يخذوا حذو « قرطبة » ، إلا أن خوفهم من حامية البربر المقيمة بين ظهرائهم حال بينهم وبين تحقيق أمانهم . وبعد جهد نجح قاضى المدينة « أبو القاسم ابن عباد<sup>(١)</sup> » فى استمالة قائد الحامية وضمه إلى جانبه بعد أن صرح له بأنه من الهين السهل أن يصبح ملكا على « أشبيلية » ، فأعلن حينئذ « مناد ابن زبرى » استعدادة لمساعدته ، وسارع القاضى فعقد بينه وبين قائد بربر « قرمونة » محالفة تقلدوا السلاح — على أثرها — ضد ولدي « قاسم » وحاصروا قصره .

ووصل « قاسم<sup>(٢)</sup> » إلى « أشبيلية » التى كانت مغلقة ، وحاول أن

---

(١) استبد « القاضى أبو القاسم اسماعيل » بإشبيلية بعد فرار « القاسم ابن حمود » عن قرطبة وقد استطاع القاضى أن ينتزع قرطبة من « ابن زبرى » الذى ولاء عليها « القاسم بن حمود » ومازال يعظم شأن القاضى حتى مات سنة ٢٣٣ هـ فخلفه عليها ابنه « عباد » ولقب نفسه « بالمعتضد » وطأت أيامه وعظم شأنه حتى تغلب على أكبر الممالك بغرب الأندلس ، ومات سنة ٢٦١ هـ .  
فخلفه ابنه المعتد ، وما زال يعظم شأنه حتى استولى على دار الخلافة بقرطبة من يد « ابن جهور » وعظم أمر المسمدين ملوك الطوائف حتى غلبه « يوسف بن تاشفين » على الأندلس سنة ٥٨٤ هـ .

(٢) القاسم بن حمود وعلي بن حمود كانا فى جملة جماعة المسعين الأمازيغى سايان بن الحكم ، وبعد أن انقضت دولة بى حمود من « فس » عقد المسعين للقاسم بن حمود على الجزيرة الخضراء من الأندلس وعقد لعلى ابن حمود على

يجتذب سكان المدينة إليه بلوعود الخلافة ، ولكنه أخفق في هذه المحاولة ، ولما أوجس في نفسه خيفة على ولديه اللذين كانا معرضين للهلاك داخل المدينة ، قطع على نفسه عهداً أن يحلّ — هو ومن معه من الجند — عن أراضى « أشتيلية » إذا ما أسلموا إليه ولديه وأوالهما وممتلكاتهما ، فضمن له الأشتيليون تنفيذ هذا الشرط ، وعلى أثر ذلك انسحب « قاسم » وعاد أدراجه ، وتم سنحت للقاضى أول فرصة ليرضى حامية البربر .

ولما حصلت المدينة على حريتها اجتمع كبارها ليختاروا حاكماً يولونه عليهم ، إلا أن الخواطر حينئذ لم تكن هادئة ، والنفوس لم تكن مطمئنة ، خشية أن تتمخض الحوادث عن ثورة ، أو أن يعيد « بنو حود » الكرة عليهم ، وحينئذ لا يتوانون لحظة في معاقبة المجرمين الثائرين ، وهذا لم تبد من أحد منهم أية رغبة في أن يأخذ على عاتقه عبء المسؤولية عما وقع .

« ضنجة » . وبعد قليل سمت نفس « على » هذا إلى الخلافة وزعم أن هشاماً الأموى قد كتب له بهد ، فبايعه ناس . وأجاز إلى « مائقة » فلما دخل « قرطبة » سنة ٤٠٧ هـ ومب نفسه « بالناصر لدين الله » وثق كذلك حتى قتله صفائنه سنة ٤٠٨ هـ في حمام .

فوق مكانه أخوه « قاسم بن حود » وكان حينئذ في « طجة » — ولقب نفسه بالمأمون . ثم غلبه يحيى — ابن أخيه علي — وزحف إلى قرطبة فلما سنة ٤١٢ هـ واتمب نفسه بالعتلى ، وما زال يعظم شأنه حتى حصر « ابن عباد » بأشتيلية وكبأ به فرسه فقتل . وانتهت بقتله دولة بنى حود قرطبة .



واتفق عامتهم على أن يلقوا عبء المسؤولية على عاتق القاضى وحده الذى حسدوا ثروته واستشعروا سروراً خفياً فى أعماق نفوسهم بدنو . الساعة التى تصدر فيها هذه الثروة الطائلة .

فعرضوا على القاضى أن يتولى حكم المملكة ، وكان - مع ما يحيش بصدره من مطامع وآمال - حكيماً حازماً ، فرفض فى إباء أن يتولى الحكم فى وقت غير مناسب . ولم يكن القاضى متصل النسب بالسلالات العريقة ، إلا أنه امتاز بحيازنه أكبر ثروة ، فقد كان يملك ثلث أرض « أشيلية » وكانت له فوق ذلك منزلة سامية من الاعتبار نظراً لمواهبه العلمية ، وكان يعوزه أن يضمن إلى هذه المؤهلات أن تدمج أسرته ضمن السلالات العريقة القديمة .

وقد تم له ذلك - فيما بعد - تدريجاً ، وكان يدرك أنه فى حاجة ماسة إلى وجود عدد من الجنود تحت إمرته ، وليس لهذا العدد وجود ، ولم يشك فى أن الأرسطةراطية العظيمة المجيدة فى « أشيلية » لا بد أن تثور على صعلوك مثله غير معروف النسب ، يسوء إلى تسوء ذروة الخلافة ، ولم يكن ثمة شئ غير هذا فى الواقع ، وقد وقع هذا حقيقة عندما أوشك بنو عباد أن يؤسسوا الخلافة لأنفسهم .

وثمة زعم آل عباد أنهم من سلالة ملوك « نلم » الذين كانوا يحكمون  
الحيرة قديماً قبل ظهور محمد (ص) وكان الشعراء الذين يريدون إشباع  
بطونهم يتحيتون الفرص للإشادة بهذا النسب العريق المزعوم ، على أنه  
لم يوجد ما يبرر هذا الزعم ، لأن بنى عباد والمتزلفين إليهم ومن  
يشملقونهم لم يستطيعوا أن يقيموا الدلائل على ذلك ، وكل ما يربط هذه  
الأسرة بملوك الحيرة أنها تنسب إلى قبيلة « نلم » اليمانية التي ينتسب  
إليها ملوك الحيرة . ولكن فرع أسرة آل عباد الذي تسلسل منه آباؤهم  
لم يقطن - على ما يظهر - الحيرة بتاتاً ، بل كانوا يقيمون أخيراً  
قرب العريش الواقعة على حدود مصر وسوريا في ناحية حص .

وعلى الرغم من أن آل عباد بذلوا ما في استطاعتهم كي يصلوا نسبهم  
بملوك الحيرة فإنهم لم يستطيعوا أن يصعدوا به إلى أبعد من نعيم والد  
عطاف ، وكان عطاف هذا على رأس كتيبة من جنود حص ، وقد رحل  
إلى أسبانيا مع « بلج » حيث أعطيت لجنود حص أراض على مقربة من  
أشبيلية ، وأقام على ضفاف الوادي الكبير ، وقد انحدر عن أصل هذه  
الأسرة فروع فيما يقرب من سبعة أجيال أخرجت ببطء من ظلمة الماضي  
أناساً صالحين عاملين مقتصدين ، وإسماعيل والد القاضي هو عنوان

مجدها، وهو الذى خط يمينه - في الصحيفة الذهبية لنبلأء أشبيلية - اسم عباد (١).

ولا غرو فقد كان «إسماعيل» من جملة الأقلام والسيوف ، وكان رجل فقه ودين كما كان رجل حرب وطعان ، فقد تولى قيادة فرقة في حرس « هشام الثانى » ، ثم صار - فيما بعد - إماماً لمجلس قرطبة الكبير ، ثم قاضياً لأشبيلية ، واشتهر بالفقه والذكاء والورع وإرشاد العامة ، وإسداء النصيح للذكفة ، وكانت شهرته فى النزاهة تربو على شهرته فى غير ذلك من الأمور ، فهو - على الرغم من انتشار الفساد والرشوة - كان يتورع عن أن يقبل هبة من سلطان أو وزير ، وكان كريماً إلى أبعد غايات الكرم ، وقد لقى القرطبيون منه كرم الضيافة ، وحسن العشرة ، فجعلته كل هذه المزايا والصفات جديراً أن يحرز أكبر ألقاب النبل والسؤدد فى الغرب . وقبيل العهد الذى نحن بصددده توفى إلى رحمة الله فى غضون سنة

١٠١٩ م .

وربما كان ابنه « أبو القاسم محمد » يماثله علماً وأدباً ، وإن كان لا يذانيه خلقاً وفضلاً ، فقد كان أنانياً ذا أثره وطمع و صلف وتكبر وإنكار للجميل ، وقد حدث على أثر وفاة أبيه أن طمع فى أن يخلفه فى

---

(١) وكان عباد جده ناث لإسماعيل .

منصب القضاء ، ولكن القوم آثروا عليه غيره ، فتقدم بالرجاء إلى « قاسم بن جود » فقال - بفضل قاسم - منصب القضاء الذي كان يؤمله .

وقد برى المتتبع للحوادث فيما بعد كيف كان نكرانه لهذا الجليل .

### ٥ — قاضى أشبيلية

وفى مفتاح هذا العهد الذى نحن بصددده - أشار نبله « أشبيلية » وأصحاب الرأى فيها على أبى القاسم قاضى « أشبيلية » أن يتبوأ عرش المملكة<sup>(١)</sup> ، ولما أدرك الغاية التى يرمون إليها أظهر لهم أنه لا يستطيع أن

(١) جاء فى كتاب المعجب مابلى :

أما أحوال أشبيلية فإنها كانت فى طاعة الفاطميين أعنى « على بن حمود » والقاسم بن حمود ، ويعيى بن على بن حمود ، أيام كان الأمر دائرا بينهم على ما تقدم ذكره .

فلما زحف يعيى بن على بالبربر إلى قرطبة ، وهرب القاسم بن حمود منها ، وفسد أشبيلية ، وقد كان ابنه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر أهل أشبيلية ، واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أييهما فأخرجوها ، وجاء القاسم فنعوه دخول البلد أيضا ، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم ، وتجتمع به كلمتهم فتوارد اختيارهم بعد محض الرأى وتقيق النديير على القاضى أبى القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمي لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله ، وسعة صدره ، وعلو همنه ، وحسن تدبيره ، فعرضوا عليه مارأوه من ذلك ، فنهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الافراد أولا ، وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجلا سماهم لهم يكونون له أعوانا ووزراء ونركاء

يقبل هذا الشرف الذي يولونه إياه إلا بشرط أن يشرك معه في الحكم

لاقطع أمرا دونهم ، ولا يحدث حدثا إلا بمشورتهم ، وهؤلاء المسنون هم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، ومحمد بن يريم الالهاني ، وأبو الأصبع عيسى الهوزني ، ورجال آخرون ذهب عني أسماؤهم ولا أعرف قبائهم وبيوتهم ، ففعلوا ذلك وأجابوه الى ما أراد ، ولم يزل يدبر أمر أشبيلية ، وهؤلاء المذكورون من وزرائه ، وكان له من الولد اسماعيل وهو الأكبر يكنى أبا الوليد ، وعباد يكنى أبا عمرو ، فأما اسماعيل فخرج إلى لقاء البربر ، بعد أن حدث لأبيه أمل في التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من أشبيلية بعسكر من جند أشبيلية ، فالتقى هو وصاحب « صنهاجة » فأسلمت اسماعيل عساكره . وكان أول قتيل ، وقطع رأسه وسير به إلى مالقة إلى ادريس ابن علي الفاطمي كما تقدم ، وبقي الأمر كذلك ، والقاضي أبو القاسم بدبر الأمور أحسن تدبير ، وكان مصلحا صالحا إلى أن مات في شهر سنة ٤٣٩ هـ .

وفي كتاب عقد الجمان للعيني ( القسم الرابع ) ما يأتي :

وأما « أشبيلية » فاستولى عليها فاضيلها « محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمي » ، وهو من ولد « النعمان بن المنذر » ، وفي هذا الوقت ظهر أمر المؤيد هشام بن الحكم ، وكان قد اختفى وانقطع خبره ، وكان ظهوره بمثابة ثم سار منها إلى « المري » ، فخافه صاحبها « زهير العامري » وأخرجه منها ، وقصد قلعة رباح فأطاعه أهلها ، فسار إليهم صاحبها اسماعيل بن ذي النون ، فخاربهم وضعفوا عن مقاومته فأخرجوه ، فاستدعاه القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد إليه باستبيلية ، وأذاع أمره وقام بنصره ، فسار إليه وقام بواجبه ، وكتب بظهوره إلى ملوك الأندلس ، فأجاب أكثرهم وخطبوا له ، وجرى بيعته في المحرم سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، ثم إن عبادا سار جيشا إلى زهير العامري بأن يخطب للمؤيد ، فاستنجد زهير حيوس الصنهاجي صاحب غرناطة ، فسار إليه بجيشه فعادت عساكر ابن عباد ، ولم يكن بين العسكرين قتال ، وأقام زهير ببابه ، وجاء حيوس إلى مالقة فأتى ، وولى بعده ابنه « باديس » ، واجتمع هو وزهير ليتفقا كما كان زهير وحيوس ، فلم تستقر بينهما

أفراداً يعينهم هو بنفسه على أن يكونوا وزراء وأعوانه في الاضطلاع بأعباء الحكم، بحجة أن هؤلاء الأشخاص الذين يشركهم معه في الرأي

قاعدة، واقتلا قتل زهير، وجمع كثير من أصحابه، والتقى عسكر ابن عباد وابنه اسماعيل مع باديس بن حيوس، وعسكر ادريس القلوى صاحب «سبته» بطنجة واقتلوا قتلاً شديداً. فقتل سماعيل، ثم مات بعده العاضى أبو القاسم بن عباد وولى بعده ابنه أبو عمرو. وثقب المعتمد بالله، فضبط مولى وأظهر وفاة المؤيد، واشتغل بأمر «أشبية» وبقى كذلك إلى أن مات وولى بعده ابنه «أبو القاسم محمد» ولقب بالمعتمد على الله، فانتسب في ملكه، وشمخ سلطانه، وملك كثيراً من الأندلس، وملك قرطبة أيضاً. وولى عايبها ابنه الظافر بالله، فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذى النون صاحب طابطة، فحسده عليهما فضمن له جرير بن عكاسة. وسار إلى قرطبة فأقام يسعى في ذلك وهو ينتظر الفرصة، فاتفق أن في بعض الليالي جاء مضر عظيم ومعه ربح شديد ورعد وبرق فنار جرير فخرج الظافر فيمن معه من نعب وحرس. وكان صثير السن، فحمل عليهم ودفعهم عن الباب. ثم عثر في بعض كرمه مستقط، فوسب عليه شخص فقتله ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد وأهل البلد إلا وانقصر فدهلك وبلاحق بحرير أصحابه وأشياعه، وترك الظافر متى على أرض، فرعبه بعض أهل قرطبة، فأبصره على تلك الحالة، فنزع رداءه وألقاه عليه. وكان أبوه إذا ذكر يمل بهذا البيت :

« ولم أدر من آوى عليه رداءه سوى أنه قد سل عن ماجد محض »  
و لم يكن المعتمد يسعى في أخذها حتى عاد ملكها إليه وترك ولده المأمون فيها .  
فقام بها حتى أخذها يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد حروب كثيرة يأتي ذكرها  
في شاء الله تعالى .

وأخذت أشبية من أبيه المعتمد، وبقى مسجوناً في أعماق إلى أن مات بها وكان هذا وأولاده جميعهم — «نرستيد»، و «المأمون»، و «الراضى»، و «المعتمد»، وأبوه وجد علماء شعراء

ستتألف منهم هيئة شورية تقوم على تدبير المملكة بحيث لا يصدر إلا عن رأيهم ، ولا يتخذ أى قرار بدون مشاورتهم ، فقبل الأشيقيون ما شرطه القاضي من أن يكون حكمه على قواعد الشورى ، فلا يحكم بفرد ، وطلبوا اليه إنفاذ ما اعتزمه من تعيين أولئك الزملاء والأعوان ، فعين بعض كرام الأسر العريقة مثل « ابن حجاج » وآخرين كانت تسمو إليهم الأنظار وترمقهم العيون من نصرائه الذين أنجبهم العصر ، وأطاعهم كواكب في سماء مصر ، كأبي بكر الزبيدي العالم النحوى الشهير مؤدب هشام الثانى ، وبعد أن تم له ما أراد من ذلك انصرف همه إلى تكوين جيش للمملكة ، ورفع أعطيات وأرزاق الجند ، فانضوى تحت لوائه كثير من العرب والبربر ، ثم اشترى عدداً كبيراً من الممالك ودرهم على القتال ، وجردهم حملة على الشمال ، وهى فى الكثير الغالب كانت موجهة إلى أمراء آخرين ، وقد حاصر قصرين فى شمال « فيزى » أنشأ متقابلين على صخور يفصلهما سور ، وأطلق عليهما اسم الأخوين وهما معروفان الآن باسمهما العربى وهوا اسم « الأخوين » وقد حرقه القوم فهو يقولون « الأخوين » وكان يقطنهما أسبانيون مسيحيون كان أسلافهم قد عقدوا معاهدة مع « موسى بن نصير » ، والظاهر أن هذين القصرين لم يكونا فى العصر الذى نتحدث عنه فى حيازة ملك

« ليون » ولا في حيازة أمير مسلم ، ولذلك استولى القاضى عليهما وأرغم الذين كانوا يدافعون عنهما — وهم زهاء ثلاثمائة فارس — على الانضواء تحت لوائه ، وبذلك زادت نواة جيشه فبلغت خمسمائة فارس ، وثمة اجتمع لديه من الجند مايكفي للإغارة على الممالك المتاخمة له ، إلا أن حالته هذه لم تكن لتمكّنه من صد هجمات قوية ضد « أشبيلية » . وهذا ماوقع له سنة ١٠٢٧ ، ففي هذه السنة جاء الخليفة الحمودى « يحيى بن علي » وأمير بربر قرمونة « محمد بن عبد الله » وحاصرا أشبيلية ، ولما كان في منتهى الضعف بحيث لا يستطيع المقاومة طويلا أخذ الأشبيليون يفاوضون « يحيى » واعلنوا أنهم مستعدون للاعتراف بسيادته عليهم ، على شرط ألا يدخل البربر مدينتهم ، فقبل « يحيى » هذا الشرط ولكنه شرط عليهم — ضمانا لوفائهم وإخلاصهم — أن يرسل بعض أعيان ونبلاء « أشبيلية » أولادهم ليكونوا عنده رهائن يضمن بها ولاء الأشبيليين ، فلم يستطع أحد منهم أن يقدم ابنه خشية من البربر الذين يقضون على حياته لأقل شبهة ، والقاضى وحده هو الذى لم يتردد في إجابة الطلب إذ أرسل إلى يحيى بن محمد عباد. وكان اخليفة يعلمه ما للقاضى من الجاه والنفوذ فاكتمى بقبول ابنه رهينة لديه ، وبفضل هذا العمل المجيد الدال على الإخلاص للبلاد ازدادت مكانة القاضى عند الأشبيليين



عامة، وأصبح — منذ ذلك الحين — لا يخشى شيئاً لآمن جانب الشعب ، ولا من جانب الخليفة الذى اعترف بسيادته شكلاً، وخيل إليه أن الفرصة السانحة قد أمكنته من الانفراد بالحكم .

ولما كان قد أبعد من مجلس الحكم مثل « ابن حجاج » وغيره ، ولم يبق معه سوى زميلين رأى أن يصرفهما عن خدمته ونفى « زبىدى » وعين رجلاً من خواص « أشبيلية » اسمه « حبيب » رئيساً للوزارة ، ولم يكن « حبيب » هذا من رجال المبادئ إلا أنه كان مع هذا ذكياً مخلصاً بكل معانى كلمة الاخلاص لمولاه ، منصرفاً إلى مصلحته .

وعلى أثر ذلك أراد القاضى أن يزيد في رقعة المملكة بالاستيلاء على « باجة » ، وقد حلت أخيراً بهذه المدينة المصائب فى غضون القرن التاسع عشر من جراء الحرب التى نشبت بين العرب والختانيين . إذ نهبت وخرّب البربر جزءاً منها ، وعاثوا فيها سلباً ، وأحرقوا ماصادفوه فى طريقهم ، وكان فى نية القاضى أن يعيد تشييد ماخرب منها ، ولكن لما اتصل بعبده الله بن الأفطس أمير « بطليوس » عزم القاضى ، جرد جيوشه تحت إمرة ابنه محمد « الذى خلفه فيما بعد باسم المظفر » وتم استيلاء هذه الجيوش على « باجة » فى الوقت الذى جاء فيه « اسماعيل ابن القاضى » بجيش أشبيلية ، وجيش حليف أبيه أمير قرمونة ، فبدأ

حصارها في الحال وأمر فرسانه بالسلب والنهب في القرى الواقعة بين « ايفرن » والبحر وعلى الرغم من المدد الذي جاء به « ابن طيفور » فإن « محمدا » كان سيء الحظ كثيراً إذ بعد أن فقد نخبة فرسانه المحاربين وقع أسيراً بين يدي أعدائه وأرسل إلى « قرمونة » .

زادت هذه الانتصارات في حماسة القاضي وحليفه الامير ، فلم يكتبها باللاغارة على « بطليوس » وحدها بل أغارا على قرطبة أيضاً فاضطرت حكومتها أن تستخدم للدفع كثيراً من بربر ولاية « سيدونا » وبعد فترة من الزمن أبرم القاضي وحليفه صلحا أو سمه — إن شئت — هدنة مع « بنى الأفطس » وحينئذ أطلق « محمد » من الأسر برضى القاضي في (مارس ١٠٣٠) ولما أباعه أمير « قرمونة » نبأ إطلاق سراحه عرض عليه أن يعرج في طريقه على « أشبيلية » ويبلغ القاضي شكره ، ولكن محمداً لفرط اشمزازه من القاضي ، قال لأثير البربر : « إني أؤثر أن أضل سجينك على أن أقوم بما أشرت به على ، فإذا كنت مديناً نغيرك بطلاق سراحى ، وكان على أن أشكر قاضى أشبيلية وفقه هذا الحق ، فإني أفضل أن أبقى حيث أنا في سجنى » .

فاحترمه الأمير شعوره وأرسله إلى « بطليوس » مشيعا بما يليق برجل عظيم مثله من وجب الإجلال والتكريم .

وبعد بضع سنين أي في سنة ١٠٣٤ انتقم « عبد الله » بطريقة قد تعتبر غير شريفة، وثأر لنفسه من تلك الشدائد التي نالته ، وذلك بأن أباح للقاضي أن تمر بأرضه جنوده بقيادة ابنه « إسماعيل » وهي ذاهبة في طريقها للإغارة على مملكة « ليون » ولما كان « إسماعيل » وجنوده في مضيق لا يبعد كثيراً عن حدود « ليون » باغته جيش « بنى الافطس » فقتل من جنود أشبيلية عددا كبيرا ، وقتل فرسان ليون فلول الجيش عند لياذهم بالفرار ، وأفلت إسماعيل من هذه المذبحة ومعه نفر يسير من رجاله ، وفيما كان مولياً وجهه شطر مدينة « لشبونة » الواقعة على حدود مملكة أبيه - من الجهة الشمالية الغربية - تحمل هو ومن معه أشد آلام الحرمان من حاجات المعيشة الضرورية .

ومنذ هذه الآونة صار القاضي الخصم الألد لأمير « بطليوس » ، وليس لدينا معلومات تفصيلية عن المعارك التي دارت بعد ذلك بين أمير « بطليوس » وخصمه .

ومما لا ريب فيه أن هذه الحروب لم يكن لها نتائج ذات خطر عظيم لاسبانيا المسلمة ، ولم تترك فيها أثرا يضارع مآثره فيها حادث آخر سنتناوله فيما يلي .

قلنا إن القاضي اعترف بسيادة الخليفة الحمودى « يحيى بن على » ولكن هذا الاعتراف كان تعهدا غير مجد ، وقد بقي كذلك مدة

طويلة ، فقد قام القاضى بحكم أشبيلية بلا سلطان عليه ولا رقابة ، وكان يحى من الضعف بحيث لا يستطيع أن يلزمه بالمحافظة على حقوقه ، وقد تبدلت هذه الحال تدريجاً إذ وفق يحيى لأن يضم حوله جميع أمراء البربر تقريباً ، فأصبح الآن بحق زعيم عامة الحزب الإفريقى بعد أن كانت هذه الزعامة اسمية فيما مضى ، ولما كان معسكره العام فى « قرمونة » التى طرد منها « محمد بن عبد الله » أصبحت جيوشه تهدد قرطبة وأشبيلية فى آن واحد ، وقد أوحى هذا الخطر الخفيف المحدث إلى القاضى بفكرة وطنية لها خطرهما وقيمتهما لو لم يشبها المرص والطمع ولا نانية والجمشع .

فقد رأى من الضرورى أن يجتمع العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد حتى لا يغزو البلاد البربر الذين اتخذوا الأملاك التى سبق لهم غزوها . وهذه هي الوسيلة التى تجعل البلاد بمنجاة من التعرض لمثل ما حل بها من مصائب من قبل ، وكان القاضى يشعر من أعماق نفسه بهذه الضرورة ، فقويت عنده الرغبة فى أن يتألف حزب قوى كبير يندمج فيه جميع العناصر المعادية للحزب الإفريقى ، وهو فى الوقت ذاته يتمنى أن يكون رئيسه ، ولم تكن العقبات التى يجب عليه أن يذللها لنيل تلك العناية بخافية عليه .

فقد كن يدرك أن ملوك الصقالبة وأمراء العرب ، وشيوخ « قرطبة »

يجرحون في كرامتهم متى رأوه يحول أن يبسط سلطانه عليهم ، على أن شيئاً من ذلك لم يثبط همته ولم يجعل اليأس يتسرب إلى نفسه .  
على أن المصادفات ستخدمه ، فهو سيتمكن إلى حد ما أن يصل إلى الغاية التي يرمى إليها ، ويدرك المشروع الذي كان يعمل على تحقيقه .  
وسنرى - فيما بعد - على أي نحويتم له ذلك .

### ٦ - هشام الثاني

أسلفنا أن انخافة التعس « هشام الثاني » فر من القصر في عهد « ساجان الثاني » . وقلنا إن أكثر الظواهر تدلنا على أنه مات في آسيا مجحولا لا يعرفه أحد .

ومع هذا فقد بقي الشعب غير مصدق أنه مات لشدة تعلقه بالدولة الأموية التي درت عليه أخلاف الدسر والرخاء ، وكسته حل الشرف والنجد ، وكان عامة أفراد الشعب يتلقون الاإشاعات التي كانت ترد إليهم من الخارج منبهة ببقائه على قيد الحياة باهتمام وشغف ، وهناك أفراد كانوا يزعمون أنهم واقفون على تفاصيل حياته بآسيا ، وقد أشاع بعض أولئك الزاعمين أنه رحل أولا إلى مكة ومعه خريطة مملوءة بالنعوذ والنفاثس ، فسلبه الزنوج الذين كانوا يرافتمونه كل ماله ، وزعموا أنه استمر يومين لا يتذوق طعاماً ولا شراباً ، إلى أن رآه صانع فخار فرق له ورثى

لحاله ، فعرض عليه أن يعجن له الصلصال على أن يعطيه في اليوم درهما ورغيفاً ، فوجا صانع الفخار أن يعطيه الأجر سلفاً ، إذ قد مضى عليه يومان لم يذق فيهما طعاماً ، وبعد لأيى ما استطاع « هشام » - على عجزه عن العمل - أن يكسب قوت يومه .

إلا أنه أنف هذه الحال فهرب ، وسار مع قافلة ذاهبة إلى فلسطين ، ووصل إلى « بيت المقدس » وهو فى أشد حالات الإيلاق ، وإنه ليتنقل فى بعض طرق المدينة ، إذ وقف على دكان حصرى ، وأخذ ينظر إلى عمله بانتباه شديد ، فسأله الحصرى :

« هل تعرف هذه الصناعة ؟ »

فأجابه محزوناً :

« كلا ، وأنا آسف لأنه لا سبيل إلى أن أعيش وأكسب ما أسد به الرمق . »

فقال الحصرى :

« إذن فأبق معى لحاجتى إليك فى إحضار الخيزران ، ولك أجرك »

فقبل مسروراً ، وبقي عند الحصرى حتى حذق هذه الصناعة .

وما زال على هذه الحال بضع سنين ، وقد أذاعوا بعد ذلك أنه عاد إلى اسبانيا فى سنة ١٠٣٣ ، ونزل « مائة » ثم تحول عنها إلى « المري » فوصل إليها سنة ١٠٣٥ فضاطر الأمير « زهير » إلى إبعاده خارج حدود

مملكته ، فرحل إلى « قلعة رباح » حيث ألقى بها عصا التسيار .  
 هذه الرواية التي صادفت رواجاً وقبولاً من الشعب لا تستحق — على ما يظهر — أن تنال شيئاً من الثمة ، والذي وقع حقيقة هو أنه في العهد الذي كان فيه « يحيى » يهدد « أشبيلية » و « قرطبة » كان في « قلعة رباح » رجل حصري اسمه « خلف » يشبه الخليفة هشاماً الثاني تمام الشبه ، ولكن لم يبق دليل على أنه هو بمنه ، وقد تقى الأمويون شيعة هشام ومعهم « ابن حيان » و « ابن حزم » المؤرخان مادار حول هشام « المزعمون » ، 'نروايت والآراء' جيف وعدوه ضرباً من الحيلة السياسية والخداع والفتنة ، وإن كان من مصلحتهم أن يهدوا إلى مكان هشام إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

ولم يتردد « خلف » حين طرق سمعه كثيراً أنه شبيه هشام في أن يدعى أنه هو نفسه الخليفة هشام الثاني ، وقد جازت هذه الحيلة على أهالي « قلعة رباح » لأن « خاقا » لم يكن معروف النسب عندهم ، والأغرب من هذا أنهم دخلوا في طاعته ، وثاروا على أميرهم « اسماعيل بن دحمان » ذى النون أمير « طليطلة » ، فجاء هذا وحاصرهم ولم تطل مدة مقاومتهم ، وأخرج هشاماً المزعمون من المدينة فهدأ نأثر الأهالي ، وعادوا إلى السكنينة والخصوع .

## دهاء القاضى

ولم ينته دور «خلف» عند هذا الحد ، بل رجع עודا على بدء حين علم قاضى «أشبيلية» بخبره ، وعلم الفائدة التى يجنيها من وراء ذلك الرجل إذا هو أحضره إلى «أشبيلية» وكان الذى يهيمه إنما هو استغلال الموقف بقطع النظر عن شخصية الرجل ، كما كان يسره كثيراً أن يرتضى الناس أنه «هشام» ليستطيع أن يكون باسمه حزبا ضد البربر ، وبكون وهو رئيس الوزراء روح هذا الحزب وزعيمه . ولهذا بادر إلى دعوة الخليفة لمزعموه إلى «أشبيلية» ووعده بتعزيده إذا نجح في اثبات شخصيته ، ولما حضر الحصرى إلى «أشبيلية» قدمه القاضى إلى نساء هشام بالقصر ، فصرحن جميعهن تقريبا بأنه هو بعينه الخليفة السابق ، وعول القاضى على قرظن ، وبعث إلى تسيوخ أتبيلية وأمراء العرب والصقالبة يعلمهم بأن هشام «التانى» عنده . ويدعوهم إلى حل السلاح معه دفاعا عن حقوقه ، وممّ زرة لفضية الخلافة .

وقد كلل الله هذا المسعى بالنجاح ، واعترف بسيادة «هشام» «محمد بن عبد الله» أمير قرمونة المخلوع الذى لجأ إلى اشبيلية «وعبد العزيز» أمير «بلنسية» و«مجاهد» أمير «دانية» وأمير صرطوشة» .



وعنه عامة الشعب في قرطبة علما مقرونا بالسرور أنه لا يزال على قيد الحياة . الا أن كبيرهم « الحزم بن جمهور » كان أقلمهم تصديقا للخبر حرصا على الحكم ، فلم ينخدع ، ولم تجد هذه الحيلة الى نفسه مساغا ، ولكنه لم يجد سبيلا الى مقاومة ارادة الشعب ، ومخافة ميوله ، ورأى ضرورة اتحاد العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد ، لأنه كان يخشى في ذلك الحين أن يهاجم البربر قرطبة ، فلهذه الأسباب لم يناقض أغراض مواطنيه ، وسمحت نفسه بأن تتجدد البيعة لهشام الثاني من جديد .

وكان من نتيجة هذه الحوادث أنه بينما كان الحزب العربي الصقلبي يتسلح ضد يحيى ، كان هذا محاصرا أشبيلية ، مجدا في تخريب ما يتصل بها من العمران ، موطبا النفس على الانتقام الهائل من القاضى الخائن ، ولكن الملتفين حوله — من بربر « قرونة » الدين أكرههم على الانضواء تحت رايته — كان هوام مع هشام الثاني ، خليفهم السابق وكانت المحاربة بينهم وبينه سائرة .

وفي أكتوبر (سنة ١٠٣٥) ذهب فريق منهم خفية إلى أشبيلية ، ونبغوا القاضى ومحمد بن عبد الله ، أن من السهل مباغتة « يحيى » لأنه لا يكاد يفيق من السكر ، ولم يدع القاضى وحليفه هذه الفرصة تمر دون أن يستفبد منها ، وهنا وجه القاضى ابنه اسماعيل ومعه محمد بن عبد الله

على رأس الجيش الأشبيلي ، وعندما أُرْخِيَ الليل سدوله مكن « إسماعيل » مع أكثر الجند في كمين ، وأرسل كوكبة المناوشة « قرمونة » ليغري يحيى بالخروج إلى ظاهرها ، وقد نجح في خطته هذه ، إذ كان « يحيى » حين بانقه مجيء ابن عباد على رأس جيش — ثَمَلًا ، فنهض وكان متكئًا على سريره وصاح قائلاً :

« يالها من فرصة سعيدة ، هذا ابن عباد مقبلاً لزيارتى ، والآن أيها الجند ، خذوا أسلحتكم وامتلأوا جياشكم قبل ضياع الوقت » .  
وخرج في ثلاثة آلاف فارس ، وكان التنبيد قد لعب برأسه ، فلم يتمهل ريثما يعي جنده وينظم خطاه ، يضاف إلى ذلك أن ظلام الليل الخالك كان يحجب عنه كل شيء . وفوجيء الأشبيليون منه بهذا الهجوم المباغت ، فقابوه بمجمل وعنف ، وأخذوا يتقهقرون بنظام نحو المكان الذى كمن فيه « إسماعيل » .

ومن هذه اللحظة سعى « يحيى » إلى حثفه بنفسه ، فان إسماعيل انقض عليه بكل قوات الجند ، واضطره إلى التقهقر ، وقتل يحيى نفسه في المعركة ، وكاد يأتى القتل على أكثر رجاله لو لم يحل محمد بن عبد الله دون ذلك ، وقال له :

« إن أغاب هؤلاء المساكين من بربر « قرمونة » الذين أكرههم هذا الطاغية على الدخول في خدمته مع كراهتهم واحتقارهم إياه . »

فأبقى عليهم وأمر جنده بترك تعقبهم وخف محمد بن عبد الله إلى «قرمونة» على ظهر جواده ليسترد ملكه ، وأراد زئوج يحيى الذين استولوا على أبواب المدينة أن يحولوا بينه وبين الدخول لولا أن ساعده الأهالي على دخولها من ثغرة ، وسار إلى قصر الإمارة ، وسلم نساء الأمير يحيى إلى بنيته ، واستولى على ما في القصر من كنوز وقنايس في (نوفمبر سنة ١٠٣٥ هـ) .

وقد حدث نبأ وفاة يحيى سروراً عظيماً في أشبيلية وقرطبة ، وعندما وصل خبره في مسامع القاضي خر ساجداً شكراً لله ، وحذا حذوه جميع من كانوا حوله والآن أصبح القاضي لا يخشى شيئاً من جانب بني جود . وقد نودى بادريس - أحد أشقاء يحيى - خليفة في مالقة ، وقد كان يعوزه الوقت الكافي الذي يستطيع فيه أن يكسب بقوة نفوذه وما يقدمه من وعود ، قلوب زعماء البربر ، ليجعلهم في صفه ، ولهذا لم يعد في استطاعته أن يخضع الجزيرة بعد أن نادى الزئوج فيها بابن عمه «محمد» خليفة .

ولما رأى القاضي أن الظروف خدمته ، لم يأن يقيم هو وهشام الثاني - زعيم بقصر الخلافة في قرطبة ، إلا أن يقظة ابن جهور ، وتصميمه على عدم التخلي عن الحكم ، وقفا حجر عثرة في طريقه ، فقد نجح في إقناعهم - فربما أن الخليفة المزعوم لم يكن سوى رجل ماكر مخادع وأن

اسم هشام قد ألقى من الامامة ، وعرف أن القاضي عند مجيئه بهشام إلى قرطبة سيلقى أبوابها مغلقة في وجهه ، وثمة لا يستطيع التغلب على مدينة منيعة حصينة مثلها ، فيضطر أن يعود من حيث أتى .

وعول - في بداية الأمر - على أن تعسكر جيوشه عند الأمير الصقلي ، وهو الأمير الوحيد الذي أبى الاعتراف بهشام الثاني ، ذلك الأمير هو « زهير » أمير المرية ، ومنذ أراد الخليفة قاسم أن يهون على الأمير ، وأقطعه عدة أملاك ، بدأ زهير يناصر اخو ديين . ولما نودي بادر يس خليفة بادر بالاعتراف به .

ولما صار الآن مهدداً من القاضي عقد محالفة مع « حَيُوس » الفرناطي ثم زحف جيش أشبينية ، وذهب لمقابلته بجنوده وجنود حليفه إذ اضطره إلى التقهقر .

ومن المحقق أن القاضي قد بالغ في الاعتداد بقوته ، ولم يحسب حساب أعدائه ، وكان عليه أن يخشى مجيء الوقت الذي تغزو فيه جيوش المرية وغرناطة - بدورها - أشبيلية .

وكثيراً ما خدمته المصادقات الحسنة التي شئت أن يخلصه أحد أعدائه من عدوه الآخر .

## الفصل الثاني

في العصر - الذي نحن بصدد التحدث عنه - ظهر رجلان طبقت شهرتهما الآفاق ، وكلاهما كان يحمل لصاحبه حقداً قاتلاً ، وكانا هما اللذان بيديهما تسيير دفعة الأُمُور في «غرناطة» و«المرية» . هذان الرجلان هما : للمغربى ابن عباس ، واليهودى صمويل .

فلربان صمويل هاليبى ، وكان يدعى عبادة بن نغذله، ولد في قرطبة ودرس التلمود على الربان هانوخ ، الرئيس الروحى للجالية اليهودية ، ثم انصرف بمجد ونجاح إلى دراسة الأدب العربى وتذنف بأكثر العلوم التى كانت معروفة إلى ذلك العهد ، ثم كان - بمدا تقطاعه عن الدرس - بدالاً صغيراً ، وقضى في هذه التجارة مدة طويلة ، أولاً في قرطبة ، وثانياً في مائة التى أقام بها بعد الفترة التى استولى فيها بربر سليمان على العاصمة ، ثم ساعفه الحظ وانتشلت به بعض الفرص السعيدة من هذا المركز الوضيع .

ذلك أن حانوته كان قريباً من قصر أبى القاسم بن العريف وزير جيوش ملك غرناطة ، وكان على رجال القصر فى الغالب أن يراسلوا مولاهم فيما يعرض لهم من الشئون ولكونهم جهلاء بفن الكتابة لجئوا إلى صمويل هذا ليحرر لهم ما تمس إليه الحاجة من تلك الرسائل التى

أنارت إعجاب الوزير إذ ألفاها مكتوبة بأبلغ وأجزل أسلوب عربي ،  
 مما حل الوزير عند عودته إلى مالقة أن يسأل عن المنشئ لتلك الرسائل  
 ولما علم أنه اليهودي استقدمه إليه ، وخاطبه بقوله :

« ليس خليفاً بك أن تبقى صاحب حانوت ، وما أجدرك أن تكون  
 كوكباً يسطع لألاؤه في بلاط الملك ، فإذا توفرت على ذلك رغبتك ،  
 فإني متخذك لي ناموساً خاصاً . »

فتقبل منه هذه المنحة شاكراً ، وصحبه الوزير معه عند عودته إلى  
 غرناطة ، وازداد إعجابه به عندما أخذ يبادلّه الحديث في شؤون الدولة ،  
 إذ وقف منه على رجل قادر الذكاء بين الرجال ، بعيد النظر ، سديد  
 الرأي ، حتى قال بعض المؤرخين اليهود :

« إن النصائح التي كان يسديها صمويل كانت بمثابة أقوال صادرة  
 عن إنسان ملهم يستوحى كلام الله ويستفسره . »

ولهذا كان الوزير يأخذ بها ، ويخصه بحمائل الثناء ، ولما أحسَّ  
 الوزير بدنو الأجل في مرضه الذي مات فيه ، جاء الملك يعوده ، وقد  
 داخله حزن عميق عى وزيره ، وخادمه الأمين الذي سيفقده ولا يجد  
 من يخلفه ، فأنهز هذه الفرصة وقال للملك :

« لم تكن النصائح والآراء الرشيدة التي كنت أبديها لك أيها الملك  
 في العهد الأخير صادرة مني بل كانت وحياً ألقاه من صمويل ذلك

اليهودى الذى آثرت أن يكون ناموسى الخاص ، فاقصر نظرك عليه  
واتخذة أبالك ووزيراً ، أخذ الله بيدك ، وشد به أزرك »

وقد عمل حيوس الملك بهذه النصيحة ، وأحل صمويل بالقصر<sup>(١)</sup>  
محل وزيره الراحل ، وصار هذا اليهودى ناموس الملك ومستشاره .

وربما لا يحدثك التاريخ عن رجل يهودى حكم فى دولة إسلامية  
حكماً مباشراً وصریحاً باسم وزير مستشار إلا فى هذه المملكة  
لإسلامية .

على أن بعض اليهود قد تمتع على الأرجح - بشيء من الاعتبار والحظوة  
لدى بعض ملوك المسلمين الذين كانوا يستعملونهم غالباً على وزارة المالية ،  
ولكن التسامح لم يبلغ بالاسلام إلى حد أن يتولى يهودى منصب  
رئيس الوزراء ، وإذا جاز هذا الأمر فى جهات أخرى فلم يكن ليجوز  
فى « غرناطة » تلك المدينة التى كثر عدد اليهود النقيمين بها حتى  
أطلقوا عليها اسم مدينة اليهود<sup>(٢)</sup> ، ولما كانت فى أيديهم معظم الثروة  
فقد كانوا يتدخلون غالباً فى شئون الدولة .

وصفوة القول أن اليهود وجدوا هنا أرضاً أخرى غير الأرض  
الموعودة من الصحراء وصخرة حريب .

---

(١) المجلة الاسبوعية للسلسلة الرابعة من الجزء ١٦ ص ٢٠٣ - ٢٠٥ مقال «م. م. مونك»

(٢) كرونيكادل مورو ورازيس ص ٣٧ تاريخ الرازى

ويصح أن يفسر سمو صمويل إلى هذا المنصب بأسلوب آخر ، فإنه لم يكن من السهل على ملك غرناطة ، أن يعثر على من يقلده منصب الوزير الأول ، إذ من المحقق أنه لم يكن في استطاعته أن يسند هذا المنصب الخطير لا إلى رجل من البربر ، ولا إلى آخر من العرب . وقد كانوا يؤثرون - في ذلك الحين - أن يكون الوزير أديباً قد بلغ في الأدب الغاية وملك ناصية البيان ، كى يستطيع أن يحجر الرسائل التي ترسل إلى الملوك بالنثر المبدع ، والأسلوب الرائع الممتع ، وقد كان ملك غرناطة يرغب في أن تتوفر هذه المواهب عنده ، ومثله في ذلك مثل صعلوك يعمل على أن يكون من العظماء ، وإذا كان نصف بربري بذل كل ما في وسعه حتى لا يظهر بهذا المظهر ، وكان يسمى - من أعماق نفسه - أن يكون ذاعلم وأدب ، وكان يزعم - حتى لا ينسب إلى ضعة النسب - أن السلالة التي انحدر منها - وهي صنهاجة - لم تكن من عنصر البربر بل كانت من عنصر العرب (١) .

فلكل هذه الاعتبارات كان لا بد له من وزير مضطلع بفنون الأدب لا نظيره عند جيرانه ، ولكن أى له أن يظفر بذلك ؟ إن البربر الذين عنده كانوا لا يحسنون إلا عملاً واحداً هو القتال



والاستيلاء على المدن ونهب ما فيها من الأموال والذخائر وصرفها  
وتخريبها ، وبعجزون بعد ذلك عن النطق القصيح ، أو كتابة سطر  
صحيح بلغة الفران ، والعرب الذين كانوا يخضعون لسلطانهم كانوا  
لا يحملون هذا النير على عاتقهم إلا وهم يرجفون غضباً ويضطربون حمية  
وخجلاً ، ويرون خيائته عملاً شريعاً ، فهو لا يستطيع أن يأمن جانبهم ،  
وقد ساعفته الظروف فرأى يهودياً مثل صمويل شهد له علماء العرب  
أنفسهم بالاستبحار في العلوم وفقه أسرار لغة العرب ، ومما يشهد له  
بالمهارة والحدق أنه مع حرصه على التمسك بدينه ، كان لا ينحرف وهو  
يكتب لأساطين المسلمين عن أن يستعمل في رسائله ومكاتباته الصيغ  
والنصوص والعبارات الدينية المألوفة عند كتاب المسلمين ، فلا بد أن  
يكون هذا الرجل قد أحرز من البلاغة العربية كنزاً ثميناً كان ينفق  
منه كلما أراد الكتابة ، ولهذا لم يشعر الملك - وقد رفعه إلى منصة  
رياسة الوزارة - بنحجل ، والعرب أنفسهم قد ارتاحوا إلى هذا الاختيار  
واقفوا عليه ، وعلى الرغم من عدم تسامحهم وارتياحهم في اليهود فقد  
أذعنوا اضطراراً واعترفوا بعصرية صمويل ونبوغه ومزايه ، وفي الحق  
أنه كان متحلياً بمختلف العلوم ، زاخر العباب فيها ، فهو الرياضي  
المنطقي الفلكي الذي يجيد - فوق ذلك - سبع لغات ، أضف إلى هذا  
أنه - بوجه عام - كان كثيراً ما يكرم الشعراء ورجال الأدب ، والكثير

ولما عادا من المتنزه، بادر «باديس» إلى استدعاء أسيره وأخذ يعدد عليه أخطائه ، وما بدر منه من ألفاظ جافة مقذعة ، وابن عباس مستسلم مصيخ بسمعه لما يوجه إليه من جارج القول .

ولما فرغ الملك من كلامه ، قال « ابن عباس » :  
« أتوسل إليك - يمولاي - بكل عزيز عليك أن ترجئ وتنقذني من

آلامي . »

فقال له « باديس » :

« سأريحك من آلامك اليوم . »

ولمح «باديس» على أسارى أسيرد الحزين المحتق اللون ، بصيصا وشمعاً من الرجاء ، فصمت لحظة يسيرة ، ثم استأنف كلامه ،  
عن أنيابه ببتسامة فيها كل معاني الاءتتقام والوحشية ، وقال له :  
« إنك لا محالة ذاهب الآن إلى حيث تزيد آلامك . »

\* \* \*

وتراطن مع أخيه بلغة البربر التي لا يفهمها «ابن عباس» . ومن كلام «باديس» الأخير وإبسامته الرهيبة، وشكاه المروع الغاضب، لم يبق عند «ابن عباس» شك في أن ساعته الأخيرة قد دنت ، فجثا على ركبتيه وقال :

« استجلفك بالله أن تبقى على حياتي وتشفق على زوجتي ، وترحم أولادي الصغار ، ولك أن أقدم ثلاثين ألف دوكان بل ستين ألفا . »

وكان «باديس» مصغيا الكلام ، لا ينبس ببنت شفة ، ثم عمد إلى رمح

قصير وطعنه به في صدره ، وحذا حذوه أخوه « بلقين » وتبعه « على ابن القروى » ، وانهاوا عليه بالطعنات ، ولم تنقطع استصراخاته وتوسلاته ، إلا بعد أن برد في مصرعه عند الطعنة السابعة عشرة <sup>(١)</sup>.

(١) جاء في البيان المغرب ما يأتي :

وأما « زهير » الفتي المتقدم الذكر ، فكان قد امتدت أطنا ب مملكته من « البرية » إلى « شاطبة » ومايلها إلى « ياسة » وما وراءها إلى « الفج » من أول عمل « طليطلة » قال « حيان بن خاف » .

« وكان سبب فساد « باديس بن حبوس » على جاره القديم الحنف « زهير » الفتي فتي « المنصور بن أبي عامر » موالاته لكاشحه « محمد بن عبدالله الزناتي » . ومضى على ذلك « حبوس » من عداوته ، وخلفها كلمة باقية في عقبه ضرم « زهير » نارها بعد . قهادى تمسكه بالذكور ، فأرسل إليه « باديس » رسوله معاتباً مستدعياً تجديد المحالفة ، فسارع « زهير » مقبلاً نحو « باديس » وضيع الحزم واغتر بالعجب ، ووثق بالكثرة ، وصار أشبه شئ بمجىء الأمير الضخم إلى العامل من عماله ، قد ترك رسوم الالتقاء بالنظراء ، وغير ذلك من وجوه الحزم ، وأعرض زهير عن ذلك كله ، وأقبل ضارباً سوطه حتى تجاوز الحد الذى جرت عادته بالوقوف عنده من عمل « باديس » دون إذنه ، وصير المضايق والأوعار خاف ظهره ولا يفكر فيها ، واقتحم البذل حتى صار الى باب « غرناطة »

\*\*\*

ولما وصل « زهير » الى « غرناطة » خرج اليه « باديس بن حبوس » فى جمعه ، وقد أنكر افتتاحه عليه ، وعده حصلاً فى قبضته ، فدأه بالجمل والتكريم وأوسع عليه وعلى رجاله فى الثرى والفضىم ، بما مكن اغترارهم وثبت طمأننتهم ، ثم وقعت المناظرة بين « زهير » و « باديس » ومن حضرهما من رجال دولتهما ، نشأ بينهما عارض خلاف لأول وهلة ، وحمل « زهير » على التشطط ، ووزيره

\*\*\*

وسرعان ما ذاع الخبر في «غرناطة» بمقتل «ابن عباس»، ذلك الغنى المتكبر المتعجرف، وقد كان سرور الأفرقيين عظيماً. وكان أعظم الناس سروراً، «إسماعيل» الذي لم يبق أمامه إلا عدو واحد خطير، وخصم لدود، هو «ابن

«أحمد بن عباس» يفرى الفرى في تصريح ما يعرض به «زهير» فعزم «باديس» عند ذلك على القتال ووافقه قومه صنهاجة، فأقام معركته، ونصب كتائبه، وقطع قنطرة لاجئ «لزهير» عنها، والحائن «زهير» لا يشعر، وبات تتمخض له ليلته عن راغية البكر، وغاداه «باديس» صبيحتها عن تعبئة محكمة، فلم يرعه إلا رجسة القوم راجعين إليه بخفق طبولهم فدهش «زهير» وأصحابه، فيا لك من أمر شئت، وهول مفاجئ، قسم بالمرء بين نفسه وماله ووزع همه بين روحه ورحاله، إلا أن أميرهم «زهيرا» أحسن تدبير النبات لو استتمه، وقام ينتصب للحرب، فثبت في قلب معسكره، وقدم خنيفته «هذيل» الصقلي في وجوه أصحابه من الموالى العنبريين الفحول، وعشيرته الصقوب وغيرهم لاستقبال «صنهاجة» فلما رأوه علموا أنهم حماة وتوكلته، وأنهم متى خضدوها لم يثبت لهم من وراءهم، فختاف الفريقان واشتد بينهما القتال مائلاً، فلم يكن إلا قليلاً حتى حكم الله بالظهور لأقل الطائفتين عدداً نرى الله قدرته، ويحمد في قلوب عباده عبرته، فنكس في الصدمة قائدهم «هذيل» ونهزم أصحابه، وسبق «هذيل» لوقته إلى «باديس» أسيراً فعجل بضرب عنقه، فما هو إلا أن نظر «زهير» لمصرعه ففر على وجهه فلم يستصحب ثقة ولا انحاز إلى فئة، ولج به الفرار ونهزم أصحابه خفه لا يلوون على شيء، وركبت «صنهاجة» ولحقها من «زفانة» أكتاف القوم بأذنين السيف فيهم يمدق الغصية وإياثار الاقواء، فلم يبقوا على أحد قسروا عليه، فأساءوا الاعتداء، وأبادوا أمة أخذوا في شباب وعرة، وأجبل شامخة، أجاءهم إليها السيف، فكانت حتف من فر، وتقطعوا على هذه السبيل وأودى أميرهم «زهير» وجهل مصرعه، وكان سودانه غدروه أول وهلة، واهلبوا مع «صنهاجة» وكانوا يقاربون خمسمائة.

بقية». وكان «لإسماعيل» هاتف خفي يعتاده في الحلم ، قد ألقى في روعه أن هذا العدو سيلقى حتفه ويلحق «بأبن عباس» عاجلاً . واليهود في هذا

وغم رجال «باديس» من المال والخزائن والأسلحة والحلية والعدة والغلمان والحيام وسائر أنواع الأموال مالا يحيط به الوصف ، فظفر «باديس» على قوم من وجوه رجال «زهير» فجعل على الفرسان والقواد بالقتل ، وشمل الإنسان حملة الأقالم وفيهم وزيره الكبير «أحمد بن عباس» الجارخر هذه الثائرة ، فأمر بحبسه ، وشفاؤه الولوغ في دمه ، وعف «باديس» عن دماء حملة الأقالم دونه إلا من أصيب منهم في الحرب ، وأطلق «أبن خزم» و «الباجي» وغيرهما .

\*\*\*

وكان «باديس» قد أربجاً قتل «أبن عباس» مع جماعة من الأسرى الى أن وجه اليه «أبو الحزم بن جبور» رسولا شافعا في جماعته . وكذا في شأن «أبن عباس» فكان أبعدهم من الخلاص ، وآثر الشفاء في قتله على عظيم ما كان يعطى في فديته . فانصرف يوما من بعض ركباته مع أخيه «بلقين» فلما مر على الدار التي كان فيها «أبن عباس» أمر بإخراجه إليه فأقبل يرسف في قيوده حتى أقيم بين يديه ، فأقبل على سبه وتبكيته بذنوبه ، و «أحمد» يتلطف ويسأله راحته مما هو فيه ، فقال له : «اليوم تستريح من هذا الألم ، وتثقل الى ما هو أشد منه .» فبان «لأحمد» منه وجه الموت ، فجعل يكثر الضراعة «لباديس» ويضعف له عدد المال ، فأثر غضبه وهز مزراقه فوكزه فيه ، وأمر بحز رأسه . فعلق ، وووري جسده خارج القصر ، فمضى «زهير» و «أبن عباس» على هذه السبيل .

\*\*\*

وكان «أبن عباس» حسن الكتابة مليح الخط ، غزير الأدب ، قوي المعرفة ، مشاركاً في العلوم ، حاضر الجواب ، ذكي الخاطر ، جامعا للأدوات . وبلغني أن «عبد العزيز بن أبي عامر» سعى على دمه لما حصل على الرية ، وخاف أن يتخلص فيكدها عليه ، وكذلك أكد «أبن صادق» صاحب الرية يومئذ في قتله ، فقتله انصراف «أبن صادق» عنه .

كالعرب، يتوهمون أن سرّا من الأسرار، يلهمهم وهم في نومهم بنبوءات عن المستقبل - وعاده الحلم ذات ليلة ، فسمع في نومه هاتفا يردد ثلاثة أبيات بالعبرية هذا معناها :

« لقد هلك » ابن عباس « وشيعته والمتفقون حوله ، وهذا الوزير الآخر الذى كان يظاھرہ ويتآمر معه يوشك أن يقتل مثله ، ويوطأ كالجلبان ويداس ، فإذا كانت عاقبة ثرثرتهما وحققهما واعتدادهما بقوتهما ؟ لقد دارت الدائرة على أحدهما ، وعما قليل يلحقه الآخر ، فله الحمد والشكر » .

\*\*\*

وبعد بضع سنين تحققت نبوءة «اسماعيل» -- وسنضطر إلى ذكر مقتل هذا الوزير فيما بعد -- وصح الآن أن الشعور بالخوف، أو الحب ، يجعل في الشخص سرّاً غريباً يدرك به بعض الأمور الغيبية .

## الفصل الثالث

في الوقت الذي باغت فيه « باديس » « زهيراً » وجنى عليه ، كان قد أدى مرغماً ، وبدون قصد منه - خدمة جليلة للحليفين اللذين اعترفا « بهشام » المزعوم كخليفة . وقد ذكرنا أن « عبد العزيز »<sup>(١)</sup> أمير « بلنسية » ، استولى على إمارة « المرية » . ولم يكن في استطاعته في الواقع أن يد حليفه - قاضي « أشبيلية » - لاضطراره للدفاع عن مملكته ضد إغارة مجاهد<sup>(٢)</sup> الذي كان يرى - بعين الحسد - اتساع مملكة جاره وما كان « القاضي » يخشى وقوع حرب بينه وبين « المرية » فاطمان من هذه الناحية .

وبدأ يفكر في مهاجمة البربر مبتدئاً « بمحمد »<sup>(٣)</sup> أمير « قرمونة » لنزاع قام بينهما ، وكان في الوقت نفسه يتآمر سرا مع فريق من الغرناطيين ، ويبادلهم الرسائل ، ويعمل على إشعال نار الثورة بها .

\*\*\*

وبدأ كثير من أهل « غرناطة » يظهرون نفوراً واستياء من « باديس » . ويرجع هذا إلى ما قطعه على نفسه من عهود ووعد به من أمانى معسولة ، في بدء توليه الحكم ، وعلى أثر ذلك صار يبدو قاسياً غليظ القلب شيئاً

---

(١) هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر المنصور المتوفى سنة ٤٥٢ هـ

(٢) هو مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية ( ميورقة ومنورقة ويايسة )

(٣) « هو محمد بن عبد الله بن برزال » . تولى بقرمونة سنة ٤٤٠ هـ وتوفى سنة ٤٣٤ هـ

فشيئا ، ويظهر بمظهر الخائن اللثيم السفاك ، وعكف على الشراب ، فعم الاستياء منه ، وأخذ الناس يلومون ويتألمون ، ويشكو بعضهم إلى بعض ، ثم أخذوا يتمنون خفية ويتناجون ، ثم صرّح الشر فعادوا يتألمون .

\*\*\*

وكان زعيم هذه المؤامرة وروحها ، رجل أفاقي يقال له «أبو الفتوح» . ومن حديث هذا الرجل أنه ولد بعيدا عن أسبانيا من أسرة عربية كانت في «جرجان»

وقد تلقى الأدب والفلسفة والفلك على أشهر أعلامها ببغداد ، فكان عالما مستبحرا ، وأديبا شاعرا ، وفوق ذلك كان فارسا كيا ، وسجاعا باسلا ، يمتطى الجواد الأصيل ، ويبتضى السيف الصقيل .

هبط «أبو الفتوح» أرض «أسبانيا» سنة ١٠١٥ ليحظى ثروة لحلى الراجح . وبعد مدة اتصل بمجناب «مجاهد دانية» ، وكان هذا الأمير عالما لغويا مجربا بينهما مباحثات في الأدب ، واشتغلا معاً بشرح «المجمل» في النحو ، ثم قاتل في صف أمير «سردينيا»

وكثيرا ما كان يعالج المسائل الفلسفية العويصة ويحاول استكناه المستقبل بواسطة علم النجوم وسير الكواكب . ثم رحل إلى «سرقطة» مقر «المنذر» ، فرحب به هذا الأمير أولا ، ثم اتخذه صديقا ، وعهد إليه بتأديب ابنه ، ولكن يؤخذ مما رواه المؤرخ العربي الذي ننقل عنه هاهنا ، أن العهد قد تغير ، وتغير معه الأشخاص ، إذ أبلغه «المنذر» يوما ، أنه في غنى عنه ، وأن عليه أن يبرح «سرقطة» .



فرحل «أبو الفتوح» إلى حيث تطيب له الإقامة في «غرناطة»، وجلس للتدريس، فكان يلقى محاضرات عن الشعر القديم، وبخاصة ديوان الحماسة، وكان إلى جانب هذا العمل العلمى. يقوم بعمل آخر، هو التنبؤ بالمستقبل، وقد خلق أعداء كثيرين «لباديس»، حين تنبأ على أحكام الهجوم، بأن «يسر» ابن عمه يطعم في الملك، وأن «باديس» سيفقد عرشه، ويتبوؤ ابن عمه مكانه ثلاثين عاماً.

\*\*\*

وكانت نتيجة هذه النبوة أن وفق إلى تدبير مؤامرة تكتشفها «باديس» قبل حلول الموعد المحدد لتنفيذها، وعسكن «أبو الفتوح»، و«ياسر»، وأركان المؤامرة. من الفرار إلى خارج المملكة، خذرا من انتقام «باديس». وبلغوا إلى فاضي «أشبيلية»، الذى كان لا يرغب تتركهم في هذه المؤامرة. ومحال أن نعرف إلى أي حد كان نصيبه فيها.

وفي هذه الفترة. هاجم الفاضى بحبيته الذى حوت العادة بأن يقوده ابنه «اسماعيل» خصمه «محمد» أمير «قرمونة». فانتصر انتصاراً باهراً واضطرت مدينتا «اسبونة» و«استيجة» إلى التسليم، وحوصرت «قرمونة» نفسها.

وباشته الضيق «محمد» أمير «قرمونة». طلب المدد والعون من «إدريس» أمير «مالقة»، ومن «باديس». كذلك. فلبى طلبه. وهذا كان «إدريس» مريضاً، أرسل جنوده بقيادة وزيره «ابن بقية».

وقاد « باديس » جيشه بنفسه وتلاحق الجيشان ، وانضأ إلى بعضهم .  
وكان « إسماعيل » واثقاً كل الثقة من بسالة جنده ، ووفرة عددهم ،  
فوطن نفسه على منازلة خصومه . ولكن « باديس » ، و « ابن بنية »<sup>(١)</sup>

---

(١) قال ابن الأثير : « لما قتل يحيى بن علي رجع أبو جعفر أحمد بن أبي موسى المعروف بابن بنية ونجا الخادم الصقلي ، وهما مديرا دولة العلويين ، فأتيا مائة ، وهي دار ملكهم فخطبا أخاه إدريس بن علي ، وكان له سبنة وطنجة ، وطلبا فأتى إلى مائة وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحيى المقتول مكانه بسبنة ، فأجابهما إلى ذلك فبايعاه ، وسار حسن بن يحيى ونجا إلى سبنة وطنجة ، وتلقب إدريس بالمتأيد بالله ، فبقي كذلك إلى سنة ثلاثين أو إحدى وثلاثين وأربعمائة ، فسير القاضي « أبو القاسم بن عباد » ولده إسماعيل في عسكر ليتغلب على تلك البلاد ، فأخذ « قرمونة » وأخذ أيضاً « أشبونة » و « استيجة » فأرسل صاحبها إلى إدريس وإلى « باديس بن حبوس » صاحب صنهاجة ، فأثناء صاحب صنهاجة بنفسه ، وأمدّه إدريس بعسكر يقوده ابن بنية مدير دولته ، فلم يجسروا على إسماعيل بن عباد ، فعادوا عنه فسار إسماعيل مجدداً ليأخذ على صنهاجة الطريق ، فأذركهم وقد فارقهم عسكر إدريس قبل ذلك بساعة ، فأرسلت صنهاجة من ردهم فعادوا وقتلوا إسماعيل بن عباد ، فلم يثبت أصحابه أن انهزموا وأسلموه فقتل وحمل رأسه إلى « إدريس » . وكان « إدريس » قد يقن بالهلاك وانتقل عن « مائة » إلى جبل يحتمى به وهو مريض فما أتاه الرسول عاش بعده يومين ومات . وترك من الولد يحيى ومحمداً وحسناً ، وكان يحيى بن علي المقتول قد حبس ابن عمه محمداً والحسن ابن القاسم بن حمود بالجزيرة ، فلما مات إدريس أخرجهما للموكل بهما ودعا الناس إليهما فبايعهما السودان خاصة قبل الناس ليل أبيهما إليهم ، فلك محمد الجزيرة ولم يقسم بالخلافة ، وأما الحسن بن القاسم فإنه تنسك وترك الدنيا وحج . وكان ابن

حين حسبنا أن خصمهما يفوقهما ، أوديانهما عدداً ، أيما أن يشتبك  
معه في القتال ، وآثرا أن ينسحب ، ويترك أمير « قرمونة » برهة ،  
فعاد أولهما أدرجه إلى « مالقة » .

ووصل الآخر بجنوده إلى « غرناطة » ، واقتفى « إسماعيل » في الحال  
أثر الغرناطيين . وكان من حسن حظ « باديس » ، أنه بعد أن غارقه  
« ابن بقية » بنحو ساعة ، أرسل إليه رسولا على جناح السرعة يستنجد

---

بقية قد أقام يحيى بن إدريس بعد موت والده بمالقة ، فسار إليها « نجا الصقلي »  
من « سبتة » هو والحسن بن يحيى . فهرب ابن بقية ودخلها الحسن ونجا ، فاستملا  
ابن بقية حتى حضر فقتله الحسن ، وقتل ابن عمه يحيى بن إدريس ، وبايعه الناس  
بالخلافة ، ولقب بالمستنصر بالله ، ورجع نجا إلى سبتة وترك مع الحسن المستنصر  
نائباً له يعرف بالشطيفي ، فبقي حسن كذلك نحواً من سنتين ، ثم مات سنة أربع  
وثلاثين وأربعمئة ، فقبل إن زوجته ابنة عمه إدريس سمته أسفاً على أخيها يحيى .  
فلما مات المستنصر اعتقل الشطيفي إدريس ابن يحيى ، وسار « نجا » من « سبتة »  
إلى « مالقة » وعزم على محو أمر العلويين ، وأن يضبط البلاد لنفسه ، وأظهر  
البربر على ذلك فغضب عندهم فقتلوه وقتلوا الشطيفي وأخرجوا إدريس بن يحيى  
وبايعوه بالخلافة وتسمى « بالعالى » ، وكان كثير الصدقة يتصدق كل جمعة بخسمائة  
دينار ، ورد كل مطرود عن وطنه وأعاد عليهم أملاكهم . وكان متأدباً حسن اللقاء  
له شعر جيد ، إلا أنه كان يصحب الأزدال ولا يحجب نساء عنهم ، وكل من  
طلب منه حصناً من بلاده أعطاه . فأخذت منه صنهاجة عدة حصون وطلبوا وزيره  
ومدير أمره صاحب أبيه « موسى بن عفان » ليقبضوه فسلمه إليهم فقتلوه ، وكان  
قد اعتقل ابن عمه محمد والحسن ابن إدريس بن عيسى في حصن « إيرش » ، فلما

وإلا سحق جيشه في لحظة بجنود «أشبيلية» فطار إليه «ابن بقية» ووقف الجليشان على مقربة من «أستيجة» ، على تمام الأهبة والاستعداد للقاء عدوهما ، بثبات ورياسة جأش .

وقد وهم الأشبيليون ، إذ حسبوا أنهم إنما يتعقبون جيشاً منهزماً ، فإذا بهم أمام جيش كامل العدد والعدد ، فأفقدتهم تلك المفاجأة قوتهم المعنوية .

---

رأى تخته بأيرش اضطراب آراءه خائف عليه ، وبائع بن عمه محمد بن إدريس بن علي . ونار باديس بن يحيى من عنده من السودان وطلبوا محمدًا قبلاء إليهم وسلم إليه إدريس الامر ، وبائع له سنة اثنتين وثلاثين وأربعائة ، فاعتقله محمد وتلقب بالمهدي وولى أخاه الحسن عهده ، ولقبه السامى ، فظهرت من المهدي شجاعة وجراحة فها به البربر وخافوه ، فراسلوا الموكل بإدريس بن يحيى فأجابهم إلى إخراجهم وأخرجهم وبائع له وخطب له «ببنة» و «طنجة» بالخلافة ، وبقي إلى أن توفي سنة ست وأربعين . ثم إن المهدي رأى من أخيه السامى ما أنكره فتفاه عنه فسار إلى العدو إلى جبال غمارة وأهلها ينقادون للعلويين ويعظمونهم فبايعوه . ثم إن البربر خاطبوا محمد بن القاسم بالجزيرة واجتمعوا إليه وبايعوه بالخلافة وتسمى بالمهدي أيضاً فسار الامر في غاية الاخلوقة والفضيحة ، أربعة كلهم يسمى أمير المؤمنين في رقعة من الارض مقدارها ثلاثون فرسخاً ، فرجعت البرابر عنه ، وعاد إلى الجزيرة فمات بعد أيام . فولى الجزيرة ابنه القاسم ولم يتسم بالخلافة ، وبقي محمد بن إدريس بمالقة إلى أن مات سنة خمس وأربعين ، وكان إدريس بن يحيى المعروف بالعالي عند بني يفرن «بتاكرنا» فلما توفي محمد بن إدريس بن علي قصد إدريس بن يحيى «مالقة» فملكها ثم انتقلت إلى «صنهاجة» :

وقد نقلنا هذا الفصل هنا لانتصاله اتصالاً شديداً بما نحن فيه .

• ووقع في صفوفهم الاضطراب عند الصدمة الأولى ، وعبثا حاول « إسماعيل »  
تعبئة الجيش للقتال ، وبرز أمام الصفوف فكان أول الذاهبين ضحية  
المعركة ، فلم يسع الأشبيليين إلا الفرار طلباً للنجاة .

وملك « باديس » ناصية الحال بعد هذا الانتصار البسيط المفاجئ ،  
وبينما هو في معسكره قرب « أستيجة » عرته دهشة إذ وجد « أبا الفتوح »  
قد انحنى أمامه متراميا على أقدامه . وكان الذي حدا هذا الرجل إلى تلك  
المحاولة الخطرة . أنه حين عجل بمغادرة « غرناطة » - خوفا على نفسه  
من « باديس » - ترك للقضاء أمر زوجته وولده الصغير وبنتيه . وكان قد  
وصل إلى علمه أن « باديس » أرسل إلى « قوادم » الزنجي ، فألقى القبض  
على زوجته وأولاده بوساطة خواصه المقربين إليه . وأودعهم السجن .  
وكان معروفا بأنه شديد الشغف بزوجه الغادة الأندلسية الفتية ،  
كثير الحنو على ابنه الصغير وبنتيه . بحيث لا تطيب له الحياة دونهم .

\*\*\*

وقد خشي أن ينتقم « باديس » منهم في شخصه . فجاء يلتمس الصفح  
عن زنته . وهو يعلم ماركب في طبع عدوه من حب الانتقام . وما جبل  
عليه من الظلم والجبروت . جاء على أمل أن يرق له . ويعطفه عليه  
ماعطفه على عمه والد الزعيم الفار الذي كان رأس شركائه في المؤامرة .  
وحين جثا « أبو الفتوح » أمام « باديس » قال له أبو الفتوح :

« مولاي ، حنانيك ورحمة بعبدك الجاني أمانك ، وأنا أحقق لك ما تقطع معه أنى برىء مما عزى إلى »

فكاد « باديس » يتميز غيظا وحنقا ، وصرح فى وجهه وعيناه يتطاير منهما الشرر :

« كيف استطعت يا هذا مع شناعة جرمك أن تمثل أمامى ؟ لقد بذرت بذور الشقاق بين أفراد أسرتى ، ثم جئتني الآن تزعم أنك برىء مما جنته يداك ! أتحسب أنه من السهل عليك أن تخدعنى ؟ »  
فقال له :

« مولاي ، أقسم عليك إلا مارحتنى . ولا تنس أنك غمرتني بإحسانك وشمكتنى بحسن رعايتك ، وهذه البلاد التى أنا ربيب نعمتها من العسر الشاق على أن أفارقها . وفي الوقت الذى أبعد فيه عنها أكون تفساً شقياً . ولا أكذب مولاي الحديث فإننى ما فررت حين فررت مع ابن عمك ، إلا لما تأكد بيننا من صلات يعرفها مولاي ، وأخشى أن يحل بى العقاب كشريك له في الجرم ، وها أنذا بين يدي مولاي أعترف بالقرار وأكرر أن الذى ألجأتني إليه محض الصداقة ، وأؤكد أنى برىء ، وأطمع في عفو مولاي وصفحه ، وأنتظر أن يعاملنى كملك عظيم ومولى كريم لا تحمل نفسه الكبيره حقداً على صغير مثلى ، فارحه لهفتى ، ورد إلى أسرتى ، وعاملنى بما أنت أهله . »

فقال له :

« سأعمالك - إن شاء الله - كما تحب ، وبما أنت خليق به ، فارجع إلى أهلك بغرناطة ، وسأنظر في شأنك عند عودتي إليها . »

\*\*\*

واطمأن « أبو الفتوح » إلى هذا الكلام الذى لم يدرك مراميه لاول وهلة ، وسار إلى « غرناطة » بحرسه فارسان . ولما كان بظاهر المدينة أرسل « قوادم » الزنجي - تنفيذاً لأمر مولاد - بعض غلمانه ، فألقوا القبض عليه ، وحلقوا رأسه ولحيته وأركبوه جلا ، وأردفوه زنجياً جلدا استمر يصفعه على التابع ، والجل يطوف به أحياء المدينة ويجوس به خلال ديارها حتى أفضوا به إلى السجن حيث أودعوه فى غرفة من غرفه ضيقة ابث فيها هو وجندى من البربر أسرى معركة « أستيجة » وكان أحدهم كائنه فى المؤامرة .

\*\*\*

وعاد « باديس » بعد أيام إلى « غرناطة » ولم يكن قد بت فى أمر « أبى الفتوح » بشئ ، ولم يستطع أن يصنع به كما صنع بابن عباس لأن أخاه « بلقين » حال دون ذلك ، ولم يعرف السبب الذى جعله يهتم بشأن هذا الفيلسوف إلى هذا الحد ، إذ عمد إلى إظهار براءته . ودافع عنه بكل قوة حتى خيف أن يفضى ذلك إلى الاستياء . ولهذا تردد « باديس » فى الفصل فى أمر « أبى الفتوح » إلى أن حدث أن سكر مرة « بلقين » كما يقع ذلك كثيراً مع أخيه « باديس » فامر أخوه بلقين وهو فى غفوة الشراب - بإحضار « أبى الفتوح » وزميله المرافق له فى السجن ،

وحين وقع عليه نظره أشبعه سباً شنيعاً وإيلاماً وتقرّباً ، وقال له :  
« وهل صدقتك كواذب الطوابع — أيها المنجم الخائن الكاذب —  
وما هي الفائدة التي عادت عليك الآن ؟

ألم تعد أميرك ذلك السافل المغرور الذي خدعته ، ومنيته الأمانى  
الكواذب المعسولة أنى سأكون تحت سلطانه ؟ وأنه سيظل فى الحكم  
ثلاثين عاماً ، فلماذا لم تر نحس طالعك حين بدا لك سعد طالع أميرك ،  
حتى كان يتسنى لك أن تتفادى ما حل بك من هذه المصائب الالهية ؟  
إن حياتك الآن أيها الأفاك الأثيم رهن يمينى . »

\*\*\*

فلم ينبس « أبو الفتوح » بكلمة لأنه ما غامر بحياته إلا طمعاً فى لقاء  
زوجته المعبودة ، وطفله وبنتيه المحبوبيتين ، ولأن عاطفته الملتهمية نحو أهله  
هى التى أكرهته على المغامرة بحياته والاستشفاع والتوسل إلى  
« باديس » واختراع الحيل والأكاذيب . أما الآن وقد صار على يقين  
من أن ذلك الطاغية الجبار لا محالة قاتله ، فقد استعاد إليه حواسه ،  
وتلقى زئير « باديس » وزجرته بهدوء وورباطة جأش .

واستعاد إلى نفسه عزتها وكرامتها ، وظهر طبعه المتين ، وخلقه  
الرصين بالمظهر الحقيقى ، فأطرق ملياً ، وشاعت على شفتيه ابتسامة مطمئنة  
ساخرة ، وصمت صمت من يشعر بكرامة نفسه وعزتها . وقد زاد هذا



الموقف الشريف الهادى من استعمار نار الغضب عند « باديس » فأرغى وأزبد ، وكاد يتميز من الغيظ ، فأسرع إلى سيفه فاستله من غمده ، وأغمده فى صدر ضحيته ، فتلقى الضربة دون أن يبدى حراكاً أو يظهر أنيناً مما جعل « باديس » يصبح صيحة المتعجب من هذا الزجل ، وهو يلفظ النفس الأخير ، ويستقبل الموت بصمت عميق ، ورباطة جأش ، ونادى الجلاذ أن اقطع رأسه ، وارفعه على رمح عبرة لغيره ، وادفن جثته إلى جانب « ابن عباس » كي يرقد عدواى كلاهما فى مرقدهما الأخير جنباً لجنب إلى أن تقوم الساعة.

\*\*\*

والتفت إلى الجندى الأسير بعد أن فرغ من ضحيته الأولى ، وقال له : « والآن جاء دورك فاقرب أيها الجندى ، فعجزع البربرى ، واضطرب اضطراباً شديداً ، وجعل يصيح ويستشفع ، ويستغيث ، وجثا على ركبتيه يستغفر « باديس » بكل مافى استطاعته ليبقى على حياته ، ولكن « باديس » قال له :

« هل ذهب منك الحياء أيها الشقى ؟ ألم تر إلى ذلك المنجم الحكيم ، كيف تلقى الموت بكل ثبات . فمات كريماً عزيزاً ، لم تبدر منه كلمة تشف عن جبن ، فكيف وأنت جندى قديم معدود فى عداد الجند

البواسل تصل إلى هذا الحد من الجبن ؟ إنك إذن لا تستحق رجة ولا  
هوادة .

وضرب عنقه في ( ٢٠ أكتوبر سنة ١٠٣٩ )

\*\*\*

ثم ورثت جثة « أبي الفتوح » التراب كما أمر « باديس » إلى جانب  
« ابن عباس » وحزن لمقتله جماعة العلماء والأدباء النابيين في « غرناطة »  
وصاروا كلما مروا بقبر هذين الرجلين العظميين يتهامسون :  
« لله قبر يضم رجلين حكيمين أيما أن يقبا على الضيم والذل ، فماتا  
كرمين رحمهما الله رحمة واسعة . والبقاء لله وحده »

## الفصل الرابع

أخذ طاعية صمأجه ، وجبار غرناطة يقوى نفوذه شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح زعيم حزبه السياسى على رأس البربر<sup>(١)</sup> ولم يكن يعترف

(١) فى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة بعدالفتنة المبيرة بقرطبة واستحكام العداء بين البربر من جهة والعرب والأندلسيين الأصليين وهم الصقالبة من جهة أخرى ، انحاز أمراء الأندلس وملوك البربر وصاروا حزيين : حزب زعيمهم سليمان بن هود الحذامى صاحب النفر الأعلى ، وكان معه مقاتل الصقلية صاحب طرطوشة ، وعبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، ومن تحتها من الولاة أصحاب الأعمال فى الجهات الوسطى ، وكان ابن معن صاحب المرية ، وسعيد بن رقييل صاحب شقورة وغيرها من رؤساء هذا الجانب متضمنين إلى محمد بن جهور صاحب قرطبة ، وكان هؤلاء جميعاً وهم الأندلسيون الأصليون على نخط واحد ورأى واحد يمثلون حزب السكان الأصليين المناوئ لحزب البربر ، وكان هؤلاء الثغريون متظاهرين على زعيم البرابرة «باديس ابن جبوس الصنهاجى» صاحب «غرناطة» وعلى حزبه من البربر ، وعلى «ادريس بن يحيى» صاحب «مالقة» ومن يدعو إليه ، وكانوا يدعون لهثام . وكان باديس ومن ظاهره من أمراء البربر يدعون لادريس بن يحيى بن على بن حود الحسنى إمامهم بمالقة

\*\*\*

وحزب سخر من ملوك لأندلس المسارعين إلى الانحياز والفرقة كمجاهد العامرى صاحب دانية . وكان ابن الأفضس صاحب بطليوس ، ومن يتصل بعمله من الرؤساء فى غربى لأندلس ، ويحيى بن دى الذون صاحب طليطلة ، وإسحاق بن محمد البرزالى صاحب قرمونة ومن تبعه من صفار الرؤساء . كل هؤلاء على فرار واحد

للخلافة الحمودية بمالقة إلا بمجرد السيادة الاسمية ، وقد بلغ الحموديون الغاية في الضعف حتى جعلوا لوزرائهم السلطان عليهم ، وكان بعضهم يعيد إلى إهلاك بعض ، إما بتجريد السلاح أو دس السم . وهم عوضاً عن أن يوجهوا نظرهم إلى أتباعهم من أمراء البربر الأقوياء فيشدوا بهم أزهرهم ، كانوا يركنون إلى الدعة ، ويرون السعادة كل السعادة في أن يظفروا بالحكم في مالقة ، وطنجة ، وسبتة ، وإن فقدوا النفوذ في البلاد التي تختط باسمهم على التاب .

\*\*\*

وكان ثمة خلاف كبير بين بلاطي غرناطة ومالقة ، ففي « غرناطة » كان البربر وعلى رأسهم « باديس » ووزير « إسماعيل » يعملون لصالحهم وهم على وفاق تام في الخطط ووجهات النظر ، وفي « مالقة » كان الأمر على النقيض من ذلك ، لوجود الصقالية الذين تتنافر مصالحهم مع مصالح البربر ، هذا إلى ما وقع للصقالية أنفسهم من التحاسد والتطاحن ، واستمانة بعضهم على بعض بأعدائهم من النصارى ، وهذه العوامل بعينها هي التي كانت سبباً في سقوط الدولة الأموية .

---

ونخط واحد ، يلتفون حول عباد المعتصد صاحب استبيلية ، ودعون مدعوته للحصرى المشبه بهشام المنسوب خليفة بأستبيلية . وكان كل حزب من الحزبين يتظاهر على ضده آثم مظاهره ، ويتعاون فيما بينه على مدافعة عدوه . والاستعداد للحوادث المفاجئة هذه هي الجماعات والفرق التي كانت تنضم إلى كل من الحزبين : الحزب البربرى ، والحزب العربي الصقلي .

وقد حدث أن الخليفة الحمودى «إدريس الاول» كان مريضاً فى الوقت الذى جرد فيه جيوشه على جند إشبيلية ، وقد أسلم الروح بعد أن وصل إليه الخبر بمقتل اسماعيل فى معركة «أستيجه» بيومين ، فاختلف الوزير البربرى مع الوزير الصقلى على تعيين الخليفة ، فالأول يريد أن يتبوأ عرش الخلافة «يحيى بن إدريس» البكر، لتكون السلطة فى يده وليقوم هو بالأمر ، والوزير الصقلى يعارضه فى ذلك ولا يقره عليه . ولما كان هذا وزير الممتلكات الإفريقية قام بالبيعة لحسن بن يحيى ابن عم يحيى وأعد العدة ليجوز البحر به إلى «مالقه» . وقد أذعن لخطة الوزير الصقلى وزير البربر لتردده وقلة ثباته ، وكان من جراء التردد والتوانى فى أخذ الحيلة أن أهمل التدبير اللازم للدفاع فى الوقت المناسب ، فأى بغتة الأسطول الإفريقى وقد ألقى مراسيه فى مياه «مالقه» ، فعجل بالفرار مع الخليفة الذى كان يريد أخذ البيعة له .

\*\*\*

ولما استقر «حسن» بعاصمة ملكه أرسل وزيره إلى وزير البربر يمنحه العفو ، ويرغبه فى العودة ، فوثق بكلامه ، وعاد ليلقى حتفه ، وقد تحققت النبؤة التى كان اسماعيل اليهودى رآها فى منامه ، وبعد ذلك قتل المدبر لدولة «حسن» أيضاً وهو (نجاء) الذى ارتكب الجريمة كما ذهب إلى ذلك

بعض المؤرخين ، كما أن (حسنا) كان جديرا بأن يقتص منه ، فقد قتل مسموما بيد زوجه شقيقة يحيى المسكين ، ومن ذلك الحين أراد (نجباء) أن يزيد في نفوذه ، فرأى أنه ليكون كملك مستأثر بالحكم يجب أن تكون السلطة في يده وحده ، وأن تكون سيادة الخليفة اسمية ، فعمد إلى قتل ابن حسن ، وهو في ريعان الشباب ، وزج بشقيق «إدريس» في غياهب السجن ، وبعد أن تم له ما أراد من ذلك عرض نفسه على البربر كخليفة ، وأغراهم بالوعود البراقة ليجتذبهم إلى جانبه ، ولكن البربر كانوا ينطوون على ألم ممض ، وغيظ كامن في الصدور ، من جراء جرأته البالغة ، وطمعه في منصب الخلافة طمعا يمس بالدين ، فإنه كان يظهر للسلالة الهاشمية احتراماً مزيفاً يوقع في الريبة والشك. وعلى أثر ذلك فكر البربر في الانتفاض عليه والاقتصاص منه ، وأخذوا يتربصون به الدوائر ويتحينون له الفرص ، ولكي يخفوا ما انطوا عليه من البغضة وإضرار الثمر ، تظاهروا بإجابته إلى غرضه ، وصارحوه بأهم طوع أمره ، وأقسموا له اليمين ، وبايعوه على الطاعة والنصرة . ورغب (نجباء) حينئذ في انتزاع الجزيرة من (محمد) الخليفة الحمودي الذي كان يحكمها ، وجرد عليها جيشه والتحم الفريقان ، ولكن حدث في المعارك الأولى التي دارت رحاها مع العدو أن لاحظ الوزير الصقابي أرب البربر يقانلون بتراخ ، وأنه ليس في الإمكان التعويل عليهم ، فرأى من الحكمة أن يصدر أمره للجنود

بالارتداد ، واعتزم أن ينفي عند عودته إلى العاصمة البربر الذين تحوم حولهم الشكوك والريب ، وأن يجذب إليه العنصر الصقلي بقوة المال ، وأن يلف حوله من الصقالبة أكبر عدد ممكن . ولكن أعداءه الألداء من البربر عرفوا خطته ، وتبينوا مايرمى إليه ، واتهزوا فرصة مروره بالجيش وسط مضيق محصور ، فانتقضوا عليه وقتلوه على غرة ( ٥ فبراير سنة ١٠٤٣ )<sup>(١)</sup>

\*\*\*

وعلى أثر مقتل ذلك الغاصب لم يستطع البربر أن يخفوا صيحات الفرح والسرور التي كانت تتصعد من أعماق صدورهم . ووقع الاضطراب الشديد بين الجنود ، فأركن الصقالبة إلى الفرار مخافة أن يصيبهم مثل ما أصاب زعيمهم المقتول ، وأسرع فارسان من القتلة إلى « مالة » ينهبان الأرض على جواديهما ، ولما بلغا المدينة أخذوا يصيحان بأعلى صوتهما :

« بشراكم : بشراكم . لقد قتل المتوثب الغاصب . »

ثم أدركا صاحب شرطة «نجا» فأردياه قتلا، وععدا إلى «إدريس» شقيق حسن فأخرجاه من السجن ، وأقاماه خليفة ، ومن ذلك الحين طويت صحيفة من تاريخ الصقالبة في « مالة » ، على أن السكينة التي

---

(١) هذا التاريخ موجود في ابن بسام « ج ١ ص ٢٢٤ »

استتبت فيها ، والطمأنينة التي لا يستها زمنًا مّا لم تدم طويلا .  
لم يكن «إدريس الثانى» فى الحقيقة قوى الدهاء كبير العقل، ولكنه  
كان وديع النفس ، كريم الخلق ، طيب القلب ، خيرا تقيًا ، يصرف  
جميع أوقاته فى عمل البر وفعل الخير ، ولو أن الأمر كان بيده وحده  
لما بقى فى بلاده رجل واحد يئن من الفقر ويشكو الحاجة ، وقد مكن  
المنفين والمبعدين - مهما كانت جنسياتهم وأحزابهم - من العودة إلى  
أوطانهم ، ورد إليهم ما أخذ من أملاكهم ، وما كان يصيخ بسمعه إلى  
الوشايات والسعايات . وكان جوادا سمحا ينفق على الفقراء والمعوزين  
كل يوم خمسمائة دوكا ، وكان - لركة طبعه وسداجة قلبه - يعطف على  
عامة الشعب، ويميل إلى التحدث إليهم، ولا يحجب جواريه عنهم ، مما  
تنبو عنه تقاليد المللك ورسوم الخلافة .

\*\*\*

ولما كان ( الحموديون ) من سلالة الرسول ( ص ) فقد كان عامة  
الشعب يرفعونهم إلى درجة التقديس ، ويرونهم فى أعينهم كأنصاف  
آلهة . ولكى يزيدوا من عقيدة الشعب رسوخا، ويكسبوا محبتهم ،  
ويشعروا قلوبهم المهابة والاحترام لهم، كانوا يظهرن أمامهم فى الأوقات  
القليلة النادرة ، وقد حاطوا أنفسهم بالأسرار .  
وكان إدريس - على ميله إلى البساطة والتحرر من التقاليد المرعية -



يُضْطَرُّ إِلَى أَنْ يَأْخُذَ بِالْقَوَاعِدِ الَّتِي سَبَقَ سَلَفُهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَخْتَفِي عَنْ عَيُونِ مُحَدِّثِيهِ فَلَا يَكَلِّمُهُ إِنْسَانٌ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ . وَلِكُونِهِ مِثَالُ الْبَسَاطَةِ الْمَجْسَمَةِ كَانَ يَنْسَى هَذَا التَّقْلِيدَ ، وَيَغْفُلُ هَذِهِ السَّنَةَ الَّتِي دَرَجَ عَلَيْهَا سَلَفُهُ ، فَقَدْ حَدَّثَ يَوْمًا أَنَّ شَاعِرًا مِنْ « إِشْبُونَةِ » كَانَ يَنْشُدُهُ قَصِيدَةً يَمْتَدِّحُ فِيهَا كَرَمَهُ ، وَيَشِيدُ بِطَيْبِ عَنَصَرِهِ ، وَشَرَفِ أَرُومَتِهِ ، وَكَرَمِ مُحَدِّثِهِ ، وَقَدْ جَاءَ فِيهَا بِلَهْجَةِ أَهْلِ الْجِبَاهِ الْغَرِبِيَّةِ مِنْ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ قَوْلُهُ :

وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمَّا أَشْرَقَتْ      فَانْتَبَتْ عَنْهَا عَيُونُ النَّازِلِينَ  
وَجْهَ إِدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَلِيٍّ      بَنِ حُمُودٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup>

---

(١) لَمَّا تَوَلَّى « إِدْرِيسُ بْنُ يَحْيَى الْعَلَوِيُّ » احْتَجَبَ عَنِ النَّاسِ عَلَى عَادَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ فِي الشَّرْقِ وَلَبِثَ كَذَلِكَ حَتَّى أَنْشُدَهُ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَشْبُونِيُّ » قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا :

|   |   |
|---|---|
| هَمَلْتُ عَيْنَاكَ بِالْمَاءِ الْمَعِينِ ؟    | « أَلْبَرَقَ لَائِحٌ مِنْ « أَنْدَرِينَ » |
| كَخَارِيقٍ بِأَيْدِي لَاعِبِينَ               | لَعَبَتْ أَسْوَافُهُ عَارِيَةً            |
| وَبَقَلِي زَفَرَاتٍ وَأَنْسِينَ               | وَلِصَوْتِ الرِّعْدِ زَجَرٍ وَحَنِينَ     |
| « وَيَا ، لَا أَسْمَعُ قَوْلَ الْعَاذِلِينَ » | وَأَنَا جِيءَ - فِي الدَّجَى - عَاذَاتِي  |
| إِنْ هَذِينَ لَدِينِ الدَّاشْتَقِينَ »        | خَوْفَتَنِي مِنْ سَفَامِ وَضْنِي          |
|   | فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلُهُ :                |

« انْظُرُونَا نَهْتَبِسُ مِنْ نُورِكِهِ      إِنَّهُ مِنْ نُورِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »  
أَمْرَ إِدْرِيسَ صَاحِبِهِ بَرَفَعِ الْحِجَابَ . وَقَدْ حَكَمَتِ الدَّوْلَةُ الْعَلَوِيَّةُ الْأَنْدَلُسِيَّةُ سَبْعَ

يابنى أحمد ياخير الورى      لأبيكم كان وفد المسلمين  
نزل الوحي عليه فاحتبى      فى الدجى فوقهم الروح الأمين  
خلقوا من ماء عدل وتقى      وجميع الناس من ماء مبین  
انظرونا تفتبس من نوركم      انه من نور رب العالمين

وكان الخليفة يستمع إلى مادحه من وراء ستار، وكانت رسوم  
الخلافة لاتسمح بقبول رجاء هذا الشاعر، إلا أن الخليفة فعل ما لم تجر  
به العادة، وقال لحاجبه :

« ارفع الستار . »

فكان هذا الشاعر أسعد حظا من عشيقة « جيوبتير » التى ذهبت  
ضحية ميلها إلى رؤيته ، حيث رأى ما ينبعث عن ذلك الحيا من النور  
الذى وإن لم يكن سناه يذهب بالأبصار ويبهز الأنظار- فهو على الأقل  
يطبع فى ذهن من يجتليه وينظر إليه أجمل صورة من صور الساحة  
والإحسان وطيب القلب، وربما كان هذا أحمد أثرأ فى نفسه مما لوعاين  
من صورته الحسية مشرقاً من مشارق الأنوار، وشاهد تلك الصفات

---

سنوات فقط وكانت عاصمها « سبتة » وتنتمى إلى « على بن أبى طالب » وعدد  
ملوكها ثلاثة . وعاد الأمر بعدها إلى بنى أمية مرة أخرى تم سقطت دولة بنى أمية  
وخلفها ملوك الطوائف .

التي ذكرها في شعره . ومن المحقق أن الخليفة أجازته بجائزة سنية  
وانصرف شاكرًا مسرورًا .

\*\*\*

ومما يؤسف له نظراً لمركز الخلافة وأمن الدولة أن «إدريس» كان  
يضم إلى سماحة النفس وطيب القلب ، وصفاً آخر هو التناهي في الضعف  
والمواتاة والاستسلام ، ففي استطاعته أن يوافق ويسلم بكل ما يراد  
ويطلب منه كائنًا ما كان ، فلو أن أميراً من الأمراء الذين يستظلون  
بحكمه - كباديس أو غيره - طلب إليه أن ينزل له عن قصر الخلافة أو يهبه  
أى أمر آخر لفعل ، وقد حدث أن « باديس » بعث إليه ملحقاً أن  
يرسل وزيره ويمكنه من التكيل به لضغينة في نفسه فصرح «إدريس»  
لوزيره الذى يحدد عليه «باديس» أنه كاتبه في شأنه وطلب أن يسلمه إليه  
وأنه لا بد فاعل حيث لا يستطيع أن يرفض طلبه ، فأذعن الوزير لحكمه  
ولم يشفع له عند « إدريس » أنه الخادم الأمين القديم لأسرته ، وقال :  
« لك يا مولاي أن تفعل ما يريدك هذا الطاغية ، وعلى أن أستسلم لما يأتى  
به القضاء ، وما يخبؤه لى القدر ، وسترى أنى ملاق حتى غداً وسأقابله  
باستسلام ورباطة جأش وقدم ثابتة »

وقضى الأمر ، ووصل وزير « إدريس » إلى « غرناطة »  
حضرة مملكة باديس فأمر به في الحال فضربت عنقه ، وكان

هذا الضعف الظاهر من « إدريس » مما أحفظ عليه البربر وأوغر صدورهم ، كما أغضبهم من قبل لينه المفرط ، وعطفه الذى كان يبدية للشعب بنزاعته الاشتراكية . بهذا تخرجت الحالة وانطوت قلوب البربر على بغض هذا الخليفة الضعيف المستسلم وكراهته ، ولما كان أولئك الزوج يطغيهم الضعف ويغريهم اللين ، ولا يردعهم إلا أعمال السيف فى رقابهم ، وإنضاج جلودهم بالسياط ، وتعليق المشاقق لإزهاق أرواح مجرميهم ، لم يزدحم ذلك إلا استخفافاً بالخليفة وازدراء به وجرأة عليه ، ذلك الخليفة الذى لم يصدر قط حكم على أحد بالقتل فى زمنه ، فلا جرم إذا كان الاستياء عاما شاملا ، ولا غرابة فى أن يحدث رئيس حصن « إبرش » ثورة فى داخله ، ويطلق صاحب شرطته سراح ابنى عم « إدريس » وينادى بمحمد البكر منهما خليفة ، ولا فى أن يثور الزوج الذين يؤلفون حرس قصر الخلافة بماتقه ، ويهيبوا بمحمد أن يكون بينهم ، على أن السواد الأعظم من أهل مائة لم يتخلوا عن خليفتهم فى ساعة الخطر المحدث والبلاء الداهم ، إذ كانت قلوبهم تفيض حبا وعطفا على خليفتهم الخير المحسن ، فسارعوا إلى نجاته ، وطلبوا أن تخرج لهم الأساحة من دار السلاح ، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا ولوأنهم كانوا متقلدى السلاح فى ذلك الوقت لم يبق من الزوج الثائرين أحد فى القصر ، وقد أبى إدريس أن يمكنهم من السلاح حقنا للدماء

وإطفاء للنائرة وشكرهم هذه العاطفة ، وخطبهم بقوله :  
« عودوا إلى دوركم فإنى لأرغب فى أن يسفك دم من أجلى . »  
وبهذا لم تقم أية عقبة فى سبيل إقامة محمد خليفة مكان إدريس  
الذى حل محله فى حصن إيرش ، وبهذا تبادل كل منهما مكان  
الآخر ( ١٠٤٦ - ١٠٤٧ )

ولم يكن الخليفة الجديد على شاكله سلفه ، بل نزع لأمه ، وهى  
حسنة باسلة ، يطيب لها العيش فى الخلاء حيث تشاهد عن كسب  
الاستعداد للقتال ، وإدارة المعارك الدموية ، وضرب الحصار على  
الحصون المنيعه ، وحيث تنثر على الجند من درر كلامها ، وصرر تقودها  
ما يلهبهم حماسة وشجاعة ونجدة ، وقد بلغ محمد فى البسالة والإقدام شأوا  
بعيدا ، وكان مع هذا قاسيا غليظ القلب سفاكا للدماء ، وإذا كانت  
القوة قد أعوزت إدريس فإن محمدا ( على رأى محدثى الثورة ) كان  
له من البأس والقوة أوفر نصيب ، وقد كان مثله فى ذلك مثل الضفدعة  
التي طلبت من « جيونتر » أن يقيمها ملكة على مملكة الضفادع ، وعالم  
الضفادع هذا كما أسماه ( لافونتين ) هو جماعة البربر والعبيد ، أولئك  
الذين لم يلبثوا إلا قليلا حتى حقنوا على الخليفة الرهيب ، وحملوا له  
الإحن فى صدورهم ، وندموا على سلفه الوداع المسالم الذى كان وجود  
كلا وجود .

وسرعان ما دبرت مؤامرة ، وشرع مديروها يتفاوضون مع رئيس حصن « إيرش » الذى سارع إلى الانضمام إليهم بسهولة فأخرجوا إدريس الثانى من السجن ، ونادوا به خليفة .

\*\*\*

وفى هذه الآونة لم يحجم « إدريس » عن إثارة حرب أهلية ؛ لأن ماعاناه فى سجنه ذهب بما كان فى نفسه من نزعات شريفة ، واتفق أن محمداً - وقد ألهمته أمه حمية وحماسة - قاتل خصومه ببسالة وشدة حتى ظفريهم وألجأهم إلى وضع السلاح ، ومع هذا لم يسلموا إدريس لخصمه ، بل أرسلوه لإفريقية ، وتولى الأمر هناك اثنان من البربر ، وهما : صاحب شرطة ( سبتة <sup>(١)</sup> ) ، وصاحب شرطة ( طنجة ) فقبلاه بحفاوة وإكرام بالغين ، وأخذاله فى البيعة وخطبا باسمه على المنابر ، على أن ذينك الرجلين استأثرا دونه بالسلطة الحقيقية ، وكانا لحرصهما على الاستئثار بالسلطة والنفوذ يراقبانه عن كثب ، ويحولان دون

---

(١) بلدة مشهورة من قواعد بلاد البربر واقعة على طرف بحر الزقاق بين برها وبين جزيرة الأندلس أقرب مسافة فى البحر ، وهى داخلة فيه كدخول كف على زند . ينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم « ابن مرانة السبق » كان من أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة ، وكان « المنعم » يقول : « اشتهيت أن يكون عندى من أهل سبتة ثلاثة نفر : « ابن غازى الخطيب » وابن عطاء الكاتب ، وابن مرانة الفرضى » . وتقع طنجة فى الجنوب منها على شاطئ المحيط الغربى .

ظهوره للجمهور ، واقترابه من الشعب ، وقد تمكن بعض مضمري  
العداوة لهما من أمراء البربر أن يقولوا للخليفة : ان هذين الملوكين  
اعتقلاك في القصر وحالا دون أن تتولى الحكم بنفسك ، فحولنا السلطة  
ونحن نخلصك منهما ، ولكن إدريس - لوداعته - رفض اقتراحهم ، وأفضى  
بمادار بينه وبينهم من الحديث إلى وزيريه ، فصدر أمرهما في الحال  
بإبعاد أولئك الأمراء .

وخشى الرجلان القاتمان بأفريقية أن يصنى إدريس لما يدس إليه  
مرة ثانية من الوشايات والدسائس فأوعزا إليه أن يرحل إلى الأندلس  
فجاز البحر إليها ، واستقر عند صاحب « رُنْدَة <sup>(١)</sup> » على أنهما لم يزالا  
يعترفان به كخليفة ويقران الخطبة باسمه على المنابر

وفي هذه الأثناء طلب المتدمرون في مالقة من باديس أن ينضم  
لمساعدتهم ، فقام وأعلن الحرب بادئ ذي بدء على ( محمد ) ثم أبرم  
معه صلحا ، ثم بايعوا أمير الجزيرة الخضراء ، واسمه ( محمد ) أيضا ،  
ونادوا به خليفة ، وكان الخلفاء بالأندلس الى هذا العهد أربعة ، وهم :  
الخليفة المزعوم المشبه بهشام في اشبيلية ، ومحمد في مالقة ، ومحمد صاحب  
الجزيرة ، ثم ادريس الثاني المستقر في ( « رُنْدَة » )

---

(١) هي معقل حصين في الجهة الغربية من الأندلس بين « إشبيلية »

ولم يكن لإثنين منهما في الحقيقة شئ من النفوذ والسلطان ، أما  
الآخران فكانا أميرين صغيرين لا خطر لهما ، ولا يستحقان أن يحملتا  
لقب الخلافة ، ولا أن يتسمى كل واحد منهما بأمر المؤمنين  
أما أمير الجزيرة فقد فشل في هذه المحاولة ، وانقض من حوله  
الداعون له باسم الخلافة ، فعمجل بالعودة الى بلاده ، ومات بعد أيام  
قليل أسى وخجلاً ( ١٠٤٨ - ١٠٤٩ )

وبعد أربع أو خمس سنوات توفي «محمد» الخليفة القائم باللقبة ، وتطلع  
«إدريس الثالث» أحد أبناء أخيه إلى منصب الخلافة ، ولكنه لم  
ينجح هذه المرة ، وأقيم «إدريس الثاني» خليفة ، وشاءت الأقدار  
أن تسالمة فيبقى في هدوء وطمأنينة إلى أن قضى نحبه سنة ( ١٠٥٥ )  
وأراد حمودى آخر أن يخلفه في الحكم فناوأه «باديس» وقضى  
على آماله .

ولما كان «باديس» صاحب غرناطة هو الرئيس الحقيقى للبربر ، فقد  
كره أن يرى أمامه خليفة تستظل ببلاده بحكمه ، ومن ذلك الحين عقد  
النية على أن يقضى على الحموديين ، وأن يدمج مملكة<sup>(١)</sup> وأعمالها ضمن

---

(١) هي مدينة بالأندلس من أعمال « رية » واقعة على ساحل بحر الزقاق ،  
وهو المعروف قديماً ببحر الحجاز ، والمعروف الآن بمضيق جبل طارق . وتقع  
قبالتها من العدو الأخرى يبلاد المغرب مدينة « سبتة » .



ولاياته ، وقد أمضى عزيمته هذه ، وأنفذ مشروعه دون أن يصادف عوائق كبيرة

إلا أن العرب لم يكونوا ليدعنوا لسلطانهم إلا على كره منهم لذلك ، ولما كان قد كسب إلى جانبه أمثال الوزير أبي عبد الله الجذامي لم يحفل بالباقيين ، أما البربر فكانوا مقتنعين بضعف أمراءهم ، وبأن الضرورة تقتضى عليهم بأن ينضموا إلى إخوانهم من بربر غرناطة ليقفوا بهم ، ويستطيعوا أن يواجهوا الحزب العربى الذى يزداد كل يوم قوة وتوسعا فى الجانب الغربى الجنوبى ، لهذا كله ناصرُوا باديس وأيدوا خططه ومشروعاته ولم يعارضوها ، وأصبح باديس يفضل عون البربر والتفافهم حوله ملكا على غرناطة ومالقة وما يتبعها من أعمال<sup>(١)</sup> ، وتمكن من نفي

---

(١) نحن هنا بمسبب الحاجة إلى اختصار طرف من أخبار الدولة الحسنية الموحدية يعرف بها حلقهم ونسبهم ، ويتسق بها تسلسلهم وتعاقب ولائهم : فأول ملوك بني هاشم بالأندلس على بن حمود بن ميمون بن حمود بن على بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، خرج من سيته إلى مالقة للاخذ بدار هشام الخليفة الأموى فانحاز إليه خيران الصقلي ، وزاوى بن زيرى ، وجبوس بن ماكسن وإخوته وبنو عمه من صنهاجة ، ومن انضم إلى هؤلاء من جماعة الناس ، فحارب بهم سليمان قاتل هشام وهزمه ودخل القصر بقرطبة ، وتسمى بأمر المؤمنين ، وبقي خليفة إلى أن قتله صقالبة بحمام قصره سنة ( ٤٠٨ ) وولى الخلافة بعده بقرطبة أخوه القاسم بن حمود ، ولى مرتين : المرة الأولى سنة ( ٤١٢ ) وبقي بها إلى أن فر وخلعه ابن

المجوديين والقضاء عليهم - وهم وإن كانوا قد لعبوا دوراً آخر في  
أفريقية إلا أن دورهم الذي مثله في الأندلس كان قد انتهى .

أخيه يحيى بن على بن حمود ، والثانية بعد ابن أخيه يحيى ، وتوفى بحبوسا عند ابن  
أخيه إدريس بن على بن حمود ، وبعد هؤلاء انقرضت دولة بني حمود بقرطبة  
ولما خرج يحيى بن حمود من قرطبة في خلافته الأولى استوطن ( مالقة ) أما  
عمه القاسم ففرج منها إلى أشبيلية فأوحد أهلها أبوابها في وجهه ، فاستقر بمريش ،  
فزحف إليه ابن أخيه يحيى هذا ، وأسرهم وأسره معه بنيه وسجنهم في مالقة ، وبذلك  
صارت شريش ومالقة ، والمرية ، وسبتة في طاعته ، وخطبوا له بالخلافة ، وبقي  
عمه القاسم سجيناً عنده إلى أن قتله خنفاً ، أما يحيى بن على فبقي خليفة إلى أن  
قتل بقرمونة سنة ( ٤٢٧ ) ولما وصل خبر مقتله إلى أخيه إدريس بن على بن  
حمود دخل مالقة ودعا لنفسه ، فبايعه حبوس بن ماكسن وقيبلته صنهاجة ، وتوفى  
إدريس هذا صاحب « سبتة » و « مالقة » سنة ( ٤٣١ ) فبويع أخوه حسن  
بن على بسبتة - ولما توفى قام بعده ولده يحيى بن حسن بن على ، ثم قام عليه  
ابن عمه حسن بن يحيى بن على فخلعه وقتله بسبتة ثم توفى حسن بن يحيى هذا  
بمالقة مسموماً ، وترك ولداً صغيراً بسبتة ، فقام به قائده ( أبو الفوزنجاء ) فجاز  
البحر إلى الجزيرة الخضراء ، ولما كان في بعض الطريق قتله أخوال يحيى بن حسن  
ومواليه ، ونهض قوم منهم إلى مالقة فقتلوا الوزير أبا جعفر بن موسى ، وأخرجوا  
إدريس بن يحيى بن على بن حمود من سجنه ، فبايعه أسراء البربر ، وخطبوا له  
باسم الخلافة وذلك سنة ( ٤٣٤ ) ثم قدم عليه بمالقة ابن عمه محمد بن إدريس بن  
على بن حمود ، وخلعه سنة ( ٤٣٨ ) وبويع له بالخلافة ، وكان سفاكاً للدماء  
فوجه إليه باديس بن حبوس بكأس عراقى مسموم فأت في سنة ( ٤٤٤ ) فولى  
ولده محمد ، فخلعه البربر وأقاموا محمد بن القاسم بن حمود - ومات محمد بن القاسم ،  
فبايعوا ابنه القاسم ثم تغلب ابن عباد صاحب أشبيلية على الجزيرة الخضراء ، وأخرج  
منها القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود ، وبخروجه انقرضت ذريتهم من الأندلس ،  
ودالت دولة المجوديين بها ، وكانت مدتهم ٥٨ سنة

## الفصل الخامس

لكيلا تقطع تسلسل الحوادث في هذه العجالة اليسيرة عن تاريخ «مالقة» اضطررنا لأن نلم بالحوادث إلمامة يسيرة، ولما كنا سلتقى نظرة على التقدم الذى أحدثه الحزب العربى فى غضون هذه المدة ، فن واجبنا أن نعود إلى بعض حوادث السنين الماضية

لما توفى أبو القاسم محمد قاضى إشبيلية فى أواخر يناير سنة ١٠٤٢ خلفه ابنه عباد ، وكان فى السادسة والعشرين من عمره، ولقب حينئذ بالحاجب أى الوزير الأول لهشام الثانى ، واشتهر بعد ذلك فى التاريخ باسم المعتضد ، ولو أن هذا الاسم لم يطلق عليه الا بعد فترة من الزمن، فإننا سنطلقه عليه الآن تفاديا مما عساه أن يقع من اللبس عند تغييره

إن هذا الزعيم الجديد للحزب العربى فى الجنوب الغربى من الجزيرة ، قد حقق بشخصيته القوية الفتية لهيئة من الهيئات الحزبية القوية مالم تحققه الشيخوخة اللدنة الضعيفة ، فقد كان فى كل الشؤون المنافس الجدير لخصمه «باديس» زعيم الشبهة البربرية المعارضة .

كان هذا الزعيم الجديد كمنافسه كثير الشكوك حقوداً غادراً لثيماً ظلوماً جباراً قاسياً سفاكاً للدماء ، وكان مدمناً للخمر مثله ، إلا أنه قد برزّه فى الخبث والدعارة، وكان نائر الطبيعة جامح الشهوة، يواصل اللذات

ولا ينقطع عن الشهوات ، حتى أنه لم يجتمع في قصر ملك من الملوك ما اجتمع في قصره من الحظيات والسراري . يقال إنه دخل قصره - على التابع - ثمانمائة من الشواب والصبايا الحسان .

وبالرغم من التوافق بين هذين الملكين في كثير من النزعات الشريرة والشهوية ، فإن أخلاقهما وميولهما وعاداتهما لم تكن متوافقة في نواح كثيرة .

فأمير البربر كان من البربر أو أقرب إلى خشونة البربر منه إلى شيء آخر ، ساخرا من آداب اللياقة ، بعيدا عن الحصافة والثقافة ، لايعنى بأساليب الحضارة ، ولا يترك لها عادات البداوة ، ولم يكن الشعراء لتطأ أقدامهم أبهاء الحمراء ليمتدحوا بالشعر العربي ملكا لايعرف غير طانة البربر .

أما المعتضد فقد كان على النقيض من ذلك ، قد أخذ بطرف مناسب من الثقافة والتعليم الحسن ، ولم يكن - في الحقيقة - قد توسع في العلوم حتى يكون جديراً في زعمه أن يوضع في مصاف العلماء ويستحق لقب عالم ، ولكنه أوتي من المواهب ، ودقة الشعور ، ولطف الإحساس ، وسلامة الذوق ، وحدة الذكاء ، وقوة الذاكرة ، ما جعله يعلم مالا يعلمه رجل عادي .

وشعره الذي نظمه قصائد ومقطعات له قيمته إذا أريد الوقوف على

كنه أخلاقه ، بغض النظر عن قيمته اللغوية والأدبية ، على أن هذا الشعر قد أكسبه بين مواطنيه مكانة شاعر مجيد<sup>(١)</sup> وكان محبا للأدب

#### (١) المعتضد وأخباره وأشعاره

تنقل هنا — بصرف يسير — طرقا من أخبار المعتضد عن كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي ، ثم نتبع ذلك بنبذة من قصائده ومقطوعاته تلامعا أثبتناه من شعر الملكين ( المعتضد والمعتد ) في شرح ديوان ابن زيدون ( ص ٢٧٠ ) تنميا للفائدة ، وإثباتا لماله مساس بالفصول ( ٥ ، ٦ ، ٧ ) من كلام «دوزي» حتى يكون القارى على بينة مما يمر به فيها من الحوادث التاريخية ، والعبارات التحليلية التي يحلل بها «دوزي» تسمية ملكين عظيمين من ملوك الطوائف هما «المعتضد» ومنافسه «باديس» وذلك ما تراء ضروريا ولازما لاتصاله بما نحن فيه اتصالا وثيقا .

#### المعتضد

هو أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، ولى أمور «إشبيلية» وأعمالها بعد وفاة أبيه القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل سنة ( ٤٣٩ ) هـ وجرى على سنن أبيه أولا من جعل الحكم شورى بينه وبين مجلس منتخب من أعوان ووزراء وشركاء لا يقطع أمرا دونهم ، ولا يحدث حدثا إلا بمشورتهم ، ثم بدا له أن يستبد بالملكة وحده ، وكان شهما صارما حديدا لقلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء ، وواته مع هذا المقادير ، فلم يزل يعمل على إبعاد شركائه في الحكم واحداً واحداً فنهزم من قتله صبراً ، ومنهم من نفاه عن البلاد ، ومنهم من أماته خولا وفقراً ، إلى أن تم له ما أراد من الاستبداد بالأمر ، وتلقب بالمعتضد بالله ، ومن حيله ودهائه في

شغوفاً بالفنون أريحياً جواداً يغمر الشعراء بالعطاء الكثير ، على المديح القليل ، له ولع شديد بتشيد القصور الفخمة ، وكانت أساليبه في

السياسة أنه ادعى أنه وقع إليه هشام المؤيد بالله ابن الحكم المستنصر بالله ، وكان الذى حمله على تدبير هذه الحيلة ، مارآه من اضطراب أهل «إشبيلية» وخاف قيام العامة عليه ، لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بنى أمية بقرطبة كالمستظهر ، والمستكفي ، والمعتد ، فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة ، وبلغه أنهم يطلبون من أولاد بنى أمية من يقيمونه ، فادعى مادعاء من ذلك ، وذكر أن هشاماً عنده بقصره ، وشهد له خواص من حشمه ، وصور نفسه بصورة الحاجب لهشام ، والمنفذ لأمرهم وأمر بالدعاء له على المنابر ، فاستمر ذلك من أمره سنين إلى أن أظهر موته ، ونعمه إلى رعيته في سنة (٤٥٥) واستظهر بعهد عهده له هشام المذكور فيما زعم ، وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس ، ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك ، وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس ، وكان قد اتخذ خشباً في ساحة قصره جلها برءوس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التى تكون فى القصور ، وكان يقول :  
فى مثل هذا البستان فليتزده المتزهدون !

وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحدهصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب ، وحنانة نفس ، كانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس ، وكان قد استوى فى مخافته القريب والبعيد ، لاسيما منذ قتل ابنه وأكبر أولاده المرشح لولاية عهده صبراً ، وكان سبب ذلك أن ولده المذكور ، واسمه إسماعيل ، كان يبلغه عنه أخبار مضمونها استطالة حياته ، وتمنى وفاته ، فيتقاضى المعتضد ، ويتغافل تغافل الوالد إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلة وتسور سور القصر الذى فيه أبوه فى عبداء وأراذل معه ، ورام افتكك بأبيه ، فانتبه البوابون

الظلم مقرونة بشئ من المهارة، ينهج في ذلك منهج خليفة بغداد الذي اتحل نفسه لقبه ، واختط في أحكامه خطه ، بينما كان « باديس » لا يعرف من أمر هذا الخليفة شيئاً بل ربما كان يحجل العصر الذي كان فيه .

---

والحرس ، فهرب أصحاب إسماعيل ، وأخذ بعضهم فأقر ، وأخبر بالكائمة على وجهها ، وقيل إن إسماعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك ، وجعل لمن قتل آتاه المعتضد جعلاً سنياً ، قائلة أعلم . فقبض المعتضد على ابنه إسماعيل هذا ، واستصفي أمواله ، وضرب عقه فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه حيثنذ

وبلغنى أنه قتل رجلاً أعمى بمكة ، كان يدعو عليه بها ، وكان هذا الرجل من بادية إشبيلية ، وكان المعتضد قد وضع يده على بعض مال لهذا الرجل الأعمى ، وذهب باقى ماله حتى افتقر ، ورحل إلى مكة ، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك ، فاستدعى بعض من يريد الحج وناولوه حقاً فيه دنائير مطلية بالسّم ، وقال : لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة ، وسلم عليه عنا ، فاتفق أن سافر الرجل ومعه الحق ، فحين وصل مكة لقي الأعمى ودفع إليه الحق وقال هذا من عند المعتضد ، فأنكر ذلك الأعمى . وقال : كيف يظلمنى ناشبيلية ، ويتصدق على بالحجاز ، فلم يزل الرجل يخفضه إلى أن سكن وأخذ الحق ، فكان أول شئ فعله أن فتح الحق ، وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه في فيه وجعل يقلب سائرهما بده ، إلى أن تمكن منه السم ، فما جاء الليل حتى مات ، فاعجب لرجل بقاضية الغرب ، يعتنى بقتل رجل بالحجاز ، وقتل على هذه الصورة رجلاً من المؤذنين من أهل إشبيلية ، فرمته إلى طليطلة ، فكان يدعو عليه بها في الأسفار مقدراً أنه قد آمن غائلته إذ صار في مملكة غيره ، فلم يزل يعمل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله .

وكلا الملكين كان مولعا بشرب الخمر كما عرفت إلا أن باديس -  
لخشوته وجفاء طبعه- كانت تتمثل في مجلس شرابه الوحشية والجفاء ،  
وكان لبربريته الجافية لا يمنعه الخجل أن يسف في شرابه إسفافا معيبا

وجاءه برأسه . وكان أكبر من يناوئه من المتغلبين المجاورين له ، وأشدهم عليه  
البربر : صنهاجة وبنو برزال الذين بقرمونة وأعمالها من نواحي إشبيلية ، فلم يزل  
يصرف الحيلة تارة ، ويجهز الجيوش أخرى إلى أن استزهم ، ففرق كلمتهم ، وشتت  
منتظم أسرهم ، ونفاهم عن جميع تلك البلاد وصفت له أمورها ، كان له عين بقرمونة  
يكتب له بأخبار البربر ، بلغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك  
الرجل الذي جعله عينا له بقرمونة كتابا في بعض أمره أن استدعى رجلا من ياديه  
إشبيلية شديد البله كثير الفعلة وقال له : اخلع ثيابك ، وألبسه جبة جل في جيبها  
كتابا وخاط عليه . وقال له : اخرج إلى قرمونة فاذا وصلت بقرمها فاجمع حزمة  
حطب وادخل بها البلد ، وقف حيث يقف أصحاب الحطب ، ولا تبعها إلا لمن يشتريها  
منك بخمسة دراهم ، وكان قد قرر هذا كله مع صاحبه الذي بقرمونة ففرج البدوي  
كما أمره المعتضد فلما قرب من قرمونة جمع حزمة من الحطب ، ولم يكن قبل هذا  
يعانى جمعه ، فجمع حزمة صغيرة ، ودخل بها البلد ووقف في موقف الخطابين ،  
فجعل الناس يثرون عليه ، ويسومون منه حزمته . فاذا قال لأبيهما إلا بخمسة دراهم  
ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه ، فلم يزل كذلك إلى أن أجنه الليل ،  
والناس يسخرون منه ، فبعضهم يقول : هذا آبنوس ، ويقول الآخر : لابل هو  
عود همدى ، وما أشبه هذا حتى مر به صاحب المعتضد . فقال له : بكم تباع حزمته  
هذه . فقال : بخمسة دراهم . فقال : قد اشتريتها ، فاحملها إلى البيت ، فقام يحملها ،  
والرجل بين يديه حتى بلغ بيته فوضع الحزمة ، ودفع إليه الخمسة الدراهم ، فلما



أما المعتضد وهو ذلك الرجل المثقف المهذب ، والإنسان الرقيق الحاشية ، والملك العظيم الشأن، فما كان يقدم على هذا الأمر إلا بشيء

أخذها وهم بالانصراف ، قال له : أين تريد في هذا الوقت ، وقد علمت خوف الطريق فبت الليلة عندى ، فاذا أصبحت رجعت إلى منزلك ، فأجابه فأدخله الى بيته وقدم له طعاما وسأله كأنه لا يعرفه : من أين أنت ؟ فقال : أنا من بادية إشبيلية قال : يا أخى ما الذى جاء بك إلى هذا الموضع ؟ وقد علمت نكد البربر وشؤونهم ، وهوان الدماء عليهم . فقال : حملتني على هذا الحاجة ، ولم يظهر له أن المعتضد أرسله ، فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم ، فلما رأى غلبة النوم عليه . قال له : تجرد من ثوبك هذا فهو أهنا لنومك ، وأروح لجسمك ، فتجرد الرجل ونام ، وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيبيها ، واستخرج الكتاب فقراه ، وكتب جوابه وجعله في جيب الجبة ، وخاط عليه كما كان فلما أصبح الرجل لبس جبته ، ورجع إلى إشبيلية وقصد باب دار الامارة ، واستأذن فأدخل على المعتضد . فقال له : اخلع هذه الجبة وكساء ثيابا حسنا ، فرح بها البدوى وخرج من عنده فرحا يرى أنه قد خلع عليه ، ولم يعلم قيم ذهب ولا بم جاء ؟ وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقراه ، وتمم ما أراد من أمره ، وله في تدبير ملكه ، وإحكام أمره آراء عجيبة ، وحيل غريبة ، لم يسبق إلى أكثرها يطول تعدادها ، ويخرج عن حد التلخيص بسطها

ولما قتل ابنه إسماعيل كما تقدم ، وكان قد لقبه المؤيد عهد بعده الى ابنه أبى القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، ولقبه بالمعتمد على الله فحسنت سيرة أبى القاسم هذا في حياة أبيه وبعد وفاته .

وتوفى المعتضد بالله في شهر رجب من سنة ( ٤٦٤ )

من الرقة والدعة واللفظ ، وكان لما يتنازبه من الذوق ولطف  
الاحساس وقوة التمييز ، لا يخلو مجلس شرا به من شروط اللياقة ، وجمال

### أشعاره

قال المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبو عمرو عباد بن محمد بن عباد يصف شغفه  
بذكر المدامة وحبه لما يهوى النديم ، ومناوآته للعدو المناوىء ، وتقسيمه زمنه  
شطرين : شطر لتدبير الملك ، وشطر للرح واللهو وإدمان الخمر .

|                               |                                 |
|-------------------------------|---------------------------------|
| لمرك إني — بالمدامة — قوال    | وإني — لما يهوى النديم — لفعال  |
| قسمت زمانى بين كد وراحة       | فللرأى أسحار ، وللطيب آصال      |
| فأمسى على اللذات واللهو عاكفا | وأضحى بساحات الرياسة أختال      |
| ولست على الادمان أغفل بغنى    | من المخذء إني فى المعالى لمحتال |
| إذا نام أقوام عن المجد ضللة   | أسهد عيني أن تنام بى الحال      |
| وإن راق أقواماً من الناس منطق | بروق بدا منى مقال وأفعال        |

وقال يتنزل :

|                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| رعى الله من يسلى فؤادى بحبه   | سعيأ ، وعينى منه فى جنة الخلد |
| غزالية العينين شمسية السنا    | كثيية الردفين غصنية القد      |
| شكوت اليها حبها بمدامى        | وأعلمتها ماقد لقيت من الوجد   |
| فصادف قلبى قلبها — وهو سالم — | فأعدى وذوالشوق المبرح قديعدى  |
| فجادت — وما كادت — على بخدها  | وقد ينبع الماء النمر من الصلد |
| فقلت لها : هاتى نايالك اننى   | أفضل نوار الأقاحى على الورد   |
| وميل على جسى بحسك فاثنت       | نعيد الذى أملت منها كما تيدى  |
| عناقا ولثما أرويا الشوق بيننا | فرادى ومثنى كالصرار من الزند  |

الدوق ، وحسن التنسيق ، وكان يتعاطى الخربطريقة غير معتدلة ،  
وكان هو وندماؤه ينشئون فى امتداح هذه النقيصة الخريات البديعة

فيا ساعة ماكان أقصر وقتها لدى تقضت غيرمذمومة العهد  
وقال يتمدح بالكرم والسخاء ومضاء العزم:

«رعى اللهمالينا حديثاًوماضياً  
فما لليالى لاتزال ترومنى  
وقدعلمت أن الخطوب تطيعنى  
أجدد فى الدنيا ثيابا جديدة  
فما رى بى بخل بخاطر مهجتى  
ألاحذا فى المجد اتلاف طارفى  
وان كنت قدجرت عزمى ماضياً  
ويرمينى صائب السهم قاضياً  
ومازلت من ليس الدنيا عاريا  
يجدد منها الجود ماكان باليا  
ولا مر بخل الناس قط بياليا  
وبئلى عندالهد تقسى وماليا.»

وقال حين دخل على ابنه المعتمد مألقة

«أرىة ! أنت فائدة الزمان  
وقد رمناك من بلد بعيد  
بذلنا جهدنا عزما وحزما  
وأجهدنا العزائم والمساعى  
ليهنىء أهل مألقة انتصارى  
سيتقدم وينميهم جميعا  
وأرقيهم ذرا درج المعالى  
وأضعاف الذى ييسدى لسانى  
ألم أعقهم من ذل كفر  
وتوراة محرفة أعزت

فقد فقت الممالك فى معان  
فأدناك الاله بلا توات  
ووطننا الكفاة على الطعان  
وأعملنا الحسام مع السنان  
واعزازى لهم بعد الهوان  
رضاع الخير ان درت لباتى  
كما أجنيهم ثمر الأمانى  
اليهم مايعين لهم جنازى  
جرى فى ضيهم ملء العنان  
فطالت ذلة السبع المثانى

التي تكون آية في لطف الشعور ، وجمال الذوق ودقة التعبير ، وقد ساعدته قوته الجسمانية على مواصلة أعمال الدولة والقيام ، بأعباء الملك مع إدمانه الشراب ، وانكبابه على الشهوات واللذات ، وقد كان من آيات نشاطه للعمل ، وانصرافه لمهام الدولة ، أن يكف عن شهواته في الأوقات التي تتطلبها العمل ، فيعنى بمهام دولته كملك ، ويبدل في ذلك جهد الطاقة ليوثر من أوقات العمل وقتا للهو والراحة واستجمام القوى يعود فيه إلى شرابه . ويلهو فيه بلذاته .

\* \* \*

ومن الغريب أن هذا القاسى الجبار - مع ما كان يلقيه في قلوب حرمه وجواريه الحسان من الفرع والرعب بنظراته المفزعة المروعة - كان

الى أن ثار بى عزم يمان فأدرك سؤله العضب اليماني  
وأفضيت الصوارم خاطبات فكان قضاؤها سحر البيان  
فعاد البر معبور المغاني وآب الفسق مهديم المباني  
وقام امام جامهم يصلى وشنت المسام بالاذان »  
هذا ما اخترناه من شعر المعتضد ، وهو وان لم يكسبه - كما يقول دوزى - بين معاصريه مكانة شاعر مجيد ، لخلوة من الديباجة والطلاوة ، وبعده عن المتانة والحزالة ، وتقصيره عن بلوغ المرتبة الأدبية التي تسمو به الى مستوى الشعر الفحل - فان فيه من الشواهد التي ينتفع بها المؤرخ ما لا يصح معها اغفاله ، ولا ينبغي اهماله ، لذلك ترى « دوزى » يستشف من خلال أبيات المعتضد ، ويستخرج من تضاعيف قصائده ومقطعاته الكثير من صفاته وعاداته وأخلاقه ، ويتعرف وجوه الفرق بينه وبين مناوره وعدوه « باديس » عند الموازنة بينهما كملكين متجاورين عاشا في حروب ومنازعات .

ينظم فيمن يقع في حباتهن من أولئك الغيد الحسان أشعاراً تجمع الى  
الركة والسلاسة اللذة والمتعة

فبين «باديس» إذن وبين «المعتضد» من البون الشاسع في الفساد  
مايفصل بين الفاسد المتبربر الحشن، والفاسد المتحضر الظريف، ولكن  
مما يجب الاعتراف به هنا أن البربرى كان أقل من زميله فساداً وخبث  
فس ، فقد كان «باديس» في جرائمه وشناعاته على جانب من النزاهة  
والصراحة، بينما عينه المنفرسة الباحثة تتحسس الأفكار الخفية في نفس  
غيره وتبحثها لتكشف عن مكنوناتها، دون أن يظهر ذلك في معارف  
وجهه ، أو نبرات صوته .

\*\*\*

ولم يمت ملك «غرناطة» في فراشه بل طاح في ساحة القتال ، أما  
ملك «أشبيلية» فقد كان على خوضه غمار كثير من المعارك والحروب -  
دونه شجاعة وبسالة لأنه لم يتول بنفسه قيادة الجيش في هذه الحروب  
سوى مرة أو مرتين في حياته ، وكان من دأبه أن يضع الخطط  
الحرية للمعارك . ويدع تنفيذها لقواده وهو منزو في خبائه بعيداً  
عن خطوط القتال ، كما روى ذلك بعض مؤرخى العرب.

وكانت حيل «باديس» في النكاية بأعدائه جافة سقيمة<sup>(١)</sup>، مما يجعل

(١) يقول الفتح بن خافان ، في كتابه فلائد العقيان ، ضمن فصل عرض فيه لذكر باديس والمعتضد ما يلي بنصه وفصه :

ولما نزل عرش الخلافة وخوى نجمها ، ووهى ركن الإمامة وطس رسمها وصار الملك دعوى ، وعادت العافية بلوى ، استنسر البغاث ، وصحت الأضغاث ، واستأسد الظي في كئناسه ، وثار كل أحد في ناسه ، وخلت المناير من رقائها . وفقدت الجمع مقيمي أوقاتها ، وكان باديس بن حبوس بقرناطة عائيا في فريقه ، عادلا عن سنن العدل وطريقه ، يجترى على الله غير مراقب ، ويجرى الى ماشاء غير ملتفت للعواقب ، قدحجب سناناه لسانه ، وسبقت اساءته إحسانه ، ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم ، ولا شرب الماء إلا من قليب دم ، أحزم من كاد ومكر ، وأجرم من راح وابسكر ، وما زال متقدما في مناحيه ، مفتقدا لنواحيه ، لايرام بريث ولاعجل ، ولا يبيت له جار الا على وجل ، الى ان وكل أمره الى أحد اليهود واستكفاه ، وجرى في ميدان لهو حتى استوفاه ، وأمره أضيع من مصباح الصباح ، وهمه في غبوق واصطباح ، وبلاده مراد للفاتك ، وستره في يد الهاتك . فسقط الخبر على المعتضد بالله ملقح الحرب ، ومنتج الطعن والضرب ، الذي صاد الطير تحت أجنحة العقبان ، وأخذ القريسة من فم الثعبان ، فسد الى مائلة سهمه وسنانه ، ورد اليها طرفه وبنانه ، وصمم اليها تصميم سايور الى الحضرة ، وعزم عليها عزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصر ، ووجه اليها جيشه المتزاحم الأفواج ، التلاطم الأمواج ، وعليه سيفه المستل ، وحتفه المحتل ، ابنه «المعتمد» سهام الأعادي ، وحمام الأسد العادي ، فلما أطل عليها أعطته صفقتها ، وأمطته صهوتها ، الا قصبته فانها امتنعت بطائفة من السودان المغاربة لم يرضوا سفاحها ، ولا أمضوا نكاحها ، وفي أثناء امتناعهم ، وخلال مجادلتهم ودفاعهم ، طيروا الى باديس من

إحباطها بسرعة ميسورا وسهلا ، أما حيل المعتضد فكانت دقيقة لينة

ذلك خبراً أصحاه من نشوته ، ولجأه عن صبوته ، فأخرج من حينه كتيبته التي كانت ترمى بالزبد ، ولانثنى عن القنا القصد ، وعليها ابن الناية قائد جنده ، ومورى زنده ، وقد كان أشار على المعتمد برأيه بتنفيذ المتنعين ولووه عن مساورتهم ، وتوّه عن مراوحتهم وبأكرتهم ، ومنعوه من تزلهم ، وأطمعوه في استزالمهم . وانما كان ذلك أبقى على الأقارب ، وأبقى على أولئك المغارب . فعدل عن انتهاز غرصتهم ، وأبراء غصتهم ، الى الاستراحة من تبعه ، والاناخة على لهوه ولعبه ، وتفرق أصحابه في ارتياد الفتات ، وطراد اللذات ، فما أمسى إلا وقد غشي ليلاً ، وسال عليه سيلها ، وأصحابه بين صريع رحيق ، ومنادى من مكان سحيق ، نخاب سعيه ، وبال رأيّه ، ونجا برأس طمرة ولجام ، وأوى الى أحد الماقل أعزى من الحسام ، فحقد المعتضد عليه بتنقيسه لأهل القصة ، واصاخته الى تلك العصبه ، وضربه بالعصى ، ونكله تنكيل القصى ، فكتب اليه :

«مولاي أشكوا لك داء أصبح قلبي به جريحاً  
سخطك قد زادني سقاماً فابعث إلى الرضا مسيحاً»

فعفا عنه وصفح ، وعقب له عرف رضاه وشفح ، وقد كان قبل كتب إليه — حين أمره باللقام بالموضع الذي نجا اليه مسجوناً — يسليه ، ويعرض له بالبربر ويستعطفه مما حصل فيه :

«سكن قوادك لا تذهب بك الفكر  
فإن يكن قدر قد عاق عن وطر  
وإن تسكن خيبة في الدهر واحدة  
يا فارساً تحذر الأبطال صوته  
قد أخلفتني صروف أنت تعلمها  
ماذا يعيد عليك البث والحسر  
فلا مرد لما يأتي به القدر  
فكم غزوت ومن أشياحك الظفر  
حين حد عبدك فهو الصارم الذكر  
وغال مورد آمالي بها كسر

عيس المخدوع منها في لينها مايمس من ظهر الحية الرقطاء تحت أنيابها السم  
ناقع ، ولهذا كان يندر فشلها ، ويصعب إحباطها ، وجانب الدهاء وسعة  
الحيلة من الجوانب القوية في المعتضد ، ويروون في هذا الصدد حكاية  
يجدر بنا إيرادها ، وذلك أنه حدث في الموقعة التي أوقعها المعتضد ضد  
بربر « قرمونة » أنه كان يتبادل مع رجل من عرب هذه المدينة رسائل  
سرية يقفه فيها على حركات وخطط البربر ، ولكيلا تضبط هذه  
الرسائل ، ولا يرتاب فيها أحد ، كان مضطرا لأن يتخذ كثيراً  
من الحيلة والحذر .

|                                |                                |
|--------------------------------|--------------------------------|
| فالنفس جازعة ، والعين دامعة    | والصوت منخفض ، والطرف منكسر    |
| قد حلت لونا وما بالجسم من سقم  | وشبت رأساً ولم يبلغني الكبر    |
| لم يأت عبدك ذنباً يستحق به     | عتبا وهامو قد ناداك يعتذر      |
| مالذنب الا على قوم ذوى دغل     | وفي لهم عدلك المألوف اذ غيروا  |
| قوم نصيحتهم غش ، وجبهم         | بغض ، ونفهم ان صرفوا ضرر       |
| يعيز البغض في الألفاظ ان نطقوا | وعرف الحقد في الألفاظ ان نظروا |

\*\*\*

الى آخر ما ذكره في هذا الفصل عن المعتمد وولديه المأمون والراضى ونزول  
المرابطين بقرطبة وزوال دولة آل عباد ، ورائية المعتمد هذه لأبيه المعتضد قد  
رواها الفتح ناقصة كما ترى ، وهى بتمامها مثبتة في شعر الملكين من شرحنا ديوان  
ابن زيدون



ولكى يصل إلى غرضه من تبادل الرسائل مع جاسوسه ، كان قد اتفق معه على خطة معينة ، وبناء على تلك الخطة أشخص إلى قصره رجلا ساذجا طيب القلب من بدو « إشبيلية » ولما مثل بين يديه قال له : « اخلع رداءك هذا الخلق ، والبس هذه الجبة الثمينة الجميلة التي أتركها لك هدية إذا قت بتنفيذ ما أمرك به . » فارتدى الرجل الجبة وهو يفيض بشرا وسرورا ، ولم يدر أن في بطاقة جيها قد خيبت رسالة من المعتضد إلى عينه بقرمونه ، وأظهر الرجل استعداداه لأن يؤدي بدقة وأمانة كل الأوامر التي يكلفه بعملها ، فاستحسن المعتضد منه ذلك وقال : « أصح بسمعك إذن لما أمرك به : عليك أن ترحل من الآن إلى قرمونة ، فإذا حلت بسيطها وكنت بظاهاها ، فلا تدخلها إلا بعد أن تجمع من الحطب حزمة تدخل بها المدينة وتعرضها في السوق مع باعة الحطب ، ولكن عليك ألا تبيعها إلا لمن ينقدك في ثمنها خمسة دراهم . » ومع جهل الرجل سر هذه الأوامر الغريبة بادر إلى الطاعة ، وغادر إشبيلية . ولما كان على مقربة من قرمونة أخذ يحتطب . ولم يكن ذلك من عادته ، وقد يجمع المحتطب المتعود مقدارا كبيرا يستطيع جمعه ، إلا أن هناك فرقا بين حزمة صغيرة وأخرى كبيرة .

دخل الرجل المدينة يحمل مما جمعه من فروع الأشجار تلك الحزمة

الصغيرة لبيعها في السوق . فوقف على حزمته تلك أحد المارة  
وسأله :

كم ثمن هذه الحزمة ؟

فأجابه البدوي : ثمنها خمسة دراهم كاملة غير منقوصة ، فإن شئت  
دفعت الثمن وأخذتها ، وإن شئت تركتها فأغرب الرجل في الضحك  
وقال له :

«عجبا ، لعلك لاتشك في أن حزمتك هذه من خشب الآبنوس »  
وجاء آخر . فقال : «لا - بل هي من العود الهندى الذكى الرائحة»  
وهكذا أخذ كل من وقف على سلعته الحقيمة وعرف ما يطلبه ثمنا  
لها يميزح معه هازنا به ساخرأ منه .

وبقى على حاله تلك فى السوق إلى أن مال ميزان التهار ، وآذنت  
الشمس بالمغيب ، فدنا منه حينئذ عين المعتضد يتظاهرها بشراء حزمة  
الخطب ، واتفق معه على أن ينقده ثمنها إذا قبل أن يتبعه بها إلى منزله ،  
يحملها على كاهله ، فتبعه الرجل إلى منزله حتى وضعها هناك ، ولما أخذ  
الدراهم الخمسة ، قام يتأهب للعودة ، فقال له صاحب الدار :

لقد أمسيت فإلى أين تذهب الساعة ؟

فأجابه : إني رجل غريب ، ولست من أهل المدينة ، ولا بد لى من  
العودة إلى اشبيلة ، فقال له

وهل ترى ذلك ممكنا الليلة ، وهل تأمن عادة اللصوص في الطريق ؟ ؟ انزل هنا على الرحب والسعة ، وسأقدم لك طعام العشاء . ويمكنك أن تبكر بالسفر غدوة إلى حيث تريد . فقبل منه الرجل ما اقترحه عليه ، وقابل تلك الحفاوة البالغة بالشكر والتناء ، وأنساه كرم الضيافة ، وطيب الأكل ما لقيه بالنهار من سفه وسخرية ، وبعد أن تناول طعام العشاء ، وفرغ من تلك الأكلة الشهية . أخذ يسمر مع مصيفه إلى هزيع من الليل ، حيث دار بينهما هذا الحوار .

- الآن - أيها الضيف الكريم - خبرني . من أي البلاد قدمت . وما موطنك ؟ ؟

- قدمت من بسيط اشيلية حيث المزارع . وحيث موطنى الذى أقيم فيه هناك

- إني أرى أنك - أيها الأخ - شجاع مقدم جرى لأنك استطعت أن تحاطر بنفسك وتصل إلى هنا ، وأنا أعلم مبلغ ما وصل إليه البربر من القسوة والوحشية ، هم بلا شك يسرعون إلى قتلك ، ويرون ذلك أمرا سهلا ولا بد أن يكون هناك من الأسباب القوية ما حملك على المجئ هنا ، والتعرض لأخطار الطريق

- ليس هناك من الأسباب القوية ما حفزنى على المجئ . . ولست أظن أن أحدا من الناس بالغوا من القسوة ما بلغ يتعرض لرجل أعزل

مثلى فى الطريق أويصيه بأذى .

وما زال يتحدثان الى أن أثقل الكرى جفن الضيف ، فأخذه المضيف الى حيث المكان الذى أعده لنومه ، وهمّ الفلاح أن ينام دون أن يخلع جبته ، فقال له القرمونى :  
يحسن أن تخلع جبتك كي تنام مطمئنا ، وتستيقظ مستريحاً ، لأن هذه الليلة دافئة حسنة الطقس كما ترى .

فعمل الفلاح بإشارته ، وسرعان ما استغرق فى نوم عميق ، ولما أيقن أنه لا يشعر بحركته تناول جبته وحل بطانتها ، وفيها رسالة المعتضد فأخذها وقرأها ، وكتب جواب الرسالة سريعاً ، ووضعها فى نفس المكان وخاطه كما كان .

واستيقظ الفلاح فى صبيحة تلك الليلة مبكراً . وبعد أن ودع مضيفه وشكر له كرمه وحسن ضيافته عاد أدراجه راحلاً الى اشبيلية ، ولما ألقى بها عصا التسيار استأذن على المعتضد ومثل بين يديه ، وقص عليه نبأ رحلته فغمره بلطفه ، وجميل رعايته ، وقال آفى من عملك هذا لمسرور ، وأرى أنك تستحق عليه جائزة سنية ، وأمر أن يلقى ماعليه من وعثاء السفر ، وأن يخلع جبته هذه ، ويكسى عوضها حلة كاملة ، فأحسن من أعماق نفسه بسرور وارتياح ، وأخذ الثياب الجديدة وترك جبته التى هى محور الرواية وخرج من القصر منها هو يروى ماوقع له مع الملك

لأهله وجيرانه ومعارفه ، ويزدكر لهم ما اختصه به الملك من عطف وصلة وما أجاز به من كسوة ملكية من كسى التشريف التى لا تمنح الا لرجال الدولة وذوى الشأن وأرباب المناصب ولم يقف على سبب هذا العطف الملكى ، ولم يدر أنه استخدم من حيث لا يشعر جاسوساً ويريداً من برد الحرب يحمل الى بلاد الأعداء رسالة فيها أنباء خطيرة كانت تودى بحياته لو أن البربر عثروا عليها، ولكنه لم تحم حوله أية ريبة .

كان المعتضد عظيم الدهاء واسع الحيلة ، فى كل ما يدخل فى باب الحيل والخدع السياسية وفى تناول يده الأشرار والفخاخ التى ينصبها لاقتناص من يريد الإيقاع به ، والويل لمن يثير كامن غضبه ، ولو أن إنساناً أخفظه ومضى سريعاً ليختفى فى الجانب الشرقى من المعمور لأدركه انتقام هذا الملك ، ويقال إنه استصفى أموال رجل مكفوف البصر ، وأخذ معظمها ، ونقد مابقى منها فى يد الرجل فخرج إلى مكة حاجاً يتكفف الناس، وهناك فى الحرم أخذ يدعو على ذلك الملك الظالم ويسبه ويلعنه حيث أفضى به ظلمه إلى ذل المسألة وذلل الاغتراب . فاقبل بالمعتضد خبره وأنه يدعو عليه ويشتر به ، فاستدعى رجلاً شبيهاً من رعيته كان قد أزمع الرحلة الى مكة لأداء فريضة الحج ، وأحضر علبة فيها دنائير مسمومة ، وقال له : « إذا وصلت إلى مكة ورأيت

الإشبيلي الضرير ، فصله بهذه العطية واقربه منى السلام وحذار أن تفتحها. « فصدع الرجل بالأمر ، ولما وصل إلى مكة تفقد الضرير حتى عرفه ، وأعطاه العلبة ، وقال : « هذه هدية المعتضد إليك . » فسمع وسوسة ما بداخلها من الدنانير فطار له ، وقال :

« يا عجباً ! كيف يقرنى المعتضد بإشبيلية أمس ، ويغنيى بالحجاز اليوم ؟ » فأجابه الرجل : « لعله تذكر ماتحيفك به من الظلم ، فضميره الآن يخزّه ويؤنبه ، وعلى كل حال فإنما أنا رسول ومبلغ وقد قت بما عهد به إلى خير قيام ، ومن حقت وحسن حظك أن تقبل هذه الهدية الثمينة التى لم تكن تحلم بها ، والتى فيها غناك وسعادتك . »



فاقتنع الضرير وبالغ فى شكره ، وحمله شكره وولاءه للملك إذا هو عاد إلى إشبيلية ، ثم أخذ العلبة ووضعها بين ذراعه وخاصرتها ، وخف مسرعاً إلى كوخه يهرول بقدر ما تسمح به حالة مكفوف ضرير ، ودخل كوخه ذلك الحقير وهو بين مصدق ومكذب ، وأحكم إرتاج الباب ، وفتح العلبة وأفرغ منها كومة ذهب من دنانير ، ولا تسل عن ذلك الأعمى وقد طفح قلبه بشراً وسروراً ، حين وجد الفرصة السعيدة تواتيه بالثروة والغنى فجأة ، بعد أن عاكسه الدهر ، وعانى من الفقر الأمرين ، أخذ يقاب بين يديه تلك الدنانير البراقة ، ولو أن عينيه لم

تكونا مقفلتين بحكم العمى لشعربقام اللذة ، على أن حاستى اللمس والسمع قد عوضتا عليه مافاته من تلك المتعة واللذة ، فقد كان يقبض تلك الدنانير بأصابعه ويملاً بها راحتيه ، ويتحسسها بأنامله ، ويتسمع رنينها بأذنه ، ويلهو بعدها المرة بعد المرة ، وقد غمرته اللذة ، وعمه السرور ، وذهبت به الأمنى والأحلام كل مذهب ، إلى أن فعل السم به فعله ، وسرى فى جسمه سريان الحمى فى المحموم ، ولم يرخ الليل سدوله على هذا المسكين الذى أوقعه القضاء فى حباله المعتضد حتى أمسى بفعل السم جثة هامدة .

\*\*\*

إذن فباديس والمعتضد كلاهما قاس شديد البأس ، وإن كانت قسوتهما ترى بألوان مختلفة ، فباديس فى ثورة غضبه يقتل يده ضحاياه ، والمعتضد فى أحوال نادرة يتعدى على وظيفة جلاده ، وتحت تأثير غضبه وحقنه الشديدين اللذين بز فيهما صاحبه يسمح ليده الاستقرائيتين على كره منه أن تتلطخا بالدم ، أما باديس فلم يكن يتطلب لشفاء نفسه أزيد من انغماس يده فى دم عدوه ، ومن دأبه بعد ذلك أن يعلق رأس القتل على رمح ليطاف به فى المدينة ، وبهذا تبرد غلته . وأمير استبيلية على عكسه فإن غضبه من عدوه لا يشفيه مجرد القتل ، فهو يتتبعه إلى ما بعد الموت ، وما كان يتوقف لحظة عن إثارة أشلاء

قتلاه وإخراجها من عيائها وصناديقها المقفلة لإرضاء لنزعاته الوحشية .  
وكان يضع - أسوة بالخليفة المهدي<sup>(١)</sup> - هاجم أعدائه على نصب  
من الحشب إلى جانب الأزهار بحديقة في قصره ، ويلقى في أذن كل  
جمجمة بطاقة يكتب عليها اسم صاحبها ، وكانت تلك الحديقة المثمرة  
برءوس القتلى ، تبعث في نفسه السرور والانشراح كلما رآها أمامه ،  
وكثيرا ما كان يصرح بذلك في أقواله ، على أنه لم يكن بين تلك  
الرءوس التي هي قرّة عينه رءوس من فتك بهم من أعدائه الأمراء ،  
لأنه كان يحفظ رءوس أولئك في صناديق مقفلة قد أودعها في مكان  
بعيد من القصر .

وقول : « إن مما يبعث على الدهشة أن ذلك المارد الوحشي  
القاسى كان يعتبر نفسه الأمير الخير بين الأمراء ، ويرى أنه مثل  
« طيطوس » الذي كون تكويننا خاصا ليكون على يديه سعادة الجنس  
البشرى ، وكان مما يقوله في شعره هذه العبارات :

إن إرادة مولاي التقدير لو اقتضت أن يمتد سلطاني على جميع  
الأحزاب المختلفة من العرب والبربر والصقالبة لحيمت السعادة على  
ربوع الأندلس ، وإن مما يقوى عندي الأمل في سعادة الناس وعزهم

---

(١) هكذا يشبهه دوزى على حين يروى صاحب كتاب المعجب أن المعتضد كان  
الناس يشبهونه بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس (ارجع الى هامش صفحة ٩٨)



وطأ نيتهم ، أنى لا أزال أسلك معهم سبيل الجادة ، وآتى لم أتحرّف قط  
عن الصراط السوى ، وما عاملت أحدا من رعاياي إلا بما يوجبّه على  
كرم عنصري وشرف نفسي وعلوهمتي ، من رعاية العدل وحب  
الإنصاف ، ولست أنفك أدفع عنهم شر المعتدين ، وغائلة المفسدين ،  
وأزيل أسباب المصائب التي تنزل بساحتهم ، وتنصب فوق  
رءوسهم .

## الفصل السادس

بعد أن قضى «المعتضد» على حياة «حبيب» وزير أبيه ومشاوره في الحكم ، وأصبح منفرداً وحده لامنازع له ولا مشاور ، وجهه عسكره إلى البربر ، وبدأ بجيرانه بربر « قرمونة » وكانت تعتاده هواجس نفسية ، ويحجم عنده الوهم أنه إذا لم يكن على قدم الاستعداد والأهبة لمباغته أعدائه والقضاء عليهم ، فإنهم - بلاشك - قد عقدوا النية ، ووطنوا أنفسهم على الإيقاع به ، وانتزع المملكة منه ومن عقبه ، وكان بعض المنجمين قد تنبأ بأن جيلاً من الناس سيولد خارج مملكته يكون على يده انتزاعها من أيدي بني عباد ، وهذه الظنون التي كانت تذهب به كل مذهب ما برحت تجعله يحاول أن يوقع بالبربر كلما أمكنته الفرصة ليبيد خضراءهم ، ويستأصل جرثومتهم ، وقد استمرت هذه الوقائع والحروب مدة طويلة قتل خلالها « محمد » أمير قرمونة ، حيث خدع واجتذب إلى كمين وقع فيه ( ١٠٤٣ - ١٠٤٤ ) وكان من نتائجها اتساع المملكة في الجهة الغربية

وفي سنة ( ١٠٤٤ ) قهر ابن طيفور<sup>(١)</sup> واستولى على «مرتولة»<sup>(٢)</sup>

---

( ١ ) هو أمير « مرتولة » حليف « محمد بن الأفطس » وفد هزماً مما في حرب « أستييلة حوالى عام ١٠٣٠ م .

( ٢ ) هي مدينة على نهر الوادى اليناع انتزعها المعتضد من ابن طيفور عام ١٠٤٤ م .

ثم هاجم بعده ابن يحيى أمير « لبله » ولم يكن هذا الأخير من البربر بل كان عربياً ، ومادام المعتضد يريد أن تتسع رقعة مملكته ، فليس يقفه عن قصده أى شئ ، ولما ضيق الخناق على ابن يحيى<sup>(١)</sup> استنجد بالمظفر صاحب « بطليوس » فتقدم لمعونه فصدده المعتضد فلجأ إلى يربر « غرناطة » وأنشأ يؤلف ضد المعتضد حلفاً قوياً انضم إليه « باديس » و « محمد » أمير « مالقة » و « محمد » أمير الجزيرة الخضراء ، وحدث على أثر ذلك أن أبا الوليد بن جهور الذى خلف أباه كرئيس للجمهورية قرطبة سنة (١٠٤٣) بذل كل ما فى وسعه للتوفيق والصلح بين الفريقين فلم يفلح ، وذهب سعيه عبثاً ، ولم يستمع لرسله الذين أرسلهم لإصلاح ذات البين أحد .

وعد الحلفاء من البربر خطة الزحف على إشبيلية ريثما يجمعون شتات جيوشهم ويتصل بعضهم ببعض ، وعرف « المعتضد » ذلك فانتهاز فرصة وجود « المظفر » فى منطقة نفوذه بعيداً عن حلفائه بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه وبلاده ، فعمد -أول الأمر- إلى تخريب «كورة» « بطنايوس » ثم سار مخالفاً عادته على رأس جيشه، وزحف على « لبله » وهاجم أعداءه فى مضيق على مقربة من أبواب المدينة، ورد فريقاً منهم

---

(١) هو أمير « نبيلا » وهو عربى الجنس وقد حاربه المعتضد رغبة فى الاستيلاء على مدينته فستعان ابن يحيى بالبربر فنصروه وردوا « المعتضد » عما أراد .

إلى « الأحمر » ، ولكن المظفر وفق لجمع رجاله ، وحمل بهم حملة صادقة اضطرت المعتضد أن يتقهقر نحو إشبيلية وتمكن المظفر حينئذ أن ينضم إلى حلفائه .

ولكن بينما هو يوقع التخريب في البلاد التابعة لإشبيلية خرج ابن يحيى من حلف هؤلاء ، وانضم إلى المعتضد ودخل في حلفه - على كره منه - وقد عاقبه المظفر بالاستيلاء على أمواله التي كانت مودعة عنده ، وأعمل السلب والنهب في كورة « لبلة »<sup>(١)</sup> فاستصرخ ابن يحيى بالمعتضد إشفاقاً على بلاده من التخريب والتدمير ، فعمد هذا إلى إرسال جنوده لمقاتلة جنود بطليوس ، فاستدرجوهم إلى كمين وتمت الهزيمة على عسكر بطليوس ، فاضطروا إلى التقهقر ، ولم يقتنع بهذا الانتصار بل عمد إلى تخريب جهات « يابره » بواسطة ابنه إسماعيل ، ولكن أمير « بطليوس » أمر أن يتقصد السلاح كل من يستطيع القتال من الرعية ، وبذلك تمكن من صد هجمات جيوش إشبيلية ، ولما اتصلت به الإمدادات من « إسحق » أمير « قرمونة » سير رجاله لمنازلة العدو ، وعبثاً حاول بربر « قرمونة » أن يقنعوه بالعدول عن عزمه الذى صمم عليه بدافع الغرور والجهل بقوة عدوه ، ومما قالوه له :

« إنك - بلا شك - لا تقدر جيش إشبيلية قدره ، وتجهل وفرة

---

(١) لبلة : مدينة في جنوب الأندلس تقع بين نهري الوادى الكبير والوادى الياثى .

عدده ، ونحن أعرف منك بذلك ، فقد وصلت إلينا أنباؤه فضلا عن أننا رأيناه رأى العين ، ووقفنا على ما فيه من عدد وعدة . » ولكن تحمس المظفر وحده طبعه ، أيا عليه أن يعمل بمشورة ناصحيه ، أو يصدق لهم قولاً ، ومضى في سبيله بدافع الجرأة التي كلفته ثمناً باهظاً ، فقد حلت به الهزيمة وتقهقر تاركاً ثلاثة آلاف قتيل على أقل تقدير ، وكان من بين من قتل في هذه المعركة ابن أمير « قرمونة » الذي كان يتولى قيادة جيش أبيه ، وقد حملت رأسه إلى المعتضد ، فوضعها في صندوق مع رأس جد هذا الأمير الشاب .

\* \* \*

بعد هذه المعركة المشؤمة ظهرت « بَطْلِيُوس » مدة طويلة في مظهر مرعج ، ومنظر مخيف ، تستوحش منه النفس ، ويتقبض له الصدر ، إذ دامت حوائثها مقفلة ، وأسواقها مقفرة ، بعد أن قتل في هذه المعركة المستأصلة صفوة أهلها ، وما زاد الحالة سوءاً وبلاء أن الإشبيليين إبان المعركة أتلفوا المزارع ودمروا الحصاد ، فأناخت المجاعة بكل كهلها على أنحاء المملكة ، ولم يستطع « المظفر » عمل شئ يازا- هذه الكارثة المجتاحة . وتحلى عنه حلفاؤه بعد أن حاول عبثاً أن يستعين بهم على تخفيف هذه النازلة التي حات ببلاده ، وظل ساكناً ببطلوس يحرق الأرم ، وتتآكل نفسه غيظاً وندماً .

ومع ما هو واقع فيه من سوء الحالة وتخرجها لما يشاء أن يتزل عن عزة

نفسه وإبائهما، ويقبل صلحاً شريفاً بواسطة ابن جهور، بينا عدوه الظافر قد أظهر تمام الاستعداد لقبول هذا الصلح .

ولم يكتف بهذا بل تظاهر أنه غير مكترث لما أصابه من خسارة ، ولحق ببلاده من أزمة ومجاعة ، وبدافع هذا التظاهر الكاذب أرسل إلى « قرطبة » في طلب قينات - وكن في ذلك الحين نادرات - وبعد عناء البحث اشترت له اثنتان لم تكونا على جانب من الحسن والبراعة في الغناء . ودهش الناس لركون « المظفر » إلى اللهو والحلاعة ، وهو المعروف بالجد والوقار ، والبعد عن العبث وسماع القينات ، ولم يدرك القوم كيف أنه يركن إلى اللهو في هذا الوقت الذي تظهر فيه بلاده بمظهر الخراب والاضمحلال ، ولكنهم أدركوا السر في هذا السلوك الغامض حين علموا أن المظفر يريد أن يظهر لخصمه أنه في الوقت الذي يستطيع فيه أن يبيع أشياء مملوكة له ، كذلك يستطيع - وهو مرتاح الخاطر - أن يشتري مغنيات يلهو بهن .

وبالرغم من هذا كله فقد واصل ابن جهور جهوده للتوفيق بين الخصمين وإبرام صلح شريف عاجل بينهما ، وفي شهر يولية سنة ١٠٥١ كلت جهوده بالنجاح ، وتم بوساطته - بعد مفاوضات طويلة - عقد صلح بين المظفر والمعتضد .

وحينئذ وجه المعتضد جميع قواته إلى « ابن يحيى » أمير « للة »

الذى انفصل عن حلفائه وعاد وحيداً دونهم ، ولم تكن هذه الحملة حرباً . بل كانت بمثابة نزهة حرية ، ولم يحاول « ابن يحيى » - لضعفه عن المقاومة - أن يدافع حتى عن نفسه ، بل تحول إلى « قرطبة » ، وعول على أن يقضى بها سائر أيام حياته ، وقد عطف عليه « المعتضد » وأرسل ثلة من فرسانه كحرس له فى الطريق .

وَدرك الأمير الذى كان باسطاً حكمه على « ولبه » وعلى جزيرة « ساطس »<sup>(١)</sup> الصغيرة ، وهو أبو عبيد عبدالعزيز البكرى صاحب كتاب المسالك والممالك أنه قد حان وقته ، وجاء دوره ، ومع هذا فقد كان يؤمل أن ينقذ من الغرق ما يمكن إيقاده ، فكتب يهنيء المعتضد بانتصاره الجديد ، ويطلب إليه أن يدخل فى حلفه ، ويكون تبعاً له . وأن يتنازل له عن « ولبه » فى مقابل أن يترك له « ساطس » ويشرح العلاقات الودية التى كانت بين أسرته وبين أسرة آل عباد ، فقبل المعتضد ما تقدم به إليه ، وتظاهر بأنه يريد مقابلته ، والإفضاء إليه بمحديث هام فسافر إلى « ولبه » ولكن عبدالعزيز رأى من الحكمة وصواب الرأى ألا يكون فى انتظاره وأن يتحول عنها إلى « ساطس » وجاء المعتضد فوضع يده على « ولبه » وقفل عائداً إلى إشبيلية ، وترك هناك ثقة من رجاله ليحول دون أن يبرح عبدالعزيز جزيرته ، أو ينتقل أحد إليه

ولما عرف عبد العزيز ما وصلت اليه حاله ، لاذ بالحكمة ، وشرع يفاوض عامل المعتضد على « ولبة » يطلب السماح له بالسفر إلى « قرطبة » ، واع سفته وذخائره الحربية للأمير الأشبيلي مقابل عشرة آلاف دوكا .

وقد أراد المعتضد أن يخونه ويستدرجه إبان سفره ليوقعه في الشرك كي يستولى على أمواله .

ولكن عبد العزيز فطن إلى قصده ، وتمكن بواسطة حراس طلبهم من أمير « قرمونة » أن يصل إلى « قرطبة » دون أن يصيبه في طريقه مكروه .

ثم هاجم « المعتضد » بعد ذلك ولاية « شلب » الصغيرة ، حيث كان يلى الحكم فيها العرب من « بنى مرين » وهم الذين كان أحدادهم يملكون الجهات الممتدة في هذا الإقليم ، وقد تولوا في عهد الأمويين المراكز المهمة ، واستمات أمير « شلب » في الدفاع عن نفسه بكل إقدام وشجاعة ، وقد صحت عزيمته على ألا يسلم أو يموت ، ولكن جيش إشبيلية الذى كان يقوده محمد « المعتمد » قيادة اسمية فقط بلوغه الثالثة عشرة من عمره بالغ في تضيق الحصار على « شلب » إلى أن استولى عليها عنوة . وكان ابن مرين اعترزم أن يفتك بأكبر رأس في الجيش ، إلا أن المعتضد بعد أن تمكن منه وهب له حياته واكتفى بنفيه . وبعد أن تم الأمر بالاستيلاء على « شلب » أصدر أمره



بالزحف على «سَنْتَمَرِيَّة» القرية من الرأس الذى يسمى إلى اليوم بهذا الاسم ، وهى كورة كان الخليفة « سليمان » أعطاها لسعيد بن هارون ، وكان مجهول النسب لا يعرف أكان من العرب أم من البربر ، والرجال المجهول أصلهم فى العادة يكونون من الإيبانيين ، سكان البلاد الأصليين . بقيت هذه الجهة مع سعيد هذا إلى أن انتقل سليمان إلى جوار ربه ، فاستقل بها ، ثم خلقه عليها بعد وفاته ابنه « محمد » ، وحين دهمه عسكر إشبيلية لم تكن منه إلا مقاومة قصيرة المدى ، ولما تم للمعتضد أخذ هذه الكورة ، ضما إلى « شلب » وأراد أن يلى الحكم فيها ابنه « محمد » ( ١٠٥٢ )

وبهذه الانتصارات السريعة اتسعت إمارة إشبيلية فى الجهة الغربية من جزيرة الأندلس ، أما الجهة الجنوبية فلم تكن قد اتسعت بعد ؛ لأن أمراء الجنوب من البربر كانوا فى ذلك الحين - مسلمين للمعتضد فى الغالب ، معترفين بسيادته أو مقررين بخلافة هشام الثانى .

\*\*\*

لم يقنع المعتضد بما أصاب من فتوحات اتسعت بها رقعة مملكته ، وعد ما تم له من ذلك قليلا بالنسبة لما يطمح إليه ، فسرت إلى نفسه فكرة قتل أولئك الأمراء ، والاستيلاء على ولاياتهم ، ولكى يكون نجاح أعماله السرية محققا رأى أن يسلك سبيل الاعتدال والحذر حتى لا يَطْوَح بنفسه فى محاولة جريئة ، فذهب بعد غزوة « شلب » مع

اثنين من الخدم لزيارة أميرين من أتباعه ، وهما « ابن نوح » أمير بنى مرين و « ابن أبى قرة » أمير « رنده » دون أن يعلنها أنه آت لزيارتها ، وإن مما يبعث على الدهشة أن يلقى المعتضد بنفسه بين مخالب هؤلاء ، ويضع نفسه بدون تبصر تحت رحمتهم وهو يعلم ما يمكنه له أولئك البربر من عداوة وحقد . والواقع أن المعتضد - فى مثل هذه المواقف - لا تنقصه الجرأة والإقدام ، وهو على الرغم من خيائته ومخائلتة للجميع ، واثق من حسن نيات وتقدير الغير له ، فقد قبل عند بنى مرين بكل حفاوة وتجلة ، وأعرب له ابن نوح عن فرط سروره وغبطته بما هيأت له الظروف السعيدة من هذه الزيارة التى جاءت على غير انتظار ، وأولم له وليلة فاخرة ، وبالغ فى إكرام وفادته ، وحقق له من جديد أنه سيكون له التابع الوفى المخلص على الدوام ، ولكن المعتضد لم يقدم على هذه الزيارة لسماع التحايا ، وألفاظ التكريم والحب والولاء - بل كان يرمى إلى غرض آخر ، وهو جس النبض ليعرف هل يستطيع أن يكسب إلى جانبه بعض أفراد من ذوى النفوذ والجاه ؟ إذ قد لاحظ أن العرب يميلون من أعماق صدورهم إلى التخلص من نير البربر ، وأنه لا يستطيع التعويل عليهم عند سنوح الفرصة .

وبفضل ما كان يحمله خادماه من الهدايا والتحف والأحجار الكريمة استطاع أن يرشو كثيرين من رجال البربر ، دون أن

يدخل ابن نوح أدنى ريب في دسائسه .

و بعد أن سر المعتضد كثيراً من نتائج هذه الزيارة ، استأنف سفره إلى « رُنْدَة » فقبول فيها بمثل ما قبل به هناك من الإجلال والترحيب . ونجحت حيله السرية ، وأعماله الخفية فيها كثيراً ، لأن العرب هن كانوا أكثر تدمراً من زملائهم بني مرين ، وأشد رغبة في التحرر من حكم البربر .

والظاهر أن بني قره كانوا أصلب عوداً وأكثر جرأة من بني نوح . فقد دبروا للمعتضد مؤامرة رهيبة يكون انفجارها بمجرد الإشارة ، ومن الاتفاق الغريب أن تسلم حياته وهى معرضة للخطر فى سبيل إقناذ مشروعه الخطر الجرى ، فقد حدث مرة أن تناول معهم الطعام ، وأخذوا يحتسون النبيذ وأحس هو - خلال ذلك - ميله إلى الراحة والرقاد . فقال للأمير : « انى أشعر بتعب ، وأحس بحاجة إلى النوم ، فخذوا أتم فى حديثكم ، وامضوا فى شرايكم ، ريثما أستريح برهة ، وأخذ حظاً قليلاً من النوم ، ثم أعود فأخذ مجلسى معكم حول المائدة ، فأجيب إلى طلبه وأعدت له وسائل الراحة ، وبعد لحظة كان فيها متناوماً مظهرأ أنه فى سبات عميق ، طلب بعض رجال البربر من الجالسين أن يصغوا لحظة إلى حديث خطير يريد أن يفضى به اليهم ، فصمت الجميع ، وقال الرجل بصوت خافت : « يظهر أن عندنا كبشاً سمينا قد مد صفحته للسكين

المشحودة ، وقد واتانا حظ سعيد كنا بعيدين عن إدراكه ، ولو أننا بذلنا في سبيل هذه الفرصة مافي الأندلس من ذهب لم يجد ذلك شيئاً ، بينما ذلك الطاغية قد حضر بنفسه وأمكنكم من مقاتله ، أتم تعلمون جميعاً أن ذلك الرجل هو الشيطان بعينه ، فإذا ما قضينا على حياته ، لم ينازعنا أحد السلطة في هذه البلاد »

\*\*\*

ولاذ الجميع بالصمت ، وأخذوا يتبادلون الإشارة باللحظ ، ولا خفاء أن فكرة قتل ذلك الشيطان الذي يمتقونه ويزدرونه ، ويعرفون طريقه المتلوية المتعرجة ، تقابل بسرور وابتسام من أولئك الرجال الذين مروا على القسوة ، وشبوا - منذ نعومة أظفارهم - على القتل وسفك الدماء ، لذلك لم تبد على وجوههم علامات الدهشة ، ولم تلح عليها أمارات الاستنكار والاشمئزاز ، وكان من بين هؤلاء جميعاً رجل واحد معتدل المزاج والتفكير قد غلا في رأسه الدم لهذه الفكرة الخاطئة ، والخيانة الدنيئة ، ذلك الرجل هو « معاذ بن أبي قرة » أحد أقارب أمير « رندة » فقد تطاير من عينه الشرر ، وأظهر امتعاضاً واشمئزازاً واحتقاراً لفكرتهم هذه المنافية للمروءة وكرم الضيافة ، ورد عليهم في تودة وثبات بصوت متهدج يفيض منه ويخفّضه قليلاً قائلاً : « إياكم أيها القوم أن ترتكبوا هذه الفعلة الشنعاء ، إن هذا الأمير بزيارته لنا ومحبيته

عندنا ، قد وثق بنا وأمن جانبنا واعتمد على إخلاصنا ووفائنا .  
ومسلكه هذا يدل على أنه يقطع بأنا غير أهل لأن نخونه ، أو نخفر  
ذمته ، ولدينا من الشرف وطيب النصر ما يدعوننا لأن نحقق ظنه فينا ،  
وثقته بنا . وبماذا تتحدث عنا القبائل غداً إذا علموا أننا وطئنا بأقدامنا  
قداسة حقوق الضيافة ، فقتلنا ضيفنا ؟ فكروا أيها القوم ملياً ، وثوبوا  
إلى رشدكم ، ولعنة الله على من يهيم بارتكاب هذه الجريمة »

\*\*\*

وقد ترك هذا الكلام في نفوس البربر أثراً عميقاً . وحرك ماردده  
عليهم من واجب الضيافة - في قلوبهم - وترا حساسا ، يندر أن يتنبه  
عند أمثال أولئك الطغام من شعوب إفريقية

وقد مثلوا هذا الفصل ، والمعتضد في يقظة تامة - وإن كان متناوما -  
وقد سمع كل مادار بينهم من الحديث ، ولما حمد الأثر الذي أحدثته  
كلام « معاذ » في نفوس الآخرين ، واطمأن إلى النتيجة ، تظاهر بأنه بدأ  
يستيقظ ، ومضى سريعا إلى السباط . فوقف الجميع وعاقوه وقبلوه قبلما مقرونة  
بالاحترام وإظهار المودة والعطف . وكانت حركاتهم تدل على أن  
خمارهم لم تكن مرتاحة لما هموا به ، وأنهم ينطوون على سرهانتهم  
من تلك اللحظة التي فكروا فيها بالغدر بضيفهم . ثم تكلم المعتضد فقال :

( م - ٩ )

«يجب -أيها الأصدقاء- أن أتعجل العودة إلى «إشبيلية» ولا يفوتني أن أشكر لكم حفاظتكم ، وأذكر لكم مبلغ سروري بحسن مقابلتكم لي وترحيبكم بي . وكان يجمل بي أن أقدم لكم بعض هدايا نفيسة تكون عنواناً على اعترافي بفضلكم وتقديرى لكرمكم ، ولكنى آسف جد الأسف لأن الهدايا -التي كان يحملها خادمى- قد نفدت أو كادت ، ولا بأس من إحضار دواة وقرطاس ، وليل على كل منكم اسمه ، وما تميل إليه نفسه من كسى تشريف أو صررتقود أو جوار أو عبيد أو غير ذلك -مما يدخل فى باب التحف وسنى الهدايا- وليرسل إلىَّ عند استقرارى بعاصمة مملكتى لياخذ ما يخصه من نفيس تلك الهدايا . ولما استقر بحضرة ملكه جاءته رسالهم تترى ، وعادوا محملين بصنوف الهدايا الثمينة ، والحلل الفاخرة ، وبذلك توثقت الروابط المتينة ، والعلائق الحسنة بين المعتضد والبربر ، وتنوسيت الأحقاد والإحن القديمة ، وحل محلها الوداد والوثام والصفاء والسلام .

\*\*\*

ومضت على ذلك ستة أشهر دعا « المعتضد » بعد انقضائها أمير « رندة » و « ابن مرين » إلى مأدبة فاخرة أدهبا لها ، زعم أنها اعتراف منه بحجبل إكرامها وحسن استقباله له ، وكذلك دعا من البربر ابن خزرون ، وأميرى « أركش » و « شريش » ، فبادر الأمراء ثلاثتهم

إلى إجابة الدعوة ، ووصلوا إلى إشبيلية ( ١٠٥٣ ) فاستقبلهم المعتضد بحفاوة بالغة ، وأعد لهم أسباب النعيم والراحة . وبعد أن أقوا عنهم وعشاء السفر، دعاهم وأكابر أتباعهم إلى الاستحمام بحمامه ، وانتحل سبباً لابقاء « معاذ » الشاب معه ، وكانوا نحو ستين من البربر دخلوا الحمام الذى أعد لاستحمامهم ، وبعد أن تجردوا من ملابسهم فى الباب الأول ، تطرقوا إلى باب الحمام نفسه وهو مماثل لما يوجد الآن من نظائره فى البلاد الإسلامية ، مغطاة أرضه وجدرانه بالرخام الملون ، مكسوة قبابه بأنصاف كرات جوفاء من زجاج غير صقيل لإرسال الضوء إلى أسفل ، فى وسطه نافورة تنجم الماء إلى أعلى ، وفى جوانبه مغاطس مملوءة بالماء الساخن ، وصنابير بارزة فى الجدران ، بعضها يصب منه ماء بارد ، وبعضها متصل بـرجل الحمام يصب منه ماء ساخن قد وصل إلى درجة الغليان .

وبينما المستحمون ياتذون بهذا النعيم الذى هيا لهم أسبابه المعتضد إذ شعروا بحركة خفيفة غير عادية ظنوها حركة بتّائين أو وقادين منصرفين إلى عملهم ، فلم يعيروها اهتمامهم - لأول وهلة - ثم صارت الحرارة بعد برهة قليلة تتزايد إلى أن شعروا بالدوار وأحسوا بالضيق ، فتمسكوا الباب يفتحونه ، فوجدوه محكم الإرتاج وكأنما بنى عليهم من خاف ، ولم يلبثوا إلا قليلا حتى ماتوا جميعاً نتيجة الاختناق .

ومكث « معاذ » طويلا يتربص عودة الأمراء والصحب ثم انتهى به الأمر إلى القلق والضجر ، ثم تجاسر فسأل « المعتضد » عن السبب الذى من أجله تأخروا هكذا مدة طويلة ، فأفضى اليه المعتضد بالسبب وصرح له - وقد اربد وجهه ، وشاع فيه الغضب - بقوله : « لاخوف عليك ، أما أوائك الخونة من أهلك وعشيرتك فقد استأهلوا العقاب ، واستحقوا ما حل بهم من هلاكهم خنقا فى الحمام لتأمرهم على قتلى حين كنت بضيافتهم . وثق أننى كنت متناوما إبأن تأمرهم على قتلى ، وقد سمعت كل مادار بينهم من الحديث فى هذا الموضوع الخطير ، كما استحسنت كلامك فى هذا الصدد ، ولست أنسى ماحييت ما أنا مدين لك به من هذا الجليل الذى طوقتنى به ، وأنت مخير الآن بين البقاء هنا حيث أقاسمك جميع ما أملك - إن شئت - وبين العودة إلى وطنك ، وإذا اخترت العودة ورغبت فى الإقامة برندة ، فلك منى أن أغمرك بسنى الجوائز ونفيس الهدايا . »

فقال معاذ بصوت يشف عن حزن عميق : « وكيف العودة - يا مولاي - إلى الوطن ؛ وكل ما فيه يمثل لى ذكرى من فقدتهم ؟ » فقال المعتضد : « عليك إذن أن تقيم بإشيلية آمنا لا تخاف شيئا . » وكلف بعض رجال حاشيته أن يعمل على إعداد قصر لإقامة « معاذ » وأمر له بألف قطعة من الذهب تقدا ، وعشرة من صافنات الجياد ، وثلاثين جارية ، وما يقرب



من هذا العدد من العيد ، ثم توجه إليه بقوله : «وسأمنحك فوق هذا عشرة آلاف دوكامرتباً سنوياً.»

\*\*\*

وبقى معاذ بإشبيلية ، وهو محل عناية المعتضد وعطفه ، فكان يبعث إليه كل يوم بهدايا غالية نفيسة بالغة في الإبداع ، يندر أن توجد إلا في خزائن الملوك ، وكان في غالب الأحيان التي يجتمع فيها بوزرائه ومشيريه للاستشارة في أعمال الدولة . يجعل لهذا الذي أقره حياته المكان الأول في الشورى والرأى.

\*\*\*

وبعد أن انتهى المعتضد من تمثيل هذا الدور ووضع رؤوس القتلى في صندوق بين رؤوس ضحاياه التي كان يجمع بالقاء نظرات السرور عليها ، أرسل جيشاً للاستيلاء على «بنى مرين» و«أركش» و«شريس» وجهات أخرى . وقد نجح الجيش في مهمته من غير أن يعانى صعوبة بفضل مساعدة أهل تلك الجهات من العرب ، والخونة الذين اشتراهم المعتضد بالمال . إلا أن الاستيلاء على «رندة» حيث خلف «أبو النصر» أباه فيها لم يكن من السهل ، فقد كلف جيش المعتضد جهداً وعناء أكثر من غيرها ، لأنها كانت قائمة على ربوة جبل شاهق تحيط بها وهاد

وطرق وعرة يجعل الوصول إليها صعباً .

ولكن حدث أن العرب ثاروا على البربر وتحمسوا لقتالهم وأعملوا فيهم سيوفهم . وحاول « أبو النصر » نفسه الفرار - طلباً للنجاة - فتردى في هوة عميقة ، إذ بينما كان يتسلق السور زلت به قدمه فهلك .



وقد أحدث الاستيلاء على « رندة » وحدها في نفس المعتضد سروراً عظيماً ، فبادر إلى تحصينها ، وجعلها أقوى منعة مما كانت عليه . ولما تم له ما أراد من تحصينها ، وذهب بنفسه لمعاينتها تملكته نشوة سرور وارتياح جعلته ينظم فيها شعراً مضمونه :

« أنت الآن قد بلغت في التحصين الغاية ، ولا شك أنك قد صرت أئمن درة في تاج المملكة ، وقد استولى عليك جنودى البواسل بأسنة الرماح ، وظبا السيوف . »

## الفصل السابع

فى الوقت الذى كان فيه « المعتضد » ثللاً بنشوة انتصاراته ، عاكفا على شهواته ولذاته ، كان « باديس » حليف هموم وأحزان ، حتى لقد بلغ به الحزن أن شق ثيابه - حين اتصلت به أنباء النكبة التى حلت بالبربر - وأخذ يصيح صيحات الغضب ، ويزجر زججرة الرعد . وقد استولى عليه الهياج والقلق والاضطراب ، وتملكه شعور أسود جعل الدنيا تظلم فى عينيه ، وقد وقر فى نفسه أن عامة العرب برندة تحركوا للثورة بدافع الجنسية والوطن ، وقاموا قومة رجل واحد للقضاء على منافسيهم من البربر .

\* \* \*

ومن الذى يستطيع أن يدخل فى روعه أن أتباعه من العرب لم يدخلوا فى حلف مع بنى عباد ، وأنهم لم يأتروا به وبعرشه ؟ لقد شغلت هذه الفكرة باله ، وكانت لاتفارقة ليل نهار ، ويقال إنه كانت تعتاده نوبة ذهول ، ثم يهيج به هائج الغضب ، إلى حد أنه كان يصيح صياحاً شديداً ، ويقسم ليبيد كل عربى أقاته الغبراء . وأحياناً كانت تضطرم نفسه هلعاً ، وتذوب جزأ ، وتفيض بالوساوس والأحلام والشكوك

والأوهام، ثم يعود إلى حالته الأولى من السكون المبهم الغامض الآليم  
وكأنما انقضت عليه صاعقة .

\*\*\*

على أثر هذه الحالة النفسية العصبية أخذ يفكر في تدبير خطة مروعة  
رهيبة ، وذلك أنه كان يدور بخلده أنه ، ادا م العرب مقيمين معه في  
داخل المملكة ومنبئين في الولايات التابعة له ، فلن يتأتى له أن يطمئن  
على سلامة ملكه لحظة واحدة ، فعول - في قليل من الحنكة السياسية  
وعدم التبصر في العواقب - على إبادة خضرائهم ، واستئصال شأقتهم  
من المملكة . وعقد النية على أن ينفذ هذا الرأي الخطير عند اجتماعهم  
بالمسجد للصلاة من يوم الجمعة المقبل ، وكان لا يبرم أمراً دون أن يستشير  
وزيريه « إسماعيل اليهودي » ، فلما صرح له بعزمه ، وأفضى إليه  
بسرّه ، وأعلمه أنه مصمم على تنفيذ خطته - رضى أم أبى - أظهر له  
الوزير له شناعة هذه الخطة ، ووخامة عاقبتها ، وعمل جهده على  
أن يعدل الأمير عنها ، وأشار عليه أن يتمهل في الأمر ريثما تنضج الفكرة ،  
وأن ينظر فيما عساه أن ينجم عن هذا الرأي الفظير من النتائج ، وكان  
مما قاله له :

« لنسلم أن كل شيء سيتم على ما تريد وتهوى ، ولنفرض أنك  
ستدرك غرضك بالقضاء على جميع العرب - بقطع النظر عما ينجم عن هذا

العمل من الخطر- فهل يفوتك أن العرب في خارج المملكة لايسكتون عن مصاب إخوانهم وما يحل بزملائهم ؟ وهل يدور بخلدك أنهم يلبثون ساكنين في أماكنهم ، وأنهم لايتحركون لنجدة أبناء جنسهم ؟ كلا ، إنى أوكد لك أنهم يسارعون اليك بدافع الغضب الشديد ، والعصبية القومية ، ويتدافعون إلى بلادك تدافع الأمواج الهائجة المضطربة ، ولا يلقون السلاح أو يعلو السيف رأسك .

☆☆☆

ومع مشاكلة هذا الكلام للصواب ، ومطابقته للواقع ، فإنه لم يؤثر في نفس « باديس » ولم يصرفه عن رأيه ، وأخذ على «إسماعيل» عهداً بأن يكون مادار بينهما من الحديث سرّاً مكتماً ، وأصدر أمره بأخذ الأهبة والاستعداد لما يجب عمله يوم الجمعة .

وقضى الأمر ، وكان جميع الجند بأسلحتهم المختلفة أمام المسجد يوم الجمعة على هيئة عرض عام للجيش ، ولم يقف «إسماعيل» حيال هذا الأمر موقف الخول ، بل كان قد دس نسوة إلى زعماء العرب عملن على تفريقهم ، ونصحن لهم بعدم الاجتماع للصلاة يوم الجمعة . وأن يحتفوا عن الأنظار في هذا اليوم فلا يبدو لهم أثر . فعملوا بنصيحتن وأخذوا حذرهم . ولم يحضر المسجد في ذلك اليوم سوى نفر يسير من العرب ممن لاخطر لهم مع عامة الشعب ، وتحقق « باديس » فشل

خطته فكاد يتميز من الغيظ وأرسل في طلب اسماعيل ، وأخذ يلومه على إذاعة السر الذي أفضى به إليه ، فقال : «إن امتناع العرب من الحضور لصلاة الجمعة لم يكن لسر مذاع ، وتفسير هذا الامتناع من جانبهم ظاهر ، فإن القوم رأوا أنك حشدت جندك بلاسبب موجب في وقت لم يكن فيه بينك وبين جيرانك حرب ، فلم يشكوا في أنك إنما تقصدهم بالسوء ، فعوضا من أن تغضب وتندم يجب أن تحمد الله تعالى على هذه العاقبة الحميدة ، فلو أن العرب وقفوا على ما كنت تبنيه لهم - من الشر والوقية - لثاروا واضطرب بسببهم جبل الأمن . أفلا يسرك أنك تراهم الآن ساكنين هادئين ؟ فترؤ في الأمر قليلا ، وسيجيء الوقت الذي تحمد فيه رأيي الذي أطلعنك عليه .

\* \* \*

وربما كان «باديس» وقد غاب عنه وجه الصواب غير مقتنع بصحة ماذهب اليه وزيره ، ولكنه حين جاء أحد شيوخ البربر وأيد «إسماعيل» في الرأي اقتنع أخيرا ، واعترف في النهاية بأنه كان مخطئا ، ولم يعد يفكر في ملاشاة العنصر العربي من رعاياه ، إلا أنه حين رأى فلول البربر الاتين من «نبي مَرين» و «أركس» و «تريتس» و «رندة» قد لجأوا إلى « غرناطة » وجاءوا يلتمسون لهم فيها مأوى ، اعتزم أن ينتقم من عدوه ، ويغزو بجيشه والمهاجرين ولايات إشبيلية .

\*\*\*

وليس عندنا تفصيلات عن هذه الواقعة الحربية ، ولكن الدلائل تدل على أنها كانت حرباً دموية لأن البربر كانوا متوردين يتهبون حماسة للانتقام لأبناء جنسهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن العرب كانت كراحتهم لبربر « غرناطة » أكثر من كراحتهم لسائر البربر ، إذ كانوا يعدونهم من الرافضة أعداء الدين ، لسكوتهم على أن يكون بين وزراء المملكة رجل يهودى . ويقول بعض شعراء إشبيلية الذين كانوا يشيدون بانتصارات المعتضد مامعناه :

« لقد أعملت سيفك فى رقاب شعب من البربر ينتحلون اسم الإسلام ، ولا يؤمنون بغير اليهودية . »

لهذا كانت الحرب مع الغرناطين تعد فى نظر العرب حرباً دينية مما حملهم على مقاتلتهم بمنتهى الشدة حتى اضطروهم إلى التقهقر والارتداد إلى حيث يقيم أبناء جلدتهم . وقد ساءت حال أولئك المهاجرين البائسين إذ لم يسمح لهم المعتضد بالعودة إلى دورهم وبلادهم حين رأى « باديس » أن يخلوا عن « غرناطة » إلى مساكنهم الأصلية التى لامدوحة لهم عن العودة إليها ، فاضطروا إلى أن يجوزوا بحر الزقاق إلى « سبتة » . ولم يشأ « سقوت » أمير هذه الجهة أن يكون لهم فيها بقاء . وهكذا كانوا يطردون - حيثما حلوا ، وأينما ارتحلوا - فى وقت تقشمت فيه المجاعة بافريقية مما أدى إلى هلاكهم جميعاً .

وبعد هذه النكبة التي حلت بالبربر وجه المعتضد جنده ضد «القاسم ابن حمود» أمير الجزيرة ، وكان أضعف أمراء البربر فلم يسعه إلا أن يدخل في طاعة المعتضد ويطلب منه العفو فأجاز له أن يتحول إلى قرطبة فرحل إليها وأقام بها ( ١٠٨٥ )

\*\*\*

ولما تم للمعتضد هذا الانتصار الباهر رأى أن الوقت قد حان لإتمام الدور التمثيلي الذي لعبه حتى الآن أسوة بأبيه من قبل ، فطوعت له نفسه أن يعلن أن «هشاما الثاني» المزعوم والذي قد مات وعلم الناس قاطبة بوفاته لا يزال على قيد الحياة .

على أنه لم تكن ثمة أسباب تدعو والده إلى إثارة مسألة الخلافة باتحال هذا الاسم ، فإن الناس جميعاً قد اقتنعوا في ذلك الحين - باستحالة الرجوع إلى الماضي ، والعودة إلى نظام الجماعة . وقد دلت التجارب على أن الخلافة قد سقطت بحيث لم يبق أمل في أن تقوم لها فيما بعد قائمة ، وعلى هذا فقد أصبح في قلعة « رباح » شخص لاخطره ، ولا يترتب على وجوده أية فائدة .

ويجوز أن هذا الرجل الذي اختفى من سنين عديدة ولم يره أحد - لامن عامة الشعب ، ولا من حاشية القصر - قد مات ، أو أن المعتضد قد تضايق منه فأمر بقتله - كما تحقق ذلك بعض الأخبار - وليس في وسعنا



أن نجزم بشئ في هذا الصدد لأن أمير «إشبيلية» يعرف كيف يحيط أعماله بالأسرار الغامضة . وقد حدث أنه في سنة ١٠٥٩ جمع رجال الدولة ونعى لهم هشاما الذى مات من فالج أصابه ، ولكنه أمر ألا يذاع خبر الوفاة مادام في حروب مع جيرانه ، أما الآن وهو في حالة سلم مع البلاد المجاورة ، فقد أمر بدفن رفات أسير « قلعة رباح » باحتفال مشى فيه رجال الدولة ، ومشى هو في الجنائزة باعتباره الحاجب أى الوزير الأول، مترجلا وبدون طيلسان . وأرسل الأبرُد بنعى هذا الخليفة إلى حلفائه في شرق الأندلس ، وطلب إليهم اختيار خليفة جديد ليبياعوه ، ولم يفكر أحد في ذلك بطبيعة الحال ، فزعم أن الخليفة الراحل عهد إليه أن يكون أميراً على كل بلاد الأندلس من بعده . ومن المحقق أنه كان يعمل على إدراك هذا الغرض ، وأن جميع جهوده كانت موجهة إليه ، وقد توجهت نفسه الآن للاستيلاء على قرطبة عاصمة المملكة القديمة ، ولم يدر ما كان يَحْبُوهُ له القدر من فشل وخذلان ، وذلك أن جنوده أغاروا عدة إغارات على بعض الجهات التابعة لقرطبة ، وانضم إلى ذلك أنه أمر ابنه ( اسماعيل ) قائد جيشه أن يستولى على مدينة الزهراء التى دمر نصفها البربر ، فقابل أمره بشئ من الاستياء والامتناع والتبرم والاعتراض . وكان قد بدأ منذ زمن يظهر الكراهة والاشمئزاز من أبيه ، ويشكو قسوته وظلمه ، ويرميه بأنه

كان يقحم به على الأهوال والأخطار ، ويعرضه لمواقع المهلكة ، إذ كان يأبى فى المعارك الكبيرة ، وحصار المعازل المنبعة ، أن يمده بالعدد الكافى من الجند . وفوق هذا فقد حرك فى نفسه عوامل الاستياء والبغض رجل أفقى يدعى «أبا عبد الله البرزلى» كان قد رحل من «مالقة» عند ما استولى عليها «باديس» ، وكان يطعم أن يكون حاجبا لأى أمير . فأنار فى نفس «إسماعيل» فكرة الثورة على أبيه ، وأوعز إليه أن يؤسس لنفسه مملكة مستقلة فى جهة أخرى كالجزيرة الخضراء ، وقد أتاحت للرجل أسباب النجاح إذ أظهر «إسماعيل» فى الوقت الذى أمر فيه بالزحف على قرطبة منتهى ما يكون من الامتناع والهياج لأنه طلب من أبيه أن يمده بالعدد الذى يلزمه من الجند فأبى ، وعبثا حاول «إسماعيل» أن يقنعه بأن مامعه من الجند لا يكفى للزحف على ولاية كقرطبة ، وبأن «باديس» لابد آت لمساعدة أهلها كما فعل ذلك سابقا ، وأنه إذا جاء لمعاونتهم مادام محالفا لهم ، فإنه حينئذ يضع نفسه بين نارين ، ويكون مضطرا لمنازلة عدوين ، فلم يصغ المعتضد إليه ، بل كان فى أشد حالات الغضب على ابنه ، ودعاه بالجبان ، وهدده بالقتل ، وكان على وشك أن يبرز ذلك من حيز القول إلى حيز الفعل . وأفضى إليه بقوله :

« اذا لم تطع قولى ، وأظهرت الخلاف على ، فإنى مضطر لاحتالة أن  
أمر بضرب عنقك.»

\* \* \*

فجرت هذه الكلمات «إسماعيل» فى صميم نفسه ، وهاج به هائج  
الغضب ، ودفعه حرج الموقف إلى الماضى فى الخطة الرهيبة التى رسمها  
لنفسه ، ولكنه جاء إلى «البر زيلى» ليشير عليه بما يمكن عمله ، فكان  
من السهل على هذا أن يقول له :

« إنه قد حانت الساعة لتنفيذ الخطة التى أدايت بها اليك »

وبعد مضى يومين من سفر «إسماعيل» على رأس الجيش من «إشبيلية»  
تبلغ رؤساء الجند أن قد ورد عليه نبأ من أبيه يأمره فيه بالعودة لمقابلته  
يفضى إليه بأمر هام .

وقفل راجعاً مع «البر زيلى» وثلاثين فارساً من فرسان الحرس إلى  
«إشبيلية» ، ولم يكن «المعتضد» فى هذا الوقت بقصر الإمارة الحصين  
بل كان قد تحول إلى «قصر الزاهر» الواقع على الضفة المقابلة من  
النهر ، وآنس «إسماعيل» قلة الحامية والحراس ، فاستولى عليه ليلاً ،  
وحمل مافيه من كنوز ونفائس على ظهور البغال ، ولكى يحول دون أن  
يعبر أحد النهر إلى «قصر الزاهر» لا بلاغ أبيه الحادث أمر بإغراق  
الزوارق الراسية تجاه الحصن ، وتمكن من أخذ والدته ونساء القصر .

ومضى لا يُلَوَّى على شئ في طريقه إلى الجزيرة الخضراء ، وعلى الرغم من مبالغته في التكتم ، وشدة الحذر والخوف من أن يصل نبأ هذا الحادث إلى أسماع أبيه ، تسرب الخبر إلى أبيه . من أحد فرسان ولده لأنه لم يرضه هذا العمل ، فاقتحم نهر الوادي الكبير سباحة وأبلغه الحادث في الحال .

فأفقد «المعتضد» في أثره كتائب من الفرسان ، وأرسل رسله إلى حكام حصونه في الوقت المناسب فأوصدوا أبواب القصور التي في طريقه في وجهه ، وخشى «إسماعيل» من تألب أصحاب القصور عليه ، فلجأ إلى واحد منهم اسمه «حصادي» وهو صاحب حصن قائم على ربوة جبل عند حدود قسم «شدونة» وطلب إليه أن يكون في جواره وحمايته ، فقبل أن يجبره ، ولكن شرط عليه أن لا تبرح خيله سفح الجبل ، وخرج إليه في جماعة من جنوده ، ونصح له بعدم الخلاف على والده ، وعرض عليه أن يكون وسيطاً في الصلح بينهما ، ولكونه قد فشل في محاولته هذه فشلاً تاماً ، رأى أن ينزل عند رأيه ويعمل بمشورته ، وحينئذ أذن له أن يدخل معه الحصن ، وعامله بما يليق بمكاته ، وأرسل إلى «المعتضد» كتاباً يذكر فيه أن «إسماعيل» ثاب إلى رشده ، وندم على فعلته تلك ، وتوسل إليه أن يقبل وساطته ويصفح عنه ، فأرسل إليه يقول : «إنه قد صفح عنه.» «فعاد إسماعيل» إلى إشبيلية

ورد والده إليه جميع أملاكه ، ولكنه شدد عليه الرقابة ، وأمر بضرب رقاب «أبي عبد الله» ومن معه ، وعلم إسماعيل بذلك فسقط في يده . وأدرك مبلغ خيانة والده وغدره ، ووجد أنه قد وقع في الشرك الذي نصبه له من الصفح المزعوم ، فأعمل الحيلة في الخلاص . وكسب بقوة المال الحراس وطائفة من العبيد، وجمعهم ذات ليلة - على الشراب ليعث فيهم الخماس والجراة ، وقلدهم السلاح وتسور بهم ناحية من القصر رى الوصول إليها هينا ، وكان يقدر أن يصادف والده في هذه الساعة نائما . وقد صمم في هذه المرة أن يقضى عليه القضا- الأخير . ولكن سرعان ماظهر «المعتضد» فجأة على رأس حاميته ، وما هي إلا أن عاينه المتآمرون حتى لاذوا بالفرار ، ولكن جنود الحامية تعقبهم إلى أن جاءوا بهم معتقلين وكان الغضب قد وصل بالمعتضد إلى أقصى حد . فأخذ ابنه إلى مكان بعيد من القصر ، وأرداه بيده قتيلا بحيث لم يتهد مصرعه أحد ، وهاج به هائج الغضب فأخذ يقتل وينكل بشركانه وأصدقائه وخدمه ، وحتى بنساء قصره . وكم أمر بتر أيد وأرجل وجذع أنوف ، وقطع رؤوس ، وقتل في السر وقتل في العلن . وبعد أن سقى غيظه . وسكنت ثورة غضبه . تملكه حزن عميق وتنبه في قرارة نفسه ، تأنيب شديد ، ووخز في الضمير أليم ، وما كان يشفع لهذا

التأنيب وذلك الألم النفساني الدائم ، أن ابنه القليل كان آثماً على الحقيقة جديراً بما حل به من العقوبة ، فقد ثار عليه ، وحاول قتله في محاولتين فشلنا معاً ، وسرق ذخائره وأعلاقه وكنوزه حتى انقذ سرق مع ذلك نساءه ، وكان لايفتر لحظة عن التصريح بهذه الشناعات والجرائم التي ارتكبتها ابنه ، ولا عن التحدث بأنه كان يحبه حباً حقيقياً ، فإنه مع جبروته وقسوته كان يجب أسرته وبخاصة ابنه الذي كان يرى فيه العاقل الرشيد السديد الرأي في المجلس ، والقائد المدافع عن حوزة المملكة في ميادين القتال ، والعون الوحيد له في شيخوخته ، والمتمم لعمله إذا وافاه الأجل المحتوم ، وهاهو قد حطم بيده تلك الآمال ، وقضى بنفسه على كل تلك الأمانى

وحكى بعض وزراء إشبيلية قال :

« في اليوم الثالث لهذه الكائنة المحزنة ، والفجيعة الدامية ، دخلت أنا وزملائي على المعتضد في مجلسه ، وكان وجهه مرعباً تعلوه كآبة الحزن ، في منظر موحش فظيع ، فعرتنا دهشة ، وارتعنا هلعاً وفزعاً ، وتقدمنا خجينة ، وهو يجمعهم بكلام لم نتيينه ، فنظر إلينا نظر استنابات وتفحص ، وجعل يصعد فينا بنظره ويصوب ، ثم قال في زجرة كزجرة الأسد » :

« ما بالكم لاتنطقون أيها الأشقياء ؟ إنه ليسركم في الباطن ما أنا فيه

الآن من محنة وبلاء ، فاذهبوا بعيداً عنى واخرجوا من هذا المكان . »  
وربما استحال ذلك النشاط الوحشى ، وتحولت تلك الإرادة  
الحديدية الآن إلى ذلة وضعف وفتور وانكسار لأول وهلة ، وأصبح  
ذلك القلب المقدود من الصخر . والذي كان يلوح أنه بمنجاة أن يطعن  
فى الصميم لصلابته وقسوته ، قد أصيب بجرح دام يندمل على الزمن  
شيئاً فشيئاً ، ولكن بعد أن يترك أثراً عميقاً ، وفى هذه الفترة ترك  
جمهورية قرطبة فى راحة وطأئنة ، وقد سرتها هذه الطأئنة المفاجئة  
على قدر دهشتها بها ، وكذلك لم يعد الآن يفكر فى خططة الحربية  
ومشاريعه الواسعة ، ثم عادت تلك الأطماع تتحرك فى نفسه بصفة غير  
محسوسة ، ثم تذهبت عوامل الجشع والطمع فى نفسه ، فأخذ يعد الأبهة  
للاستيلاء على « مالقة »<sup>(١)</sup>

---

(١) فى كتاب الذخيرة لابن بسام فصول هى أمس ما يكون بما كتبه دوزى عن  
المعتضد ، وسنذكر منها فيما يلى ما هو كالأصل لما كتبه « دوزى » عنه مع اختصار  
وحذف حسبما يقتضيه المقام فنقول :

المعتضد بالله عباد ابن ذى الوزارتين انقاضى أبى القاسم محمد بن عباد ، أفضى إليه  
الأمر بعد أبيه سنة ( ٤٣٣ ) هـ وتسمى بفخر الدولة ، ثم بالمعتضد : قطب رضى  
الفتنة ، ومنتهى غاية الحنة ، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم عليه  
فريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمور وهو متناقض ، وأسد فرس الطلى وهو  
رايض ، نار والناس حرب ، وكل نىء عايشه لب ، فكفى أقرايه ، وهم غير



وكان نير « باديس » قد أثقل كواهل العرب في « مالمقة » منذ سنين ، وأخذوا يلعنون أيامه ، ويئنون من جبريته وظلمه ، وصاروا

غير واحد ، وضبط شانه ، بين قائم وقاعد ، حتى طالت يده ، واتسع بلده ، وكرر عديده وعدده ، افتتح أمره بقتل وزير أبيه « حبيب » طعنه في ثغرة الأيام ملك بها كفه ، وجباراً من جبابرة شردبه من خلفه ، استمر يفرى ويخرق ، وأخذ يجمع ويفرق ، وهو في كل ناحية ميدان ، وعلى كل رابية خوان ، حربه سم لا يبطي ، وسهم لا يخطي ، وسلمه نر غير مأمون وذكره ابن حبان فقال :

وعنى يوم الأربعاء لست خلت لجادى الآخرة سنة إحدى وستين طرق « قرطبة » نعى المعتضد عباد زعيم جماعة أمراء الأندلس في وقته ، أسد الملوك ، وشهاب الفتنة ، وداحض العار ، ومدرك الأوتار ، وذو الأنباء البديعة ، والحوادث الشنيعة ، والوقائع المبيرة ، والهزم العلية ، والسطوة الألية ، فرماه الله بسهم من مراميه المصمية أحمد ما كان في اعتلائه ، وأرق ما كان إلى سنامه ، وأطسع ما كان في الاحتواء على الجزيرة ، محفراً لها عند تشميره الذيل بفتنة لا كفاء لها ، فتوفاه الله على فراشه من علة ذبحة قصيرة الأمد ، وحية الإيجاز . . .

وكانت ولايته بعد موت أبيه القاضى يوم الاثنين غرة جادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين ، وقضى نحبه يوم السبت من جادى الآخرة سنة إحدى وستين ، ودفن عشية يوم الأحد بعده ، تغمد الله خطاياهم ، فلقد حمل عليه — على مر الأيام في فرط القسوة ، وتجاوز الحدود في المثالة ، والأخذ بالظنة ، والإخفار بالذمة — حكايان شائعة ، لم يبد في أكثرها للعالم بصدقها دايلاً يقوم عليها ، فالقول ينساع في ذكرها ، ومهما برىء من معيها ، فلم يبرأ من شدة القسوة ، وسوء الاتهام على



يعقدون الآمال في الخلاص من هذا الحكم الغاشم على أمير إشبيلية ،  
وهم وإن كانوا على يقين من أنه مثله في الظلم ، إلا أنهم كانوا يؤثرونه

الطاعة ، سجاجيا من جبلة لم يخاصن فيها ذوى رحم وأشجة  
وكان تهيل سيرة أحمد بن أبي أحمد بن المتوكل أحد أشداء العباسيين . الذى  
ضم نصر المملكة بالمشرق وسطا بالمتزین عليها ، وبفقدته انهدمت الدولة ، فحمل  
عباد سمته المعتضدية ، وطالع بفضل نظره أخباره السياسية ، التى أضحت عند  
أهل النظر مثله هادية ، إذ الاحتواء على أمد الرياسة فى صلابة المعصى . وصناعة  
الستطى ، فجاء منها جمولات تدع من سمع بها ، فضلا عن عاينها ، نسبوا لى  
هذا الأمير الشهم امثالها من غير دلالة ، وقد انطوى علم الله عليها ، ونفر لإرصاده  
للكفاة بها ، وه يقصر «عباد» فى دولته التى مهدها فوق أطراف الأسنة ، وصير  
أكثر شغله فيها شب الحروب ، وكياد الملوك ، وإهراج البلاد ، وإحراز التلاد ،  
من توفر حظه الأوفى من الأمور الملوكية ، والعدد السلطانية ، والآلات  
الرياسية ، فابتنى القصور ، واعتمر العمارات المغلة ، واكتسب الملابس الفاخرة ،  
وغالى فى الأعلاق السنية ، وارتبط الحيول السابغة ، واقتنى الغلمان الروقة ، واتخذ  
الرجل الزادة ، تنقام من كل فرقة ، فساس طبقاتهم ماين إدارار الاعطية ، وضم  
الزيادة على صدق العمال ، والوفاء بالوعيد على النكال من العدو ، سياسة أعبت  
على أئنداده من موك الانداس . تفرج منهم رجلا مساعير حروب أباد بهم أقدنه ،  
من نادر أخباره المنتاهية فى لغرابه أن نال بغيته من أهل تلك الأمم العاتية ، ورنه  
لغائب عن مشاهدتها ، مترفه عن مكابذتها ، مدبر فوق أريكته . منفذ لحبها من  
جوف قصره . ما إن مى إلى عدو أو مغلوب من أقاله غير مرة أو اثنتين . تم لم  
عمرسه يدبر داخلها أموره ، جرد نهاره فى الأبرام والتدبير . وأخلص يله نعلى  
سورور ، فلا يزال تدبر عليه كقوس نراج . ويضيا عينا بقبض الأرواح . التى  
لأنابيبها من أعدائه بباب قصره حديقة تضع كل وقت تمرا من رءوسهم مهداة

على ياديس لأنه من جنسهم ، ولهذا اتفقوا مع المعتضد ، ودبروا مؤامرة كانت ياديس بتهانوه أول مساعد على تحقيقها ، لإدمانه على

إليه . مقرطة الآذان برفع الاسماء المنوّهة بمحاملها . ترتاح نفسه لمعاينتها . والخلق يذعرون مر التامحها ، وهو واصل نعيم ليله بإجالة كيده ، ومبتدع نشاط هوه بقوة أيده . له في كل شأن شوين . وعلى كل قلب سمع وعين . ما إن سبر أحد من دهاة رجاله غوره . ولا أدرك قعره . ولا أمن مكره . لم يزل ذلك دأبه . منذ ابتدائه إلى انتهائه

وكان محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهتدى . مفرق الجماعة بقرطبة . ومبتعث تلك الفتنة المبيرة . قد سبق «عبادا» إلى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرءوس أعدائه أمام أكثر له «واضح» الخصى العامرى من إرسال رءوس الخارجين عليه لأول وقعة . وأصلح بهم باب مدينة سالم . فغرس منها فوق الحشب العلبة لها بشط النهر حذاء قصره حديقة هول عريضة ، طويلة الخطة ، حمة عدد الصفوف المسطورة . تغلا للنظارة

وذكرتها شعراؤه ، مثل قول صاعد بن الحسين من قصيدة أولها :

«جلاء العين مبهجة النفوس      حدائق أطلعت ثمر الرءوس  
هناك الله - مهدى المساعى -      جنى الهامات من نلك الفروس  
فلم أر قلبها وحشا جيا      كربه روائه أنس الأنيس  
فساذا يملأ الاسماع منها      اذا مائت بأبناء الطروس»

وقد كانت لعباد وراء هذه الحديقة المائتة قلوب البشر ذعرا مباهاة بخزانة بلوى . أكرم لديه من خزانة جوهره . مكنونة (في) جوف قصره ، أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه ، منها رأس محمد بن عبد الله البرزلى ، شهاب الفتنة ، ورءوس الحجاب ، ابن خزرون بن نوح وغيرهم ، الذين قرن رءوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن على بن حود ، سابقهم الى تلك الرفعة ! نغص رءوسهم بالصون بعد إذالة جسومهم

الشراب ، وإغفاله شؤون دولته إلا في أوقات قليلة نادرة  
وفي اليوم المضروب موعداً لتنفيذ المؤامرة شبت في العاصمة ثورة ،

الممزقة ، وبالغ في تطييبها ، وتنظيفها للشواء لا للكرامة ، وأودعها المصاوت  
الحافظة لها ، فبقيت عنده ثاوية تحيب سائلها اعتباراً ( انتهى كلام ابن حيان )  
ثم قال ابن بسام قال ابن حيان : وكان عباد أوفى أيضاً من جمال الصورة . وتماه  
الخلفة ، وغفامة الهيئة ، وسباطة البنان . وتقوب الذهن ؛ وحضور الخاطر ؛  
وصدق الحس ، مافاق به على نظرائه ، ونظر مع ذلك في الآداب قبل ميل الهوى  
به إلى استئطان أدنى نظر بأذكي طبع حصل منه لتقوب ذهنه عل قطعة وافرة  
علقها من غير تعهد لها ، ولا إمعان في غمارها ولا إكثار من مطالعتها ، ولا  
منافسة في اقتناء صحائفها ، أعطته نتيجهتها على ذلك ماشاء من تحبير الكلام ،  
وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة ، في معان أمدته فيها الطبيعة ، وبلغ فيها  
الإرادة . واكتتبها الأدباء للبراعة ، جمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة إلى جود كف  
بارى بها السحاب . وأخبار ابن عباد في جميع أفعاله ، وضروب أنعمائه علانياته  
وخوافياته غريبة بعيدة ، وكان على تجرده في أحكام التدبير لسلطانه ذاكلف بالنساء  
فاستوسع في اتخاذهن ، وخلط في أجناسهن ، فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه  
أحد من نظرائه . قيل إنه خاف من صنوفهن السريات خاصة نحواً من سبعين  
جربة إلى حرته الحظية لديه الفذة من حلائله بنت مجاهد العامري أخت على ابن  
مجاهد أمير دانية ، ففشا نسل « عباد » لتوسعه في النكاح وقوته عليه ، ذكر أنه كان  
له من ذكور الولد نحو من عشرين ، ومن الاناث مثلهم ( انتهى كلامه )

حروب عباد مع المظفر وغيره من أمراء العرب  
قال ابن حيان : وأول مآظر من تفاسد « عباد » و « المظفر » ، أن ابن يحيى  
صاحب « بلبة » عند هجوم عباد عليه استجار بالمظفر ابن الأفطس فأجره .  
وانزعج له ، ووصل يده . وعطل ثغره . وجمع جيشه . وأقبل إلى « بلبة » ناصراً

شترك في إضرارها خمسة وعشرون حصناً ، وتلاحقت في نفس الوقت جيوش إشبيلية بقيادة « المعتمد » بن المعتضد ، فاجتازت الحدود

لابن يحيى ، مضيقاً لما خلفه ، يوقد نار فتنة كان في غنى عنها ، حتى نزل بنفسه على ابن يحيى ، ودافع ابن عباد عنه ، وحرك في ذلك من حلفائه البرابرة جماعة فسارعوا إليه غير ناظرين في عاقبة أمرهم ، وتقدموا في تحريك يسوعهم محمد بالقاسم (؟) فانتظم به أمرهم وتقدم إلى إشبيلية وراحم تدور على قريتهم « باديس ابن حبوس » مدرهم في الجلبى ، ومفرعهم في النائية ، يسلمون لرأيه ، ويزدحمون بركنه ، فأشفق الوزير ابن جهور من حركتهم تلك على عادته في التقلقل لأمثالها ، وجهد جهده في حربهم وأرسل ثقات رسله إلى عامتهم إلا ما كان من الدائنين منهم « عباد » داعية الروانية ، ومحمد ابن ادريس صاحب « مائة » دائل عمورية ، فانه تشككها بإدانا من الظنة ، اذ كان هو وجماعة قرطبة متوقعين على كل دعوة ، فلما وصلت رسله اليهم مازادهم الالجابا ، ولم يزل ابن جهور يضرب لهم الأمثال ، ويخوفهم من سوء العاقبة حتى صار فيهم كمؤ من آل فرعون وعظماً وتذكرة يحدو منهم الاطواد الراسية ، ويرقى الحيات الضارية ، واستن القوم في ميدان العناد فلما أصبح عند ابن عباد خروجه لليلة بنحيشه دفع عن على بن يحيى منتظراً الخلفائه جرد جياذ ضربت على بلد ابن الافطس ، وغارت وأنجبت ، وفعلت ففلات ككأت القلوب ، وقرفت الذنوب ، ثم نهض ابن عباد بنفسه إلى « لبللة » للقائه ، فجرت بينهما على بابها وقعة عظيمة صعبة استهما فيها النصر في مكان واحد شق الأبلمة وكانت أولا على ابن الافطس فولى الدبر ، وخاض وادبها دون مخاضة ( يياض بالأصل ) كثير ثم رجعت له على ابن عباد فكشف رحاله وأصاب منهم نمرأ ثم افترقوا ولحق ( يياض بالأصل ) قرطبة وجاز إلى الشرق وتجمع بخلفائه ، وعائوا في نظر إشبيلية ، وانقطعت ( يياض بالأصل ) وأمسى الناس في مثل

لمساعدة الثائرين ، فأخذت البربر على غرة ، ولعب السيف في رقابهم ولم ينج منهم إلا من تعجل الفرار ، وفي أقل من أسبوع من

عصر الجاهلية ثم وإلى ابن يحيى بعد ذلك كله ، لضرورة دفعته إلى ذلك . فكشفه المظفر ، وخانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله وأودعه عنده أيام تورطه في حرب المعتضد فانتبت بينهما العصمة ، وضربت خيل المظفر على صاحب « لبة » ، فاستغاث المعتضد فلحق به خيله ، واقتلت مع خيل « المظفر » ، وكان ابن جبور كثيراً ما يوالى رسله إلى الاصطلاح بينهما فتصدر عنها (أخبار) تخبر أن ابن الأفلح أقرب إلى اللام بامتطاء قومود اللجاج في القطيعة ، ومن النوادر المحفوظة بينهما : أن المعتضد والى حربه في شهور سنة اثنتين وأربعين بغير بلده ، وفتح عدة حصون ضمها إلى عمله . وشدها برحله ، ودمر عمارات واسعة أفسد غلاتها ، وأوقع رعيته في المجاعة الطويلة ، وعجز المظفر عن دفاعه شبرا واحداً فما دونه استكانة للحادثة التي هدت ركنه ، وأفنت حماة رجاله ، فاعتصم بمحصنه « بطليوس » ولم يخرج من خيله فارساً . وجعل يشكو به إلى حلفائه فلا يجد ظهيراً ولا نصيراً . فلما قضى المعتضد من تدوين بلاد طره وكر راجعاً إلى « إشبيلية » في شوال من العام ، وردت عنينا يومئذ بقرطبة غريبة : وذلك أن رسول المظفر في أثر هذه الوقائع عليه يتمس وصالف ملهيات يأنس بهن نافياً بذلك الشجاعة عن نفسه ولم تكن له عادة بمنه . فبعثه رسوله عن ذلك ، وكن قد عدمن بقرطبة يومئذ ، فوجد له صبيتين مدينتين عند بعض التجار لا طائل فيهما ، فاشترهما له وأقام رسوله يلتمس الخروج بهما . فاستطاع ، فقطع خيل المعتضد جميع الطرق ، فأقام مدة بقرطبة إلى أن سمع بخبر كشفه ، ودمى بهما وأولو النوى يعجبون مما شبر به نفسه من البطالة أيام الحروب المحرمة لأطهار النساء على فحول الرجال العاقدة للأزرة ، وعلى ما كان يدعيه نفسه من الأدب والمعرفة . وبحثت على هذه الاعجوبة وما الذي حمه على هذا لافك؟ فاذ به ناغى كاشحه المعتضد المرتاح بعد المظفر ، لاجتلاب قينة عبد الرحيم

الزمن تم فتح جميع الولايات، إلا حصن «مالقة» الذي كان به حامية البربر فإنه بقي وحده بدون تسليم ، وهو حصن منيع لوقوعه على قمة جبل ،

لوزير من قرطبة إثر وفاته يومئذ ، وقد اشتد لما وصفت له بالحنق في صنعها ، فوجهت نحوه فتقبله المظفر في إظهار الفراغ ، وطلب المنهيات ، وقد علم العالم أنه نفي شغل عنهن ، فامتد شأو هذين الأميرين يومئذ في النفي ، وتباريا في القطيعه حتى أفنيا العالمين ، إلى أن سنى الله بينهما الصلح في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين بسعى من جمهور أمير قرطبة كعادته بينهم بعد كتب ورسل في ذلك، والمظفر يمتطي للجاجة هنالك . فلما سكنت الحال بينهما ، فرغ المعتضد إلى حرب الأمراء الأصغر بالغرب كابن يحيى وابن هارون وابن مرين والبكري، وأتيح له من الظفر (ما أتيح) فضبط أملاكهم وضمها جلة إلى عماله ثم مديده إلى القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء فرضة الحجاز الأدنى من الأندلس إلى أرض العدو التي كان منها فتحها ، ومن قبها مأتاها على قدم الدهر . وذلك أنه لما وجد هذا الفتى على نباهته وجلالة عمله . أضعف أمراء البرابرة شوكة، وأقلهم رجالا صمد (يباض بالأصل) القاسم حقاؤه بالاندلس . وصاحب سبته «سقوط» البرغواطي مولى ابن حمود (يباض بالأصل) حتى سقط في يده ، ونزل على أمان وإلى أمره ، إلى أن لحق بقرطبة وسكنها تحت كنف ابن جمهور (يباض بالأصل) المخلوعين ، فلما كانت سنة إحدى وخمسين وقد أتيح له من الظفر ما أتيح ، انصابت الانبياء عندنا بقرطبة بصموت منابره في جميع أعماله عن ذكر امامة هشام بن الحكم صاحب الرجعة الذي اتصل الدعاء له على منابر من عهد قيام والده إلى آخر هذه السنة ، يومئذ إليه بالحياة في غياهب حجب من غير ظهور خاصة ولا عامة ، ودعوته على ذلك كله مرفوعة عند من أنسى بالمعتضد من أمراء شرق الأندلس إلى أن قطعها قاطع الاعتناق عليها «ابن تباد» فذكر أنه دعا وجوه حضرته فنعى لهم امامه هشاما . وكشف اليهم تقدمه

ولمناعته كان في استطاعته أن يقاوم مدة طويلة ، وحينئذ كان يخشى أن ينتهز « باديس » الفرصة فيجئ لشد أزر الحامية ، وهذا ما حسب له

وفاته من علة زمانية ، ووصف أن الحال التي كان بسبيلها من اشتداد الفتنة بينه وبين من تظاهر عليه من أمراء الاندلس الدائنين منه . عاقته يومئذ عن البوح بوفاته هذا الامام والمهرة لدفنه ، اعطاء للحزم بقسطه ، فلما سكنت الحال وجب انصريح بالحق . وعطف — زعموا — بكلامه على شحذ بصائرهم في التمسك بجعل الامامه والفرار عن الميتة الجاهلية ، وذكر أنه خاطب من كان تحت دعوة هذا المنعى هشام من أمراء الاندلس ناعيا له ، داعيا الى التعوض منه ، فارفعت الدعوة منذ ذلك الوقت ، وصاربت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة وعساها تكون — ان شاء الله — السادسة . فكلم قتل ، وكلم ما ب ، ثم انتفض من التراب ، ومزق الكفن قبل ثغرة الصور ووقعة الواقعة ، فقد كان مات في يد أول خالعه محمد بن هشام بن عبد الجبار ودفن علانية ، ثم نمر يبيد واضح الصقلي فتي بنى عامر ، ودال مدينة ثم قتلته خالعه الثاني سليمان المستعين ودفنه خفية ، ثم استمر راصده على بن حمود الحسني المتزى يذكي الطلب بأزم على الدولة . ودفنه الدفنة التي خلناها حقيقة ، فلم يلبث أن نجم حيا باشبيلية بعد حقب فيبي هنالك ملكا ، ودال قرناً الى أن وقعت عبه هذه الميتة الثالثة ، فلما تقول ونعتقد في الفرق بين هذه الميتات المتواليات اذا كان مثنيا وحداً ؟ وليس الا السيوف عليها أدلة غير اخلاص الدعاء لعامة المسلمين في اختلاف نافي الصلاح ( انتهى ما لحصه ابن بسام من كلام ابن حيان )

( قتل بن بسام ) ثم غمس المعتضد يده بعد فيمن كان يبه من البرازة . فصدم سره بسره . وضرب زيده بعمره . وقد كان عند ما نسرع نار الحرب . بنسه وبين رؤساء غمر ، هادنه على دخن . وفتح لهم حتى ضربوا حوله بعض . ليقتلهم بسيوفه ( يياض في الأصل ) الى حتوفهم ، فلما استقرت قدمه « بشب » ناصية قواعد

زعماء الثورة ألف حساب ، فأشاروا على المعتمد أن يُشدد الحصار على  
من في الحصن ، وألا يثق كثيراً بمجماعات البربر الذين في جيشه ، ولم

الغرب ( بياض في الاصل ) كان أول ما بدأ على الحاجب ابن نوح المنتزى كان بكورة  
مورور في غير كتيبة نظمها ولا مقدمة اليه ( بياض في الاصل ) ينهبان عليه . ويحملان  
الأموال بين يديه ، تجاسراً على ركوب الخطر ، الذي يصرف القدر ، وهو لا يرى  
أنخطئ أم تصيب ؟ نفلس إلى ابن نوح هذا من رجل لا يبالي دم من تجرع . ولا  
يخفى بمضى صنع ، فبالغ ابن نوح في بره ، وتضائل لأمره ، وحمل على ذلك من  
فعله على ( بياض في الاصل ) وآثم وجوه الاستقامة ، وفرض المعتضد يوماً من صميم  
ماله . في وجوه حماة ابن نوح ورءوس رجاله ، ما استمال به قلوبهم . واستنصح به  
جيوهمه ، ثم صار إلى ابن أبي قررة برندة فسامه مثلها ، وحذله فعلها ، فثلك اعتد  
عنيهم يدا . وجعلها لما أراد من مكروهم أمدأ . وقد كان أحد أجناده أشار  
بالرأى في أمره . وأراد أن يظلم عليه من نية مكروه ، فراطنهم يومئذ بغيره .  
ورمز لهم بالاستراحة من شره ، ففهمها المعتضد وجعل تلك الكلمة دبر أذنه . وأثبتها  
في ديوان إجنه ، حتى حلى بظائلها ، واستفاد بعد مديدة من قائلها ، وجأجأ الحاجبين  
المذكورين لأول تمكنه من الغرة . وساعة صدره من مكره ، ففتافتا تهاقت  
الفراس على الجمرة ، وجاء بجي الحائن إلى الشقرة . وتطفل عليهما الحسان ابن  
خزرون المنتزى كان وقتسه بأركش فله أبوه وافدا لم تحزه الوفاة . وواهاله  
قتيلا لم يحل بظائل الشهادة . فجرع السكل الختوف . وحكم في عامته السبوف .  
واستمر بعد ذلك على حرب بقاياهم . وتبع أخراهم . حتى تغلب على بلادهم . وألوى  
بطارقهم وتلادهم ، في أخبار طويلة استوفها ابن حيان ، هي خارجة عن غرض هذا  
الديوان ، وقد ألفت منها بما فيه الكفاية . اذ لا يتسع هذا المجموع لاستقصاء الغاية ،  
ولسبب الذي كان يغريه بطلبهم . وبعثه على التمرس بهم ، أن بعض من نظر بمولده كان  
خبره أن اقضاء دولته يكون على أيدي قوم يطردون على الحزيرة من غير سكانها .



يقدر المعتمد قيمة هذه النصائح الثمينة ، ولم تلق منه أذنا صاغية ، بل تهاون في الأمر ، وآثر الراحة ، وأطلق سراح الجند الذين أعجبوا

فكان لايشك أنهم تلك البرازلة الطارئون عليها في عهد ابن عامر . فأعمل في نكافه وجوه سياسته ، وشغل بقتالهم أيام رياسته ، واتفق أن دخل عليه يوما بعض وزرائه ، وبين يديه كتاب قد أطلال فيه النظر ، فاذا كتاب « سقوت » المنترى يومئذ « بسبته » يذكر أن القوم الثلثين المدعوين بالرباطين . قد وصلت مقدمتهم رحبة « مراکش » فقال له ذلك الوزير المذكور : وأين رحبة مراکش؟ وحلواها فكان ماذا؟ ومات الحجاج فمه (؟) ودونهم اللجج الخضر ، والمهامه الغبر . والبالى والايام ، والجماهيم العظام ، فقال له المعتضد : هو والله الذى أتوقعه وأخشاه . ان طالت بك حياة فستراه . اكتب الى فلان يعنى عامله على الجزيرة باحتراس جبل طاروق حتى يأتيه أمرى . وأخذ يريش في تحصينه ، ووضع أرصاده هنالك وعيونه . ولله عزائم لاثميا الحصون ، ولا تهتدى اليها الارصاد والعيون ، ولكل شيء أمد مكتوب . وميقات مضروب

وكتب ابن بسام أيضا في موضع آخر فصلا عن ابن الافطس يقول فيه :

فرجع ( ابن الافطس ) الى مقاومة ابن عباد ، فلما كان في سنة خمس وعشرين . وحه ابن عباد ابنه « اسماعيل » مع عسكر الى أرض العدو تحت معاقدة بينه وبين ابن الافطس ، فلما أوغل « اسماعيل » ببلده يريد أرض « غاليسيا » وابن الافطس يسر الغدريه ، فادر بتجميع رجال تعدده ورصده (؟) شعب ضيق في طريق أفوله ، ولم يعد ابن عباد بقىء من تدبيره ، حتى حصل في الانشوطه ، فبادر اسماعيل بانجاء نفسه . وأسلد جميع عسكره له ، وجرت عليه في مهربه مع جملة من أصحابه شدة جأ فيها الى ذبح خيله ، والاعتداء بالحوما ، ونجا بذمائه الى مدينة « اشبونة » آخر عمده من ساحل البحر المحيط ، فاصطلم ابن الافطس عسكره اصطلاما لم يسمع بمثه ، ووقع سرعان العدو من النصارى على كثير منهم فاقتنصوهم اقتناصا ، وقتلوا منهم أمة ، وكانت حادثة شنيعة . بقيت بها عداوتهما الى آخر وقتها

بهذا المسلك الحسن ، فمكفوا على الشراب ، وأخذوا يبحثون عن النساء ، لاعتقادهم أنه لاخطر هناك يتهددهم ، وقد غرهم ما قاله رؤساء البربر للمعتمد من أن الحصن عما قليل ستسلم حاميته ، وكانت هذه الخديعة من البربر بدافع ميل خفي إلى باديس ، وقد جر ذلك كثيراً من الشؤم على جيوش إشبيلية ، فإن أولئك السودان الذين هم في الحصن ، وجدوا عندهم متسعين من الرقت يخبرون فيه باديس بأن الفرصة سانحة لمباغطة عسكر المعتمد والقضاء عليه

فجذب جنود غرناطة في المسير ، وشقت طريقها إلى مאלقة بين الجبال والأوعار في سرعة وحذر ، ودخلت المدينة على حين غفلة من أهلها ، دون أن يكون عند المعتمد قبل دخولهم بلحظة واحدة علم باقترابهم . فلم يستطع أن يجمع الجيش للملاقاة العدو ، ولم تكن بين الجيشين معركة ، وكل ما في الأمر أن جند غرناطة ، قاموا بمذبحة في عسكر إشبيلية الذين كانوا عزلاً من السلاح ، والذين كان أكثر من نصفهم سكارى ، وقد أفات المعتمد من أيديهم بانسحابه إلى « رنده » واضطرت ولاية « مאלقة » جميعها أن تخضع من جديد لحكم « باديس »

---

هذه فصول تخبرنا تهلها من القسم الثاني من كتاب الذخيرة في أخبار الجزيرة لابن ساسم ، لعلنا بما كتبه العلامة « دوزى » عن « المعتضد » في هذا الفصل . وهي كما يلوح عند المقارنة . كالأصل لما كتبه آثرنا تهلها زيادة في الايضاح ، وأتاماً للفائدة .

ولنتصور هنا مبلغ حنق « المعتضد » وغضبه حين نعى إليه خبر هذه الهزيمة ، وأن ولده بهاونه وتضييعه خطة الحزم قد فقد جيشه .  
وقد ولاية عظيمة ، وكان من نتيجة هذا الغضب أن أصدر أمره باعتقال المعتمد مع مسجونى حصن « رنده » وقد هم أن يقضى على ولده الثانى فى حياته أيضا ، ناسياً وخز الضمير الذى أصابه ائتمله ولده الأول

وكان المعتمد يجهل مبلغ ماوصل إليه والده من الغضب والحسرة والندم ، ونما استقر فى الحصن ، وعرف مدى غضب والده بعث إليه بقصيدة تفيض بالمديح والثناء ، وتشيد بكرم المعتضد ، وتستجلب عطفه وصفحه ، وتقتضى فؤاده الرحمة والشفقة ، بذل فى هذه القصيدة كل ما فى استطاعته ليصرف عن والده ما ساوره من حزن ، وألم به من ألم .  
وليعزیه عن هذا المصاب وذلك الإخفاق بما أحرزه فيما مضى من انتصارات باهرة ، وفتوحات اتسعت بها رقعة المملكة ، ومن أجمع الأبيات لهذه المعانى قوله فى صدر قصيدته الرائية :

« سَكَنَ فُؤَادُكَ لَا تَذْهَبُ بِكَ الْفَكْرُ      مَا إِذَا يَعِيدُ عَلَيْكَ الْبُثَّ وَالْحَذَرُ  
وَأَزَجَرَ جَفْوَنُكَ لَا تَرْضَى الْبُكَاءُ لَهَا      وَأَصْبِرْ فَقَدْ كُنْتَ عِنْدَ الْخَطْبِ تَصْطَبِرُ  
وَإِنْ يَكُنْ قَدْرٌ قَدْ عَاقَ عَنْ وَطَرٍ      فَلَا مَرْدَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ  
وَإِنْ تَكُنْ كِبُوءَ فِى لَدَهْرٍ وَاحِدَةٍ      فَكَيْفَ غَزَوْتُ وَمِنْ أَتْسَاعِكَ الظَّفَرُ

كم زفرة في شغاف القلب صاعدة  
فوض إلى الله مما أنت خائفه  
ولا ترعك خطوب إن عدا رمن  
واصبر فإنك من قوم أولى جلد  
من مثل جدك، والمالك الهمام أبو  
سميدع يهب الآلاف معتذراً  
له يد كل جبار يقبلها  
ياضيغاً يقتل الأبطال مفترساً  
وفارساً تحذر الأبطال صواته  
هو الذي لم تشم يمينك صفحته  
ثم حاول في قصيدته هذه أن يعتذر عن نفسه ، ويلقى التبعة على  
لبربر الخائنين ، ويصف بأبداع أسلوب مبلغ الحزن الذي تملكه من  
حراء غضبه عليه فقال :

لم يأت عبدك ذنباً يستحق به  
ما الذنب إلا على قوم ذوى دغل  
قوم نصيحتهم غش ، وحبيهم  
يميز البغض في الألفاظ إن نطقوا  
إن يحرق القاب نفث من مقلهم  
عتباً وها هو قد وافاك يعتذر  
وفي لهم عدلك المألوف إذ غدروا  
بغض ، ونفعهم إن صرفوا ضرر  
ويعرف الحق في الأحاط إن نظروا  
فإنما ذاك من نار القلى شرر

مولای ! دعوة مظلوم به ظلاً  
أجب نداء أخى قلب تملكه  
لم أوتَ من زمنى شيئاً أسره  
ولا تملكنى دل ولا خفر  
رضاك راحة نفسى - لا فجعت به -  
وهو المدام التى أسلو بها فإذا  
ماتركى الحمر من زهد ولا ورع  
وإنما أنا ساع فى رضاك، فإب  
أجل ولى راحة أخرى أسر بها  
كم راحة لى فى الأعداء واضحة  
سارت بها العيس فى الآفاق فانتشرت  
فليس فى كل حى غيرها سمر  
فلم يفارق - لعمرى - سنى الصغر  
أخفقت فيه فلا ينسأ لى العمر  
نظم السكلى فى القنا والهام تنتثر  
تفنى اللبالي ولا تفنى لها الذكر  
فليس فى كل حى غيرها سمر

\*\*\*

لازلت ذا عزة قعاء شائخة لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر  
ولا يزل وَرَدُّ من حسن رأيك لى آوى إليه، فنعم الكهف والوزر  
وقد أثر هذا الشعر - بروعته وسمومعانيه وانسجام عباراته - فى نفس  
المعتضد، وأخذ يرق تدريجاً، ويعطف على ولده، كما عطفه عليه رجل  
معروف بالصلاح والورع من رجال « زنده » أكثر من التوسلات

والشفاعات التي رق لها قلبه ، ولان جانبه ، فأباح للمعتمد العودة إلى إشبيلية ، وصفح عنه ، ولكن « مألقة » قد أفلتت من يده بحيث لا سبيل إلى رجوعها ، واستيقظ « باديس » من ذلك الحين وأخذ في الالهبة والاستعداد والحيلة حتى لا يحاول « المعتضد » مباغتتها والاقضاض عليها مرة أخرى . ومما يقال عن ملك « غرناطة » أنه كان في ثورة غضبه لا يرحم ، وأنه كان ينتقل من مكان إلى مكان للانتقام من الثائرين والزعماء ، وهو محاط بجلاذيه ، وأنه أودى بحياة الآلاف من المساكين الذين ثاروا عليه وأبادهم قتيلا وتمثيلا ، وإحراقا وتنكيلا ، فلم يعد أحد من الثائرين الكارهين لحكمه يرغب في إعادة الكرة عليه ثانية .

\*\*\*

ووجد الناقمون عليه في وسط هذه المحنة الشديدة والعذاب المستأصل سبيلا لا إثارة الخواطر حين آنسوا أن نفوذ اليهود في بلاط « غرناطة » قد بلغ النهاية ، فإنه بعد أن مات « إسماعيل » خلفه ولده « يوسف » الذي عنى أبوه في حياته بتعليمه كثيرا من العلوم ، وأعدّه إعدادا تاما للقيام بأعباء الوزارة بعده ، وقد اضطلع بمنصب كبير الوزراء في الدولة ، ولديه كل المؤهلات العلمية والتشقيفية ؛ إلا أنه كان يعوزه لين الجانب ، والتواضع الذي كان يكسب والده - مع سمو المركز - صفح الأمير ورضا الجميع عنه . ولم يكن « يوسف » على شاكاة أبيه من هذه الناحية ، بل كان يظهر بمظهر أميره

« باديس » ممطياً جواده إلى جانبه ، وركابه بإزاء ركابه ، وشارته في اللبس كشارته . حتى إن الناظر إليهما لا يفرق بين الأمير ووزيره .  
بل لقد كان « يوسف » في الحقيقة ملكاً فوق الملك ، وكان هو المسيطر المتسلط على « باديس » لعكوفه على شرابه ، وانغماسه في لهوه وبطالته .  
ولكى يستمر نفوذه وسلطانه على المملكة كان قد أحاط « باديس » بجواسيس وعيون من نساء وقتيان قصره ، استغلهم بالمال ، وغرهم بالإحسان ، فلا يكاد « باديس » ينبس أو يتنفس إلا وهو يعلم ذلك .

\*\*\*

وذهب كثير من الناس إلى أنه لم يكن على دين آبائه وأجداده ، وأنه كان مستهتراً يحقر الأديان جميعاً ، وقالوا : إنه لم يكن يهودياً إلا بالاسم فقط ، وكان - في حملاته على الدين الموسوى - لا يكاد يصرح بالظعن ، أما الدين المحمدى فكان يجهز بالفض منه . ويعيب أحكامه ، هذا إلى أنه كان يحرف كثيراً من آيات القرآن ، يضاف إلى ذلك أنه أساء إلى العرب والبربر بل واليهود ، وجرح كرامة الجميع بكبريائه وترفعه وإعجابه وزهوه ، وآرائه اللادينية وقلة إنصافه ، وعدم رعايته العدل ، وحام حوله كثير من الشبه والظنون . وأصبحت تعزى إليه تهمة وتذاع مخازر وفضائح . واستهدف لكثير من الأئمة . وحمل كثيراً من جمهرة مسلمين على معاداته ، بينهم الزاهد « أبو إسحاق » الألبيرى الذى

ذاعت قصيدته في الإغراء باليهود .

عصف الشباب بهذا الرجل ، فسولت له نفسه أن يتطلع لمركز في البلاد يرى نفسه - لمنصبه وسابقته في الزهد والورع - أهلاً للحصول عليه ، فخب « يوسف » آماله ، فرحل وهو يحمل في نفسه من الحقد والكراهة لليهود ما حفزه على أن ينظم فيهم قصيدته التي يقول في مطلعها :

« ألاق لصنهاجة أجمعين      بدور الزمان وأسد العرين  
مقالة ذى مِقة مشفق      يعد النصيحة زُلْفَى ودين  
لقد ذل سيدكم ذلة      تقربها أعين الشامتين  
تخير كاتبه كافرأ      ولو شاء كان من المؤمنين  
فعر اليهود به وانتخوا      وتاهوا، وكانوا من الأردلين»  
ومنها :

« فكم مسلم راغب راهب      لأرذل قرد من المشركين  
وما كان ذلك من سعيهم      ولكنّ منا يقوم المعين  
فها اقتدى فيهم بالألى      من القادة الخيرة المتقين<sup>(١)</sup>  
وأنزلهم حيث يستأهلون      وردهم أسفل السافلين  
فلم يستخفوا بأعلامنا      ولم يستطيلوا على الصالحين»

---

(١) في هذا البيت شيء كبير من الركاكة في قوله: « بالألى من القادة الخيرة المتقين » ولكنها مغفورة لما في تاليه من تنمة تلك الصورة الشعرية المنطقية البديعة .



ومنها يخاطب السلطان :

«أباديس»<sup>(١)</sup> أنت امرؤ حاذق تصيب بظنك نفس اليقين  
فكيف خفي عنك ما يعثون وفي الأرض تضرب منها القرون؟  
وكيف تحب فراخ الزنا وقد بغضوك إلى العالمين؟  
وكيف يتم لك المرتقى إذا كنت تبني وهم يهدمون؟  
وكيف استتمت إلى فاسق وقارنته، وهو بئس القرين؟»  
ومنها :

« وإني حلت بغرناطة فكنت أراهم بها عابثين  
وقد قسموها وأعمالها فمنهم بكل مكان أمين »  
ومنها :

« وهم أمناكم على سرهم وكيف يكون أمين خوون  
ويأكل غيرهم درهما فيقصي، ويُدنون إذياً كلون .  
وقد ناهضوك إلى ربكم فما يمنعون وما ينكرون ! »  
ومنها :

« ورخم قردم داره وأجرى إليها نمير العيون

(١) الهمزة للنداء وباديس هو باديس بن جوس ، صاحب غرناطة ، الذي يتحدث عنه «دوزي» في هذا الفصل . وكانت بينه وبين المعتضد حروب شديدة ، قال ابن خلدون . « ولي باديس ملك غرناطة بعد أبيه واستولى على سلطانه اسماعيل بن تغزله الذي ، ثم نكبه وقتله سنة تسع وخمسين واربعمائة وقتل معه خلقا من اليهود ، وتوفي «باديس» سنة سبع وستين واربعمائة (ارجع إلى ص ٩٤)

وصارت حوائجنا عنده ونحن على بابه قائمون  
ويضحك منا ومن ديننا فإننا إلى ربنا راجعون<sup>(١)</sup>

\*\*\*

ولو قلت في ماله : إنه كما لك كنت من الصادقين  
فبادر إلى ذبحه فُرْبَةً وضح به فهو كبش سمين  
ولا ترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين  
وفرق عراهم وخذ ما لهم فأنت أحق بما يجمعون  
ولا تحسبن قتلهم غدره بل الغدر في تركهم يعيشون  
فقد نكثوا - عندنا - عهدهم فكيف نلام على الناكثين  
وكيف تكون لنا همة ونحن تكون لنا همة  
ونحن الأذلة من بينهم ونحن خول وهم ظاهرون  
فلا ترض فينا بأفعالهم فأنت رهين بما يفعلون  
وراقب إلهك في حزبه فحزب الإله هم المفلحون «

وكان أثر هذه القصيدة في نفس « باديس » الذي أولاه ثقة  
لاحد لها بالغا الغاية ، كما أنها أثرت تأثيراً عميقاً في نفوس البربر ، فثاروا  
للانتقام ، وحلفوا ليقْتُلْنَه . وأذاع زعماء المؤامرة أن اليهودى انضوى  
تحت لواء المعتصم « أمير المرية » وكانت العلاقة بين الغرناطين وبينه

(١) يرى القارى في هذا البيت أسلوبه الشطيانى في استفزاز العاطفة الدينية عن طريق التفجّع على ما أصاب الدين من ضعف وأدى بذلك اليهودى إلى السخرية منه .

علاقة حرب لاسلم . وقد يتساءل بعض الناس ممن كانوا أقل تصديقاً :  
ما الفائدة التي يجنيها « يوسف » من خيائه ملكا وثق به ، وسلم إليه  
قيادته ، وجعله صاحب السلطان التام دونه في المملكة ؟ لقد أشاعوا  
حينئذ أن اليهودى يريد أن يمكن المعتصم من الاستيلاء على المملكة ،  
ثم يعود هوف يقتل « باديس » ويتبوأ العرش مكانه ، ولسنا في حاجة لأن  
نبين أن كل هذه الاشاعات من قبيل الأراجيف والشايات المحضة .  
وإذا نظرنا إلى الواقع رأينا أن البربر كانوا يودون خلق الأسباب التي  
تدعو إلى إبعاد اليهودى عن الحكم ، والاستيلاء على ما يملكه اليهود  
من أموال وثروات يחסدونها عليها ، ويتعمنون أن لو كانت في  
حوزتهم . ولما وجدوا أنهم قد ظفروا بالأسباب التي تبرر الفتك  
باليهود ثاروا جميعاً ، وهاجموا قصر الامارة مع العامة ، ودخلوا في طلب  
اليهودى ، فزعموا أنه اختفى في بيت فخم وسود وجهه ، يريد أن يتنكر  
و يلبس عليهم صورته ، فعرفوه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة <sup>(١)</sup> .

#### (١) مذبحه اليهود

ذكرنا في كتابنا « نظرات في تاريخ الأدب الأندلس » تعلباً على القصيدة التي  
أنشأها أبو إسحق الفقيه ما يأتي :  
« ولا يفوتنا بعد كل ما ذكرناه أن نبين أثراً فعلياً واضحاً من آثار تمكن العبيدة  
في نفوس أصحابها ، متى وجدت محركا قادراً على تصرفها . واستفزاز العاصفة الدينية  
فيها . فإن إلقاء نظرة سريعة على قصيدة أبي إسحق الفقيه ورؤية أثرها العظيم الذي

ثم عمدت «صنهاجة» بعد ذلك إلى قتل سائر اليهود ، فقتل في يوم منهم مقتلة عظيمة ، ونهبت دورهم . وقد بلغ عدد من قتل منهم

أحدثه في نفوس الجمهور ، ليكنى وحده في إثبات ذلك ، وإنك ل ترى فيها مبلغ التحمس الدينى العظيم ، وكيف أنها كانت السبب في القضاء على مايربى على أكثر من أربعة آلاف يهودى ، ونهب أموالهم ، وتدمير منازلهم ، وكانت السبب في حدوث تلك المذبحة الهائلة في القرن الخامس الهجرى سنة ٤٥٩ هـ .

وقد دعا صاحبها إلى قولها أن يوسف بن نغذلة اليهودى الوزير وشى بأبى اسحق — قاتل هذه القصيدة — فأقصاه السلطان عن بلاده — قالوا وكان ذلك الوزير فدمر عرض لتسفيه بعض الآراء الدينية الاسلامية ، وكان عظيم الخطر واسع النفاذ — فوجد أبواسحق من ذلك دافعاً إلى إنشاء تلك القصيدة البليغة . وقدملاًها تحريضاً وأفعماً حجباً وبراهين . أفلح في التأثير بها على العامة وحلهم على إتخاذ رغباته . وما زال يتفنن في ضروب الاحداث والتهيج حتى اشتعل الجمهور الساذج حماسة . وهجم على ذلك الوزير فقتله في قصر السلطان نفسه — وليس من شك في أن أباسحق بذل كل مواهبه في الضرب على النعمة الدينية وإظهار التفجع الشديد على ما انتاب الدين من التهاون به ، وعرف كيف يوالى فيها اطراد الأدلة واتساقها وتدفق المعانى وغزارتها مع دقة في التعبير عن أغراضه وخوالجيه بكلام نغم يتطايّر حماسة ويتأجج ناراً . وشعر صارخ :

« خارج من قلب قاتله مثلما يزفر بركان »

وبهذا استطاع قاتله أن يوهب سامعيها أن قتل أولئك اليهود ( خصومه ) عرض لامناس من أدائه . وواجب حتم لا يصح السكوت عنه . وأنهم إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى ، فهم خليقون أن يتداركوه في الحال ، حتى لا تصب عليهم لعنة الله . أو يحيق بهم غضبه . فيخسف بهم الأرض . أو تنقض عليهم السماء . وكذلك لم يترك ناظمها وسيلة من الوسائل التى تستفز أخفى العواطف الدينية الكامنة

أربعة آلاف يهودى ذهبوا ضحية العداوة الدينية ( ٣٠ ديسمبر  
سنة ١٠٦٦ )

---

إلا استخدمها . ولا نفعة من نغفات التعصب للعقيدة الدينية إلا ضرب على وتيرتها .  
كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل لسهولته إلى حد الركافة في بعض الأبواب ،  
مع أنه من أجل الشعر وأبدعه وإن شئت فقل : وأروعه .

\*\*\*

وهكذا استفزت الناس هذه القصيدة البليغة إلى الفتك باليهود وأخذ اليهود منهم  
بدنب المسيء . وكان من نتائجها تلك المذبحة الكبيرة التي أسمرنا إليها وانى لا يؤخذ  
بجبريتها إلا أبو اسحق — ناظمها — الذى عرف كيف ينقم نفسه عن طريق التشيع  
للدين والتظاهر بمظهر المتفانى في الدفاع عنه .

## الفصل الثامن

لم تكن الحال في بقية أنحاء « إسبانيا » الإسلامية خيراً منها في البلاد الجنوبية، فقد حى وطيس النزاع من جرّاء بقايا الشئون الخلافية، وأخذ سيل الفتن يطنى على وسط الجزيرة وشرقها وغربها حتى كاد يجرف أمامه جميع الممالك الإسلامية المنبثة في شبه الجزيرة .

وكان قد مضى على الممالك المسيحية نصف قرن وهم بشئون بلادهم مشغولون عن غزو الممالك الإسلامية، وبدأت الحال في سنة ١٠٥٥ م تتحول، فاستطاع « فردينند » ملك « قشتاله » و « ليون » أن يوجه جميع جيوشه لقتال المسلمين، الذين كانوا - على ما يظهر - لا يستطيعون أن يقاوموا خصومهم مقاومة جدية، وهكذا أصبح الفوز حليف المسيحيين، فقد كان لهم من الروح الحرى، والحمة القومية، والغيرة الدينية ما لم يكن عند المسلمين . فكانت حروب « فردينند » سريعة، وانتصاراته متلاحقة، فانتزع من « المظفر » ملك « بطليّوس » سنة ١٠٥٧ م مدينتين وأخذ من ملك « سرقسطة » جميع الحصون والمعاقل التي تقع في الجنوب، وشن الغارة على المأمون صاحب « طليطلة » وزحف بجيوشه، ولما كان المأمون أضعف من أن يثبت للعدو، فقد رأى من الحكمة أن يتقدم إلى « فردينند » عند قدومه بالهدايا الثمينة من الذهب

والفضة والأحجار الكريمة ، ويعرض عليه ولاءه ، ويؤدى له الجزية  
كما فعل ذلك من قبل ملكا بَطْلَبُوس وسرقسطة .

\*\*\*

وجاء - بعد هؤلاء - دور المعتضد فى سنة (١٠٦٥) أحرق «فردينند»  
هرى إشبيلية ، وباتت الممالك الإسلامية جميعها فى أشد حالات السوء  
والضعف مما جعل المعتضد - وهو أقوى ملوك الأندلس - يرى من الحكمة  
أن يحنو حذو المأمون فى إعطاء الإتاوة لفردينند ، ففضى إلى معسكره .  
وقدم إليه هدايا ثمينة وتوسل إليه أن يبقية على ملكه . ولما رأى من  
المعتضد جلال الشيخوخة ، وتغضن الجين ، واشتعال رأسه شيئاً  
وأنه متهدم القوى ، لاح له أنه بمنجاة عن المكر والخبث ؛ وكان  
المعتضد لما يعد السابعة والأربعين من عمره ، ولكن الهموم وشدة  
الطمع والجشع ، وكثرة العمل ، وفرط الظلم ، وتأنيب الضمير - على  
ما يُظن - كل أولئك ، قد أحال لونه ، وأبدى على معارف وجهه مظاهر  
الشيخوخة فى إبان السكولة . فلا غرابة إذا رحمه ملك « قشتالة »  
وأثرت شيخوخته فى نفسه . ولكن هذا لم يرتح إلى دفع الإتاوة ، ورأى  
أن يستشير أهل مملكته ويستفتى فيها الفقهاء ، فجمعهم ، أبى رأيهم  
فيما يكون من الشروط ، وأن يقرروا من الرأى ما يعرضونه عليه ، فاجتمعت  
كلتهم على أن يدفع ملك إشبيلية جزية سنوية . وأن يسلم إلى

رسل يرسلهم إليه « فردينند » جثمان القديسة « جوست » العذراء  
التي استشهدت في عصر الاضطهاد الرومانى .

قبل المعتضد الشرطين ، وانسحب « فردينند » بعسكره ، ولما  
وصل إلى « ليون » أوفد إلى « إشبيلية » القينوس « أسقف العاصمة  
و « أردو » أسقف « استورقه » وأوجب عليهما أمرين .  
الأول نقل جثمان القديسة ، والثانى تسوية مسألة الجزية .

وأسف « القينوس » مع زميلين له - حيث لم تسفر أعمال التنقيب  
التي أجريت للعثور على رفات القديسة ، عن نتيجة ، مما حمل القينوس  
أن يقول لرفيقه : إنكما - أيها الأخوان - تريان أنه إذا لم تسعفنا  
الرحمة الألهية ، فسنعود من هذه الرحلة الشاقة ، وقد ضاع كل ماعلقناه  
عليها من أمل ، والظاهر أنه لا بد لنا من أن نستلم المولى سبحانه  
وتعالى ، وتجه إليه بالصلاة والصيام ثلاثة أيام نسأله فيها الهداية إلى  
هذا الرفات الدفين ، والكنز الثمين ، الذى نبحت عنه فى خبايا  
الأرض ، وبناء على هذا العهد الذى عاهدوا الله عليه أمضوا ثلاثة أيام  
صائمين مصليين داعين حتى أثر ذلك فى صحة « القينوس » وكانت  
معتلة ، وبخاصة منذ قدم إلى « إشبيلية » ، وفى صبيحة اليوم الرابع  
جمع الأسقف رفاقه ثمانية ، وقال لهم : « إن رحمة الله لم تشأ أن نرتد



من رحلتنا هذه بالحنية والفشل ، فواجب علينا أيها الرفاق المحبوبون أن نشكر الله من صميم قلوبنا ، فقد تم أمره ، وفُضد قضاؤه بأنكم ستحملون إلى وطنكم ما لا يقل قدراً عن رفات القديسة « جوست » التي حرم الله علينا إخراجها من هذه الأرض ، ذلك هو حثاب السعيد « ايزيدور » الذي حمل التاج الأسقى إلى هذه البلاد ، والذي زان - ببلاغته ومنشأته - إسبانيا كلها . وقد كنت اعتزمت - أيها الإخوان - أن أقضى الليلة ساهراً ابتهل وأدعو وأصلى لله ، ولكن خاتنى قواى ، فماكدت أجلس لحظة حتى بلغ منى الإعياء مبلغه ، فأخذت سنة من النوم ، فرأيت كأن شيخاً عليه سمة الرهبان يقول لى : « لقد عرفت ماجئت أنت ورفقاؤك من أجله ، وقد أبت الإرادة الإلهية أن تحرم المدينة من رفات القديسة « جوست » فيخيم على ربوعها الحزن ، وينتابها الألم ، كما أبى اللطيف الإلهى إلا أن يهبكم جنانى رحمة بكم حتى لاتعود أنت ورفقاؤك بأيدي أصفار من هذه الأمنية التى طالما تكبدتم من أجلها المشاق . »

فقلت : « ومن تكون أنت ؟ » قال : « أنا بدأت كبير قساوسة هذه المدينة ، وانتهيت طبيب إسبانيا كلها ، أنا ايزيدور » واختفى شبهه عني - على أثر هذه الكلمات - واستيقظت فصليت شاكراً لله ، ودعوته

أن يعيد هذه الرؤيا على مثنى وثلاث إن كانت وحياً من لدنه ،  
فعاودتنى الرؤيا مرتين كان الشيخ فى كل منهما ، يوجه إلى نفس  
عباراته الأولى بعينها ، وزاد فى المرة الثالثة أن أرانى موضع قبره .  
وقد ضرب عليه بعصا فى يده ثلاثا وهو يقول : « هنا ، هنا ، هنا . تجد  
جثمانى ، ولا يقعن فى خلدك أننى شبح يخدعك ، وستوقن أن ما أنبأتك  
به هو الحق ، وآية ذلك أن رفاتى لا يكاد ينقل من موضعه حتى ينزل  
بك داء يستعصى على نطس الأطباء شفاؤه ، ثم تموت ، وتأتى إلى  
علمنا متوجا بتاج البررة الصالحين . »

واختفى بعد أن آتم هذه الكلمات .

وذهب « الفينوس » وزملاؤه إلى قصر « المعتضد » وقص عليه  
رؤياه . واستأذنه فى نقل رفات « إزیدور » عوضا عن نقل رفات  
القديسة « جوست » .

وقد ترك كلام الأسقف فى نفس « المعتضد » أثراً غريباً ، ذلك  
الرجل المتشكك الساخر الذى لا يدين بغير شيئين اثنين : هما الخمر .  
والملك ، ولكنه من باب الدهاء قد أصغى باهتمام إلى كلام الأسقف .  
وقد قال له بعد أن قرغ من كلامه بهجة تشف عن حزن عميق : « إني  
آسف جد الأسف ، فإني إن أعطيتك رفات « إزیدور » فإذا يبقى لى  
بعد ذلك ؟ على أنى أيها الشيخ الوقور لا أمتنع عن تنفيذ رغباتك ،

ولیکن ماأردت ، قم فنقب وابحث عن القبر ، واتقل رفات الراقد  
فيه على الرغم مما یساورنى بعد ذلك من أجله .  
وكان ذلك العربى الداهية ، والثعلب الماکر ، یعرف کیف یستفید من  
شفقة المسیحیین ، ولوأنه كان یسخر من فرط هذه الشفقة إذا خلا مع نفسه .  
وقد أحس من نفسه أن علیه جزية واجبة الأداء ، فرأى أن  
یتظاهر بأنه شدید الاهتمام ببقایا « إیزیدور » التى لا یفرط فیها إلا  
مرغما کارهما ، والتى یعدل إخراجها من قصره انتزاع روحه من جسده

\*\*\*

وعول على استغلال هذا الموقف لفائدته ، فكان یضعل فعل المدين  
الذى إذا ما ألح علیه دائنوه وأخرجوه ، عرف کیف یدخل فى الحساب  
ذلك الأثر الخالد النادر ویغالى فى ثمنه ، ویحمل دائنيه على قبوله .  
وهكذا لعب « المعتضد » دوره إلى النهایة ، فإنه عندما أراد « استورجه »  
وقد توفى أخيراً زميله « الفینوس » أن يأخذ الأبهة لمبارحة « إشبیلیة »  
وحمل رفات « إیزیدور » فى مركب جاء « المعتضد » ووضع على  
التابوت غطاء من الدیباچ المحلى بالنقوش والکتابات العربیة البدیعة .  
وجعل یصعد الزفرات ، ویتنصع الحشرات ، وهو یقول :  
« هأنت ذا تبرح المدينة یا « إیزیدور » المبجل ، وأنت تدرى  
ما بین بلدینا من أوثق روابط المودة والعلاق .  
وكان العام التالى ( ١٠٦٤ ) من أسوأ الأعوام وأشدّها على

المسلمين ، فاضطر أحد أمرائهم إلى الاستسلام والنزول على حكم « فريدينند » بعد أن شدد عليه الحصار ستة أشهر ، وقضت شروط الصلح أن يعطى للظافر خمسة آلاف من المدافعين ، وأن يغادر الباقون مساكنهم غير مزودين إلا بما يلزمهم من النقود لسفرهم ، وفضلا عن ذلك فقد أمر جميع المسلمين النازلين بين « دويرو » و « مناجو » بأن يجلوا عن بلادهم .

ووجه « فريدينند » بعد ذلك قوته إلى مملكة « بلنسية » ، وعليها ذلك الضعيف المتراخي « عبد الملك المظفر » الذى خلف أباه « عبد العزيز » سنة ( ١٠٦١ )

وحاصر « القشتاليون » العاصمة ، ولكنهم - بعد أن وجدوها منيعة - رأوا أن يلجئوا إلى الحيلة ليخلوا العاصمة من الحامية ، فتظاهروا بالانسحاب ، فخرج البلنسيون فى ثياب العيد يتعقبونهم ، وهم يظنون أن الانتصار أمر سهل . على أن هذه الجرأة قد كلفتهم ثمناً باهظاً ، فقد باغتهم القشتاليون بالقرب من الطريق المؤدية من بلنسية إلى « مورس » وقتلوا أكثر رجالهم ، ونجا ملكهم على ظهر ساج ، وكان الاستيلاء على قلعة « باريسترو » وهى من أهم القلاع فى الشمال الشرقى بعد نكبة أخرى مروعة .

وقد سقطت هذه القلعة في يد جيش من «النورمنديين» كان يقوده «غليوم دى منترى» كبير قواد البابا ، ويطلق عليه في روايات الفروسية اسم «أوركوفى» أى القصير الأنف ، وكانت خاتمة المقهورين خاتمة أئمة ، فقد سلم جنود الحامية على شريطة الإبقاء على حياتهم، ولكنهم -حين خرجوا- من الحصن قتلوا على بكرة أيهم، ولم يكن حظ العامة أحسن من حظ الجند ، فقد أمنوهم أيضاً على حياتهم . وبينما هم يتأهبون للرحيل من المدينة ، إذ نظر «غليوم دى منترى» قراءه كثرة عددهم ، واستولى عليه القلق والاضطراب ، فمنهم من الخروج وأمر رجاله أن يصفوهم صفوفا متقاربة ؛ وأعمل فيهم القتل . ولم يكف عن المذبحة إلا بعد أن قتل منهم ستة آلاف رجل ، ثم أمر البقية الباقية أن يعود كل إلى منزله ومعه زوجته وولده ، وذهب «النورمنديون» واقتسموا-فيما بينهم-كل شئ وصلت إليه أيديهم، وأصاب كل فارس لنفسه منزلاً -كما روى ذلك بعض مؤرخى العرب فى ذلك العهد - فكان له كل ما فى المنزل من أزواج وبنات وأولاد وقود وممتع ، وكان له بحكم الاستيلاء والأسر أن يفعل برب الدار ما أراد من ضروب القهر ، وصنوف التعذيب حتى يضطره للإذعان والاعتراف بما عساه أن يكون قد أخفاه من مقتنيات وأموال ، وكان من الخير

الكثير للمسلم أن يقضى نحيبه خلال هذا التعذيب ، لأن حياته كانت مقرونة بما لا يطاق من الألم والتبريح والعذاب المطرد . ومن أشد ما كان يفعله هؤلاء من النكابة والعار والفضيحة للمسلمين أنهم كانوا يهتكون أعراض الزوجات والبنات أمام أزواجهن وآبائهم وإخوتهم وعلى مرأى منهم ، وهم موثقون بالسلاسل والأغلال ليكرهوهم على شهود هذه المناظر الفاضحة المخزية . وكان أولئك الأسرى المساكين لا يملكون بإزاء هذه الحالة المخزية المحزنة غير صياحهم وإسبال دموعهم الغزيرة هلعاً وتأثراً من تلك المناظر التي كانت تحطم بإزائها قلوبهم ، وتنشق لها مرائهم .

\* \* \*

ولم تدم هذه الحوادث طويلاً ، فقد كان من حسن حظ المسلمين أن غادر « غليوم » وجنوده « أسبانيا » عائدين إلى بلادهم ، حيث ينعمون بما أصابوه من مغنم وأموال ، ولم يبق في المدينة غير حامية ضعيفة، وقد أمكنت الفرصة « المنذر » ملك « سرقسطة » من الاستيلاء عليها حيث أمده « المعتضد » بخمسمائة فارس فاستولى عليها في ربيع السنة التالية .

وكان « فرديند » يواصل جهوده للاستيلاء على « بلنسية » ولذلك كان مركز صاحب هذه المدينة في نهاية الحرج والخطورة بالرغم من أن صهره « المأمون » أمده بما في استطاعته من المدد الكافي ، ولكن

الذى نفّس عنه هذا الضيق مرض « فردينند » واضطراره للعودة إلى « ليون ». على أنه - بعد سفر عدوه المفاجئ - لم يدم سروره، ولم يسكن فرعه، ولم يهدأ روعه، فقد دخله صهره من المملكة، وأدجمها في مملكته بعد أن اعتقله بعض حصونه، ولم يمض على هذا العاهل المريض والعدو المفزع الرهيب غير برهة من الزمن يسيرة ثم قضى بحبه، فتفس المسامون بموته الصعداء، وقد كان « فردينند » مثلاً حسناً. وقدوة صالحة لغيره من الملوك في البسالة والإقدام والتقوى وسلامة الضمير وتقاة الجيب، وختمت حياته الحافلة الرائعة، بخاتمة حسنة رائعة، وذلك أنه حين أسرع بالعودة إلى بلاده وصل إلى « ليون » يوم السبت ٢٤ ديسمبر فذهب - من فوره - إلى الكنيسة، وصلى فيها صلوات وهبها إلى روح القديس « إيزيدور ». ودخل قصره فلبث فيه بضع ساعات، وبدأ يشعر إلى درجة اليقين أن حينه قدحان، وأن ساعته الأخيرة قددنت. فعاد - حين أرخى الليل سدوله - إلى الكنيسة حيث كان التساوسة يمجون ليلة عيد الميلاد بترتيلاتهم وأنغامهم الشجية، وبينما كانوا يرتلون الصلاة الأخيرة في سحر تلك الليلة. على نظام الطقوس في « طليطة » حسبما كان متبعاً في ذلك الحين، شارك « فردينند » التساوسة في صلواتهم. ومزج صوته الضعيف بأصواتهم، وطلب إليهم - عند طلوع الفجر - أن يسمعوه « القداس ». وبعد أن نال من القربان المقدس. خارت قواه.

فأقيم إلى سريريه ، وهو يعيش غير مستمسك معتمداً على بعض رجال الحاشية ، وفي صبيحة اليوم التالى ارتدى ملابسه الملكية ، وأخذ إلى الكنيسة فخلع المعطف الملكى والتاج ، وجثا على ركبتيه أمام المذبح ، وقال بصوت واضح :

« لك القوة والملك يارب . أنت ملك الملوك . لك ملك السموات والأرض . إننى راد إليك ما أعطيتنى من الملك الذى وليته ما شئت إرادتك ، ضارع إليك أن تدخل فى وسيع رحمتك روحى الذى طهرته وخلصته من أدران هذا العالم . »

ثم سجد على الأحجار يجار بالبكاء ، ويستغفر من ذنوبه ، وأمر عليه يده أحد القساوسة فنال المسحة الأخيرة ، وسجى بالمسوح ، وغطى رأسه برماد ، وأخذ يرتقب الموت وهو مملوء إيماناً ويقيناً وطمأنينة .

وفى الغد « الثلاثاء » أسلم الروح ، أو رقد الرقدة الأخيرة الهادئة فكانت تعلقوحياه ابتسامة وادعة مشرقة .

وأعقبت هذه الوفاة ، وفاة أخرى هى بطبيعة الحال أقل شأنًا من الأولى<sup>(١)</sup> ، فقد مات « المعتضد » يوم السبت ٢٨ فبراير سنة (١٠٦٩) وكان قبل عامين من وفاته قد أدمج « قرمونة » فى مملكته ، واقترب جريمة قتل جديدة ، إذ طعن بخنجر فى يده رجلا من « إشبيلية » يدعى « أنا حفص » .



وما كان يدور بخلد « المعتضد » أن أيدي القشتاليين ستمتد يوماً إلى ذلك التاج الذى وضعه على رأسه بقوة الحيلة والحياة والغدر . وفى آخر سنى حياته امتلأت رأسه بالخاوف ، والأفكار السوداء ، وقد تحققت نبوءة بعض الناظرين فى ميلاده من المنجمين ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، وهى النبوءة القائلة إن ناساً يولدون خارج البلاد يثلون عرش مملكته ، وكانت فكرته متجهة دائماً إلى أن أولئك الذين سيقضون عليها هم البرازلة من البربر المقيمين بجواره ، وما زال بهم حتى أفنأهم جميعاً . وخيل إليه أنه قهر حكم الكواكب ، وتغلب على مخاوف التنجيم . ولكنه بدأ يرى أنه كان مخدوعاً فى وهمه هذا ، ففى العدو المقاتلة لبر الأندلس على المضيق نزحت طائفة من البربر من الصحراء ، وزحفوا على أفريقية فاتحين فى سرعة مدهشة ، وفى شدة بأس تشبه ما كان عليه سلف الأمة فى فتوحاتهم . هؤلاء هم البربر الذين أطلق عليهم اسم المرابطين ، وهم الذين كان يتنبأ بظهورهم « المعتضد » ويتوقع أنهم الفاتحون لأسبانيا فى المستقبل ، وكانت تساوره المخاوف من جانب أولئك الأقوام ، ولا يستطيع بحال من الأحوال أن يمحصر الفكرة أو يبدد الأوهام التى كانت تنتابه من جهتهم .

وورد عليه ذات يوم كتاب من « سقوت » صاحب « سبته » يقول له فيه : إن طلاب المرابطين عسكرت فى رجة « مراکش » . فاهم لهذا

النبا حتى قال له أحد وزرائه : « كيف يزعجك يا مولاي هذا النبا ويقلقك  
وبيننا وبينهم المهامه الغبر وأمواج البحر الخضراء . »  
فقال المعتضد بصوت مختنق حزين :

« إني على يقين من أنهم سيصلون إلينا يوماً ما . وربما تشهد بنفسك  
هول ذلك اليوم ، فاكثب من فورك إلى حاكم الجزيرة ، ومره أن يزيد  
في تحصين جبل طارق ، وأن يكون شديد اليقظة ، وعلى تمام الأبهة  
والاستعداد ، وأن يراقب عن كثب كل حركة لأولئك المرابطين من  
وراء المجاز . »

ثم أخذ يصعد بنظره في بنيه ويصوب ويقول : « ليت شعري من منا  
ستحل به النكبة أتم أم أنا ؟ » فقال ولده المعتمد : « لا بل أنا جعلني الله  
فذاك الذي أحمل عنك كل كائنة مهما عظمت . »

وقبل موته بخمسة أيام ساءت حاله ، وأخذ المرض يدب في جسمه ،  
والضعف يتسرب إلى عقله ، فاستدعى أحد مغنيه وكان من الصقلب .  
وأمره أن يغنيه بما شاء من الأبيات ، وكان يرمي إلى التناول بما يختاره  
المغنى - ويتفق مع توقيع النغم ، فأخذ هذا يوقع ألحانا تجمع إلى الطرب  
الحزن والألم في آن واحد ، واللغة العربية من أغني اللغات بهذا النوع ،  
وكان الشعر الذي اتفق للمغنى أن يوقع عليه الغناء يدور حول معنى  
أن الحياة وأوقات السرور سريعة الزوال . وأنها إلى نهاية وشيكة

عاجلة ، وأنه ينبغي أن نحتسى المدام ، ونمزج ابنة الكرم بإبنة المزن .  
وكانت القطعة التي لحنها المغنى تتألف من خمسة أبيات ، ومن غريب  
الاتفاق أن عدد هذه الأبيات ، هو بعينه عدد الأيام التي عاشها  
« المعتضد » بعد سماعها ، يضاف إلى ذلك أنه بعد مرور يومين على  
سماعها أى فى يوم الخميس ٢٦ فبراير جرح المعتضد فى عاطفته البنوية  
جرحا داميا ، وقد كان - على قساوة قلبه - شديد الحب لبنيه ، فرزى بموت  
ابنته التي كان يحبها إلى درجة العبادة ، وشيئها إلى قبرها يوم الجمعة ،  
وقلبه يتسعر حزنا (١) .

(١) لما ماتت رثاها ابن زيدون بهذه القصيدة التالية :

|                     |                    |
|---------------------|--------------------|
| «سرك الدهر وساء     | فاقن شكرا وعزاء    |
| كم أفاد الصبر أجراً | واقضى الشكر نماء   |
| أنت ان تأس على الله | تمود إلها واجباء   |
| فاسل عنه غيرة واحد  | تمل الرزء إياه     |
| أيها «المعتضد» المذ | صور « ملئت البقاء  |
| وتزيدت مع الأ       | يام عزا وعلاء      |
| إنما يكسبنا الحز    | ن عناء لا غناء     |
| أنت طب أن داء ال    | موت قدأعيا الدواء  |
| فتأس ، إن ذاك ال    | خطب غال الأنبياء   |
| وسيفنى الملاء الأء  | لى إذا ما الله شاء |
| حينها هدى عروس      | دفنها كان الهداء   |
| عمرت حيناً وماء ال  | مزن شكلين سواء     |

وبعد أن ووريت التراب وعاد من الجنازة شكا وجعاً في رأسه  
ألياً ، ودخل القصر وفيه اعتراه نزيف دموى كاد يودى بحياته ، وأشار  
عليه طبيبه بالفصد ولكن المعتضد ترمد على طبيبه فأرجأ الفصد إلى الغد  
فكان هذا من الأسباب التي عجلت بوفاته حيث اشتد النزيف في  
اليوم الثاني فأنحبس لسانه ، ثم لفظ النفس الأخير .

وخلفه ابنه « المعتمد » الذي ستقدمه للقارىء في الفصل التالي !

---

|                       |                  |
|-----------------------|------------------|
| ثم ولت فوجدنا         | أرج المسك ثناء   |
| جمعت تهوى ولأخبا      | نا وفضلاً وذكاء  |
| ستوفى من جمام الـ     | كوتر العذب رواء  |
| حيث تلقى الأتقياء الـ | سعداء الشهداء    |
| هان ما لاقت عليها     | أن غدت منك فداء  |
| غم أحبابك أنت         | قي وان عموا فناء |
| فالبس الصنع ملاء      | واسحب السعد رداء |
| ورث الأعداء أعما      | رم والأولياء «   |

أنظر ص (٧٥) من ديون ابن زيدون شرح المترجم وعبد الرحمن خليفة.

## الفصل التاسع

ولد « المعتمد » عام ( ١٠٤٠ ) وقلده أبوه بعض الولايات الصغيرة وهو فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ، وبعد برهة يسيرة ولاء قيادة جيش « إشبيلية » فحاصر « شلب » وفيما هو محاصر لها اتصل به فتى أفاق كانت سنه لا تعلق على سن المعتمد بأزيد من تسع سنين ، وقد واثاه الحظ باتصاله به ، ونبه شأنه فيما بعد ، ذلك الفتى هو « ابن عمّار » كان مولده فى قرية من أعمال « شلب » فى بيت خامل الذكر ، لاحظ له فى الرياسة من قديم الدهر، نشأ فى مدينة « شلب » هذه صغيراً ، وتعلم فنون الأدب على جماعة من أهلها ، ثم رحل إلى « قرطبة » فتأدب بها ، وبرع فى صناعة الشعر ، وما برح يجوب أنحاء الأندلس يتكسب بالشعر ، وينظم قصائد المدح ، يسترفد بها كل من يتوسم فيه الأريحية والعطاء ، لا يخصص بشعره الملوكة دون السوق ، كما يفعل النابيهون من شعراء عصره الذين يرون من الزراية عليهم أن ينظموا الشعر فى غير الملوكة والنابيهين من العطاء .

كان هذا الشاب الناشئ والشاعر المغمور ، بنزعته هذه ورثاة ملبسه وبما يلبسه من جبة صوف طويلة وقلنسوة صغيرة ، يهش له ويهش فى وجهه أناس ، ويعطف عليه ويرثى لحاله آخرون .

وكان يعد من السعادة أن يظفر بسرى من أولئك الذين أوتوا حظاً من الغنى ، وقالوا نصيباً من الثراء ، ليعطيه مقابل ما يمدحه به من شعره الذى له قيمته وخطره ، فضلة مما أوتى من المال يقنع بها ، ولا يزهد فيها . ومن ظريف ما حدث له فى بعض سفراته : أنه ورد « شلب » فى وقت مسه فيه الضيق ، وأجهد الضنك ، وهو لا يملك سوى دابته التى لم يجد علفها ، والتى مسها الجوع ، وشغها الضنى مثله ، فإذا يصنع فى أمر ذلك الرفيق الأمين الذى يلازمه فى رحله وأسفاره ، ويشاركه فى آلامه وشدائده ، لم يردأ من أن يبعث بشعره إلى رجل من وجوه أهل السوق بالمدينة ، لا حظ له من الأدب ، ولا علم له بصناعة الشعر ، فكانت منزلة شعره عند ذلك التاجر أن ملأ له الخلاة شعيراً ، ووجه بها إليه ، والرجل وإن لم يتذوق مافى القصيدة من حلاوة الشعر ، فإنه كان مزهواً بها ، إذ رأى نفسه قد مدح على لسان أحد الشعراء . وكذلك « ابن عمار » رأى أن ما وصله به من أجل الصلات .

بعد هذه الحالة التى تبين إسفاف « ابن عمار » فى المنزلة وسقوطه إلى هذا الحد ، ساعده الحظ وانتهى به صعود الجد إلى أن جعله « المعتمد » - حين صار الأمر إليه - والياً على « شلب » وأعمالها ، فدخلها يومئذ فى موكب ضخم وعبيد وحشم .

لم تمنح من ذاك « المعتمد » تلك الإقامة الساحرة . والآيام الجميلة

والآوقات المرححة التي قضاهها « بشلب » حيث كان معظم أهلها يقرضون الشعر ، وحيث كانت تلك المدينة وما زالت تعرف حتى الآن بفردوس البر تعال .

في تلك الآونة لم يكن قلب « المعتمد » قد تفتح للحب بعد ، وقد وقعت له بعض وساوس وتخيالات غرامية لم تلبث أن تلاشت دون أن تدع في قلبه مجالاً للاسترسال فيها ، وإلى جانب هذا كان يحتفظ بهد الصداقة الملتببة التي بينه وبين وزيره « ابن عمار » ويستسلم لهذه العاطفة القاهرة التي لم يزاحمها أي ميل آخر إلى آخر لحظة .

لم ينشأ « ابن عمار » نشأة الأمير في مجبوبة الترف ، وغضارة العيش ، ونضارة السعادة ، وفخامة الملك ، بل نشأ على النقيض من ذلك - منذ فجر حياته - تكافحه الأيام وقفل من غربه ، وثبط من همته وعزمه ، وترميه الظروف القاسية بخيبة الآمال ، ورقة الحال ، فكان لهذا أقل مرحاً ، وأقل سروراً وضحكاً ، وأقل فتوة وشباباً ، ولكنه فوق هذا كان شاكا مرتاباً ساخراً في بعض نواحيه

حدث أن الصديقين ذهبا إلى المسجد يوم الجمعة ، والمؤذن يعلن الناس بمحضورهم وقت الصلاة . فطرح « المعتمد » على صديقه شطراً من الشعر فأجازه ، وثانياً فأجازه ، وثالثاً فأجازه ، وكانت معاني الشعر تدور حول أن « المعتمد » يرجو للمؤذن المغفرة لإقراره بالشهادة وتصديقه

بالرسالة ، و «ابن عمار» يسخر في شعره من المؤذن، ويشك في مطابقة إقراره باللسان ، لما ينطوى عليه الجنان .

إن هذا يعد من «ابن عمار» غريباً ، وهو يفسر لنا مبلغ شكه ، وعدم ثقته بالناس حيث عرفهم وخبرهم ، ولهذا كان يشك حتى في الصداقة الحميمة البالغة التي يكنها له الأمير الشاب في نفسه ، والتي لم تنفع كل المحاولات التي كان يحاول بها الأمير أن يزيل ما علق بنفس صديقه من شكوك وريب ، وخاصة في مجالس الأُنس والأوقات التي تتطلب المرح والسُرور فإنه كان يرى فيها يائساً حزيناً.

ويروون في هذا الصدد حادثة عجيبة ، ونادرة غريبة ، حرية بالتحقيق والتمحيص، ولكن يظهر -على كل حال- أن لها ظلامن الحقيقة لأن هذه القصة تقوم على صحتها الشهادات القيمة التي تروى عن «المعتمد» و «ابن عمار»<sup>(١)</sup> أنفسهما .

(١) ابن عمار -نشأته وطرف من اخباره ، نقل عن المراكشي : هو الوزير أبو بكر «محمد بن عمار» ذو النفس العصامية كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم «محمد بن هانيء الأندلسي» وربما كان أحلى منزما منه - في كثير من شعره .

ولشعره دبوان يدور بين أهل الأندلس ولم أر أحدا ممن أدركته سني من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلا رأيتهم مقدما له مؤثرا لشعره ، وربما تغالى بعضهم وسبه بأبي الطيب وهيبات . فن قصائده الشهورة التي أجاد فيها ، قصيدته



قيل إن « المعتمد » دعا « ابن عمار » ليسمر معه ذات ليلة ، وبالع

التي كتب بها من « سرقطة » حين فرق « المعتضد بالله » بينه وبين « المعتمد »  
لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه وهى : —

« على وإلا ما بكاء الغمام وفى وإلا ما نواح الحمايم  
وعنى أنار الرعد صرخة طالب لنار ، وهز البرق صفحة صارم  
وما لبست زهر الجيوم حدادها اخبرى ، ولا قامت له فى مآتم . » ؟  
وفى هذه القصيدة يقول يمدح « المعتضد بالله » :

« أبى أن يراه الله إلا مقلدا حملة سيف أو حمالة غارم . »  
ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها « المعتضد بالله . » :

« جاء الهوى فاستتمروه عاره ونعيه فاستعذوبوه أواره  
لا تطلبوا — فى الحب — عزا ، إنما عبدانه فى حكمة أحراره  
قالوا : أضربك الهوى فأجبتهم : يا حبذا وجبذا لإضراره ؟  
قلبي هو اختار السقام لجسمه زيا ثقلوه وما يختاره  
عيرتموني بالنحول ، وإنما شرف المهند أن ترق شفاره  
وشتم لفراق من آلفته ولربما حجب الهلال سراره  
أحسبتم السلوان هب نسيبه أو أن ذاك النوم عاد غراره ؟  
إن كان أعيال القلب من حرب الجوى خذلته من دمعى إذن أنصاره . »

ولابن عمار هذا مع « المعتمد » أخبار عجيبة عنى يجمعها أهل الأندلس ، وأنا — إن شاء الله — مورد منها ما لا يخل بالضرط الذى التزمته ، ولا يخرج عن الحد الذى رسمته ، حسبما بقى على خاطرى من ذلك ، لأننى كنت فى حدادة سى قد صرفت عنايتى إلى أخبار « ابن عمار » هذا مع « المعتمد » لما تضمنته من الآداب . وقد فتشت خزانة حفظى فلم أئف فيها إلا نبذة يسيرة وأنا مورد لها إن شاء الله عز وجل :

في إكرامه وملاطفته فوق العادة ، فإنه لما ارفض المجلس ، استبقاه

فابن عمار هذا هو « محمد بن عمار » يكنى أبا بكر أصله من « شلب » من قرية من أعمالها يقال لها « شنبوس » مولده ومولد آبائه بها ، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرياسة — في قديم الدهر ولا حديثه — حظ ، ولا زكا منهم بها أحد . ورد مدينة « شلب » طفلا فنشأ بها وتعلم علم الآداب على جماعة منهم « أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعمى » ثم رحل إلى « قرطبة » فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر فكان قصاراه التكبس به ، فلم يزل يحول في الأندلس مسترفدا لا يخلص بمدحه الملوك دون غيرهم بل لا يبالى ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوق ، وله في ذلك خبر طريف ، وذلك أنه ورد في بعض سفراته « شلب » لا يملك إلا دابة لا يجد علفها فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملا له الخجلة شعير أو وجه بها إليه ، فراها « ابن عمار » من أجل الصلات وأسنى الجوائز — ثم اتفق أن علت حال « ابن عمار » وساعده الجدة ، ونهض به البخت ، وانتهى أمره إلى أن ولاه « المعتمد على الله » مدينة « شلب » وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه فدخلها « ابن عمار » في موكب ضخم ، وجلة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها « المعتمد على الله » حين وليها أيام أبيه « المعتضد بالله » . فكان أول شيء سأل عنه الرجل صاحبه صاحب الشعر ، فقال : « ماصنع فلان أهو حي ؟ »

قالوا :

« نعم . »

فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملاها دراهم وقال لرسوله :

« قل له لو ملاها برا ملاها تبرا . »

ولم يزل « ابن عمار » على الحال التي ذكرناها من التقاب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على « المعتضد بالله » أبي عمرو ، فامتدحه

« المعتمد » واستحلفه أن يتام معه تلك الليلة على وساد واحد . وألح

تقصيده المشهورة التي أولها :

« أدر الزجاجة فالنسيم قد انبري والنجم قد صرف العنان عن السرى  
والصبح قد أهدى لنا كافوره لا استرد الليل منا العنبرا .  
وفيها يقول يمدح « المعتضد » :

عباد المخضر نائل كفه والجو قد لبس الرداء الأغبر  
قداج زنت المجد ، لا ينفك من نار الوغى إلا إلى نار القرى  
يختار أن يهب الخريدة كاعبا والطرف أجرد . والحسام مجوهر .  
وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها « المعتضد » بالبربر :

« شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود وإن تسماو ريرا  
أثمرت رمحك من رءوس كائهم لما رأيت الفصن يعشق مشرا  
وخضببت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحرا  
ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لتقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله :  
« السيف أفصح من زياد خطبة في الحرب — إن كانت يمينك منبرا »

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسناها وأمرله بقال وثياب ومركب ، وأمر أن  
يكتب في ديوان الشعراء فكان كذلك ، ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو إذ ذاك شاب فلم  
نزل حاله معه تزديد ، ومرات خدمته له تهوى وتتأكد ، إلى أن صار ابن عمار ألزق  
بالمعتمد من شعرات قصه ، وأدنى إليه من جبل وريده ، كان المعتمد لا يستغنى عنه ساعة  
من ليل ولا نهار ، ثم اتفق أن ولي المعتمد على الله شلب من قبل أبيه ، فاستوزر ابن عمار  
هذافي تلك الولاة ، وسلم إليه جميع أموره . فغاب عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساء  
السمعة عنهما ، فتصوى أمر المعتضد التفريق بينهما ، ونفى ابن عمار عن بلاده حسب  
ما تقدمه الإيحاء إليه . فند نزل ابن عمار مقتربا في أحصى بلاد الأندلس إلى أن توفي  
المعتضد بالله . فاستدعاء المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه في لا يشارك فيه

عليه في ذلك ، فقبل مكرها واستسلم نزولا على إرادته ، ولكنه ما عَمَّ

الرجل أخاه ولا أباه وله معه أيام كونها بشلب خبر عجيب وذلك أن المعتمد استدعاه ليلسة إلى مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به ، إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معي على وساد واحد فكان ذلك ، قال ابن عمار ، فهتف هاتف في النوم يقول : لا تغتر أيها المسكين إنه سيقتلك ولو بعد حين قال فانتهت من نومي فرعاً وتعوذت ثم عدت ، فهتف بي الهاتف على حالته الأولى فانتهت ثم عدت ، فسمعتة نائلة فانتهت فجردت من أثوابي والتفت في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفياً به ، وقد أزمعت على أني إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتي البحر فأركبه وأقصد بلاد العدو فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت ، فانتبه المعتمد فاقتدني فلم يجدني ، فأمر بطلي فطلبته في نواحي القصر وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشعلة تحمل بين يديه ، فكان هو الذي وقع على ، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوقف إزاء الحصير الذي كنت فيه فكانت مني حركة فأحس بي وقال « ما هذا يتحرك في هذا الحصير » ثم أمر به فنقض فخرجت عريانا ليس على إلا السراويل فلما رأي فاضت عيناه دموعاً ، وقال : يا أبا بكر ما الذي حلك على هذا فلم أر بداً من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها فضحك وقال : يا أبا بكر أضغاث أحلام هذه آثار الخمار ، ثم قال لي : وكيف أقتلك أرأيت أحدا يقتل هسه ؟ وهل أنت عندى إلا كنفسى ؟ فتشكر له ابن عمار ودعاه بطول البقاء وتناسى الأمر فنيسه ، ومرت على ذلك الأيام والليالي إلى أن كان من أمره ماسياً في الإيحاء إليه ، فصدقت رؤيا ابن عمار وقتل المعتمد نفسه كما قال ، ولما أفضى الأمر إلى المعتمد كما ذكرناه سأله ابن عمار ولاية شلب وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم ، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها ، أنه ولاية جبل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها ، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه ، وضعف عن احتمال الصبر عنه ، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره

أن نام حتى سمع هاتفا يقول له : أيها التمس ! إن هذا الذي تنام معه

فكانت حالته سلبية بخاف جعفر بن يحيى مع ارتشيد، وهو يزن المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤمله لكل رتبة عالية ، فكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر إلا اضطلع به وكان فيه كاسكة المحمة . وشتهر أمره في بلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأدفنش إذا ذكر عنده ابن عمار قال : « هو رجل الجزيرة . » وكان ابن عمار هو الذي رده عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالها ، وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة بقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها فخافه الناس وامتلات صدور أهل تلك الجهات رعباً منه ، ويتقنوا ضعفه عن دفاعه ، فنوى ابن عمار رده بألف حيلة وأسر تدبير ، وذلك أنه أقدم سفرة شطرنج في غاية الاتقان والابداع لم يكن عند ذلك مثب . جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل وحلها بالذهب ، وجعل أرضه في عاية الاتقان . فخرج من عند المعتمد رسولا إلى الأدفنش فغفبه في أول بلاد المسلمين فأعظم الأدفنش قدومه وباع في إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه ، وسرعة في حوائجه ، فأضرب ابن عمار تلك السفرة فقرأها بعض خواص الأدفنش فنقل خبرها إليه ، وكان العنج - أعني الأدفنش - موعداً بالشطرنج فلما لقي ابن عمار سأله ، كيف أنت في الشطرنج ؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بإمكانه منه ، فقال له بلغني أن عندك سفرة في عاية الاتقان . قال ابن عمار : نعم فقال كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه قل له : أنا آتيك به على أن أحب معك عسباً فان غابتي فهي لك ، وإن غبتك فلي حكمي . فقال له الأدفنش : هلمنا ننظر إليها فامر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدي العنج صب وقول : ما ظننت أنت بمن الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد . ثم قل لابن عمار كيف فت ؟ فأعاد عليه الكلام الأول فقال له الأدفنش لا أحب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو ونعله سيء لا يمكنني فقال ابن عمار لا أحب إلا على هذا الوجه وأمر بالسفرة فطويت وكتف بن عمار سر ما أرادته لرجل ونف بهم من وجوه دولة الأدفنش . وجس هم أمولا عظيمة على

على فراش واحد - لا محالة - قاتلك. فهب من نومه فرعاً وقد تملكه الرعب

أن يوازروه على أمره. ففعلوا فتعلقت نفس العليج بالسفرة وشاور خاصته فيارسمه ابن عمار فهو نوا عليه وقالوا له : إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها ، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم ، وقبحوا عنده إظهار الملك العجيز عن شيء يطلب منه ، وقالوا له : إن طلب ابن عمار مالا يمكن فنحن لك برده عن ذلك ، ولم يزالوا به حتى أجاب ، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة . فقال له : قد قبلت مارسمته فقال له ابن عمار : فاجعل بي وبينك شهوداً سماهم له ، فأمر الأدفنش بهم فحضروا وافتتحا ليعبان ، وكان ابن عمار كما ذكرنا طبقة في الأندلس لا يقوم له أحد فيها ، فغلب الأدفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعليج فيها مطعن ، فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار : هل صح أنى لي حكمي ؟ قال نعم ، فما هو ؟ قال أن ترجع من هاهنا إلى بلادك . فأسود وجه العليج وقام وقعد ، وقال لخواصه : قد كنت أخاف من هذا حتى هو يتموه على في مثل هذا القول . وهم بالنكت والتمادى بوجهه ، فقبحوا ذلك عليه ، وقالوا له : كيف نجعل بك الغدر وأنت ملك أولئك انصارى في وقتك ، فلم يزالوا به حتى سكن . وقت : لا ترجع حتى آخذ إناوة عامين خلاف هذه السنة . فقال ابن عمار هذا كله لك . وحده بنا أراد ، وكف الله رأسه ، ودفعه بحوله ، وحسن دفاعه عن المسلمين . ورجع ابن عمار إلى إشبيلية ، وقد امتلأ نفس المعتمد سروراً به . ثم إن « المعتمد » حدث أنه أمل في التغلب على « مرسية » وأعمالها . وهي التي تعرف بتدمير . وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر ، كان هو المتغلب عليها والمدير لأمرها . فغزى « المعتمد » جيوشاً عظيمة ، وتكفل له « ابن عمار » بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها ، فلحق « ابن طاهر » حين خرج من « مرسية » ببني عبد العزيز ببليسية ، فسكن بها إلى أن مات رحمه الله .

ومنا تغلب « ابن عمار » على « مرسية » دار ملك بني طاهر كما ذكرنا حديثه نفسه . وسول له سوء رأيه أن يسبذ أمره وأن يضبط تلك البلاد انفسه ، فلم يزل

ولكنه قاوم هذا الحلم المروّع . وطارد تلك الفكرة السوداء وعزاها

بصرف الحيلة في ذلك إلى أن تم له بعضه . ودانت له « مرسية » وأعمالها . وطمع في ملك « بلنسية » إلى أن قام عليه رجل من أهل « مرسية » يقال له « ابن رشيق » كان أبوه من عرفاء الجند بها . وكان « ابن عمار » قد خرج لبعض أمره . فدعا « ابن رشيق » هذا إلى نفسه وقامت معه العامة وحض الجند .

لجأ يركن حتى المدينة . وقد غلقت أبوابها دونه فحاصرها عن أياماً فامتعت عليه . ولم يقدر على دخولها فبقى حائراً لا يدري ما يصنع . ولا أين يتوجه . وقد كان بلغ « المعتمد » قيمه عليه وخلع يده من ضاعته . فم ير إلا الهروب لمجا فهرب حتى لحق ببني هود سرقسطة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته .

وبعضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه وولى نعمته . فأخرجوه عن بلادهم . ولم نزل البلاد تتقاذفه . وهاموكها تشنّده . إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى « شقورة » كان المنعجب عليه رجلاً يقال له « ابن مبارك » فأكرم وفادته . وأحسن نزله . ثم بدا له بعد أيام رأى فقبض عليه وقيده وجعله في سجنه . فلما رأى « ابن عمار » ذلك منه قال له :

« لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك . وتعرضني عليهم . فما منهم إلا من يرغب في . فمن كان أشدّهم رغبة جعل لك مالا ووجهت بي إليه . » ففعل « ابن مبارك » ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه . وكتب فيمن كتب إلى « المعتمد » — وفي ذلك يقول « ابن عمار » .

« أصبحت في سوق ينادى على رأسي بأنواع من المال  
والله ما جاز على ماله من ضمني بالثمن لغالي . »  
وفي هذا سجن يقول « ابن عمار » وقد استمدى نورة يستنظف بها فتعذرت  
عنه فاستدعى « موسى » فأتى بها فقال في ذلك :

« موسى » شقورة عندي تربت على كبر موسى

إلى تأثير النبذ ، ثم رقد ثانية ، فعاوده ذلك الحلم المشؤم مرة ثانية وثالثة .

فقدت هارون فيها وظلت أطلب موسى «  
وبعث « المعتمد على الله » من رجاله من تسلّم « ابن عمار » من يد « ابن مبارك »  
بعد أن بعث إليه بمال وخیل وأمر « المعتمد » الذين تسلّموا « ابن عمار » أن يزیدوا  
فی الاحتیاط علیه وتهیّده ، فخرجوا به حتى وافوا « قرطبة » .  
ووافق ذلك كون « المعتمد » بها فدخلها « ابن عمار » أشنع دخول وأسوأه  
على بقل بين عدلى تبين وقيوده ظاهرة للناس .  
وقد كان « المعتمد » أمر باخراج الناس خاصتهم وعامتهم حتى ينظروا إليه على  
تلك الحال .

وقد كان قبل هذا إذا دخل « قرطبة » اهتزت له ، وخرج إليه وجوه أهلها  
وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد من يصل إلى تقبيل يده ، أو يرد عليه « ابن عمار »  
السلام ، وغيرهم لا يصل إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على  
بعد لا يستطيع الوصول إليه ، فسبحان محيل الأحوال ، ومديل الدول .

فدخل « ابن عمار » « قرطبة » كما ذكرنا بعد العزة القعساء ، والملك الشامخ ،  
والرياسة الفارعة ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذى عليه .  
فسبحان من سلبه ما وهبه ، ومنع ما كان به أمتعه . وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق  
لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال :

« لما قرنا من « قرطبة » بحيث يرانا الناس خرج فارس من البلد يركض  
يقصدنا ، فلما رآه « ابن عمار » وكان معهما ، أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس ،  
حتى وصل إلينا فنظر إلى « ابن عمار » ودخل معنا فى الصف فشى . فسألناه فيم  
جاء ؟ فقال :

« الذى جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه ، فعلمنا أنه أرسل ليزيل  
عمامته ، فأدخل على « المعتمد على الله » على الحالة التى ذكرت يرسف فى قيوده ،



وما لم يستطع تكذيب هذه الأحلام المتكررة ، أيقن أن هذا نذير

فجس « ناعتمد » يمدد عيه أيديه ونعمه و « ابن عمار » — في ذلك كله — مطرق الرأس لا ينبس إلى أن تقضى كلام « ناعتمد » .

فكان من جواب « ابن عمار » أن قل :

« ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا — أبقاه الله — ولو أنكركه نشهدت على به  
الجمادات فضلاً عن ينطق . ولكن عرت فأقل ، وزلت فأصفيح . »

فقل « ناعتمد » :

« عيبات ، إنها عثرة لا تقال . »

وأمر به فأخضر في النهر إلى « شبيبية » فسحق به « شبيبية » على الخال  
التي دخل عنيب قرطبة وجعل في غرفة عني باب قصر « ناعتمد » المعروف  
بـ « قصر مبارك » وهو باق إلى وقتنا هذا .

فقال سجنه هناك . كذبت عنه في هذا السجن قصائد لو توسل بها إلى الدهر نزع  
عن جوره ، أو إلى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقي لم تنجح ، ودعوات لم  
تسمع ، وتقدم لم تنفع ، فمنا قوله :

« سجاياك من عافيت — أئدي وأسبح  
وإن كان بين الخطتين مزية  
حنانيك ! في أخذي بريك لا تطع  
فإن رجائي أن عندك غيرم  
ولم لا وقد أسفت وداً وخدمه  
وعيني قد عقت أعداء مفسد  
أقني بمسبي وبينك من رضى  
وعف على آثار جرم سكتك  
ولا تشفت قول الوستاة ورثيه

وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح  
فنت إلى الأذى من الله تنجح  
عداى ولو أئتو عليك وأفصحوا  
يخوض عدوى يوم فيه ويخرج  
يكرن في نيل خطاي فيصبح  
ما نفس لأعمال ثمة تصلح  
له نحو روح مة باب مفتح  
بهية رحى منك تمحو وتصح  
فكن ياء يئدى فيه يرشح

سوء ، وأنه وحى سماوى فوق الطبيعة ، فنهض من مرقده برفق دون أن يحدث

سأيتك فى أمرى حديث وقد آتى  
وما ذاك إلا ما علمت ، فأنى  
كأنى به لا در لله درم  
وقالوا : « سيجزيه فلان بفعله »  
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا  
نعم لى ذنب ، غير أن لعله  
عليه سلام كيف دار به الهوى  
وبهينه - إن مت - السلو فلانى  
ويين ضلوعى - من هواه - تيممة

يزور بنى عبد العزيز موشح  
إذا ثبت لا أشك آسو وأجرح  
أشاروا تنجأه بالشمات وصرحوا  
فقلت : « وقد يعفو فلان ويصفح »  
سوى أن ذنبى واضح متصحح  
صفاة يزل الذنب عنها فيسحق  
إلى فيدنو أو على فينزع  
أموت ولى شوق إليه مبرح  
ستنفع لو أن الحمام يخلج »

\*\*\*

لما بلغت « المعتمد » هذه القصيدة وأشدت بين يديه كان بحضرتة رجل من  
البغداديين ، فجعل يزرى على البيت :

« وبين ضلوعى . » ويقول :

« ماذا أراد بهذا المعنى ؟ »

فكان من جواب « المعتمد » - رحمه الله - أن قال :

« أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء ، لما أعاده ، الفطنة والذكاء . إنما نظر إلى

بيت « الهذلى » من طرف خفى وهو :

« وإذا انثنية أنشبت أظفارها ألفت كل تيممة لا تنفع »

ولم يزل « ابن عمار » هذا يسجن « المعتمد » إلى أن قتله صبرا فى شهر

سنة ٤٧٩ هـ .

وتلخيص خبر قتله أنه لما طُف سجنه كتب إليه بالقصيدة التى تقدم انشاده فأدركت

« المعتمد » بعض الرقة ، فوجه إليه ليلا وهو فى بعض مجالس أنسه فألقى به يرسف

فى قيوده ، فجعل « المعتمد » بعدد منته عليه وأباده قبله فلم يكن لابن عمار جواب

حركة . وذهب بعيداً ، وأدرج نفسه في حصير ، ونام في دهليز القصر

ولا عذر غير أنه أخذ في البكاء وجعل يترقق للمعتمد ويوسع عطفه ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له الرأفة في قلب « المعتمد » فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعظفت « المعتمد » عليه سابقته وقدره حرمة .

فقال له قولاً يتضمن العفو عنه تعريضاً لاصريخا وأمر برده إلى محبسه .

فكتب « ابن عمار » من فوره بما ذكر له مع « المعتمد » إلى ابنه « انراضى بالله »  
نوافاه الكتاب ونجسرتة قوم كانت بينهم وبين « ابن عمار » إحن قديمة .

فلما قرأ « انراضى » الكتب قال لهم :

« ما أرى ابن عمار إلا سيئخس . »

فقالوا له :

« ومن أين علم مولانا بذلك . »

فقال :

« هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه أن مولانا معتمد قد وعده بالخلاص . »

فأظير النوء الفرج وهم يظنون غيره . فلما قاموا من مجلس « انراضى » ، نثروا  
حديث « ابن عمار » أفصح نثر وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب عن  
ذكرها . فبلغ « المعتمد » ذلك ، فأرسل إلى « ابن عمار » وقال له !

« هل أخبرت أحدا بما كان بيني وبينك ابنا راحة ؟ »

فأنكر « ابن عمار » كل الإنكار . فقال « نعم » نرسون

« قل له الوردتان ابنتان استدعيتهما كتبت في إحداهما التقصيدة . فما فعلت  
بالأخرى . »

فادعى أنه يفيض في التقصيدة . فقال « المعتمد »

« هلم المسودة . »

فله يخر جواباً ، فخرج « المعتمد » حثفاً ويده مضربتين حتى صعد الغرفة التي فيها

عاقداً النية على الياذ بالهرب حينما تفتح في الصباح أبواب القصر ، واعتزم

« ابن عمار » فلما رآه علم أنه قاتله ، فجعل « ابن عمار » يزحف وقيوده تثقله حتى انكب على قدمي « المعتمد » يقبلهما ، والمعتمد لا يثنيه شيء فعلاه بالطبرزين اندي في يده ، ولم يزل يضربه حتى يرد ورجع « المعتمد » فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك .

فهذا ما انتهى إلينا من خبر « ابن عمار » ملخصا حسب ما بقي على خاطري . ومن مختار شعره قوله الى « المعتمد » حين تقيض النصارى على « الرشيد » ابنه إذ حاول أمر « مرسية » !

« أصدق ظني أم أصيخ إلى صبحي  
وإن لتنفو بي إليك مودة  
إذا اتقدت في رأي مشيت مع أهوى  
وما أغرب الأيام فيما قضت به  
أهابك لالحق الذي لك في دمي  
ولي حسنات لو أمث يعضها  
وكم قد فرت يئناى في من ضريبة  
ولا بد ما بيني وبينك من ننا  
ولا شك أن العفو منك سجية  
فأجابه « المعتمد على الله » .

« تقدم إلى ما اعتدت عدى من اترحب  
متى تلقى تلقى الذى فسد بلوته  
سأوليك منى ماعهدت من الرضا  
فما أشعر الرحمن قايى قسوة  
نكلفته أبغى به لك سلوة

ورد تافك العتي حجابا من العتب  
صفوحا عن الجاني رؤوما على الصحب  
وأعرض عما كان إن كان من ذنبي  
ولا صار نسيان الأذمة من شعبي  
فأيس يعانى الشعر مشترك الاب . »

أن يركب من أول ثغر ليجر منه إلى إفريقية .

واستيقظ « المعتمد » فلم يجد صاحبه إلى جانبه ، فصاح بالخدم ، فوافاه جميع خدم القصر ، وأخذوا يبعثون عنه في كل جانب من جوانب القصر ، والمعتمد يتقدمهم بين يديه مصباح ، وجاز إلى باب القصر يريد أن يفتحه لينظر هل خرج منه أحد ؟ وفي نفس تلك اللحظة التي كان يمر فيها تحرك « ابن عمار » حركة قسرية ، فرأى المعتمد كأن شيئاً يتحرك . فصاح : « ما هذا الذي يتحرك في داخل الحصير »

فسارع الخدم إليه فأخرجوه من داخل الحصير وهو في حالة يرثى لها ليس عليه من ملابسه غير سروال ، فوقف ترتجف أعضاؤه ، وقد احمر وجهه خجلاً ، وأطرق برأسه إلى الأرض . فأجش « المعتمد » بالبكاء ، وقال : « ما الذي حملك أن تزعجنا هكذا يا أبا بكر ؟ ! » .

وأراد « المعتمد » أن يتبين من صديقه سر هذا المسلك الغريب ، وأخذ به برفق إلى مجلسه الخاص ، وأعضاؤه مازالت ترتجف ، ولبث مدة طويلة يحاول كشف هذا السر فلم ينجح .

أما « ابن عمار » فقد اضطربت أعصابه اضطراباً شديداً ، وخجل أشد الخجل ليؤخه إلى هذا الحد من الإسفاف والسخرية ، وقد تملكه مع هذا الخوف ، واستولى عليه الرعب ، فكان مرة يضحك ، وتارة يبكي .

ولما هدأت أعصابه ، وسكن اضطرابه ، أفضى إلى « المعتمد » بسر  
المسألة تفصيلاً . فتبسم ضاحكاً ، وأمسك ييده وضغط عليها متحجباً  
متودّداً وقال : « إن ما حصل لك لم يك إلا بتأثير الحر - أيها الصديق  
العزيز - ومن فعل أبخرة الحر المتصاعدة إلى المخ قد أسلعتك بتأثيرها إلى  
أن ترى ما سبب لك الانزعاج ، وما هي في الحقيقة إلا أضغاث أحلام ،  
وهذا كل ما في الأمر ، وهل يدور في خلدك أن نفسى تحدثني بأن  
أقتلك يوماً ما ، إني - إن فعلت ذلك - فإنما أنتزع روحى ، وأطفى -  
مصباح حياتى . ثقب أنى إن قتلك فإنما أقتل نفسى ، والآن يجب أن تزيل  
هذه الأفكار السوداء ، وتمحو أثر هذه الوسوس السيئة . والأحلام  
الشیطانية من نفسك ، فلا تعود تتحدث بها فيما بعد . »

وقد قال بعض مؤرخى العرب المسلمين :

وعمل « ابن عمار » منذ ذلك الحين على أن يتنسى هذه الحادثة  
فلسيها ، ومرت الأيام والليالي على ذلك إلى أن بدأت الرؤيا تتحقق .  
ووقع ما سنتقصه عليك فيما يلي :

جرت عادة هذين الصديقين أنهما يجتمعان في « شاب » لا ينفترقان  
منها إلا إذا غادراها إلى « إشبيلية » حيث يتوفر لهما في هذه العاصمة الأنيقة  
الظرفية كل أنواع السرور والمرح واللهو . فإذا خرجا إليها خرجا في زى  
لا ينم عليهما ، وكثيراً ما كانا يختلفان إلى « مرج لقطه » على ضفاف

الوادى الكبير للتنزه والتلهى برؤية الناس رجالا ونساء فى ذلك المكان  
التزه الأفيح ، وهنالك وقع المعتمد لأول وهلة فى شرك تلك التى  
قدر أن تكون شريكته فى الحياة ، وذلك أنه بينما كان هو وصديقه  
يستريضان فى « مرج القطعة » - على عادتهما - إذ مر النسيم على متن  
الماء فتجد واطرد فارتجبل « المعتمد » هذين البيتين :

« تجعد النهر بتر قيص النسيم واطرد  
سابقة أحكمها داود نسجاً وسرد<sup>(١)</sup> »

ولم يستطع « ابن عمار » أن يميز البيتين ، وكانت على مقربة منهما  
جارية تسمع حديثهما فأجازت البيتين بقولها :

« تصلح فى يوم الوغى لو أنها ماء جمد  
تحبسها قد نسجت من حلق ومن زرد<sup>(٢)</sup> »

فعمجب « المعتمد » إذ رأى فتاة تفوق فى سرعة الخاطر ، وموهبة  
رتجال الشعر شعرا ذائع الصيت كابن عمار ، والتفت إليها وحدق بها  
ناظريه ، فראה جمالها الفائن ، ومنظرها الساحر ، وطلب إليها فى رفق  
أن تذهب مع أحد الخصيان إلى القصر ، فقبات ولم يلبث أن سارع  
بالعودة إلى القصر ليستطلع طلع تلك الفتاة الحسناء .

(١) لم يمر على أصل هذين البيتين . فاضطررنا إلى ترجمتهما نظماً .

(٢) لم يمر على أصل هذين البيتين فاضطررنا إلى نظمها .

وحضرت الفتاة فسألها «المعتمد»: «من أنت ؟ وإلى من تنسبين؟»  
فأجابت . « أنا - أيها الأمير - جاريته » اعتماد » وإن جرت العادة  
بأن ينادوني باسم « روميكا » لأني مملوكة « روميك » ، وأنا بحكم  
عملي بدالة »

- « خبريني . هل أنت متزوجة ؟ »

- « كلا يا مليكي »

- « هذا حسن لأنني أريد أن أشتريك من مولاي ، بل وأقترن بك »  
ومن هذا الوقت أحبها « المعتمد » حباً ثابتاً متواصلاً لم يطرأ عليه  
تغيير ، ولم يعتره نقص أو زوال . وقد أضافت إلى محاسنها كل ما يعجبه  
من أدب وظرف ورقة ، وكانوا يضعونها أحياناً في صف «ولادة القرطبية»  
أدبية ذلك العصر ، وقد تكون المقارنة بينها وبين ولادة صحيحة من  
بعض الوجوه ، وغير صحيحة من بعض الوجوه الأخرى . فهي وإن  
لم تسم في المعرفة والأدب إلى درجة «ولادة» التي كانت تساجل أدباء  
عصرها ، وتتفوق على الكثير منهم ، فإنها لم تكن دونها في لطف المحادثة  
والذكاء ، والتندر ، وسرعة الخاطر ، وحضور الجواب ، بل ربما فاقت  
عليها في محاسنها الذاتية ، لصغر سنها إلى حد الطفولة ، وسداجة طبيعتها  
إلى حد الغرارة .

هذا إلى ما هي عليه من مرح ونشاط ولباقة . وكانت سعادته بعد



أن أصبحت له زوجة في موافقة ميولها وأهوائها - كفه ذلك ما كفه من ثمن - وكان لا يئس من عمل ما يوافق مرضاتها، وإشباع نزعاتها وميولها ، فإنه يعلم أن أى خاطر يمر بقلبها ، أو فكرة تستقر برأسها ، لا يمكن أن تتحول عنها أو تنفذ .

حدث في يوم من أيام شهر فبراير أنها كانت تطل من خلال شرفات القصر بقرطبة فنظرت إلى قطع الثلج تتساقط مع المطر ، وهذا منظر نادر في تلك المدينة التي يندر فيها مشاهدة الثلج ، فأخذت دموعها تتساقط على خديها تتساقط حب الغمام على الورد الناضر ، فسألها « المعتمد » في لهفة : « ماذا بك أيتها الحبيبة المودودة »

فأجابت وهي تتحبب :

« تسألني ما الذى بى ؟ الذى بى أنك قاس لا ترحم ، ظالم غشوم وحشى الطبع ، انظر إلى قطع الثلج الناصعة اللينة العالقة بغصون الأشجار ، الواقعة كالدمع الخائر فى جفون الأزهار ، كم هى بدیعة وكم هى رائعة ؟ متى يابن فؤادك ، وتخلق لى أسباب الطمانينة والسعادة ، وتتركنى أذهب فى كل شتاء إلى بلد يكثرفیه سقوط الثلج ، لتوفر على التمتع بمجالى الطبيعة الساحرة ، ومباهجها الفاتنة ؟ »

فقال لها :

« لا تحزنى ياربیع حیاتى ، ویا مصدر هنائى وسعادتى ، سيكون هذا المنظر أمامك فى الشتاء القادم ، بل أعدك وعداً صادقاً أنك ستسرين

بمشاهدته هنا في نفس هذا المكان «  
وأصدر أمره في الحال أن تغرس أشجار اللوز في الحدائق المحدقة  
بقصر قرطبة ، وقدّر أن تزدهر في فصل الجليل فتبدو زهراتها البيضاء  
في عين « اعتماد » كقطع من الثلج تجلجل أغصان الشجر ، وهو الذي  
يعجبها وتميل إليه .

\*\*\*

ورأت مرة نسوة من الممتهنات قد وُضعن أرجلهن في معجن فيه طين  
لضرب اللبن ، فدفعها هذا إلى البكاء ، فأثر ذلك في نفس « المعتمد »  
وسألها : « وما الذي يبكيك ؟ »  
فقالت له :

« آه إني لتعسة ، ومنذ انتزعتني من الحياة الحرة الطليقة المرحية أيام  
أن كنت أنعم بكوخي الحقيّر وأنا سحينة هذا القصر العابس ، أسيرة  
الحياة المقطبة ، مثقلة بسلاسل التقاليد ، وعادات القصر المملة ، انظر  
إلى هؤلاء النسوة اللاتي عند شاطئ - النهر ، وانظر إلى أرجلهن متعلات  
بالطين ، ليتني كنت عارية القدمين مثلهن أعجن الطين . وليتني حرمت  
الغنى والسلطان ، وأعطيت الحرية التي أستطيع بها أن أفعل ما أريد . »  
فأجابها وقد شاعت على شفثيه ابتسامة لطيفة :

« بل إنك عما قليل ستستطيعين . »

ونزل في اللحظة نفسها إلى فناء القصر ، وأمر بإحضار مقدار عظيم

من المسك والعنبر وبعض الأعطار ، ووضع ذلك كله في معجن ، وأمر أن يمزج بماء الورد ، ويداف ويسحق ، إلى أن صارت منه عجينة في حجم تلك التي كانت في معجن النسوة اللاتي كن يضربن اللبن ، ولما تمياً له كل ما أراد من ذلك صعد إلى « اعتماد » وقال لها :

« لتفضلي بالنزول إلى فناء القصر . أنت وجواريك ، فإن معجن الطين في انتظارك »

فنزلت الأميرة إلى ساحة القصر ، وخلعت هي وجواريتها نعالهن ، وصرن يعجن بأقدامهن ذلك الطين المسكى المدوف وهن في مرح وسرور .

ومما لا ريب فيه أن تحقيق هذه الرغبة قد كلف « المعتمد » ثمناً باعظاً وأموالاً طائلة . وقد كان في استطاعته أن يفضي عن هذه الحادثة ، لولا أن زوجته لا تنتهي أهواؤها وميوها عند حد ، ولا ترضى بغير تنفيذ رغباتها ، وقد حدث ذات يوم أن طلبت شيئاً لم يكن في استطاعة الملك تنفيذه ، فغضبت ، وصاحت قائلة :

« آه ! إني جديرة بكل شفقة ورحمة ، وإني بلا ريب أتعس النساء حظاً ، ويشهد الله أنك لم تفعل معي البتة أى شئ فيه إرضائي . »  
فقال لها بصوت فيه معنى الحب والرقّة والعذوبة :

« ولا يوم الطين ؟ »

فعلت وجنتها حمرة الخجل ولم تخرج جواباً .

وأراى مضطراً أن أضيف إلى ما أسلفت أن رجال الدين كانوا يمتقون اسم هذه الأميرة النزقة السريعة الحركة ، ولا يجرونه على ألسنتهم إلا مصحوباً باشمزاز وكره ديني ، وكانوا يعدونها الحائل الوحيد الذى يحول بين الصلاح والهداية وبين زوجها ، والعامل الفذ الذى يدفعه بدون انقطاع وراء عاصفة من السرور والذات تكاد تطوح بالملئكة . وكانوا كلما رأوا المساجد خالية من المصلين يوم الجمعة ، ألقوا التبعة على لهُو « المعتمد » وفنتته بها . وكانت « اعماد » بحكم صباها الطائش ، وشبابها النزق ، تسخر من صيحة أولئك الشيوخ ، ولا تكترث لجلبتهم ، وما كانت تقدر فى دوعها أن أولئك الفقهاء سيصبحون رهيبين يوماً ما . ولم يكن حب « المعتمد » لها ليشغله عن صديقه « ابن عمار » الذى حل من قلبه محلاً كبيراً .

واتفق مرة أن نأى عنها ، وانصرف للتنزه مع صديقه كالعتاد ، فغدا الشوق أن يرسل إليها رسالة ضمنها الأبيات الستة الآتية :

|   |                           |                           |
|---|---------------------------|---------------------------|
| ١ | أغابته الشخص عن ناظرى     | وحاضرة فى صميم الفؤاد     |
| ع | عليك السلام ، بقدر الشجون | ودمع الشؤن ، وقدر السهاد  |
| ت | تملكت منى صعب المرام      | وصادفت ودى سهل القباد     |
| م | مرادى لقياك فى كل حين     | فيا ليت أنى أعطى مرادى    |
| ا | أقيى على العهد ما بينا    | ولا تستحيل لطول البعاد    |
| د | دست اسمك الخلو فى طيه     | وألفت فيه حروف « اعتماد » |

وقد ختم هذه الأبيات الستة التي طرز فيها اسم « اعتماد » بذكر اسمها في البيت الأخير (١).

ثم ختم كتابه إليها بقوله :

« سأعود إليك على عجل لأتملى برويتك إن شاء الله وشاء » ابن عمار . فلما سمع « ابن عمار » الجملة الأخيرة من كتاب المعتمد إلى اعتماد ، كتب إليه أبياتا في المعنى الآتى :

(١) وللمعتمد أشعار في « اعتماد » منها قوله :

|  |   |
|--|---|
| « بكرت تلوم وفي الفؤاد بلابل<br>ياهنه ! كفى فإني عاشق<br>حب » اعتماد « في الجوانح ساكن<br>ياظبية سلبت فؤاد » محمد «<br>من شك أنى هائم بك مفرم<br>لون كسته صفرة ومدامع<br>وقوله : | سفها وهل يقنى الحليم الجاهل<br>من لا يرد هواى عنها عاذل<br>لا القلب ضاق به ، ولا هو راحل<br>أو لم يروعك الهزبر الباسل<br>فعلى هواك له على دلائل<br>هطلت سحائبها وجسم ناحل . « |
|--|---|

|   |  |
|---|--|
| « أدار النوى كم دار فيك تلددى<br>حلقت به لو قد تعرض دونه<br>لجردت للضرب المهند فائقضى<br>فما حل خل في فؤاد خليله<br>ولسكنها الأقدار تردى بلا ظباء | وكم عقنى عن دار أهيف أغيد<br>كأمة الأعادى في النسيج المسرد<br>مرادى وعزما مثل حشد المهند<br>محل « اعتماد » من فؤاد محمد<br>وتصمى بالقتل ، وترمى بلا يد . « |
|---|--|

( م - ١٤ )

« ليس لى مأرب فى غير مرضاة مولاي ، ولن أحمى عن أمره ، ولست إلا كالسارى يهتدى بضوءه اللامع ، فمرنى بما تشاء أطلع .

ولما كان قلب الأمير الشاب متوزعا بين الصداقة والحب ، فإنه لهذا كان يشعر بحياة لذيذة ناعمة ، إلا أن صفوها لم يدم طويلا ، وقد ترتقت سريعا ، لأن « المعتضد » رأى « ابن عمار » قد استولى على ابنه « المعتمد » فقصى بالتفرقة بينهما ، وحكم بنى « ابن عمار » . وقد اقتض هذا النبأ على الصديقين كليهما اقتضاى الصاعقة ولم يدرك كل منهما ماذا يصنع ، وقد علما أن « المعتضد » إذا أمضى أمرا لا يمكن رجوعه فيه ، ولا سبيل إلى عُدوله عنه . وعلى ذلك فنى « ابن عمار » . وقضى أعوام نفيه المحزنة متقلبا فى مدن الشمال ، وبخاصة « سرقسطة » إلى أن خلف « المعتمد » على الحكم أباه ، وكان فى التاسعة والعشرين من عمره <sup>(١)</sup> . فسارع إلى صاحبه وصديقه القديم الذى صحبه من أول عهد الشباب فاستدعاه ، وترك إليه اختيار ما يريد من مناصب الدولة المختلفة .

فطلب « ابن عمار » أن يكون واليا على « شلب » ، ذلك الإقليم الذى

---

(١) ولى « المعتمد » الحكم وهو فى الثلاثين من عمره ، كما يدل على ذلك قول وزيره وشاعره « ابن زيدون » فى تهنته :

« وما أعطت السبعون - قبل - أولى الحجبى

من العرب ، وما أعطاك عسروك والعسر »

ولد فيه ونشأ به ، فلم يسمه إلا أن يلبي طلبه ويعطيه هذه الولاية بالرغم من أنه في هذه الحالة سيكون بعيداً عنه ، وبعد أن ودع صديقه الحميم جاشت بنفسه ذكريات تلك الأيام المحبوبة التي قضياها معاً في « شلب » وجالت بخاطره خلجات جعلته يتمثل آثارها ومعاهدها البديعة فقال يخاطب « ابن عمار » ، وقد توجه إلى مقر عمله الجديد :

« ألا حيّ أوطاني بشلبِ أبا بكر      وسلهنّ هل عهد الوصال كما أدرى  
وسلم على قصر « الشراحيب » عن فتى      له أبدا شوق إلى ذلك القصر  
منازل آساد ، وبيض نواعم      فناهيك من غيل ، وناهيك من خدر  
وكم ليلة قدبت أنعم جناحها      بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر  
وبيض وسمر فاعلات بمهجتي      فعال الصفاح البيض والأسل السمر  
وليل بسدّ النهر هوأ قطعتُه      بذات سوار مثل منعطف البدر  
نضت بُردها عن غصن بان منعم      نضير كما انشق الكمام عن الزهر  
وقصر الشراحيب هذا متناه في الحسن ، مشرق الساحات ، مباه  
بحاسنه غيره من القصور الشامخات .

ودخل « ابن عمار » « شاب » في موكب فخيم يحفّ به عبيد وحشم وبلغ موكب من الأبهة والجلال . ألم يبلغه موكب المعتمد نفسه أيام أن كان والياً عليها ، ولكنه خفّض من غلوائه ، وطامن من كبريائه ، وأتى بعمل يدل

على النبل ، وحسن التقدير ، والاعتراف بالجميل ، فإنه وقت دخوله المدينة  
سأل عن التاجر الذي واساه في أيام محنته ، وأعطاه علف بغلته ، أحيّ  
هو؟ فقالوا : إنه حيّ ، وكان ابن عمار قد احتفظ بتلك المخلاة عينا التي  
كان التاجر قد ملأها شعيراً لعلف بغلته ، فلأها هو دراهم وبعث بها  
إلى التاجر وقال لرسوله ، قل له : « لو كنت ملأتها برّاً ، لكناملاًناها  
لك تبرأ »

وبقى والياً عليها مدة لم تطل ، لأن « المعتمد » لم يستطع البقاء دونه  
فاستدعاه ليقم بقصره ، وعينه كبير وزرائه .



## الفصل العاشر

كان «المعتمد» ووزيره مفتونين بالشعر، فأصبح قصر «إشبيلية» ملتقى الشعراء الفحول، ولم يكن للمتشاعرين مجال في هذا الميدان ولا حظ لهم في رفد الخليفة أو مكافأته، فقد كان الخليفة تقادراً بارع الملاحظة دقيق الحس، خصب الشاعرية، وكان يتذوق الأسلوب تذوق الشاعر الصادق الشعور، وكان رأيهِ فيصلاً في الحكم على الشعراء وتعرف موقع كل لفظ في قصيدهم، فإذا ظفر الخليفة بشاعر موهوب أقبل عليه وأدناه من مجلسه وأغرقه بكرمه إغراقاً.

ولقد سمع -- ذات يوم -- هذين البيتين :

« قلّ الوفاء فما تلفيه في أحد ولا ير لإنسان على بال  
كأنه عندهم غنقاء مغربة أو مثل ماحدثوا عن ألف مثقال »  
فسأل المعتمد : « لمن هذان البيتان ؟ »

فأجابوه : « هما لعبد الجليل بن وهبون ؟ »<sup>(١)</sup>

---

(١) جاء في كتاب المعجب عن هذا الشاعر الحيد ما يلي :

« قال الوزير أبو بكر ابن وزير أبي مروان عبد الملك « بينا أنا قاعد في دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الأغاني فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها فقلت له : « أين الأصل الذى كتبت منه لأقابل معك به ؟ » قال « ما أتيت به معى » فبينما أنا معه فى ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيثة عليه ثياب غليظة

## فصاح المعتمد :

أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتيان لها ، فحسبته لما رأيته من بعض سكان أهل البادية فسلم وقعد . وقال : « يا بني ! استأذن لي على الوزير أذن مروان » فقلت له هو نائم ، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف — حملني على ذلك نزوة الصبا ، وما رأيته من خشونة هيئة الرجل ، ثم سكت عن ساعة وقال : « ما هذا الكتاب الذي بأيديكما ؟ » فقلت له : « ما سؤالك عنه ؟ » قال « أحب أن أعرف اسمه فأني كنت أعرف أسماء الكتب » فقلت « هو كتاب الأغاني فقال لي أين بلغ الكاتب منه ؟ » قلت موضع كذا » وجعلت أتحدث معه على طريق السخريه به والضحك على فالبه ، فقال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ فقلت : طلبت منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض هذه الأوراق ، فقال لم أجد به معنى . فقال يا بني خذ كرايسك وعارض . فقلت « بماذا وأين الأصل » فقال : كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي . فتبسمت من قوله فلما رأيته تبسمي قال : يا بني أمسك على فأمسكت عليه وجعل يقرأ . فوالله إن أخطأ واوآ ولا فاء هكذا نحو كراسين . ثم أخذته في وسط الشعر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء ، فاشتد عجبى وقت مسرعاتي دخلت على أبي فأخبرته الخبر ، ووصف له الرجل . فقام كما هو من فوره لا يرفق على نفسه وأتاني بين يديه وهو يوسعي لوماً حتى تراءى على الرجل وعاقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول « يا مولاي اعذرني فوالله ما أعلمني هذا الخاف إلا الساعة » وجعل يسبني والرجل يقول : ما عرفني . وأبى يقول : هبه ما عرفك فما عذره في حسن الأدب . ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به ، فتحدثنا طويلاً ، ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافياً حتى بلغ الباب ، وأمر بدابته التي يركبها فأسرجت وحات عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبداً . فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم فقال لي : اسكت ! ويحك ! هذا أديب الأندلس وسيدها في علم الأدب هذا « أبو محمد عبد المجيد بن عبدون » أيسر محفوظاته كتاب الأغاني ، وما حفظه في ذكاء

كيف أن شاعراً من الشعراء المبرزين ممن يقوم لنا بواجب الولاء  
والخدمة ، يعد أن منحة ألف مثقال حديث خرافة ، وبادر في الحال  
بإعطاء « عبد الجليل » مائة مثقال . وحدث مرة أخرى أن أحداً لظرفاء  
من الصقلية ، وفد على قصره بعد أن غلب على البلاد « روجيه »  
النور مندى وصادف أن جرىء لديه بقطع ذهبية من مسكوكات دار  
الضرب ، فنفخ منها الصقلبي بدرتين ، ويظهر أن هذه المنحة على ضخامتها  
لم تكفه ، ففرضته الرغبة وحركه الطمع أن يد عينيه إلى تثنال نادر مصنوع  
من الرخام على صورة جل صغير مطعوم بالجواهر الثمينة ، وأراد ذلك  
الصقلبي أن ينفذ رغبته الملحة فقال :

« إنك - أيها الملك - قد نفحتني بهذه المنحة العظيمة التي أعجز عن  
شكرها ، ولا أقوى على حملها ، وأجدني لعظمها في حاجة إلى جل يحملها  
إلى داري ! »

فقال له « المعتمد » وقد أعجبت به هذه المحاولة الطريفة :

« دونك الجمل ، وشأنك به وما تريد . »

ومن المحقق الذي لا يرتاب المرفيه أن « المعتمد » يهتز أزعاجاً ، ويفيض  
إعجاباً بكل حاضر البديهة ذكي الفؤاد شاعراً كان أو غيره ،

---

خاطره وجودة قريحته ؟ اه . »

« ارجع إلى كتابنا نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٥٣ »

## فصاح المعتمد :

أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتهان لها ، فحسبته لما رأيته من بعض سكان أهل البادية فسلم وقعد . وقال : « يا بني ! استأذن لي على الوزير أبي مروان » فقلت له هو نائم ، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف — حملتني على ذلك نزوة الصبا ، وما رأيته من خشونة هيئة الرجل ، ثم سكت عني ساعة وقال : « ماهذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ » فقلت له : « ما سؤالك عنه ؟ » قال « أحب أن أعرف اسمه فأنى كنت أعرف أسماء الكتب » فقلت « هو كتاب الأغاني فقال إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ » قلت موضع كذا » وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على فاليه . فقال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ فقلت : طلبت منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض هذه الأوراق ، فقال لم أجد به معنى . فقال يا بني خذ كراريسك وعارض . فقلت « بماذا وأين الأصل » فقال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى . فنبست من قوله فلما رأى تبسمى قال : يا بني أمسك على فأمسكت عليه وجعل يقرأ . فوالله إن أخطأ واوآ ولا فاء هكذا نحو كراسين . ثم أخذت له فى وسط الشعر وآخره فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء . فاشتد عجبى وقت مسرعاتى دخلت على أبى فأخبرته الخبر . ووصف له الرجل ، فقام كما هو من فوره لا يرفق على نفسه وأنا نائين يديه وهو يوسعنى لوماً حتى ترمى على الرجل وعاقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول « يا مولاي اعذرني فوالله ما أعلمنى هذا الخلف إلا الساعة » وجعل يسبى والرجل يقول : ما عرفنى . وأبى يقول : هبه ما عرفك فما عذره فى حسن الأدب . ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به . فتحدثنا طويلاً . ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافياً حتى بلغ الباب ، وأمر بدابته التى يركبها فأسرجت وحانت عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبداً . فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم فقال لي : اسكت ! ويحك ! هذا أديب الأندلس وسيدها فى علم الأدب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون » أيسر محفوظاته كتاب الأغاني . وما حفظه فى ذكاء

كيف أن شاعراً من الشعراء المبرزين ممن يقوم لنا بواجب الولاء  
والخدمة ، يعد أن منحة ألف مثقال حديث خرافة ، وبادر في الحال  
بإعطاء « عبد الجليل » مائة مثقال . وحدث مرة أخرى أن أحد الظرفاء  
من الصقالبة ، وفد على قصره بعد أن غلب على البلاد « روجيه »  
النور مندى وصادف أن جرى لديه بقطع ذهبية من مسكوكات دار  
الضرب ، فنفع منها الصقلي بدرتين ، ويظهر أن هذه المنحة على ضخامتها  
لم تكفه ، فخفرتة الرغبة وحركة الطمع أن يد عينيه إلى تمثال نادر مصنوع  
من الرخام على صورة جل صغير مطعوم بالجواهر الثمينة ، وأراد ذلك  
الصقلي أن ينفذ رغبته الملحة فقال :

« إنك - أيها الملك - قدنفحتني بهذه المنحة العظيمة التي أعجز عن  
شكرها ، ولا أقوى على حملها ، وأجدني لعظمها في حاجة إلى جل يحملها  
إلى داري ! »

فقال له « المعتمد » وقد أعجبتة هذه المحاولة الطريفة :

« دونك الجمل ، وشأنك به وما تريد . »

ومن المحقق الذي لا يرتاب المرء فيه أن « المعتمد » يهتز أريجياً ، ويفيض  
إعجاباً بكل حاضر البديهة ذكي الفؤاد شاعراً كان أو غيره ،

---

خاطره وجودة قريحته ؟ اه . »

• ارجع إلى كتابنا نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٥٣ •

ولو كان لصاً من قطاع الطريق . ومما يقوم دليلاً على صحة ذلك حكاية البازي السنجابي . والبازي السنجابي - وقد حدثوني عنه بهذا القلب - ما يرح مدة طويلة أكبر لص في عصره ، وكان بلاء عظيماً قد أوقع الرعب والرهبه في سكان البوادي إلى أن أوقعه القدر المتاح في قبضة العدالة ، فقتل عليه « المعتمد » أن يصلب على مرأى من الفلاحين في الطريق الأعظم ، ليشهدوا ما حل به من خزي ونكال ، ولما كان اليوم الذي حكم عليه فيه بالصلب قائظاً، والحرارة خائفة، فقد قل مرور الناس بالطريق ، وكان قد وقف بأسفل الخشبة التي صلب عليها اللص زوجته وبناته يبكيه بدموع حارة ويقلن صارخات :

« يا أبتاه على من تتركنا إذا نفذ فيك سهم القضاء ، إننا بلا شك سنموت بعدك جوعاً » وكان البازي السنجابي - على وحشيته وفظاعته - غاية في الشفقة والحنو على أسرته ، فتوزعت نفسه فكرة مصيرها إلى الشقاء ، وصيرورتها إلى الفاقة والمثربة .

ومر عليه في هذه اللحظة تاجر غريب الدار يحمل على بغل عدلين من القماش وبعض بضائع أخرى جاء لبيعها في القرية القريبة فاستوقفه ، وقال له : « إني - أيها السيد - كما ترى ، في موقف من أسوأ المواقف ، وفي حالة يرثى لها ، وفي وسعك أن تقوم لي بخدمة جليلة تعود عليك قبل غيرك بأجدي الفوائد ، وأجزل العوائد . »

فسأله التاجر: «وما عسى أن تكون تلك الخدمة التي أقوم لك بها؟»

— «هل تعرف ذلك الجب البعيد هناك؟»

— «نعم أعرفه.»

— «حسن جداً، فاعلم أني في اللحظة التي استولت على فيها الغفلة

وتركت نفسي أقع في قبضة أولئك الشرطة الملعونين، ألقيت مائة مثقال

من الذهب في ذلك الجب، فإذا سمحت نفسك ورضيت أن تنطلق،

وتبذل كل ما في وسعك في استخراجها، فإنني أهبك نصفها متى ظفرت بها،

وهاهي زوجتي وبناتي يقمن على حراسة بقلك حتى تفرغ من هذا

العمل الذي فيه إقناذ أسرة من مخالف الجوع»

واستهوت التاجر شهوة الحصول على الربح، ففصى سريعاً، وربط

عند حافة الجب حبلاً، ودلى نفسه فيه حتى وصل إلى قاعه، ولما

اختفى في البئر أسرع البازي السنجابي وقال لزوجته :

«أسرعي واقطعي الحبل، وخذي البغل وخفي مسرعة أنت

والبنات، واهربن جميعاً واختفين عن الأنظار.»

وتم كل هذا في أقل من لمح البصر، وطلع التاجر من البئر بخفي

حين فوجد بضاعته قد استولت المرأة وبناتها معها، وأدرك أنه لا يستطيع

اللاحاق بهن، فجعل يصيح كاللأخوذ، ولكون صيحاته ذهبت هباء في

ذلك الجب العميق، وفي بسيط من الأرض لا أنيس به ولا مغيث،

فقد مضى وقت طويل دون أن يجد أحدا يتقدم لإيقاظه ، وبعد لآى خرج من سجنه ، وتلاحق الناس لإيقاظه من ذلك القرار البعيد الغور فى طبقات الجب السفلى وهم يسألونه فى دهشة عن سبب تدليه فى ذلك الجب ، وهو يشكو سوء الطالع ، ويندب حظه المشؤم ، ويرسل فى إثر بضاعته الضائعة دموعه الغزيرة الحارة ، ويصب جام غضبه ولعناته المتتابعة على ذلك اللص المصلوب البالغ النهاية فى الخبث والدناءة . والمكر والخديعة ، وسرعان ماذاع الخبر وتناقله الناس فى المدينة حتى بلغ أسماع « المعتمد » نفسه الذى أصدر أمره فى الحال بانزال « البازى السنجابى » من فوق خشبة الصلب ، والإتيان به فى حضرته .

ولما مثل بين يدى « المعتمد » صوب فيه بنظره وصعد ثم قال :  
« من المحقق الذى لاريب فيه أنك أكبر محتال ، وأدهى ماكر حيث عرف حتى الآن ، إذ أن ترقب الموت الذى لاحالة واقع بك ، لم يصدك عن الالتجاء فى هذا الوقت الرهيب إلى المسكر السيى ، والإيقاع بذلك التاجر المسكين فى جبالتك . »  
فأجابه اللص :

« عفواً يا مولاي الملك ! إنك لو علمت أية لذة تلك التى يشعر بها الإنسان عند ما يكون لصاً ، لوضعت هذا التاج عن رأسك ، وألقيت معطفك هذا الملكى عن منكبيك ، ولما كنت إلا لصاً مثلى . »



فأغرب الملك في الضحك ، وقال :

«ألا لعنة الله عليك من اص داه خبيث،ولكن أصيخُ إلى بسمك  
لاأتحث إليك مليا ، وسأكون في حديثي معك جادا لاهازلا ، هب  
أنى وهبتك الحياة ، ورددت إليك حريتك السليبه ، وهيات لزوجك  
وبناتك أسباب العيش من طريق شريف ، وأجريت عليك راتباً  
يكون لك ولعيالك سداداً من عوز أكنت تصلح من نفسك ،  
وتثوب إلى عقلك ورشدك ، وتعدل عن هذه المهنة الخطرة الحقةرة  
الممقوة ؟ »

فقال :

«إن الإنسان -في سبيل إيقاد حياته- يفعل كل ما في استطاعته فعله،  
وإذا كان إيقاد حياته -وهي أثن شيء عندى- متوقفاً على استقامتى  
وصلاحى وابتعادى عن الشرور والمفاسد، فإنى أعدك -أيها الملك -  
وعداً صادقاً أن أكون عند ظنك بى ، فهل يسرك منى هذا ؟ »

وقد بر « البازى السنجابى » بوعده حين عينه « المعتمد » رئيس  
شرطته ، وأوقع الرهبة والرعب فى نفوس أولئك اللصوص الذين كانوا  
زملاءه بالأمس،وبدل الخوف الذى كان ينتاب الفلاحين من قبل أمنا.  
ثم مضى « المعتمد » فى حياة الترف والمرح والسرور ، لا يصرف  
فى مهام الدولة إلا القليل من وقته ، وقد كان يقول -فى بعض شعره -

مأمنه : « إن الإنسان إذا غلط نفسه ، وأراد أن يكون عاقلاً فلن يكونه . »

وكان الساط الممدود ، والولائم الكثيرة تستفدان كثيراً من وقته وماله ، وكان يصرف ما بقي من وقته داخل قصره مع القيان ، والغيد الحسان ، وهذا ما كان يجعله دائماً يظهر بمظهر أهل الظرف والخلاعة والعشق ، وليس معنى هذا أنه زهد في حب « اعتماد » فقد كان على العكس من ذلك مفتوناً بها مدلهما بحبها .

ولكن تبعاً للقانون الغريب الذي يخضع له الحب في البيئات الإسلامية يستطيع الرجل - إذا أراد ألا يرمى بالخيانة عند حظيته - أن يفضي لهذا الغرض عن بعض ميوله الغرامية ، وأن يتصل بعشيقاته الفينة بعد الفينة ، دون أن تجدد ما تقوله أو توجه إليه فيه لوماً ، وهي مع هذا موقنة بأنها وحدها الحظية عند زوجها المهيمنة على قلبه .

وقد كانت زوجه الرومية المحبوبة الحسنة فاتنة بديعة ، وكان إذا شرب معها ، وجد للنبيذ رائحة ونكهة لذيدة لم تجر العادة بها مع غيرها . وكانت « لوان » تجلس إليه إذا فرغ من مجالس لهوه ، وتفرغ لمطالعة أشعار المتقدمين أو أراد أن يقرض هو شعراً ، فإذا أرسلت الشمس أشعتها من النافذة ، قامت لتحول بينه وبين الشمس لعلها - كما يقول الملك - « انه لا يكسف الشمس من بين الكواكب غير القمر »

ولما كانت هذه اللؤلؤة الثينة ، والحسناء الفريدة ، صعبة المراس .  
ترسة الطبع ، فقد كانت كثيراً ماتغضب ، ويتحمل « المعتمد » كل  
عناء في تسكين غضبها بتحقيق ماوافق هواها ، ويتفق مع مرامها ،  
ومن ذلك أنها غضبت عليه مرة ، فكتب يعتذر إليها ، فردت عليه  
رداً حسناً ولكنها لم تضع اسمها في صدر الكتاب ، كما يقضى به رسم  
الكتابة ، فأسف « المعتمد » لذلك ، وحكم بأنها لم تصفح بعد ، وإلا  
لكانت بدأت الكتاب باسمها ، طبقاً لما هو معروف في العادة ،  
وقال: إنها تعرف أنني أعبد اسمها ، وأتعشق كل حرف من حروفه ،  
فما بالها لم تصدر به جوابها إلى ؟ إنها إذن لاتزال غاضبة على ، وقد  
قدرت في نفسها أنه سيقبل الاسم بمجرد رؤيته على الطرس ،  
فاستحسنت ألا يراه ، لأن في تقبيله شفاء من سقم ألمه ، وما أظرف  
أن تكون هذه الشيطانة الساحرة والغادة المحبوبة هي سبب الداء  
والدواء معاً ، فقد توجه الملك إلى مولاه بالدعاء ، يرجوه أن يتفضل  
عليه بنعمة يعدها من أسبغ النعم ، وهي أن يطيل سقمه ، حتى يرى  
دائماً عند سريريه هذه الظبية الموردة الحدين ، الأرجوانية الشفتين

( وبعد ) فقد يكون مخدوعاً من يخيل إليه أن « المعتمد » قد  
أغض عينيه عن إتمام أعمال أبيه وجده ، لأنه وإن لم يكن عنده من  
الأطلاع ما عندهما ، فقد عمل هو على الأقل ما حاولا عبثاً أن يعملاه ففشلا

فمن ذلك أنه في السنة الثانية من حكمه ، ضم « قرطبة » إلى مملكته ، ولا ننكر أن والده هو الذى مهد له الطريق ، وأن الظروف قد ساعدته كثيراً ، ففي سنة ( ١٠٦٤ ) أى فيما قبل ذلك بست سنوات تنازل رئيس الجمهورية « أبو الوليد بن جهور » - لشيخوخته - عن الرياسة لولديه « عبد الرحمن » و « عبد الملك » وعهد لولده الأكبر بكل ما يتعلق بالشؤون المالية والإدارية ، وعهد إلى ولده الثانى - الذى كان يعده ضعيفاً - بالقيادة العامة ، وقد نهج كل شىء منهجاً حسناً طوال وزارة الوزير الماهر « ابن السقا » ، فقد كان هذا الوزير رجل المملكة لهذا العهد ، وكانت شخصيته تبعث الرهبة والاحترام فى نفوس جميع أعداء الجمهورية الألداء ، سواء أكانوا ظاهرين أم كانوا يعملون فى الخفاء ، وفى مقدمتهم « المعتمد » نفسه الذى أدرك أنه لى يصل إلى تحقيق غرضه يجب أولاً أن يبدأ بإسقاط هذا الوزير .

\*\*\*

فسعى بينه وبين « عبد الملك بن جهور » بأن جعله موضع ريبة يحوم حوله كثير من التهم والشكوك ، وقد نجح فى هذه السعاية التى أفضت فى النهاية بالقضاء على « ابن السقا » بالموت ، وقد كان لهذا الحادث أسوأ الأثر ، وأوخم العواقب على الجمهورية ، حيث انفرط عقدها بخروج الموالين لابن السقا ، من القواد والجند من الجيش ، وأصبح « عبد الملك » ممقوتاً عند الرعية ، بغضباً إليهم لفظاعته وقسوته

وتهاونه ، وبقى يحتفظ بما بقي من نظم الجمهورية قائماً على قدميه . إلى أن تزعزعت أركان سلطته فجاء « المأمون » صاحب « طليطلة » وحاصر « قرطبة » في خريف سنة ( ١٠٧٠ )

ولما لم يجد « عبد الملك » ما يدافع به عن نفسه لأنه أصبح بلا جيش ، ولم يبق عنده سوى مائتي فارس في حالة سيئة للغاية . عمد إلى « المعتمد » يطلب نجدة ، فحقق رغبته ، وأرسل إليه نجدات كبيرة ، اضطر معها جيش « طليطلة » للانسحاب ، ولم يكن انسحاب عدوه فوزاً ، بل بالعكس كان خذلانا ، فإن رؤساء جند « إشبيلية » أخذوا يعملون في الخفاء على تنفيذ الخطط السرية التي أفضى « المعتمد » بها إليهم ، وتم الاتفاق فيما بينهم وبين القرطبيين على خلع « عبد الملك » والاعتراف بسيادة ملك « إشبيلية » ، واستمرت المؤامرة في طي الكتمان ، و « عبد الملك » لا يدري ما يته الجند له إلى أن حدث في صبيحة اليوم السابع من ارتداد « المأمون » بعسكره ، وإعلان عسكر « إشبيلية » أنهم عائدون إلى بلادهم ، أن تصاعدت صيحات الجنود وهم على أهبة الرحيل منذرة بالعصيان ، وطرقت أذنيه لأول وهلة بوادر الشر ، ونظر فإذا الجند الذين جاءوا لنجدة ، قد أحاطوا هم وعامة الشعب بقصه ، وفي أسرع من ارتداد الطرف قبضوا عليه وعلى أبيه ، وسائر أفراد أسرته ، ونادوا « بالمعتمد » ملكا على

«قرطبة» وأخذ آل جهور أسرى ، واعتقلوا في جزيرة «شلطيش» ولم يبق «أبو الوليد» الشيخ على قيد الحياة بعد هذه النكبة سوى أربعين يوما .

وقد تحدث الملك الشاعر عن هذا الفتح بحديث ملك شأى الملوك الصيد ، وخطب قرطبة الحسناء بالبيض والأسل فلم تمتنع عليه كما امتنعت على غيره ، وذلك حيث يقول :

«من للملوك بشأوا لأصيد البطل هيهات جاءتكُم مهديّة الدول  
خطبت قرطبة الحسناء - إذ منعت من جاء يخطبها - بالبيض والأسل  
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها فأصبحت في سرى الحلّى والحلل  
عرس الملوك لنا في قصرها عرس كل الملوك به في مآتم الوجلل  
فراقبوا عن قريب لا أبالكُم هجوم ليث بدرع البأس مشتمل»  
ولم ير «المأمون» أن ما وقع يعد هزيمة وذلك لأنه كان مصمما على الاستيلاء على قرطبة في فرصة أخرى مهما كلفه ذلك من ثمن<sup>(١)</sup>.

---

(١) هذه فصول ثبتها هنا من كتاب «البيان المغرب» ، في أخبار ملوك الأندلس والمغرب « (ج ٣ ص ٢٥٥) وما يليها قال :  
« في سنة ست وخمسين وأربعمائة كثر خوض أهل «قرطبة» في الندى رأوه من تنافس ولدى «أبي الوليد بن جهور» في الانتصاف بالامارة : ابنه «عبد الرحمن» كبير جماعتهم ، وأخوه «عبد الملك» أشبههم فؤادا ، وأصايبهم عودا ، الذي كشف عن وجوههم نعمة مركسهم «ابن السقاء» ، فاستدرك لهم ما كان تولى من سلطانهم



ولم يعض قليل من الزمن حتى جاء برفقة حليفه «الأذفونش» السادس

يفتكت به الفتكة التي ثبتت أوتاد ملكهم ، ثم نازع أخاه « عبد الرحمن » فيأذهب إليه من التفرد به .

وقد كان أشار على أبيهما بعض حلفائه بإثارة « عبد الرحمن » ، فتمسك الشيخ محظه من إرضاء ولده الصغير « عبد الملك » فقال إلى قسمة الرياسة بينهما مدة حياته ، غير ناصب أحدهما للأمر ، يقضى الله أمره لمن يشاء ، وأنشد قول الجزيري .

وإذا الفتى فقد الشباب سلاه      حب البنين ولا كحب الأصغر  
ثم نظر لعبد الرحمن فقدمه في الإشراف والجباية ، وجعل إلى « عبد الملك » النظر في الجند ، والتولى لفرضهم ، والإشراف على أعطيائهم ، فرضيا منه هذا التقسيم وأقامهما على الصراط المستقيم .

وقال ابن بسام « إلى هنا انتهى ما وجدته في كتاب ابن حيان من أخبار الدولة الجهورية .

( قال مؤلف البيان المغرب ) وهأنا أذكر من كلام ابن بسام وغيره ما أمكن من بقية أخبارهم إن شاء الله ، فأقول أولا :

كان « عباد المعتضد » خامر قلبه من أمر « ابن السقاء » مدير دولة بني جهور مالا يسمعه بوح ولا كتم . ومالا يدعه سفه ولا حلم ، شرقا بحسن سيرته ، وفرقا من استمرار مريته ، وحسدا لآل جهور ، فقد كان « ابن السقاء » هذا من الاستقلال بمكانه ، والضبط لسلطانه ، بحيث يخفي الأنداد ، ويقيظ الحساد ، ففس « عباد » إلى « عبد الملك بن جهور » من جسره على الفتك ، وإلى « ابن السقاء » من ألقى في روعه حب الملك ، راش وبرى ، حتى جرى القدر بينهما بما جرى ، ولما خلا « لعبد الملك » الجو بعد « ابن السقاء » ، أعرض وأطال ، وطلب الطعن والنزال ، ووجد

فحرب بسيط المدينة وماحولها ، ولكن « عبادا » حاكم المدينة الشاب .  
أحد أبناء « المعتمد » من حظيته الرومية الحسنة ، كان غافلا عما يدبر

« عباد » السبيل إلى شيء طالما أسر ذكراه ، ونقص عليه كثيرا من دنياه ، من  
افتقار بني جهور إلى نصره ، وتصرفهم بين يدي نيه وأمره ، وانقبض عن  
« عبد الملك » لأول استبداده بالأمر حماته الذين كان « ابن السقاء » يرفههم  
برفقه ، ويصطنعهم بخذقه .

وخامر « ابن ذى النون » من الشغف « قرطبة » ما هون عليه إلتفاف المال ،  
واحتيال الأثقال ، وتكلف الحل والترحال ، ومضت السنون ، وغالت « عبادا »  
النون ، وصار الأمر إلى ابنه « المعتمد » سنة إحدى وستين ، فلما كان سنة  
اثنين بعدها دلف « ابن ذى النون » إلى « قرطبة » وكان لا يرغب شره ، ولا  
ينام عنها مكره ، فاحتاج « عبد الملك بن جهور » إلى استمداد « المعتمد »  
لانقضاء من لديه ، وعجزه عما كان أسند من أمر « قرطبة » إليه ، فأمد « المعتمد »  
بجمهور أجناسه ، على أكبر قواده ، وقد تقدم إليهم بمراده ، ونهج لهم سبيل  
إصداره وإيراده ، فوافوا « قرطبة » ونزلوا بريضها الشرق وأقاموا بها أياما يحمون  
حماها ، وأعينهم تزدهم عليه ، ويدبون عن جناها ، وأقواهم تنجذب إليه ، فلما  
شمل « ابن ذى النون » سفره وحنوا ، وقضى من غزو « قرطبة » وطره  
وما قضاه ، أخذ في الرحيل عنها فما انقضت سدفه ليله ، ولا تمزق غيار سنابك  
خيله ، حتى هتك العباديون الحريم ، وركبوا الأمر العظيم ، بانوا متحدئين بالفقول  
ثم غلسوا مظهرين للرحيل ، و « عبد الملك » متأهب لتشيعهم ، عازم على البكرة  
إلى توديعهم ، وشكرهم على حسن صنيعهم ، فلم يرعه إلا إحداقهم بقصره ، وارتقاء  
أصواتهم بالبراء من أمره ، وقد تخضت له ليلة عن يوم عقيم ، وافتز له ناجذ صبحها  
عن ليل بهيم ، ومضى من أنساره هالك بين أسود مسموم ، وأسد شتم .  
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه . تصيده الضرغام فيا تصيدا



من الدسائس للاستيلاء عليها ، فقد أخذ « ابن عكاشة » على عهده أن يضمن للمأمون أخذ المدينة التي ينشدها ، و « ابن عكاشة » هذا رجل

فقبض للحين على « عبد الملك » وأخواته ، وجميع أهل بيته ، وبالغوا لوقتهم في الانتهاك لحرمه ، وإزالة نعمه ، وإخفار ذممه ، وأخرج الشيخ « أبو الوليد » بقية أشرف الأندلس ، وكان إذ ذاك مائل الشق ، مغلوب الباطل والحق ، لم تحفظ له حرمه ، ولا رعى فيه إل ولا ذمه .

باغنى أنه لما وسط به قطرة « قرطبة » خارجاً منها على مركب هجين ، وحاله نقر منها عيون الحاسدين ، رفع يديه إلى السماء ، وأخذ يتبهل في الدعاء ، فكان ما حفظ عنه قوله : « اللهم كما أجبت فينا الدعاء عايناً ، فأجبه لنا » .

ثم مات بعد أربعين يوماً من نكبته بجزيرة « شاطيش » مزال النعمة ، مدال الحرمة ، وأقرت ساقته بها ، أفاموا هناك بقية أيام « المعتمد » يأخذهم الحدثنان ويدعهم ويخففهم الزمان أكثر مما يرفعهم .

انتهى كلام ابن بسام رحمه الله .

( وقال الوراق ) وفي سنة ست وخمسين نوه « أبو الوليد بن جهور » بابنيه « عبد الرحمن » و « عبد الملك » واستعان بهما دون تفويض منه إليهما ، فلم يلبث « عبد الملك » أن أنل مجده لأول ظهوره بالانتراب إلى « المعتضد عباد » فسكرته بما كان من أمره ، وبعد ذلك زاره « باستبيلية » فأكرمه « المعتضد » إكراماً كثيراً ، وانصرف إلى « قرطبة » وقد زادت همته ، وبعد آداله ، حتى فاق أخاه وغلبه على الأمر ، واستبد بالأمر دونه إلى أن جعل سجنه منزله ، وكان له بطانة سوء من السفال وسفاه الناس ، ومن لا خلاق له ، فكان لهم تسلط على الناس بالأذى ، يوم بهم في كل واد من الدناءة ، إلى أن غزا « قرطبة » البائسة « المأمون يحيى بن ذى النون » صاحب « طليطلة » فاستجاش عند ذلك « عبد الملك بن جهور » حليفه « المعتمد بن عباد » فأمد به بجنوده وحشوده ، حتى امتلأت منه « قرطبة »

فطيع فاتك سفاح ، وكان قبل ذلك من اللصوص المتحرمين بالوعر والجبل ، وهو مع هذا فارس ذكى حديد القلب ، نابه الشأن ، وفوق

فوق القتال بين أهل « قرطبة » و « ابن ذى النون » أياما إلى أن أقتل عنهم .  
« قال صاحب البيان المغرب » .

ولما أقتل « ابن ذى النون » عن « قرطبة » اجتمع أهلها فى السر على أن يتخلعوا « ابن جهور » ويولوا « ابن عباد » فأبرموا أمرهم وأحكموه ، وفلموا بأجمعهم لما ضجروا من جور « ابن جهور » وتعديه هو وحاشيته السفلة على الناس وثاروا فى صبيحة اليوم الذى اتفقوا فيه مع قواد « ابن عباد » وقام أصحاب « ابن جهور » دونه ، وكانوا طائفة قليلة ، فغلب عليهم أهل « قرطبة » واستوى الخائن « عبد الملك بن جهور » فى يد « ابن مرتين » قائد « ابن عباد » واقرض ملك بنى جهور ، فكانت دولة « أبى الوليد بن جهور » بقرطبة سستا وعشرين سنة وستة أشهر ونسفا .

ومن كتاب « الأنباء » فى سياسة الرؤساء » . قال :

لما أخذ « أبو الوليد بن جهور » العهد على أهل « قرطبة » لولى عهده ابنه « عبد الملك » وولاه على « قرطبة » جار واعتدى ، وتعاطم وتعاطى حتى سمى نفسه « ذا السيادةتين المصور بالله الظافر بفضل الله » وخطب له فى منبر « قرطبة » بهذا كله ، فساخط الله عليه نكايه « ابن ذى النون » له ، وتضييقه عليه حتى ملك « حصن المدور » وحاصره بقرطبة ، فاستغاث « بالمعتمد محمد بن عباد » فوجه إليه مقدمه فى ثلاثمائة فارس ، ثم جدد فى إثرهم ألف فارس مع نائديه « خاف بن تبحاح » و « محمد بن مرتين » فدخلوا « قرطبة » فانصرف « ابن ذى النون » منحوبا مغناظا ، فاستبان « ابن عباد » حل « عبد الملك » وضعف عقله ، وتلة رجاله ، وكراهية رعيته فيه ، فاحقهم الطمع فيه ، فكان زوال ملكه أسرع من لحسة الساب أفعه .

ذلك فإنه قد خبر « قرطبة » وعرفها معرفة جيدة ، لأنه لعب فيها دوراً هاماً فيما سبق .

وثوى العسكر العبادى بقرطبة بعد رحيل « ذى النون » عنها أكرم ثواء ، وأهلها ييثونهم شجوعم ، ويطالعونهم على مام فيه ، ويناتدونهم الله ألا يبرحوا حتى يقبضوا على الغوى الظالم أميرهم « عبد الملك بن جهور » ويعبسوا البلد على سلطانهم « ابن عباد » فأصبحوا عسى يوم الأحد المؤرخ على تعية سفرهم ، ثم قدم القائدان على الباب من ضبطه ، وأسرعوا التقدم إلى دار « عبد الملك بن جهور » فاستوى هو وخويصته فوق غرفة داره ، وتكاثر الجند عليهم ، فأتوه من كل جهة ، وتوصلوا إلى داره من السقف المتصل به ، ونزلوا منه إلى قعرها ، وغشيا جوع من الناس أعلاها وأسفلها كالجراد المنتشر ، فتقدمت الامة على النهب ، فصبروا جميع ما احتوى عليه قصره كحريق سريع ، وفضوا أقاصى مخازنه على نفيس أعلاقها ، وأما الشيخ « أبو الوليد » والدهوب القصر فأوى إلى المصورة ببنااته وكرائمه ، فاقتحمها عليه قوم من النصارى فجردوهم ونهبوا ما عندهم ، فأصبح أميراً ، وأضحى أسيراً ، وآل الحال بالغوى ابنه إلى أن صعد إلى عليّة أغلقها على نفسه وعلى نسائه ، فارتقى الجند إليه ، ليقبضوا فيها عليه ، فطلب الأمان ، ونزل طائعاً للقائدين وبادر « ابن مرتين » بالمنع عن تخطى أحد من الناس ، وأعلن بالنداء بالسيف في ذلك فكك العسقة ، وارتفع النهب ، وأسرع « ابن مرتين » الرجوع إلى دار المخلوع ، وقد حاصره « ابن نجاح » وقدا النظر في إخراج الغوى ليومهما إلى حضرة « إشبيلية » فوكلا به من أخرجه على أعين الناس مع أخيه وطائفته ، ثم عطفوا على النظر في شأن الشيخ الضايل والدم ومن معه من بناته ونسائه ، فصبوا جميعهم في دار صغرى ، والتزم القائدان الجلوس للنظر في الأمور إلى أن وصل « ابن عباد » « قرطبة » فملكها .

تقلنا هذه الفصول لعلقتها بما هنا ، ولما فيها من الفائدة ، وقد أصلحنا في عباراتها كلمات محرفة أرشدنا إليها التأمل ؛ ودلنا عليها صدق النظر .

فلما عين حاكماً لبعض الحصون ، بدأ يخلق الدساتير وينشئ المؤامرات لقرطبة ، ولم يكن من الهين السهل عليه أن يغامر في مخاطرة جريئة مثل هذه ، لولا أن الكثير من المواطنين كانوا مستائين من سير الأعمال ، ومن الخطط الرديئة العوجاء المتلوية .

وفي الحق إن الأمير « عبادا » كانت تبدو عليه مخايل البشر ، ويحدوه الأمل ، ولكنه في هذه السن الصغيرة ، لم يكن في استطاعته أن يتولى بنفسه أزمة الحكم ، ويضطلع وحده بأعباء المملكة لذلك كانت السلطة في يد رئيس الحامية « محمد بن مارتن » الذي يظهر أنه من أصل مسيحي ، كان هذا الرجل جندياً باسلاً ، وفاتكاً دمويّاً قاسياً ، مما جعل القرطبيين أن يمتقوه ويغضوه ، وقد حامت الشكوك والريب حول الكثير من سكان « قرطبة » في أن تكون لهم علاقة بآبن عكاشة ، واتصال بمحاولاته الخفية .

على أن هذا الأخير لم ينجح نجاحاً تاماً في إلقاء الستار على أعماله وتدابيراته الخفية ، فقد لاحظ أحد حراس المدينة أن هذا الرجل الذي له سابقة في اللصوصية ، كان كثيراً ما يتردد على أبواب المدينة ليلاً ويحادث بعض جنود الحامية ، مما جعل على الريبة ، وجعل الشبهة القوية تحوم حوله ، وقد سارع هذا الحرص ، وأبلغ « عبادا » الحادث ، ولكن الأمير لم يعن كثيراً بالأمر . ولم يآبه للحادث ، وأحال المبلغ

على رئيس الحامية « محمد بن مارتن » وهذا أحاله على حرسى صغير دون درجته ، والنتيجة أنهم تواكلوا ، فكان كل واحد يلقي المسألة على عاتق الآخر لاتخاذ الحيلة والتدبير ، ولم يقم أحد بواجبه ، ولم يتخذ فى المسألة تدبير حازم .

\*\*\*

ونشط « ابن عكاشة » للتجسس فى كل ليلة ، ولم يكف عن التربص وتحين الفرص ، إلى أن أمكنته الفرصة . فى يناير سنة (١٠٧٥) من دخول المدينة هو ورجاله فى ليلة شاتية حالككة الظلام ، شديدة الرياح والعواصف ، وبادر قصر « عباد » وقد غاب عنه الحراس ، وكان على وشك أن يقتحم عليه باب القصر ، لولا أن الحرسى الموكل بالباب أسرع إلى إيقاظ الأمير فنهض ونفر شرذمة قليلة العدد من السودان والعبيد ، وخرج بنفسه على صغرسه لملاقاة عدوه والوقوف فى وجهه ، ودافع دفاع الأبطال ببسالة وبأس حتى أكره المهاجمين أن يجلوا عن دهليز القصر ، وأخذ يطاردهم ، وهنا زلت به قدمه فابتدره أحد رجال العصابة ، واتقض عليه فقتله ، وبقيت جثته فى الطريق العام عارية بالعرى ، لأنه حين أوقف من نومه بغتة ، لم يجد من الوقت ما يكفى لارتداء ثيابه ، وانفتل « ابن عكاشة » برجاله يقصد دار رئيس الحامية ولم يدر فى خلد هذا الرجل ، ولا كان عنده كبير ظن فى أنه يعتدى عليه ويهاجم فى مثل تلك اللحظة التى اقتحموا عليه فيها داره وهو بين

شدو القيان ، ورقص الغيد الحسان ، وكان دون « عباد » ذلك .  
الأمير الحدث شجاعة ، فلم يكد يسمع صلصلة السيوف في فناء داره ،  
حتى سارع إلى مخبأ اختبأ فيه ، ولكنه سرعان ما عرف حين كشف .  
قبض عليه ، وقتل في المساء .

وفي غلس الصباح قبل إسفار الفجر بينما كان « ابن عكاشة » يطوف  
بأنحاء المدينة على دور العطاء والنبلاء يدعوهم للانضمام إليه كان بعض  
الأئمة ذاهباً لتأدية الصلاة في المسجد ، فرأى جثة « عباد » وقد فارق  
الحياة ملقاة على الأرض بين الطين والوحل ، فرحم مصرعه ، ونزع  
ثيابه ورمها على جسمه العارى ، ولم يكد الشيخ يمضى لسبيله حتى جاء  
« ابن عكاشة » بين صيحات الفرح والسرور على نحو ما يحدث في  
المدن الكبرى في إبان الثورات ، وما وقف على « عباد » وهو بهذه  
الحالة حتى أمر بفصل رأسه من عنقه وأن ترفع على رمح ، ويطاف بها  
في أنحاء المدينة ، ولم ير ذلك جنود الحامية حتى ألقوا السلاح ، وركنوا  
إلى الفرار ، وجدوا في الهرب .

ثم جمع « ابن عكاشة » أهل « قرطبة » بالمسجد الجامع ، وبدأ  
يأخذ البيعة « للمأمون » ، وكان كثير منهم لا يزال متعلقاً « بالمعتمد » يكن له  
الإخلاص والوفاء ، ولما كان الخوف عظيماً وشاملاً لم يستطع أحد أن

يتخلف عن البيعة (١) .

(١) ثبت هنا هذا الفصل التالى من قلائد العقيان . للفتح بن خاقان ، لارتباطه بكلام دوزى قال الفتح بعد كلام فى « المعتمد »  
وكانت قرطبة منتهى امله ، وكان روم أمرها أشهى عمله ، وما زال يخطبها بمدخله  
أهلها ومواصلة واليها لاذ لم يكن فى منازلها قائد ، ولم يكن لها إلا حيل ومكائد ،  
لاستمسكهم بدعوة خلفائها ، وأفتتهم من طموس رسم الخلافة وعنائها ، وحين  
اتفق له تملكها ، وأطلعه فلسكها وحصل فى قطب دارتها ، ووصل إلى تدبير رياستها  
وإدارتها ، قال من البسيط .

|                                 |                             |
|---------------------------------|-----------------------------|
| « من للملوك بشأوا الا صيد البطل | هيئات جاءتكم مهديّة الدول   |
| خطبت قرطبة الحسنة إذا منعت      | من جاء يخطبها بالبيض والأسل |
| وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها      | فأصبحت فى سرى الحلى والحلل  |
| عرس الملوك لنا فى قصرها عرس     | كل الملوك به فى مأتم الوجل  |
| فراقبوا عن قريب لا أبالكُم      | هجوم ليث بدرع البأس مشتمل   |

ولما انتظمت فى سلكه ، واتست بملكه . أعطى ابنه « الظافر » زمامها ، وولاه  
تقضيها وإبرامها ، فأفاض فيها نداء ، وزاد على أمده ومداه ، وحلها بكثرة حباه  
واشتغل بأعبائها عن فئائه ، ولم يزل فيها أمراً وناهياً ، غافلا عن المكر ساهيا ،  
حسن ظن بأهلها اعتقده ، واغترار بهم مارواه ولا انتقده ، وهيئات كم من ملك كنفوه  
فى دمائه ، ودفتوه بذمائه ، وكم من عرش سلوه ، وعزير أذلوه ، إلى أن ثار فيها  
« ابن عكاشة » ليلا ، وجر إليها حربا وويل ، فبرز « الظافر » منفرداً من مكانه ، عاريا عن  
جمائه ، وسيفه فى يمينه ، وهاديه فى الظلماء نور جبينه ، فانه كان غلاما كماله الشباب  
بأندائه ، وألحقه الحسن بردائه ، فدفعهم أكثر ليلته ، وقد منع منه تلاحق رجله  
وخيله ، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها اما ، ولا استقل منها ولا سعى ، فترك  
ملتحقا بالظلماء ، مغبرا فى وسط الحماة ، تحرسه الكواكب ، بعد المواقب ، ويستره  
الهندس ، بعد السندس ، فمر بمصرعه سحرا أحد أئمة الجامع الفاسين وقد ذهب ما كان  
عليه ومضى ، وهو أعرى من الحسام المنتضى ، نفلح رداءه عن منكبيه ونضاه ،

ومرت أيام ثم جاء « المأمون » بنفسه ودخل « قرطبة » وهو

وستره به سترًا أفتح الجبد وأرضاه ، وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة ، ولا يعرف  
فتشكر له يده الرفيعة ، فكان المعتمد إذا تذكر صرخته ، وسعر الجوى لوعته ، رفع  
بالعويل نداءه وأنشد :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه

ولما كان من الغد حز رأسه ، ورفع على سن رمح وهو يشرق كمنار على علم  
ويرشق نفس كل ناظر بالأم ، فلما رمقته الأبصار ، وتحققته الحماة والأنصار ، رموا أسلحتهم ،  
وسووا للفرار أجنحتهم ، فمنهم من أخار فراره وخلاه ، ومنهم من أتت به إلى  
حينه رجلاه ، وشغل « المعتمد » عن زنائه بطلب ثاره ، ونصب الجبايز لوقوع  
« ابن عكاشة » وعثاره ، وعدل عن تأييده ، إلى البحث عن مفرقه وجبينه ، فلم  
تحفظ له فيه قافية ، ولا كلمة للوعته شافية ، إلا أشارته إليه في تأييد أخويه  
« المأمون » و « الراضى » المفتولين في أول النائرة التي ينهى بنا القول إلى سرد  
خبرها ، ونس عبرها ، فإنه قال ( طويل ) :

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبر  
برى زهرها في مأم كل ليلة  
ينحن على تجميف أنكان ذا وذا  
مدى الدهر فايك الغمام مصابه  
عين سحاب واكف قصر دمعها  
وبرق ذكى النار حتى كأنما  
هوى الكوكبان «الفتح» ثم شقيقه  
أفتح ! لقد فتحت لى باب رحمة  
هوى بكما المقدار عنى ولم أمت  
نوليتا والسن بعد صغيرة

سأبكى وأبكى ما تناول من عمرى  
يخمتن لهفا وسطه صفحة البدر  
وياصبر ما للقلب فى الصبر من عذر  
بصنويه يعذر فى البكاء مدى الدهر  
على كل قبر حل فيه أخو القطر  
يسعر مما فى فؤادى من الجمر  
يزيد فهل بعد الكواكب من صبر  
كما ييزيد الله قد زاد فى أجرى  
وأدعى وفيا قد تكصت إلى الغدر  
ولم تلبث الأيام إن صغرت قدري



يتظاهر بمتهى الإعجاب والتقدير لابن عكاشة ويبالغ في إكرامه والحفاوة به ، والثناء على حسن بلائه ، حتى ليظن من رآه أنه قد أولاه ثقة لا حد لها ، وهو في الواقع يمتقه كل المقت ، ويرى فيه اللص القديم ، والقاسى الجرم الأثيم ، والفاتك الذى لا يرضيه من خصمه ، غير سفك دمه ، وأن يسقيه كأس الحمام بيده ، كما فعل فى ذبح « عباد » الحدث ، لهذا كله أخذ « المأمون » يبحث عن سبب يتعلل به ، أو حيلة يتذرع بها للقضاء على خصمه الخطر خلسة من غير أن يحدث فى المملكة ضجة ، ولكنه لم يجعل ذلك حديثاً مكتوماً فى نفسه ، بل كان كثيراً ما يكشف بهذا رأى خواصه وجلساءه ، حتى أن « ابن عكاشة » انصرف من مجلسه ذات يوم ، وجعل هذا يصعد الزفرات ، ويتبعه بنظرات حادة من عينين يتطاير منهما الشرر ، ويجمجم بكلمات أعقبت شؤماً ونحساً ، وأراد بعض الموالين لابن عكاشة أن يدافع عنه ، ويصفه بحسن الفعل ، وجميل الحلال ، فقال « المأمون » دع عنك

|                                  |                                 |
|----------------------------------|---------------------------------|
| فوق عتمة لاخترتما العود فى الثرى | إذا أتتا أبصرتما فى الأسر       |
| يمد على سمعى الحديد نسيده        | نقيلاً فتبكي العين بالحس والنقر |
| سعى الأخوات الهالكات عليكما      | وأكمما التكللى المضرة الصدر     |
| فتبكي بدمع ليس للقطر مثله        | ويزجرها القوى فتصغى إلى الزجر   |
| أبا خالد أورتتنى البث خالدا      | أبا النصر مذ ودعت ودعنى نصرى    |
| وقبلكما ما أودع القاب حسرة       | تحدد طون الدهر ثكل أبى عمرو     |

هذه الكلمات الجوفاء ، فإن رجلاً لا يحتفظ بالجميل ، ولا يرى حياة الملوك في نظره إلا رخيصة ، غير خليق أن ينال ثقتهم ، أو يبقى في خدمتهم

ولم يمض على دخول « المأمون » قرطبة ستة شهور حتى قتل مسموماً أى بعد انقضاء شهر يونيه سنة ( ١٠٧٥ ) وقد اتهم بقتله أحد المترددين على مجلسه ، ولكن هل يمكن ألا تكون لابن عكاشة يد في هذه الجريمة ؟ هذا ما لا يكاد يصدق العقل

ولنترك الآن حديث الاستيلاء على « قرطبة » وما أعقبه من الحوادث ، وننتقل إلى قصر إشبيلية ، ولنتصور مبلغ ما وصلت إليه حال « المعتمد » حين نعى إليه ذلك الخبر المشؤم المزدوج : سقوط قرطبة ، وموت ابنه « عباد » المرزوق له من سريته الرومية الحسنة التي أولع بحبها ولعاً شديداً . ومع أن نزعة الانتقام . والأخذ بتأر ابنه المقتول كانت تجيش بصدرة ، فقد كان إلى جانب هذا الشعور شعور آخر ، وهو تقدير يحسه في أعماق نفسه لذلك الشيخ الفقيه الذي مر على « عباد » مقتولاً فنزع بدافع العاطفة النبيلة رداءه ، وألقاه على جثمانه العارى ، وهو يأسف إذ لم تتح له فرصة مكافأة ذلك الشيخ النبيل على حسن صنيعه ، وكثيراً ما كانت تتحرك في نفسه هذه الذكري الأليمة ، فيقول :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه سوى أنه قد سل عن ماجد محض  
ومضت ثلاث سنين ضاع فيها ذلك المجهود العظيم الذى بذله ليسترد  
«قرطبة» ، وليثار لولده المقتول من «ابن عكاشة» إلى أن قبض الله له  
الاستيلاء عليها عنوة فى يوم الثلاثاء ٤ سبتمبر سنة ( ١٠٧٨ ) ، وفى  
الوقت الذى دخل فيه «المعتمد» من باب قرطبة كان «ابن عكاشة»  
قد بارحها من الباب الآخر ، ولم يتركه «المعتمد» يفلت من يده بل  
بعث فى الحال خيالة فى اثره تمكنوا من اللحاق به ، ولما أدركه  
الطلب ، وأيقن أنه لا مطمع له فى الصفح من ملك موتور بقتل ابنه ،  
أراد على الأقل ألا يبيع حياته رخيصة ، فكر على أعدائه وقاتلهم  
قتال المستميت ، إلى أن ذهب ضحية وفرة العدد ، وأمر «المعتمد»  
بجثته فصلبت على خشبة وإلى جانبها كلب .

وأعقب غزو وفتح «قرطبة» فتح كورة «طليطلة» وأراضيا  
الممتدة بين الوادى الكبير ووادى آنه ، وهذا فى الحقيقة يعد نجاحاً  
كبيراً باهراً ، ونحن لو حاولنا أن نقارن بين «المعتمد» وغيره لرأيناه  
أقوى ملوك الطوائف ، وأكثرهم نفوذاً وامتداد سلطان ، ولكنه  
مع هذا لم يكن أكثر منهم استقلالاً ، إذ كان هو عليه أيضاً أن يؤدى  
الإتاوة ، فأما أولاً فكان يدفعها ( لغرسية ) ثالث أولاد «فردينند»  
وأما ثانياً فكان يدفعها للملك «غالسيا» وأما ثالثاً فكان يدفعها

«للأذفونش» السادس، من حين أن استولى على مملكة الشقيقين «سانكو» و«غرسية» وكان «الأذفونش» ملكاً مزججاً متعباً في طلب الأتاوة . إذ هو لا يقنع بما يتقاضاه من إتاوة سنوية فحسب ، بل كان في الفينة بعد الفينة يفرض ضرائب على الممالك التي يدفع لها أبناء ملوك العرب جزية ، فإن لم يؤدوها ، وإلا هددهم بالاستيلاء على بلادهم .

وحدث مرة أنه جمع جيشاً قوياً ، وتقدم به لغزو بلاد «إشبيلية» فاستولى على المساهين الرعب ، وشملهم حزن يفوق الوصف ، وذلك لما كانوا عليه من الضعف البالغ الغاية ، بحيث كانوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، وكان كبير الوزراء « ابن عمار » هو رجل الدهاء الوحيد الذي لا يتسرب اليأس إلى قلبه ، وكان يعلم أن جمع جيش إشبيلية لملاقاة الجيوش المسيحية ، وردهم عن البلاد ، وهم باطل ، وحلم كاذب . ولكنه رأى أن الأذفونش يعرفه لأنه كثيراً ما كان يتردد على خيمته ، وأن من السهل عليه لما عرف عنه من الطمع والميول الخاصة أن يتغلب عليه بقوة الخيلة والدهاء ، وعلى هذه الناحية عول « ابن عمار » ولم يشأ أن يضع الوقت في التسليح ، وأخذ الأعمدة للحرب والقتال . وأخذ يتردد على معسكر العدو ، ومعه رقعة شطرنج غاية في الإتقان والفخامة لا يوجد لها نظير عند الملوك ، وكانت صورها من الآبنوس والعود والصندل ، وأرضيتها غاية في الابداع ممهوه بالذهب ، وذاع خبر

الشطرنج حتى وصل إلى أسمع الأذفونش على لسان نبيل من المقرين

إليه ، فطلب الأذفونش ابن عمار وسأله !

— هل تجيد لعب الشطرنج ؟ فأجابه ابن عمار وكان طبقة فيه :

— اشتهر عني بين أصدقائي أني أجيد لعبة الشطرنج

— قيل لي ان عندك شطرنج بديع معدوم النظير

— نعم هو ذاك

— هل يمكن أن أراه ؟

— لا مانع من ذلك ، ولكن على شريطة أن نلعب معاً ، فإذا

غلبتني كان الشطرنج لك ، وإذا غلبتك فلي حكى ، وبعدمراجعة وحوار

بينه وبين خاصته قبل الشرط ، وجيء بالشطرنج فكان موضع إعجاب

«الأذفونش» ودهشته لجماله ودقة صنعه ، وصاح من فرط دهشته وصلب

إكباراً له واستحساناً لصنعه ، وقال : « والله ما خطر ببالى قط أن فى وسع

إنسان أن يبدع فى صنع شطرنج بمثل هذه الدقة الفنية العجيبة »

وظل ينعم النظر ، وقد اشتد إعجابه بالشطرنج ثم قال لابن عمار :

أعد على ما قلت ، واذكر ما اشترطته على ، فأعاد ابن عمار عبارته

الأولى ، فقال «الأذفونش» «إني لألعب على شرط مجهول ، إنك تستطيع

أن تسألنى أمراً ليس فى استطاعتى أن أجيبك إليه .

فأحابه ابن عمار بفطور وطوى رقعة الشطرنج وأمر أن تحمل إلى  
حييمته وقال :

« شأنك - أيها الملك - وما تريد أنا لألعب إلا على هذا الشرط »  
وانفصل الاثنان دون اتفاق ولم يدرك « ابن عمار » الملل ، ولم يحل  
اليأس بينه وبين الوصول إلى إتمام هذه الحيلة السياسية ، فقد عمد إلى  
بعض نبلاء القشتاليين ، وأسر إليهم بأنه إذا ربح الدور لا يطلب  
مستحيلاً، ووعدهم بمبالغ طائلة إذا هونوا على « الأذفونش » الأمر، وكانوا  
في عونه ، فاستهوتهم هذه الوعود البراقة ، وخلص ألباهم بريق الذهب،  
واستوثقوا من الوزير المسلم ، وقطعوا على أنفسهم عهداً بأن يكونوا في  
صفه، وكان « الأذفونش » شديد الميل إلى اللعب لثقتة من نفسه يتحرق  
رغبة في الحصول على الشطرنج ، فحسنوا له أن يلعب معه ، وقالوا له  
ماذا عسى أن يطلب هذا مهما اشتط في الطلب ، وأنت ملك ملوك  
النصارى فلا ينبغي أن تظهر أمام هؤلاء بمظهر العجز ، ومتى غلبته وفزت  
عليه ظفرت بشطرنج يحسدك عليه الملوك ، وهب أنك خسرت واشتط  
في الطلب فإننا نرده إلى صوابه .

وما زالوا به حتى اقتنع بما أشاروا به عليه ، فبعث إلى « ابن عمار »  
بيلغه أنه على استعداد للملاعبة ، ولما حضر قال له « قد قبلت شرطك ،  
فهيأ تلعب » ، فقال حسن ، ولكن ليحضر فلان وفلان لرجال سماهم

من نبلاء القشتاليين ، ليكونوا بمثابة شهود على اللعب ، فقبل الملك وأخذوا يلعبان إلى أن انتهى الدور فغلب « ابن عمار » غلبا ظاهرا لا مطمئن فيه لأحد ، فالتفت « ابن عمار » إلى الملك وقال :

« الآن لى أن أطلب حسب الشرط ما أريد » فأجابه الملك :

« بلا شك . فماذا تطلب ؟ » قال :

« أطلب أن تعود إلى مملكتك ، وتكف عن القتال »

فهاج هائج « الأذفونش » وأخذ يذهب ويحجى فى خيمته ، وهو يخطو خطوات واسعة ، ثم جلس ، ثم نهض قائما ، وهو فى أشد حالات الهياج والقلق ، ثم قال لجماعة النبلاء من القشتاليين الذين غرروا به : « هأنذا قد وقعت فى الشرك ، وأنتم كنتم السبب ، وهذا أخوف ما كنتم أخافه من طلبات هذا الرجل ، لولا أنكم طأتمونى ، وأنا الآن أجنى ثمرة مشورتكم المقبولة »

وبعد صمت دام لحظات قال : « وما الذى يعيننى من شرط التزمته به لهذا الرجل ، أنا لا أحفل بأمر مثل هذا البتة ، وسأواصل زحنى » . فقال القشتاليون :

« إن فى هذا رجوعا عما قطعته من العهد على نفسك ، ومساسا بالشرف ، وهل تحب أن يتحدث الناس عنك - وأنتم ملك ملوك

النصارى- أنك تقضت عهدك ، ورجعت في قولك ؟ »  
وبعد لأي هدأت ثائرة «الأذفونش» وسمحت نفسه في النهاية أن  
يقول لهم :  
« سأقضى بمضمون الشرط ، وأنجز ما وعدت به ، ولكني لا أرجع  
بجنودي إلا بعد أن آخذ الجزية عن هذا العام مرتين . »  
فقال « ابن عمار » :  
« سيكون - أيها الملك - ما تريد . »  
وبادر « ابن عمار » فحمل إليه مبلغ الجزيتين ، وهكذا نجى الله  
المسلمين من الخوف بتدبير هذا الوزير الكبير ومهارته .



## الفصل الحادى عشر

لم يقنع « ابن عمار » بما وفق إليه من اقتاذ مملكة « إشبيلية » من مخالف « الأذفونش » ورد عادية هذا الطاغية عنها ، بل رغب فى أن تمتد حدود المملكة وتتسع رقعتها، واتجهت أطماعه إلى ولاية « مرسية » التى كانت من قبل قسماً من مملكة « زهير » ثم من مملكة « بلنسية » ولكنها كانت مستقلة فى العصر الذى نتحدث عنه الآن ، وكان « أبو عبد الرحمن بن طاهر » ملكها ، والمدير لشؤونها ، وهو من أصل عربى ينتسب إلى قبيلة « قيس » ، وكان ملكاً طائل الغنى ، ضخم الثروة ، قد دخل فى حوزته نصف المملكة ، وكان - مع غناه الطائل - مثقفاً خصب الذهن ، حصيف الرأى ، ولكنه مع كل هذه المزايا لم يكن كثير الخيل والجند ، مما جعل الاستيلاء على بلاده ميسوراً وسهلاً ، وقد لاحظ ذلك « ابن عمار » .

وفى سنة ( ١٠٧٨ ) مر « بمرسية » لمقابلة « الكونت دى برشاونة ريمون بيرنجيه » الثانى المعروف باسم « كاب دى توب » وإنما سعى كذلك نظراً لغزارة شعره ، وإنما عرج على هذا الكونت ليخفى السبب الحقيقى الذى من أجله مر بهذه الجهة . ولكى يهتبل هذه الفرصة ، ارتبط بروابط الصداقة

مع بعض أعيان مملكة « مرسية » الذين علم أنهم كانوا في حالة استياء من « ابن طاهر » أو أنهم على استعداد للخيانة والانقلاب متى اشترى ضمايرهم بالمال .

ولما كان في حضرة « ريمون » عرس عليه عشرة آلاف متقال ذهباً لقاء مساعدته بجنود من عنده لفتح « مرسية » فقبل الكونت الاقتراح ، وتعاقد معه على أن يكون « ابن المعتمد » الذي يتولى قيادة جيش « إشبيلية » رهينة عنده ، حتى يصله المبلغ المتفق عليه ، وسلم الكونت ابن أخيه لابن عمار كرهينة وضمان لتنفيذ شروط المعاهدة ، وكان « المعتمد » يجهل نص الاتفاق الذي يجعل ابنه رهينة عند الكونت ، وضماناً لوصول المبلغ ، و « ابن عمار » كان على يقين من وصول المبلغ في الوقت المعين ، فلا محل للخوف من تطبيق هذا النص ، وليس ثمة ما يوجب بقاء رهينة عند « ريمون » مادام المبلغ يصل في الوقت المحدد .

وتم الاتفاق ، واجتمعت جنود « إشبيلية » بجنود « ريمون » وزحف الجيش المتحد لمهاجمة ولاية « مرسية » المستقلة . ولما كان من عادة « المعتمد » التهاون ، ترك الأجل المضروب . وعدا للدفع يمر دون أن يصل المبلغ في موعده ، فترجح عند الكونت أن « ابن عمار » خدعه . فاستشاط غضباً ، وأمر بالقاء القبض على « ابن عمار » وابن

المعتمد قائد جيش « إشبيلية » وحاول جيش « إشبيلية » إيقادها ،  
فهرزم واضطر إلى الاندحار .

وكان « المعتمد » لا يزال في طريقه إلى « مرسية » مع ابن أخى  
الكونت وحاشيته ، وقد أبطأ به السفر ، فلم يكن قد جاوز بعد ضفاف  
« الوادى الينع » وكان النهر فى إبان فيضانه فلم يكن قد عبره ، وثمة  
صادفه بعض فلول جيشه على الضفة الأخرى للنهر ، ومعهم فارسان  
يحملان إليه رسالة من « ابن عمار » فقتحما بجواديهما النهر ، وأبلغا  
« المعتمد » اعتقال « ريمون » لابنه ولوزيره ، وأن هذا الأخير بعثهما  
إليه يريدمنه أن يتعجل خلاص السجينين ، وإطلاق سراحهما ، بتنفيذ  
شروط الاتفاق ، وأشار إليه أن يبقى حيث هو . فلم يقو فؤاده على احتمال  
هذه الكارثة ولم يطلق صبراً ، وفاق على مصير ولده ، ووضع ابن شقيق  
« ريمون » فى السلاسل والأغلال .

ومضى على هذه الحال عشرة أيام ، دخل فيها « ابن عمار » فى  
جوار « جاين » فأطلق سراحه ، وجاء إلى « المعتمد » ولكنه لم يستطع  
المثول بين يديه تفادياً من غضبه . وتألف فأرسل إليه يقول :

« أسلك قصداً أم أعوج عن الركب

فقد صرت من أمرى على مركب صعب

وأصبحت لا أدرى : أفى البعد راحتى  
 فأجعله حظى ، أم الحظ فى القرب  
 إذا اتقدت فى أمرى مشيت مع الهوى  
 وإن أتعبتْ نكست على عقبى  
 على أننى أدرى بأنك مؤثر  
 على كل حال مايزحزح من كربى  
 أهابك للحق الذى لك فى دى  
 وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى  
 أيظلم فى وجهى لذا قهر الدجى  
 وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب  
 حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه  
 وليس له - غير انتصاحك - من حسب  
 وما جئت شيئاً فيه بَعَى لطالب  
 يضاف به رأى إلى العجز والعجب  
 سوى أنى أسلمتني لملة  
 فلت بها حدى وكسرت من غربى  
 وما أغرب الأيام فيما قضت به  
 ترينى بعدى عنك آنس من قربى

أما إنه لولا عوارفك التي  
جرت جريان الماء في الغصن الرطب  
لما سمت نفسي ما أسوم من الأذى  
ولا قلت إن الذنب فيما جرى ذنبي  
سأستمح الرحي لديك ضراعة  
وأسأل سقيا من تجاوزك العذب  
فإن فحنتي من سمائك حر جف  
سأهتف : « يابرد النسيم على قلبي ! »

ولما كان « المعتمد » يشعر أنه هو الذي جر على « ابن عمار » وابنه  
« الراشد » ما وقع فيه ، لم يسترسل في غضبه ، واحتفظ بصداقة  
« ابن عمار » ورق له ورد عليه بهذه الأيات . (١)

(١) ذكر صاحب قلائد العفيان في سبب هذه الأيات وجها آخر قريبا من  
الوجه الذي ذكره « دوزي » ها ، فقال :  
« ولما فتر « المعتمد » على « مرسية » فمه ، وأراد أن يرفع بها علمه ، وثبت  
بها قدمه ، ويتخذ ملاكها خوله وخدمه ، وجعل « ابن طاهر » عرضه ، ونبذ  
دما م الوفاء له ورفضه ، لضيق بحاله ، وقلة رجاله ، عجم أعواده ، وسبر أتحاده ، فلم ير  
سهما يفوقه لعرشه ، ولا تسهما يطوقه أمر جيشه ، إلا « ابن عمار » رأيا لم  
ينتقده ، واعتقادا لم يفتقده ، وظلا أخله ، وقضاء ما أسلمه ، مجازاة لبغيه ، وموازة  
لقبح سعيه ، وانتصارا من الله لمن لم يحن ذنبا ، ولم ينزعن مضجع الموالاة جنبا ،  
خلعا وصل إليها ، وحصل عليها ، وفش ختمها ، وصحح لنفسه اسمها ، نبذ عهد

« لدى لك العتي تراح من العتب وسعيك عندى لا يضاف إلى ذنبى  
وأعزز علينا أن تصيبك وحشة وأنسك ماندره فيك من الحب  
فدع عنك سوء الظن بى، وتعدّه إلى غيره فهو الممكن فى القلب  
قريضك قد أبدى توحش جانب فراجعت تأنيسا وعلمك بى حسبى  
تكلفته أبغى به لك سلوة وكيف يعانى الشعر مشترك اللب»  
واطمان «ابن عمار» لهذه الأبيات ، وأهوى إلى قدمى الملك يريد

«المعتمد» وخلعه ، وأنزل ذكره من منابرهما بعد ما أطلعه ، فقيض له من «ابن  
رشيق» رجل حكاة فعلا ، وصار لتلك العقيلة بعلا ، فاقتص منه اقتصاص ابن  
ذى يزن من الحبشان ، وتركه أخسر من أبى غبشان ، ما كان إلارينا أوقد جره ،  
وقلده نيه وأمره ، وخرج هو إلى افتقاد أقطاره ، وقضاء بعض أوطاره ، حتى  
ثار له ثورة الأسد الورد ، وامتنع له بمرسية امتناع صاحب الأبلق الفرد ، فبق  
«ابن عمار» ضاحيا من ظل غبطته ، لاحيا نفسه على غاطته ، ولما  
استبهم أمره ولم يعلم له تفسير ، وعاد جناحه الوافر مبيضا كسيرا ، أراد الرجوع  
إلى «المعتمد» فخاف أن يوبقه غدرة ، وعزم على التعمود عنه فضايق بفقد  
ماعيده عنده صدره ، فكتب إليه :

«أأسلك قصدا أم أعوج عن الركب فقد صرت من أمرى على مركب صعب»  
إلى آخر القصيدة .

ثم قال : «فرق له المعتمد وأشفق ، وأقشع نوء حقه عليه وأخفق ، وعزم  
على الصفح عنه والتجاوز ، وأن يرفع بالإغضاء له تلك المعاوز ، فكتب إليه مراجعا :

«لدى لك العتي تراح من العتب»

إلى آخر الأبيات التى أثبتتها «دوزى» فى كتابه ، كما أثبتت أبيات «ابن عمار» السابقة

تقبيلهما ، ورجاه أن يقدم للكونت ابن أخيه والعشرة الآلاف ذهبا ،  
حسب الاتفاق في نظير أن يطلق سراح ابنه « الراشد »  
ولكن « ريمون » طمع في أكثر من المبلغ المتفق عليه ، فاشتط  
في الطلب ، ولم يقبل عشرة الآلاف المشروطة ، بل طلب ثلاثين  
ألفا ذهبا .

ولم يكن « المعتمد » يحمل كل المبلغ المطلوب ، فأمر بضرب  
مسكوكات أدخل في تركيبها عناصر زائفة ، ولحسن حظه لم يدرك  
« ريمون » مبلغ ما فيها من الغش قبيلها ، وأطلق سراح « الراشد »  
ابن المعتمد .

\*\*\*

وما زال « ابن عمار » على الرغم من نجاحه الشبيه بالخذلان ،  
ومحاولته الأولى المنطوية على الإخفاق - متطلعا إلى « مرسية » طامعا  
في أخذها ، وقد زعم أن كتبها تواردت عليه من كبار زعماء « مرسية »  
تبعث عنده عظيم الأمل في النجاح المحقق ، وأخذ يحسن « للمعتمد »  
غزوها حتى سمح له أن يذهب على رأس جيش إشبيلي لحصارها ،  
وعند وصوله إلى « قرطبة » بقي فيها أربعاً وعشرين ساعة حتى ينضم  
إليه الحيلة من جند المدينة ، وأمسى ليلة وجوده بها في قصر ابن  
« المعتمد » الحاكم على المدينة ، وبات يحادثه ليلته كلها ، والأمير  
مسرور بحديثه ، معجب بوفرة ذكائه ، شاعر بجاذبية قوية نحوه إلى

أن انبثق الفجر ، فجاء أحد الحصيان يعلن بطلوع الفجر ، فنظر إليه وارتجبل مامعناه :

هذه ليلة قد أمضيناها مع الأمير في سرور ، وقطعناها في حبور ، وقد دامت وضاعة الجبين مشرقة الحيا ، بطلعته البهية ، وغرته المضية ، فهي ليلة كلها بالأمير صبح ، فإذا تعنى بالفجر أيها الأحمق ؟ »

واستأنف السير في الصباح إلى أن وصل إلى حصن « بلج » أطلقوا على هذا الحصن اسم زعيم من عرب الشام الذين نزلوا في هذا المكان في القرن الثامن للميلاد ، وكان على الحصن رجل عربي من قبيلة « بلج » يدعى « ابن رشيق » فبادر إلى استقبله ، ودعاه للنزول بقصره ، فقبل الدعوة ، ورأى من الحفاوة والفخامة وأسباب المرح والسرور ، ما جعله يوليه ثقة بالغة لم يسيء الرجل وضعها ، بل سار مع صديقه الجديد إلى أن وصل الجيش إلى « مرسية » وضرب الحصار على « مولا » ، ولم يدم الحصار طويلا حتى سلمت وكانت طريق وصول المؤن الى أهل « مرسية » ، فكان سقوطها خسارة فادحة لهم مما جعل « ابن عمار » لا يشك في أنها على وشك التسليم ، وقد ترك « مولا » في حراسة كتيبة من الفرسان بقيادة « ابن رشيق » . وعاد بسائر الجيش إلى « إشبيلية »

ولم يكذب يلقى بها عصا التسيار حتى وردت عليه كتب عضده



ومساعدته « ابن رشيق » يخبره فيها أن المجاعة قد أضرت بأهل « مرسية » ضرراً بليغاً ، وأن طائفة من أهلها من ذوى النفوذ والجاه قبلوا أن يساعدوا المحاصرين لقاء الحصول على مراكز مهمة فى الدولة ، وعلى هدايا تادرة نافعة ، فقال « ابن عمار » حينئذ : « سترد إلينا الأخبار غداً أو بعد غد بمشرة بأن حامية « مرسية » قد سلمت » وقد صدقت نبوءته ، وتحققت أمنيته ، فإن فريقاً من الخونة من أهل المدينة قد فتحوا أبوابها ، فدخل « ابن رشيق » وتسلمها ، واعتقل « ابن طاهر » ، وأخذ يبيعة جميع الأهالى « للمعتمد »

\*\*\*

وبلغ « ابن عمار » ماتم على يد « ابن رشيق » فامتلاً قلبه سروراً ، وطلب إلى « المعتمد » أن يأذن له فى اللحاق بمرسية ، فلم يتردد فى الإذن له بذلك ، واعتزم أن يغمر جماعة من المرسيين بالهدايا ، فصحب معه عدداً من الخيل بسروجها ولججها أخذها من الاصطبلات الملكية ، وأضاف إليها عدداً من البغال حملها صناديق ماثت بالحلل النفيسة والثياب . وقد بلغ عدد الأفراس والبغال زهاء مائتين ، وسار فى طريقه إلى « مرسية » فى موكب حافل بين دق الطبول ، وخفق الأعلام ، وكان يعرج على كل مدينة يمر بها ، ويدع فيها من الصناديق الملكية ما هو برسم أهلها .

ودخل مرسية فى يوم وصوله إليها بمظهر عادى ، وفى الغد أجرى

له استقبال فخم برز فيه لأهل المدينة بروز الملوك الفاتحين ، وقد وضع على رأسه تاجاً مشرفاً مثل الذى يلبسه عادة مولاه فى الحفلات الكبرى ، وقد بدأ يستبد بأمر المملكة ، فكان يوقع على رقع الشكوى بتوقيع خاص به ، ويفعل اسم « المعتمد »

إن هذا المسلك الشاذ الدال على الزهو والإعجاب والاعتداد بالنفس والاستبداد بشؤون المملكة الجديدة جعل « ابن عمار » كئيباً على مولاه ، وهذا رأى « المعتمد » واعتقاده فيه ، ولكنه لم يظهر بمظهر الغاضب الخائف عليه ، بل استسلم ليأس وحزن كامن فى النفس ، وبدأ يشعر أن حلم الصداقة اللذيذ الذى يرجع ابتداء عهده إلى خمس وعشرين سنة قد تلاشى الآن ، وأنه كان مخدوعاً فى ذلك الميل القلبي الكاذب ، فصداقة « ابن عمر » القديمة ، وظهوره دائماً بمظهر الخُل الوفى ، والصديق الحميم الذى لا يفصم عُرا صداقته تطاول الأيام ، والصاحب المخلص التزيه المجرد من العلل والغايات ، كل أولئك إذن لم يكن سوى كذب ورياء وخبث ونفاق .



ولعل « المعتمد » كان واهماً فى تأييم « ابن عمار » وتجريحه وإساءة الظن به إلى هذا الحد ، ومما لاريب فيه أن الفكرة الخاطئة الأثيمة فكرة الثورة على مولاه وولى نعمته لم تكن لترى بخاطره البتة ، والذى جعل الريب والشكوك تحوم حوله من جانب « المعتمد » هو زهوه

المفرط الذى بلغ به إلى حد الجنون ، ولم يكن من ضعف الخلق ، وفطور المودة ، وعدم الشعور بأثر النعمة ، بحيث يدفع صداقة « المعتمد » وينسى ماله عنده من يد ، وما طوقه به من جيل ، بل الواقع الذى لا يرتاب فيه أحد أنه كان يحب مليكه حبا صادقا يدل عليه ما نظم فيه بعد تغييره عليه من أشعار تفيض بالحب والإخلاص والولاء

وقد نطقت أشعاره الكثيرة ، وقصائده التى كان يدفع بها هذه التهم والظنون عن نفسه ، بأن ولاده لم يتغير ، وأن طبعه لم يتحول . وأن حبه لأعز الأشياء عليه ، ومنها نفسه التى بين جنبيه ، أقل بكثير فى قوة التأثير ، وصدق الشعور ، من حبه الصادق القوى « المعتمد »

وما يدرينا لعل ظروفنا غير هذه الظروف لو كانت هيأت لهما الاجتماع ساعة يتحدث كل منهما فيها إلى صاحبه ، ويفضى إليه بدخيلة نفسه ، ويتناجى فيها قلبان طالما ائتلفا ، ما يدرينا لعل هذه الساعة لو أتتحت لكانت كافية ، للتوفيق بين هذين الروحين المتمازجين ، والقضاء على تلك الوسوس والمخاوف التى أوغرت صدر الملك على وزيره ؟ إن من نزاعث الأسف أن تتسع مسافة الخلف بينهما ، وأن يحمل الحقد والحسد جماعة من الإشبيليين الايقاع « بابين عمار » والسعاية والدس له ، وتأويل كل عمل وكل كلام وكل حركة تصدر عنه تأويلا ينطوى على الخبيث والوقيعه ، وإظهاره دائما بالمظهر البشع الشنيع ،



هؤلاء الحسدة الجبناء استولوا على لب « المعتمد » وعقله ، وهم الذين يذكروهم في شعره كثيراً ، وينسب إليهم تغيير قلب مليكه عليه ، ومن بينهم وزيره ابن الشاعر الكبير « أبي الوليد بن زيدون » الذي كان له أكبر نفوذ في العصر والذي يرجع إليه السبب الأكبر في إغيار صدر « المعتمد » عليه ، وإحاطته بكل أنواع الشكوك والريب من حين دخل « مرسية » بإذنه ، وتمكن هذا من خلق أسباب القطيعة بينهما ، وهناك خصم آخر ليس أقل من هذا خطراً ، وهو « ابن عبد العزيز » ملك بلنسية وصديق « ابن طاهر » وقد كان « ابن عمار » على أثر دخوله « مرسية » يحاول أن يصطنع « ابن طاهر » صاحب « مرسية » المخلوع ويستميله إليه بكل أنواع الخفاوة والتكريم ، وقد أرسل رسولا عرض عليه كثيراً من الخلال الفاخرة ليختار منها ما يروقه ويعجبه ، وكان « ابن طاهر » - لحدة طبعه ، ومزاجه الناري - قد هزل جسمه من جراء فقد ولايته ، فلما جاءه الرسول قال : « ارجع إلى سيدك ومولاك « ابن عمار » وقل له : إنني لا أقبل من هداياه سوى جبة الصوف الطويلة ، والقلنسوة الصغيرة الحقيرة . » وقد بلغت هذه الرسالة وهو بين خواصه وحاشيته ، فسقط في يده ، وأخذ يعض بنان الندم أسفاً وغماً ، وأدرك « ابن عمار » مغزى ما يقوله « ابن طاهر » وأنه يرمي بكلامه هذا إلى زيه المضحك المزرى الذي كان يلبسه أيام بؤسه وخوله ، وأيام أن كان ينشده أشعاره

يبغى بها التكسب ، وقد أسرها « ابن عمار » فى نفسه ولم يغتفرها له ، وأصر على أن ينتقم لنفسه من هذه الضربة الأليمة التى ثلثت شرفه ، وخفضت من غلوائه ، وغضت من زهوه ، وقد أحفظته هذه الجراءة من « ابن طاهر » وتحولت نواياه من جهته ، وأمر به فسجن فى قلعة « متاجو » .

\*\*\*

وأخذ « ابن عبد العزيز » يرأسل « المعتمد » فى شأن « ابن طاهر » وإخراجه من السجن ، فقبل رجاءه ، وبعث إلى وزيره الأكبر فى إطلاق سراحه ، فأهل « ابن عمار » أمر « المعتمد » وأبى أن يفك اعتقاله ، وساعد « ابن عبد العزيز » على إخراجه من السجن ، وتمكن من الفرار ، ومضى إلى « بلنسية » ليقم بها فى حماية « ابن عبد العزيز » فغاض ذلك « ابن عمار » وغمه ونظم فى هذه المناسبة شعرا يحرض فيه أهل « بلنسية » على الثورة والخلاف على ملكهم « ابن عبد العزيز » ويحثهم فيها على خلع نيره ، والاستعاضة عنه بملك آخر ، أى ملك كان يرفع عنهم منازل بهم من حيف ، وحل بهم من ظلم . وظل يهجوهم فيها هجواً مقذعاً ، ويرمى حرمه بأشنع السباب ، وأقطع القذف ، ويغريهم فى آخر القصيدة بهدم قصور بنى عبد العزيز وسلب أموالهم وكنوزهم ، وترك خرائبها آثاراً ناطقة بخزى الدهر ، وعار الأبد .

واتصلت هذه الأشعار « بالمعتمد » فضاعفت حقنه عليه ، وحفزته

لأن ينظم في « ابن عمار » شعراً هازئاً صاحباً يذكر فيه أوليته ، ويقارن بين حاله في أيام بؤسه وخوفه ، وحاله الآن وقد وصل إلى درجة ينازع فيها ولي نعمته السلطان ، وسربنو عبد العزيز بهذه القصيدة سرورا لا يقدر ، أما « ابن عمار » فاعتم لذلك غما شديداً ، وبدأ من فوره ، ينظم شعراً يناقض فيه شعر « المعتمد » حشاه بالهجاء والمثالب وعرض فيه لشان « المعتمد » مع « اعتماد » وقذف زوجاته ، وكشف عن عيوبه وفضائله ، ولم يطلع أحداً على هذه القصيدة التي نظمها وهو في ثورة غضبه سوى نفر من أصدقائه الذين يثق بهم ومن بينهم يهودى يتجسس لابن عبد العزيز كان يثق به أيضاً ، ولم يكن متبهما عنده .

وقد حصل اليهودى بأيسر كلفة ، وأقل عناء على نسخة من القصيدة مكتوبة بنفس خط « ابن عمار » وقدمها للأمير صاحب « بلنسية » وهذا كتب في الحل كتاباً إلى « المعتمد » من طيه القصيدة ، وأرسله إليه بواسطة الحمام الزاجل .



ومن هذه اللحظة التي اطلع فيها « المعتمد » على الرسالة والقصيدة أصبح التوفيق بينهما أمراً مستحيلاً ، فلا « المعتمد » ولا « اعتماد » ولا بنوهما في مكنتهم جميعاً أن يغتفروا لابن عمار هذه السقطة التي كبا فيها كربة لا قيام له بعدها ، وعشر عشرة لا يقيه منها أحد ، ومن ذا الذي

يستطيع أن يحو عار ذلك السباب الجارح ، والمهر الفاحش ، وقد حان حين « ابن عمار » وجاء وقت الاقتصاص منه ، وليس « المعتمد » هو الذى يباشر الاقتصاص منه بنفسه ، بل هناك آخرون قد تعهدوا له بذلك وهم له بالمرصاد .

وانصرف « ابن عمار » إلى مباهجه ولذاته ، ولم يكن ليكثرث للأمر أو يفطن لما يدور حوله ، أو يقدر فى حسابه أن « ابن رشيق » سيقاب له ظهر الحجن ، ويخونه بمساعدة خصمه العنيف ملك « بلنسية » وقد ثاب إلى رشده وفطن للأمر ، ولكن بعد أن فأت الفرصة ، ومضى الوقت ، فلم يشعر إلا والجند - بتحريض « ابن رشيق » - جاءوا فى حال هياج وثورة وصخب مطالبين بأعطياتهم المتأخرة ، ولم يكن فى استطاعة « ابن عمار » فى هذا الظرف أن يشبع نهمتهم ، أو يجيهم إلى ما طلبوه ، فتعودوه بتسليمه إلى « المعتمد » إذا هو عجز عن الوفاء لهم بما يطلبون ، وهنا عرته رجفة ، وأيقن بالهلاك ، ولم يربدا أمام هذا التهديد والوعيد إلا أن يفأت من أيديهم ، ويسارع إلى اللياذ بالفرار .

والتجأ - بعد فراره - إلى « الأذفونش » ليحتى به ، وليجد منه عوناً على فتح « بلنسية » وقد ظهر له أنه كان واهماً فيما قدره ، بعد أن خيب « الأذفونش » أمله ، وجعل كلامه دبر أذنه ، وبأن له أن ميله إلى

جانب « ابن رشيق » كان لقاء الأموال والهدايا التي قدمها له ، وقد كاشفه « الأذفونش » بقوله :

« أنا لا أرى فيكم إلا أنكم جماعة لصوص ، فاللص الأول قد سرق ، وجاء الثاني فسرقت من الأول ماسرقة ، وجاء الثالث فسلب من الثاني ماسرقة من الأول . »

\*\*\*

لم ير « ابن عمار » أن أملة يتحقق في « ليون » فتحول إلى « سرقسطة » وهناك اتصل بخدمة صاحبها « المقتدر » ولكنه لم ير في قصره - من الروعة وأبهة الملك - ما كان يراه في قصر « إشبيلية » فأنف من البقاء هناك ، وزهد في عمل يغض من مركزه السياسي ، ويحط من قيمته الاجتماعية ، فضى إلى « لاردة » حيث يقوم على الحكم « المظفر » شقيق « المقتدر » فتوبل بمحاوطة بالغة ، ثم بداله أنه سيكون في « لاردة » أكثر عزلة وانقطاعاً عن العالم الخارجي ، فعاد إلى « سرقسطة » حيث خلف « المؤتمن » أباه المقتدر على عرش المملكة .

\*\*\*

هذا الاضطراب والتقلقل أورث « ابن عمار » كثيراً من الملل والسآمة ، وجعله يشعر بالفشل ، وخيبة الأمل ، وتركه ينظر إلى حاضره



ومستقبله ، وقد جلله سوء الطالع بسحابة سوداء مظلمة ، فكان يتلصص  
- في تضاعيف هذه الأوقات المنكودة ، والساعات المنحوسة - لحظة  
مريحة يطرد بها عن نفسه الفتور والألم ، ويزايل فيها الكسل والملل ،  
وعرف أن أحد أصحاب الحصون امتنع في حصنه ، وتمرد على  
« المؤتمن » فطلب منه أن يمهّد إليه في إخضاعه ، وقهره فخرج في سرية  
قليلة من الفرسان ، ووصل إلى الحصن ، وكان منيعاً لقيامه على قمة  
جبل ، فراسل صاحب الحصن ، ورجاه أن يسمح له بدخول الحصن هو  
ورجلان من خدمه ، ولم يشك صاحب الحصن في حسن نيته ، ولم  
يسئ به الظن ، وكان « ابن عمار » قد أوعز إلى تابعيه أنهما إذا عاينا  
صاحب القصر يصافحه ويماشيه جنباً لجنب ، سارعا إليه فأغمد في صدره  
سيفيهما ، وتمت الحيلة وقتل صاحب القصر ، وسلم الجناة من إلقاء التبعة  
عليهم ، وسر « المؤتمن » من ذلك سرورا لا يقدر ، وأراد « ابن عمار »  
أن يضيف إلى هذه الفتكة فتكة أخرى ، يحدد فيها حى نشاطه  
السياسى ، فظن أنه بنفس هذا الأسلوب الوحشى المنطوى على الختل  
والغدر يكفل « للمؤتمن » أن يستولى على « شقورة »

وكانت هذه القلعة أشد مناعة من سابقتها ، لقيامها على قمة جبل  
يتعذر تسلقه ، ولمناعتها ، وتوعر طريق الوصول إليها ، احتفظت باستقلالها ،  
بينما نرى « المقتدر » قد استولى على « دانية » التى امتلكها « سراج

الدولة « ردحا من الزمن ، ولما قضى نحبه أراد بنو سهيل وهم الأوصياء على بنيه أن يساوما في « شقورة » ويعطوها لبعض الملوك المجاورين ، فهد « ابن عمار » إلى « المؤتمن » أن يستخلصها له بنفس الطريقة التي استخلص بها الحصن المتقدم . ولتنفيذ هذه الخطة الخطرة سار هو وثلة من الجند إلى بنى سهيل ، وطلب منهم أن يسمحوا بمقابلته ، ولكن عوضا عن أن يوقعهم في الشرك الذي نصبه لهم ، فقد قدر له أن يقع هو نفسه في ذلك الشرك ، وذلك لأن أولئك النفر ممن أساء إليهم « ابن عمار » في « مرسية » وناصبهم وقومهم العدا .

وطريق الوصول إلى هذا الحصن المنيع كان كثير الوعورة والتعرج ، وإذا بلغه أحد فلا بد أن يستعين على الوصول إليه ، والاستقرار في داخله بقوة ساعديه . وقد وصل « ابن عامر » وشريكاه في المغامرة الأولى إلى ذلك المكان الرهيب الخطر ، وفي أقل من ارتداد الطرف جذبوه إلى أعلى الحصن ، وما كادت تستقر قدماه على الأرض حتى أحاط به الجند ، وصاحوا بزميله أن يجدا في الهرب ، وإلا قتلها الرماة بالسهم ، فانحدرا مسرعين ، وطفقا يعدوان حتى أتيا « سرقسطة » وأبلغا الجند أن « ابن عمار » وقع أسيراً ، فركبوا يبعون نجدته ، ولكنهم وجدوا المكان صعب المرتقى ، ورأوا الحصن أمنع من عقاب الجو ، فعادوا من حيث أتوا ، بعد أن أيقنوا أنه لا سبيل إلى نجاته وإيقاده

من مخالف أعدائه بنى سهيل الذين اعتقلوه فى الحصن ، وأودعوه فى  
غيايات سجن لاختلاص له منه ، وبقى على سوم الشراء لديهم حتى  
يبدل فى فك اعتقاله من ملوك وقته من يدفع أغلى ثمن . وكان  
« المعتمد » هو الذى غالى فى دفع ثمنه ، وتمت له الصفقة فيه ، فأرسل  
ابنه « الراضى » فى جماعة من الحرس لأخذه من صاحب « شقورة »  
وأمرهم أن يبالغوا فى الاحتياط حتى لايفلت من أيديهم ، وجاءوا به  
إلى قرطبة أسيراً ، ودخلها الوزير التاعس مكبلاً بالسلاسل والأغلال  
حاسر الرأس منزوع العمامة ، وقد أركبوه بغلاً بين عدلى تبين ، وبعد  
أن طافوا به فى أنحاء المدينة على هذه الحال من التعاسة والسخرية ،  
أدخلوه القصر حيث مثل يزيدى « المعتمد » فانهاه عليه لوماً وتقريعاً ،  
وإقذاعاً وسباً ، وأخذ يعدد أياديه عليه ، ويحصى عليه جرائمه وهو  
مطرق الرأس ، لاينبس بينت شفه ، إلى أن فرغ « المعتمد » من كلامه ،  
فكان من جواب « ابن عمار » أن قال

« لا أنكر شيئاً مما يقوله مولاي ، ولو أنكرته لشهدت على به  
الجمادات ، فضلاً عن ينطق ، ولكن عثرت فأقل ، وزلت فاصفح »  
فقال « المعتمد » :

« هيهات ! إنها عثرة لا تقال ، وزلة لا تمحى . »

\*\*\*

وجعل نساء القصر يعبتن به ، ويرمينه بكل لفظ شائن ، وسباب

جارج، وإنما نلن منه بسبب تلك القصيدة التي هجا بها «اعتماد» وغيرها من أميرات القصر، ثم أمر به فأحضر إلى «إشبيلية» بين هزء الجمهور وسبابهم وسخريتهم ولعناتهم، وجعل في غرفة على باب قصر «المعتمد» المعروف «بالمبارك» طال فيها حبسه واعتقاله، ومع كل هذا فقد مرت عليه ظروف كان يؤمل فيها أن ينال عفو «المعتمد» و«الراشد» ابنه هو الذي كان يفتح أمامه طريق الأمل، وقد رق له هذا الأمير وعطف عليه لكثرة ما كان يبعثه إليه من قصائد يحشوها بالتصل والاعتذار وكثيراً ما كانت ترد الرسائل إلى «المعتمد» من «الراشد» وغيره من رجال الدولة في طلب العفو عنه، وهو الذي كان يحفرهم بما كان يكتبه إليهم وهو في سجنه، إلى أن ثقل على «المعتمد» كثرة ما يرد عليه من الرسائل، فأمر أن يمنع عنه ما يتمكن به من الكتابة، وقد أعطى -بأمر «المعتمد»- ورقتين كان طلبهما، كتب في إحداها قصيدته المشهورة التي يتوسل بها إليه، وقد رفعت إليه في المساء عقب الانتهاء من وليمة، ولما أنشدت بين يديه أدركته عليه رقة، فأمر به فأتى به إليه ليلا وهو في بعض مجالس أنسه، فجاء يرسف في قيوده، فجعل يعدد عليه مننه ويعيب عليه من جديد إنكار الجليل، وجحود النعمة، فما كان جوابه إلا البكاء، وهملان الدمع، واجتلاب كل ألفاظ الرقة، وكل ما يمكن أن يزرع في قلب «المعتمد» الرأفة والحنان، فما زال به

يستعطفه حتى عطفته عليه سابقته ، وما كان بينهما من قديم الصداقة والصحبة . وخاطبه بكلام يدل على الصفع تلويحاً ، ولا يدل عليه تصريحاً . فاطأ أن بعض الشيء ولم يدر أنه كان مخدوعاً في شعور « المعتمد » نحوه ، فهو وإن كان محتفظاً ببعض الذكريات القديمة التي تعطفه عليه ، وتجعله يرثي لحاله إلا أن هناك مسافة بعيدة بين ماهو ميل وعطف ، وبين ماهو عفو وصفح . وقوى عنده الظن خطأ في أن الحظ سيواتيه ، وأن السعادة ستعاوده ، ولم يستطع أن يكتُم سروره ، فبعث بكتاب إلى « الراضي » يخبره فيه أن « المعتمد » قد وعده بالخلاص .

\*\*\*

وكان بحضرة « الراضي » - حين وصل إليه الكتاب - قوم يكرهون « ابن عمار » ويضمرون له الشر ، وسرعان ما ذاع الخبر في المدينة ، وعرفه « ابن عيسى » و « ابن زيدون » من وزراء « المعتمد » وكثر المرجفون و « ابن زيدون » واجم مشرد الفكر ، قد بات ليلته تلك ضيق الصدر . يخشى أن يتحقق الخبر ، فتسقط منزلته ويكون لابن عمار المحل الأول من الاعتبار ، لابل هو الموت عنده . وفي صباح ليلته هذه لم يستطع أن يذهب إلى القصر كعادته في الوقت المحدد ، إلى أن أرسل إليه « المعتمد » فدخل القصر ، واستقبل أحسن

استقبال ، فسرى عنه حين علم أن « المعتمد » لا يزال نافقا على « ابن عمار » وأن موقفه بازائه لم يتغير ، وقد كثر الإرجاف ، وتوالت الإشاعات حول مآدار بين « المعتمد » و « ابن عمار » ونشروه في المدينة أقبح نشر ، وعلقوا عليه بزيادات قبيحة أحفظت « المعتمد » . فأرسل لابن عمار ، وقال له :

« هل أخبرت أحدا بما كان بيني وبينك البارحة ؟ »

فأنكر « ابن عمار » كل الإنكار ، فقال « المعتمد » لأحد خصيانه : اذهب إليه ، وقل له :

« الحديث الذي دار بيني وبينك أمس كان بيننا سرا مكتما ، فما الذي أذاعه في الخارج ؟ »

فذهب إليه الخصى وعاد يقول :

« يصر « ابن عمار » على إنكاره ، ويقول إنه لم يقل لأحد شيئا »

فقال « المعتمد » عد إليه ، وقل له : الورقتان اللتان طلبتهما أمس

كُتبت في إحداهما القصيدة . فماذا صنعت بالأخرى ؟

فعاد الخصى وقال :

« يقول : إنه سوّد فيها القصيدة »

فقال « المعتمد » : على بالمسودة إذن ! »

\*\*\*

وهنا لم يستطع « ابن عمار » أن يتحدى في إنكاره ، بل قال بصوت متهدج تخنقه العبرة : « الورقة الأخرى كتبت فيها إلى مولاي « الراضى » أذكر له فيها ما وعدنى به مولانا الملك من الإفراج عنى . » وعلى أثر هذا الاعتراف الرهيب غلا الدم في عروق « المعتمد » ، وفام مغضبا ، وصعد إليه ويده أداة قاتلة من آلات الحرب كان أهداها له « الأذفونش » فلما عاينه « ابن عمار » على هذه الحال من الغضب والثورة العصبية أيقن أنه لاشك قاتله ، فزحف وقيوده تثقله إلى أن ارتقى على قدمى « المعتمد » يقبلهما ، ويبللها بدموعه .

\*\*\*

ولم تكن الشفقة لتعرف إلى قلبه سبيلا ، فعلاه بالسلاح في يده ، ولم يزل يضربه حتى برد .  
هذه هى الفاجعة الأليمة التى ختمت بها حياة « ابن عمار » وقد أثرت هذه الكاتنة المحزنة أثرها فى اسبانيا العربية  
ولم تطل مدة « المعتمد » بعده ، فإن الحوادث الخطيرة التى وقعت فى « طليطلة » والاتصارات المتوالية التى أحرزتها جيوش القشتاليين حولت دفعة السياسة إلى مجرى آخر<sup>(١)</sup>

---

(١) ارجع الى ما كتبه عن أخبار « ابن عمار » مع « المعتمد » فى هامش الكتاب « من صفحة ١٨٨ إلى صفحة ٢٠٠ »

## الفصل الثاني عشر

اعتزم « الأذفونش » السادس ملك « ليون » و « قشتالة » و « غاليسيا » و « نافار » عزما قاطعا لا تردد فيه أن يفتح شبه الجزيرة ، وقد كان من القوة وخصومه من الضعف بحيث يستطيع إتمام ما اعتزمه من ذلك . ولم يتعجل الفتح بل آثر الانتظار ، ريثما يجمع من الإتاوات والجزى التي كان يفرضها على ملوك الأندلس أموالا كثيرة يدخرها عنده لتكون عدة للحرب ، ووسيلة لإدراك أطعاه الكثيرة التي توجهت إليها أنظاره .

وعلى هذا أراد أولا أن يضع الملوك المسلمين تحت الآلة العاصرة ، ولم يكن همه أن يعتصر بهذه الآلة شراب التفاح والنبذ ، بل أراد أن يأخذ من عصارة أولئك الملوك بعد سحقهم سائل الفضة والذهب .

وربما كان أضعف الملوك الذين كانوا يؤدون له الجزية « القادر » ملك « طليطلة » فقد أضر بهذا الملك ترف الحياة ، ونعيم القصر حتى أصبح ألعوبة الخصيان ، وأضحكة الجيران الذين كان ينافس الواحد منهم الآخر في سلبه وتجريده و« الأذفونش » وحده هو الذي كان يظهر بظهور من يحميه ويدافع عنه .

ولفداحة ما كان يرهق به رعيته من الظلم والمغارم ، لم يسأله



قيادهم ، فلجأ إلى « الأذفونش » يشكو إليه أنه لا يستطيع أن يملك زمامهم ، فوعده أن يبعث إليه بجنود لتأييده وحمايته مقابل مبلغ طائل من المال ، وأراد « القادر » أن يجمع هذا المال من كبار رجال المملكة ، فدعاهم لهذا الغرض وكاشفهم بالأمر ، فأبوا أن يعطوه شيئاً ، فأقسم لتدفعن المال ، أولتكرهن غداً على دفع أبنائكم رهائن عند « الأذفونش » فأجابوه : «إننا حينئذ نخلعك قبل أن تتمكن من ذلك.»

وسلم « الطليطيون » من ذلك الحين قيادهم « للمتوكل » ملك « بطليوس » واضطر « القادر » للهرب ليلاً ، والتجأ من جديد إلى « الأذفونش » يخطب وده ، ويطلب مساعدته ، فاتفق معه على أن يذهب لحصار « طليطة » ، ويعيد إليه ملكه ، ووجد أن ماحله إليه من المال قليل ، فلم يقبله ، واشترط أن يعطيه بعض الحصون ، ثم يطالبه فيما بعد بأزيد من هذا القدر الذى معه . فالتزم « القادر » بكل هذه الأشياء ، وبدأت الحرب سنة ( ١٠٨٠ ) ودامت سنتين ، وبعث الإمبراطور كعادته رسله إلى « المعتمد » يطالبه بدفع الجزية السنوية ، وكانت البعثة مؤلفة من جماعة من الفرسان عهد إلى يهودى من بين الجماعة اسمه « ابن شبيب » بالسفارة بينه وبين « المعتمد » وذلك لأن اليهود لذلك العهد كانوا وسطاء بين المسلمين والنصارى ، وضربت البعثة خيامها بظاهر المدينة ، وأرسل « المعتمد » رسله إليهم

وعلى رأسهم ذو الوزارتين «أبو بكر بن زيدون» يحمل الإتاوة المطلوبة، وكانت أقل مما يجب دفعه، لسوء الحالة في ذلك الوقت على الرغم من أن «المعتمد» قد فرض على رعيته لسداد المبلغ ضرائب فوق العادة، فلم يقبل اليهودى مادفعه إليه الوزير، وقال له :

«أترانى من البلاءة والغباء بحيث أقبل هذه النقود الزائفة ؟ إني لا أتسلم دون المبلغ المطلوب ، ولا أتسلمه إلا ذهباً عينا، وسيكون المدفوع في العام المقبل حصونا ومدناً لأمالا زائفاً .»

\*\*\*

واقتصل « بالمعتمد » مافاه به اليهودى أمام سفرائه ، وكبار رجاله ، فاستشاط غضبا وأمر أن يحمل وصحبه إلى القصر ، وما حصلوا عنده حتى أمر بالرسل من النصارى فأودعهم السجن، وباليهودى أن يصلب، فارتعدت فرائص اليهودى الذى كان قبل برهة يتبه على « المعتمد » ورجاله صلفا وكبراً . وقال :

« عفواً يا مولاي ! إني أفتدى حياتى منك بوزن جسمى ذهباً .»

فقال « المعتمد » :

« والله لو جئتني بأسبانيا كلها على أن تغتدى نفسك ما قبلت منك فداء .»

وهكذا تم صلب اليهودى .

وبلغ «الأذفونش» ماحل بفرسانه ، فأقسم بالله وبأرواح القديسين لينتقم لهم من عدوه انتقاماً مروعا ، وليغزونه في «إشبيلية» وليحصرنه في عقر داره . وكان الإسبانئون لهذا العهد قد اهتبلوا الغرة بما كان من تفرق كلمة المسلمين فتكالبوا عليهم واستولوا على حصونهم ، وسار «الأذفونش» بمجيوشه يفتح المعازل ويخرب القرى حتى بلغ فرضة المجاز من طريف على جبل طارق ، وضرب على ملوك الطوائف أنواع الجزى ، وفي مقدمتهم «المعتمد» كان يؤديها له -وهو صاغر- إلى أن طلب منه المعتاد في كل سنة على يد أولئك الفرسان ومعهم وزيره اليهودى ، فصلب «المعتمد» اليهودى منكسا ، وأودع أولئك الفرسان في غيابات السجن ، ولم يكن «الأذفونش» ليرك فرسانه القشتاليين وهم زهاء التحسين ، يعذبون في السجن على حساب خطئهم ، دون أن يعمل على خلاصهم ، ويتلطف في طلب الإفراج عنهم خوفا على حياتهم . فأرسل إلى «المعتمد» في ذلك ، فاشتراط أن يرد إليه حصن «المدور» في نظير إطلاق سراحهم ، فقبل الشرط ورد الحصن إليه ، وأطلقهم ، وما عاد جماعة الفرسان المسيحيين حتى قام «الأذفونش» بتنفيذ وعيده ، وإمضاء تهديده ، وسار في طريقه لحصار «إشبيلية» فغنم وأحرق القرى ، وقتل وأسر من المسلمين من لم يتسع لهم الوقت للالتجاء إلى الحصون المنيعه ، وحاصر «إشبيلية» ثلاثة أيام ، وخرب

إقليم « شذونة » وما زال يزحف بجيوشه حتى وطئ الرمال وبلغ « طريف » ومس بحوافر فرسه أمواج البحر وهو يقول : نحن الآن في أرض الحجاز وبها قد وصلنا إلى آخر حدود « اسبانيا » .

وبر قسمه ، وأرضى طماعيته ، ووجه بجيوشه إلى « طليطلة » مقر مملكة « القادر » وتسلمها منه ، وكان اتفق معه على أن يظاھرہ على أهل « بلنسية » ، فاضطر « المتوكل » أن يفر من وجه « القادر » ويتخلى له عن « بلنسية » ففتح أهلها أبوابها له على الرغم منهم عام ( ١٠٨٤ ) فجمع منهم أموالا طائلة ، وقدمها « للأذفونش » فلم يرتضها الإمبراطور ، وقال له بقتور وامتعاض : « هذا لا يكفي »

فأضاف إليها فوق ذلك ما ورثة من الكنوز والفنائس عن أبيه وجده ، فقال أيضا : « هذا لا يكفي » ، فرجاه أن يعطيه ميلة ريثما يجمع له ما يكفيه من المال . فقال له « الأذفونش » : « كلا حتى تعطيني حصونا أخرى أرتھنھا كضمان لما هو مطلوب » وهكذا سلم « القادر » في كل ما يملك ، وأضاع طارفه وتليده ، ومزق ثروته وميراثه ، وبدد حصونه حصنا حصنا ، وزهبه دينارا دينارا ، وهو مستسلم مرغم ، وإلا فماذا عساه أن يصنع ؟ إن سيف « الأذفونش » المصلت يتهدده بالقتل ، وأقل حركة تبدر منه تدل على عدم الطاعة والإذعان تجعله يهوى به على رأسه ، فلم ير بداً من أن يستنزف أموال الرعية ، ويرهقها بأنواع المظالم والمغارم

ويأتى على الثالثة الباقية فى أيديها . ورأى أهل « بلنسية » أنه لا قبل لهم بسد هذه المغارم الفادحة ، ففروا من وجه هذا الظلم الصارخ زرافات ووحدانا ، وهاجروا إلى أرض « سرقسطة » وكان موقف « القادر » أمامه شاذاً وغريباً ، فإنه كلما حمل إليه قدراً من المال ظننا منه أن ذلك يجدى فى مرضاته ، كان ذلك سبباً فى تزايد طلباته الملحة ، إلى أن نضب معين المال ، ولم يجد ما يقدمه إليه ، وأقسم له أن ليس قبله شىء . فقام من فورهِ ، وخرب بسيط المدينة وما حولها ، كل هذا و « القادر » متعلق بعرشه بعد أن نخر فى قوائمه السوس ، وتداعى للانحلال والسقوط ، ولكنه عدل فى النهاية عن هذا التعلق الكاذب .

\*\*\*

وحدث مرة أن حضر « الأذفونش » وكان هو فى استقباله ، فصرح له بأنه مضطر أن يتخلى له عن « طليطة » وأنه متنازل عن العرش ، فوضع « الأذفونش » الشروط التالية :

يتولى الإمبراطور حفظ حياة الطليطيين وحراسة المملكة ، والسكان حرية البقاء أو الهجرة إلى أى جهة شاءوا .

لا يطالبهم إلا بدفع الجزية المفروضة عليهم بشرط أن يعطوها مقدماً .

يترك لهم القيام على شؤون المسجد .

يتعهد للقادر بأن يكون ملكاً على « بلنسية »

وتم الاتفاق على هذه الشروط ، وقبلها الأمبراطور . وفي يوم ٢٥ مايو سنة (١٠٨٥) دخل عاصمة مملكة « القوط » القديمة<sup>(١)</sup> ، ومن ذلك

(١) سقطت « طليطلة » في عهد « القادر » آخر ملوك « بني ذى النون » من ملوك الطوائف وقد بلغت دولتهم في إبانها من الاستفحال أقصى غاية ، حتى غلبوا « المعتمد ابن عباد » على « قرطبة » وقتلوا ولده « عبادا » ونزعوا « بلنسية » من يد « ابن أبى عامر » إلى أن أدرك دولتهم الضعف والانحلال في عهد « القادر بن ذى النون » هذا . واستولى « الأذفونش » منهم على « طليطلة » وفي ذلك يقول بعض شعرائهم في التفجع على « طليطلة » :

|                          |                           |
|--------------------------|---------------------------|
| « لشكك كيف تبسم الثفور   | سرورا ، بعد ما بثست ثفور  |
| أما وأبى مصاب هد منه     | ثبير الدين ، فاتصل الثبور |
| لقد قصت ظهور حين قالوا : | « أمير الكاشحين له ظهور » |
| ترى في الدهر مسرور بعيش  | مضى عنا لطيته السرور      |
| أليس بها أبى النفس شهم   | يدور على الدوائر إذ تدور  |
| لقد خضعت رقاب كن غلبا    | وزال عتوها ومضى الثفور    |
| وهان على عزيز القوم ذل   | وسامح في الحریم فقی غيور  |
| طليطلة أياح الضد منها    | حماها إن ذا نبأ كبير      |
| فليس مثالها إيوان كسرى   | ولا منها الخورق والسدير   |
| محسنة محسنة بعيد         | تناولها ومطلبها عسير      |
| ألم تك معقلا للدين صعبا  | فدله كما شاء القدير       |
| وأخرج أهلها منها جميعا   | فصاروا حيث ساء بهم مصير   |
| وكانت دار إيمان وعلم     | معالمها التي طمست تنير    |
| مساجدها كنائس ! أي قلب   | على هذا يقر ولا يطير      |
| فيا أسفاه يا أسفاه حزنا  | يكرر ما تكررت الدهور      |
| وينشر كل حسن ليس يطوى    | إلى يوم يكون به النشور    |

الخين بلغ في الأبهة والعظمة والكبرياء مبلغاً كان يقابله من الناحية

أدبكت قاصرات الطرف كانت  
وأدركها فتور في انتظار  
وكان بنا وبالفتيات أولى  
لقد سخنت بحالتن عين  
لئن غبنا عن الإخوان إنا  
نذور كن للأيام فيهم  
فإن قلنا : العقوبة أدركتهم  
فانا مثلهم وأشد منهم  
ومنها :

« خذوا ثأر الديانة وانصروها  
ولا تهنوا وسلوا كل غضب  
وموتوا كلكم ، فالموت أولى  
أصبنا بعد سي وامتحن  
قام الصبر مذكراً ولود  
ومنها :

« كفى حزناً بأن الناس قالوا :  
أنترك دورنا ونفر عنها  
ولا ثم الضياع تروق حسنا  
وظل وارف وخرير ماء  
ويؤكل من فواكهها طرى  
يؤدى مغرم في كل شهر  
لقد ذهب اليقين فلا يقين  
« إلى أين التحول والسير »  
وليس لنا وراء البحر دور  
نباكرها فيعجبنا البكور  
فلا قر هناك ولا حرور  
ويشرب من جداولها نعيم  
ويؤخذ كل صائفة عشور  
وغر الغوم بالله الغرور  
( م - ١٨ )

الأخرى اتضاع ملوك المسلمين واستكانتهم إذ لم يبق منهم أحد إلا بادر بإيفاد الوفود إليه يهثونه ويحملون إليه الطرف والهدايا ، وصرحو له بأنهم يكونون داخل حدود سلطانه كجباة للأموال لتحصيل الضرائب ودفع الجزى . وكان « الأذفونش » - وهو ملك ملوك الديانتين الإسلامية والنصرانية - لا يعيرهم أدنى اهتمام لهوانهم عليه ، حتى لقد كان يعلن الاستهانة بهم ، ولا يخفى احتقاره لهم . ومن ذلك أن « حسام الدولة » ملك البرزالين وفد عليه ليقدم إليه بنفسه هدية فاخرة ، وصادف في اللحظة التي دخل عليه فيها أن كان أمامه قرد يرقصه راضيه لتسلية تنزيتيه وألأعييه ، فقال له « الأذفونش » بلهجة هى غاية فى الزرابة عليه والسخرية منه : « دونك هذا القرد فخذ من هديتك عوضا » . وكان الأمير المسلم بعيداً عن الإحساس بهذه الإهانة ، ورأى فى القرد لهذه المناسبة ذريعة إلى اكتساب الصداقة ، ودليلا على أن « الأذفونش » لا يريد أخذ بلاده .

---

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| رضوا بالرق - بالله - ماذا | رأوه ؟ وما أشار به مشير ؟   |
| مضى الإسلام فأبك دما عليه | فما ينفي الجوى السمع الغزير |
| ونح واندب رفاقا فى فلاة   | حيارى لا تحط ولا تسير       |
| ولا تتجنح إلى سلم ، وحارب | عسى أن يجبر العظم الكسير    |
| أنعمى عن مرأشدا جميعا     | وما إن منهم إلا بصير        |
| ولو أنا ثبتنا كان خيرا    | ولكن مالنا كرم وخير         |
| إذا مالم يكن صبر جميل     | فليس بناقم عدد كثير         |



وبعد « طليطلة » جاء دور « بلنسية » وكان ابنا عبد العزيز (١)

(١) جاء في كتاب « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » لابن عذاري المراكشي عن « حيان بن خلف » قال : هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر ، وكان لقبه المنصور ، وكان الموالي العامريون عند ذهاب مجاهد عنهم قد أسندوا أمرهم إلى قرمن مشيختهم فتشاوروا في أن يقدموا أميرا من أنفسهم يعترفون له ، فاتفقوا على « عبد العزيز » ابن مولا م ، إشارا له على ابن عمه « محمد ابن عبد الملك » وكان مقبلا بقرطبة ، و « عبد العزيز » بسرقسطة ، في كنف « منذر ابن يحيى » فأحكم له التدبير ، وخرج سرا ، فلاحق ببلنسية ، فاستقبله الموالي أفواجا ، وقلدوه رياستهم ، وكان « عبد العزيز » هذا من أولصلهم لرحمه ، وأحفظهم لقرايته ، ابتعته الله رحمة للممتحنين من أهل بيته ، فأوام ، وجبر الكسير ، ونعش الفقير طول مدته ، حتى بلغ من ذلك مبلغا أعيا ملوك زمانه ، وخطب لأول حيته ، الخليفة بقرطبة « القاسم بن حمود » مع هدية حسنة ، وذكره بدمام سلفه ، فسماه المؤمن ذا السابقتين ، فتوطد سلطانه . واشتمل على خدمته أربعة من الكتاب ، حتى سماهم الناس ، الطبايع الأربم ، وهم : « ابن طالوت » و « ابن عباس » و « ابن عبد العزيز » و « ابن التناكرني » كاتب رسائله ، ولم تزل حاله تسمو ، حتى اتصل بوزارته فنال جسيما من دنياه ، وطالت إمارة « عبد العزيز » إلى سنة اثنين وخمسين ، واربعمائة فتوفي في ذى الحجة منها . وهو صاحب « بلنسية » و « مرسية » و « شاطبة » وجزيرة « شقر » وأعمالها .

وضعف أمر ولده « المظفر » ببلنسية ، فملك « ابن طاهر » « مرسية » واستبد بها إلى أن مات ، فورت ملكه بها ابنه « محمد بن طاهر » .

وبعد « عبد العزيز ابن أبي عامر » ولي ابنه « عبد الملك » . اجتمع أصحاب أبيه « عبد العزيز » على تأميره ، وفام له بأمره كاتب والده ، والمدير لدولته الوزير « ابن عبد العزيز » المشهور ، مع معرفته بابن « رونش انغرطي » وكان مشهورا

يتنازعان الملك ، وكل منهما له شعبة وأنصار ، وهناك فريق ثالث كان يعمل على إعطاء « بلنسية » لملك « سرقسطة » ، وفريق رابع يريد أن تعطى « للقادر » . وكان الفوز حليف الفريق الأخير دون هؤلاء جميعا ، ولم يكن « القادر » حائزاً على الصفات المطلوبة ، وكان خلفه جيش قشتالى بقيادة أحد رجال « الأذفونش » لا يعوزه إلا أن يقوم أهل « بلنسية » بتقديم الطعام لجنوده ، مما يكلفهم فى اليوم الواحد ستائة قطعة ذهبية تقدأ . وحاولوا عبثاً أن يقتعوا « القادر » بأنه ليس فى حاجة

---

بالرجاحة ، فأحسن هذا الكاتب معونته على شأنه ، وتولى تهديد سلطانه ، واستقر أمره على ضعف ركنه ، لعدم المال ، وقلة الرجال ، وفساد أكثر الأعمال . وراعى هذا الكاتب النهم ، مدر تلك الدولة فى هذا المؤتمر « عبد الملك » مكان صهره من الأمير « النامون يحيى بن ذى النون » إذ كان صهر « عبد الملك » أبا امرأته ، المسام له فى مصاب أبيه ، المعين له على سد ثلمه ، الذائد عنه كل من طمع فيه ، فأنزعج عند نزول الحادثة من حضرته « طليطلة » الى قلعة « كونسكة » ، من أعماله ، للدنو من صهره « عبد الملك » وبادر بإتخاذ قائد من خاصته ، وبالكاتب « ابن مثنى » إلى « بلنسية » فى جيس كشيف ، أمرهم بالمقام مع « عبد الملك » وشد ركنه ، فسكنت الدهماء عليه .

ومضى « عبد العزيز » أبوه ، غير فقيد المكان ، ولا عديم الشأن ، ولا مبلك لسائيه وأرضه ، ما فجع به إلا ذو رحمه من آل أبى عامر ، لناهيه فى صلتهم ، حتى صار إسرافه فى ذلك ، من أضر الأشياء لجنده ، وأجلبها لدمه ، له فى ذلك أخبار مأثورة ، وتوفى وهو أطول أمراء الأندلس ، مدة إمارة ، وتملكها أربعين حجة ، فسبحان المفرد بالبقاء ، الأول قبل الأستياء .

إلى هذا الجيش ماداموا يشدون أزره ويقومون بنصرته بكل أمانة .

\*\*\*

ولكن « القادر » لم يكن من السذاجة بحيث يثق بهذه الوعود ، وهو يعلم أنهم يمقتونه ويبغضونه ، وأن الأحزاب القديمة لم تنس بعد أمانيا . ولهذا عول على إبقاء الجيش القشتالى ، ولكى يقوم بتوفير نفقات هذا الجيش أثقل كاهل المدينة ، والقسم الذى تقع فيه بضريبة فوق العادة ، وأخذ من النبلاء والعطاء مبالغ طائلة ، وعلى الرغم من أعمال الاضطهاد والإرهاق الفظيعة جاءه قائد الجيش القشتالى ، وطالبه -تحت تأثير ضغط شديد- أن يعطيه المتأخر من أعطيات الجند ، ولم يكن فى استطاعته أن يقوم بتحقيق هذا الطلب ، فاقترح حينئذ أن يظل القشتاليون مقيمين داخل حدود المملكة فى بسيط من الأرض يقطعه لهم ، فقبلوا ذلك ، وأخذوا يزرعون ما أقطعه لهم من هذه الأراضى الواسعة بواسطة العبيد ، ثم دأبوا بعد ذلك على الغارة على البلاد المجاورة ، واكتفوا بالغزو والسلب عن الزراعة واستنابت الأرض . وازداد عدد جنودهم بمن انضم إليهم من شذاذ العرب وحثالهم ، وعين انضوى تحت لوأئهم من جماعات الأرقاء والفسدة ، ومعتادى الإجرام ، وارتد الكثير منهم عن دينه ، واعتنقوا الدين المسيحى . ولم يمس على هذه العصابات وقت طويل حتى اشتهرت بالفضاعة والقسوة شهرة تبعث على الأسف والحزن ، فمن فظاعة هذه العصابات

أنهم كانوا يقتلون الرجال ، ويعتدون على أعراض النساء ، وكثيراً ما كانوا يبيعون الأسير المسلم برغيف من الخبز ، أو بجرعة من النبيذ ، أو بشواء من السمك ، وكانوا يمشون بالأسير الذي لا يستطيع أن يفتدى نفسه بالمال تمثيلاً لفظياً فربما سلوا لسانه أو سملوا عينيه ، أو أطلقوا عليه الكلاب الضارية فمزقت جسمه .

وكانت « بلنسية » في الحقيقة تحت سلطان ونفوذ « الأذفونش » ولم يكن « للقادر » سوى أن يحمل لقب ملك ، مع أن قسماً كبيراً من أرض المملكة كان ملكاً للقشتاليين ، وكان ضم هذه المملكة إلى ممالكه رهن كلمة واحدة ينطق بها فيه .

ويظهر أن « سرقسطة » أيضاً أصبحت على شفا التسليم ، فإن الإمبراطور حاصر هذه المدينة وأقسم ليستولين عليها .

وكان في الطرف الآخر من « أسبانيا » قائد من قواد « الأذفونش » اسمه « غرسية » مقيم في حصن لا يبعد كثيراً عن « لورقة » وهو يواصل غاراته على مملكة « المرية » ولم يغفل غزو « غرناطة » أيضاً ، بدليل زحف عسكر القشتاليين في ربيع عام ( ١٠٨٥ ) حتى أصبحوا على بعد ميل من شرقي « غرناطة » وقد أجروا معارك مع المسلمين هناك

وأيا كان ذلك فإن الخطر كان عظيماً ، والبلاء كان محيقاً ، والقوة

المنوية عند المسلمين كانت تلاشت وذهبت ، ولا يمكن أن يتكافأوا مع المسيحيين حتى ولا بنسبة خمسة من المسلمين إلى واحد منهم ، ومن أمثلة ذلك أن كثية من عسكر « المرية » مؤلفة من أربعائة جندى من صفوة الجند ، ولوا الأذبار أمام ثمانين جنديا من جنود القشتاليين .

ومما لا ريب فيه أن عرب أسبانيا لو تركوا وشأنهم - مع ما وصلوا إليه من التفكك والضعف - لدار أمرهم بين أن يختاروا أحد أمرين : إما الخضوع للإمبراطور خضوعا يفقدون به كل شيء ، وإما الهجرة من البلاد طوائف وجماعات ، وكان رأى السائد فى الواقع الهجرة من البلاد فراراً بالشرف والعرض والدين ، وقد حرص على ذلك كثير من شعرائهم ونظموا القصائد فى حض الناس على مغادرة البلاد وتحذيرهم أخطار البقاء ، وما يعرضهم له من الهلاك الذى لا يرضاه انفسه عاقل حصيف .

وكانت الهجرة هى آخر حيلة يلجأون إليها بعد أن سُدَّتْ فى وجوههم أبواب الحيل .

على أن يأسهم هذا لم يكن ثمة داع إليه ، فقد كان هناك بصيص من نور الأمل فى الخلاص من ظلمة الخيبة والفشل ، وكشف هذه

الغمة الخالكة ، وكان في وسعهم أن يلتمسوا النجدة والغوث من « إفريقيا » ، وقد فكروا في ذلك ، ورأوا فيه الأمل الوحيد الباقي لتجاتهم على يد أولئك البواسل الشجعان ذوى الطباع السليمة والعزائم القوية التي لم يفسدها الخور والهوان .

على أنهم لم يكادوا يسمعون هذا الاقتراح حتى عارضوه ، وخشوا عواقبه الوخيمة ، لأنهم كانوا يعرفون من وحشية أولئك العرب ما ينسبهم بسالتهم وشجاعتهم ، وقد خشوا أن يلجأوا إلى سلب أموالهم ونهب دورهم قبل أن يفكروا في مناوأة المسيحيين وقتالهم .

وثمة عدلوا عن إنفاذ هذا الرأي الخاطئ ، واتجه أمهم ورجاؤهم إلى المرابطين ، وهم جماعة من بربر الصحراء الذين قاموا بتمثيل أول دور على مسرح هذه البلاد .

وقد كان أولئك المرابطون حديثي العهد بالإسلام ، وقد بث فيهم الدعوة إلى هذا الدين الجديد أحدهدعاة الإسلام وهو من « سجلماسة » قدانواله وتحمسوا معه ، ووهبوا نفوسهم لطاعته ، وأقبلوا على الجهاد فتمت لهم الفتوحات في أسرع وقت ، وأصبح ملكهم الفسيح ، في هذا العصر الذي تحدث عنه يتراعى من « السنغال » إلى بلاد الجزائر .

وكانت فكرة استدعائهم إلى « إسبانيا » تفتقر عن ثغور البشر

لأسياء لرجال الدين، أما الملوك والأمراء فكانوا على عكس ذلك ، فقد ترددوا في هذا الأمر طويلا ، على أن القليل منهم مثل « المعتمد » و « المتوكل » كانا قد دخلا في مكاتبات وعلاقات مع « يوسف بن تاشفين » ملك المرابطين ، ورجوا غير مرة أن يساعدهما على مذوأة المسيحيين ، على أن ملوك الأندلس بلا استثناء ، وفي ضمنهم « المعتمد » و « المتوكل » كانوا قليلي الميل إلى دخول هؤلاء القساة القتلة المتعصبين من سكان الصحراء جزيرتهم ، وكانوا يرون في ( ابن تاشفين ) منافسا خطيرا ، أكثر منه عونًا وظهيراً .

وأصبح خطر النصرانية يتفاقم ويزايد يوما عن يوم ، وصار استدعاء المرابطين والاتجاء إلى هذه الوسيلة الوحيدة لدرء هذا الخطر المحدق بالجزيرة أمراً لا مناص منه ، ولا معدى عنه ، قال « المعتمد » إلى هذا الرأي ، وذهب إليه ، بالرغم من أن ابنه « الراشد » أبان له ماهو مستهدف له من الخطر إذاهم شركوه في بلاده وظاهروه على عدوه ، فأراه أنه لا يجهل هذه الحقيقة ، وقال له : أنا بقطع النظر عن أى أمر آخر لا أريد أن تهمنى الأجيال المقبلة بأنى تركت الأندلس غنيمة في أيدي الكفار ، ولا أحب أن يلعن اسمى على منابر المسلمين ، ولو ترك لي الخيار لا ثرت من كل قلبي أن أكون جلالاً في بلاد

« افريقية » على أن أكون راعي خنازير في قشتالة<sup>(١)</sup> .

(١) عبارة «المعتمد» في النص العربي هي : « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » . وقد جاء في كتاب آخر ملوك بنى سراج وقد بدأه بتلخيص ما رواه صاحب كتاب «الروض المعطار» ثم عقب عليه بكلام من عنده فقال :

تأخر «المعتمد» في دفع الضريبة لاشتغاله بغزو «ابن صمادح» صاحب «المرية» فلما أرسلها ، استشاط «الأذفونش» غضبا ، وأرسل يطلب منه ، بعض الحصون ، وأمعن في التجنى ، وسأل في دخول امرأته الحامل ، جامع «قرطبة» لتلد فيه حسب إشارة القيسيين والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم ، وأن تنزل في قصر «الزهراء» غربي مدينة «قرطبة» و «الزهراء» ، هذه هي التي بناها «الناصر لدين الله» وأمعن في بنائها ، وجلب اليها الرخام الملون ، والمرمر الصافي ، والحوض المسهور الخ ذلك لتلد الأذفونشة بين نسيم الزهراء ، وفضيلة الكنيسة من الجامع المذكور ، وكان صاحب هذه السفارة يهوديا هو وزير «الأذفونش» فأبى «ابن عباد» لإجابة التماسه ، فراجعوه وألح عليه حتى أياسه بما غلظ له من القول . فضربه «المعتمد» بمعبرة كانت بين يديه فأنزل دماغه في حلقه ، وأمر به ، فصلب منكوسا بقرطبة ، واستفى في جواز الفعلة الفقهاء ، فبادر «محمد ابن الطلاع» الفقيه بالفتيا بجواز ذلك لتعدى الرسول حدود الرسالة ، واحتج بأنه إنما يادر بذلك خوفا من أن يكسل «المعتمد» عن متابذة العدو ، وبلغ الخبر «الأذفونش» فأقسم بالهتة ليغزونه بإشبيلية ، وليحصرنه في عقر داره ، وجرد له جيشين أحدهما زحف إلى «كورة باجه قلبة» لإشبيلية ، والثاني تولى قيادته بنفسه ، حتى التقى الجيشان تحت لوائه قبالة قصر ابن عباد على شفة النهر الأعظم وفي أيام مقامه هناك ، كتب الى ابن عباد زاريا «كثر بطول مقامى في مجلسي الذباب ، واشتد على الحر ، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسى ، وأطرد بها الذباب عن وجهي» فوقم له «ابن عباد» بخطه في ظهر الرقعة «قرأت كتابك ، وفهمت



ولما أبرم خطته أفضى بها إلى جاريه « المتوكل » ملك « بَطْلَيْوَس »

خيلاءك ، وإعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللطية ، تروح منك .  
لاتروح عليك إن شاء الله تعالى . » .

وشاع توقيع «ابن عباد» وفشا في الناس عزمه على استنفار البربر لمجاهدة العدو ، فلما علم بذلك أقرانه ملوك الطوائف ، اهتموا وتشاوروا للأمر ، ومنهم من كاتبه ، ومنهم من شافيه ، قائلين : إن الملك عقيم ، والسيقان لا يجتمعان في حمد واحد . فأجابه «ابن عباد» بكلمته السائرة : «رعى الجمال خير من رعى الخنازير . » أى أن يكون مأكولا ليوسف بن تاشفين ، يرعى جماله في الصحراء ، خير من كونه ممزقا للأذفونش أسيرا عنده يرعى خنازيره في « قشتالة » وقال لعذاله قولاً آخر : « يا قوم إني من أمرى على حالين » حالة يقين ، وحالة شك ، ولا بد لي من إحداها ، فأما حالة الشك ، فإني إن استندت إلى «الأذفونش» أو إلى «ابن تاشفين» فمن الممكن أن يبق لي ، ويمكن أن لا يفعل ، وأما حالة اليقين ، فإني إن استندت إلى «ابن تاشفين» أرضى الله ، وإن استندت إلى «الأذفونش» اسخطت الله ، وهذه حالة يقين ، فلماذا أدع ما يرضى الله إلى ما يسيخطه . »

\*\*\*

ولما عزم «المعتمد» على الاستجاشة ، أمر كلا من «المتوكل بن الأفطس» صاحب «بطلْيوس» وعبدالله بن حبوس صاحب «غرناطة» أن يوفد كل منهما قاضى الجماعة بحضرته ، واستحضر قاضى الجماعة بقرطبة «أبا بكر عبيد الله بن آدم» وكان أعقل أهل زمانه ، فلما اجتمع عنده القضاة بإشبيلية ، أضاف إليهم وزيره «أبا بكر بن زيدون» وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ «ابن تاشفين» وترغيبه في الجهاد . وأسند إلى وزيره «ابن زيدون» مالا بد منه في تلك السفارة من أبرام العقود السلطانية «وقد وفى يوسف بالأولى ولم يف بالثانية» .

وكان «ابن تاشفين» منذ اعتراء الضعف دول الأندلس ، لم تزل تغد عليه وفود المسلمين من وراء البحر ، مستعطفين مجبشين بالبكاء . فهاوفدت رسل «ابن عباد»

و « عبد الله » ملك غرناطة ورجاها أن يشرّكاه في إيفاد هذا

حتى أسرع الإجابة . وحشد الساكر ، وأتزلها بالجزيرة الخضراء ، وأجاز على أثرها ، وامتلات الجزيرة بالمجاهدين والمتطوعة . وعلى رواية « ابن خلكان » أنه أمر بعبور الجبال ، فعب منها ما أغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جلاقط ولا خيلهم ، فصارت الخيل تجمع من رؤية الجبال ، ومن رغاؤها . وكان ليوسف في عبور الجبال رأى مصيب ، فكان يحدق بها عسكريه عند الحرب ، وكانت خيل الفرنج تجمع منها .

\*\*\*

ولما نزل « يوسف » بحشوده في الجزيرة ، وبلغ « الأذفونش » تألب أمراء المسلمين لمناهضته ، استنفر جميع أهل بلاده ، وما يليها وما وراءها ، ورفع الفيسون والأساقفة صلبانهم ، واجتمع له من الإفرنجية والجلالة ما لا يحصى عدده . وبعث « الأذفونش » إلى « ابن عباد » : « ان صاحبكم « يوسف » تجنم المقة ، وخاض البحار ، واما أكفيه العناء فيما بقى ، وألقاكم في بلادكم رفقا بكم » وكان مقصده في الدلوف إلى ديار المسلمين أنه إن دارت عليه الدائرة ، كان له من ورائه من معاقله ومداثنه معصم ، وإن كانت عليهم ، كان أقدر على النكاية فيهم في عقرتهم .

وما قيل إنه كتب إلى « يوسف » كتابا أنشأ له بعض غزاة المسلمين ، يفظ له في القول ، وينوعده ، فأمر « ابن تاسفين » ولم يكن أعام بالعربية من « الأذفونش » كاتبه « أبا بكر بن القصيرة » أن يجاوبه ، وكان كاتبها مجيدا ، فكتب وأجاد ، فلما قرأه « يوسف » استظاله ، وأخذ كتاب « الأذفونش » وكتب على ظهره : « الذى يكون ستره » وأخذ « المعتمد » وأمراء الأندلس يجلبون لجيوش المرابطين الأقوات والضيافات .

ولما قرب أمير المسلمين من « إشبيلية » خرج « ابن عباد » للفائه في وجوه أصحابه ، وعند ما تلاقيا ، تصافحا وتعافقا ، ثم شكرا أنعم الله ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وتوسلا إلى الله أن يجعل سعيهما خالصا لوجهه . ووافت الجيوش كلها « بطايوس »

الاقتراح وطلب منها أن يرسل قاضيهما إلى « إشبيلية » فأوفد

وجاءهم الخبر بزحف الطاغية ، ولما تدانى الفريقان ، أذكى « المعتمد » عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من المكائد لجهلهم المكان ، وكان « يوسف » قد كتب إلى « الأذفونش » يدعوهم إلى إحدى الثلاث وهي الإسلام أو الجزية أو السيف ، كماله السنة . فامتلاً « الأذفونش » غيظاً ، وقامت الأساقفة ورفعوا صلبيهم ، وتبايعوا على الموت ، وقام الفقهاء من الجهة المقابلة ، ووعظوا وحضوا على الصبر والثبات ، وصعدوا بمقارع الكتاب ، وأصبح يوم الخميس ، فبعث « الأذفونش » إلى « ابن عباد » يقول له :

« غدا يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، والأحد عيدنا ، فليكن لقاءنا بينهما وهو يوم السبت » .

فأعلم « ابن عباد » السلطان « يوسف » بذلك وأنها خديعة ليفتك بالمسلمين يوم الجمعة ، فانتبه الجيش الإسلامي طول ليلة الجمعة ، واستيقظ الفقيه الناسك « أبو العباس أحمد ابن رميلة القرطبي » فرحاً مسروراً يقول : إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة في النوم ، فبشره بالفتح والشهادة ، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه بالطيب . واتفق ذلك إلى « ابن عباد » فبعث إلى « يوسف » يخبره .

وجاء في الليل فارسان من طلائع « المعتمد » يخبران أنهما أشرفا على محلة « الأذفونش » وسما ضوضاء الجيوش ، وصيليل الأسنة ، وجاءت العيون من داخل محلتهم ، يقولون : قد استرقنا السمع فسمعنا الطاغية يقول لأصحابه : ابن عباد مسر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون - وإن كانوا ذوي حفاظ وبصائر في الحرب - فهم جاهلون البلاد ، فاقصدوا ابن عباد ، وأصدقوه المحلة ، فإن انكشف لكم ، هان عليكم الصحراويون .

فأرسل « ابن عباد » يعرف أمير المسلمين ، وقبل ورود الجواب غشيتة جنود « الأذفونش » من كل جهة ، وهاجت الحرب ، وحمى الوطيس ، وتبايع الناس على الموت ، وصبر « المعتمد » صبراً لم يسهل مثله لأحد ، واستطاع « يوسف » في النجدة ، وانكشف بعض أصحابه ، وأخذ جراحات ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس .

« المتوكل » قاضى « بطليوس » أبا اسحق بن مقانا ، وأوفد « عبدالله »<sup>(١)</sup>

وبينا هو على تلك الحال ، أقبل عليه — من قواد المرابطين — داود بن عائشة ، وكان من الأبطال ، نفث عن خناقه ، وأقبل « يوسف » بمجموعه ، وأصوات طبلوله قدماءت القضاء ، فنهذ إليه « أذفونش » بمعظم جيشه ، فصد بهم « ابن تاشفين » بجنده ، فردم إلى مراكزهم ، وانتظم — يوسف — شمل « ابن عباد » وحملوا جميعاً حملة الرجل الواحد ، فزلزت الأرض بحوافر خيالمهم ، وأظلم الجو من العثير ، وتراجع المنكشفون من أصحاب « ابن عباد » وتجددت الحملة ، فانكشف « الأذفونش » وقيل : بل تصادم الجمعان ، وتناوبا الكر والفر ، الى أن أمر « يوسف » حشمه من السودان ، فترجل منهم نحو أربعة آلاف بدرق المعط ، وسيوف الهند ، ومزاريق الزان . وأدرك « الأذفونش » أسود لصق به ، وقبض على عنانه ، وانتضى خنجرا أثبتته في فخذيه ، فهتك حلق درعه ، وهبت ريح النصر ، وأنزل الله السكينة على المسلمين ، وانكشف العدو من كل جانب ، وقذفوا فيه القتل والأسر ، واعتصم « الأذفونش » — بخمسمائة فارس من قومه — بربوة عالية انسابوا منها بعد تخميم الظلام ، وقد أباد القتل من الأسبانيول أمة ، وجعل المسلمون من رؤوسهم ما ذن يؤذنون عليها ، واستشهد في ذلك اليوم « ابن رميلة » كما بصره النبي صلى الله عليه وسلم ، وقاضى مراکش أبو مروان عبد الملك المصمودى ، وغيرهما من الأعيان .

وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام ، حتى جمعت الغنائم ، فتعفف عنها أمير المسلمين ، لإثارة لأهل الأندلس ، وعادوا جميعا الى « إشبيلية » وحضرت الكتب من بر العدو إلى ابن تاشفين ، تقضى عزمه بالرجوع ، فمير البحر وودعه « المعتد » . وهذه وقعة « الزلاقة » الشهيرة من أشهر ماحلته التواريخ من الوقائع بين الإسلام والصراية .

(١) توفي « باديس » عام ١٠٨٣ م ، فقسمت مملكته بعد وفاته بين حفيديه « عبدالله » و « تميم » فكان نصيب الأول « غرناطة » والثانى « مالقة »

« دوزى »

قاضى « غرناطة » أبا جعفر ، وانضم إليهما « ابن أدهم » وانضم إلى هؤلاء جميعاً الوزير « أبو بكر بن زيدون » .

وأبحر هؤلاء جميعاً إلى بر العدو ، وذهبوا لمفاوضة « يوسف » ودعوته على لسان ملوكهم للعبور إلى « أسبانيا » على رأس جيش ، وكان عليهم أن يعرضوا عليه شروطاً ، ويقطعوا عليه بذلك عهداً ، إلا أن ذلك بقى عندنا مجهولاً ، كما كان واجباً أن يعين المكان الذى سينزل فيه « يوسف » من البحر ، فاقترح « أبو بكر » أن يكون المكان الذى ينزل فيه بعسكره جبل طارق ، وآثر « يوسف » أن يكون نزوله فى الجزيرة الخضراء بعد أن يتخلى له عنها ، ولم يرق فى نظر وزير « المعتمد » هذا الطالب ، الذى لم يكن مخولاً إليه حق الاتفاق عليه ، وعلى أثر ذلك كان « يوسف » يعامل أولئك السفراء بفتور ، فكان يراوغهم ويحببهم أجوبة مبهمه ، ولذا عادوا إلى بلادهم وهم يجهلون تحديد المسائل التى وقع عليها الاتفاق ، واستقر عليها رأى ، فهو لم يقطع عهداً بالاتفاق على دخول أسبانيا ، كما أنه لم يصرح بعدم الدخول .

وكذلك صار ملوك الأندلس يشكون فى نواياه ، ويرتابون فى مقاصده ، وقد خرجوا من هذا المشكل بحالة تستنكرها دولهم ، وتستنكفها

رعايهم ، على أن ارتياهم في الأمر كان قائماً على أساس (١) .

(١) يوسف بن تاشفين والمعتمد

جاء في كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي ما يأتي :

« ولما كانت سنة ٤٧٩ هـ جاز « المعتمد على الله » البحر ، قاصدا مدينة مراکش الى « يوسف بن تاشفين » مستنصرا به على الروم » فلقبه « يوسف » المذكور أحسن لقاء ، وأنزله أكرم نزل ، وسأله عن حاجته ، فذكر أنه يريد غزو الروم ، وأنه يريد إمداد أمير المسلمين بإياه ، يخيل ورجل ليستعين بهم في حربه ، فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته الى مادعاه إليه ، وقال له : وأنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى . »

فرجع « المعتمد » الى الأندلس مسرورا بإسعاف أمير المسلمين بإياه في طلبته ، ولم يسر أن تدميره في تدييره ، وسل سيفاً يحسبه له ، ولم يدبر أنه عليه ، فكان كما قال « أبو فراس » :

« إذا كان غير الله للمرء عدة      أته الرزايا من وجوه القوائد  
كما جرت الحنفاء حتف حذيفة      وكان يراها عدة للشدائد »

فأخذ أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » في أهبة العبور ، الى جزيرة الأندلس وذلك في شهر جمادى الاولى من السنة المذكورة ، فاستنفر من قدر على استنفره من القواد ، وأعيان الجند ، ووجوه قبائل البربر ، فاجتمع له نحو سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرجل ، فعبر البحر بهسكراً ضخماً ، وكان عبوره من مدينة « ستة » فتزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وتلقاه « المعتمد » في وجوه أهل وطنه ، وأظهر من بره وإكرامه ، فوق ما كان يظنه أمير المسلمين ، وقدم إليه من الهدايا والتحف ، والنخائر الملوكية ما لم يظنه « يوسف » عند ملك .

فكان هذا أول ما أوقع في نفس « يوسف » التشوف الى مملكة جزيرة الأندلس ، ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصدا شرق الأندلس ، وسأله « المعتمد » دخول « لإشبيلية » دار ملكه ليستريح فيها أياماً ، حتى تزول عنه وعثاء

وكان من عادة «يوسف» ألا يقدم على عمل إلا بعد مشورة الفقهاء ورجال الدين، فاستشارهم فيما يجب عمله ، فأشاروا عليه أن يبدأ أولاً بقتال القشتاليين ، وإن كان يعوزه في هذا السبيل أن يخلوا له الجزيرة الخضراء ، وإن أبوا أن يخلوها له كان له الحق في أخذها ، ولما تزود للأمر بهذه الفتوى أمر عدة من جيوشه بالإبحار من مدينة « سبتة » على بعض السفن ، والعبور إلى الجزيرة وأن تكون مكثفة بجيش كثيف

السفر ، ثم يقصد قصده . فأبى عليه وقال :

« إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيث ما كان العدو توجهت وجهه »  
وكان « الأذفونش » محاصر الحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن « الليط » . فلما بلغه عبور البربر ، أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده ، مستنقراً عساكره ، ليلقي بهم البربر . وتوجه « يوسف » المذكور إلى شرق الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر ، والإصلاح بين « المعتمد على الله » وبين رجل كان تغلب على « مرسية » يقال له « ابن رشيق » قد تقدم ذكره في أخبار « ابن عمار » . فأصلح بينهما « يوسف » أمير المسلمين ، على أن يخرج له « ابن رشيق » عن « مرسية » ويعوضه « المعتمد » عن ذلك ما لا جعله له ، ويوليّه في جهة « إشبيلية » أضخم ولاية ، فأجاب « ابن رشيق » إلى ذلك . وتسلم « المعتمد » « مرسية » وأعمالها ، ولقى « يوسف » أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقه ، كصاحب « غرناطة » و « المعتصم ابن صمادح صاحب « المرية » و « ابن عبد العزيز أبو بكر » صاحب « بلنسية » ثم إن « يوسف » المذكور استعرض جنده على حصن « الرقة » فرأى منهم ما يسره ، فقال للمعتمد على الله :

من جنوده ، ورسم أن تقدم المؤن وما يحتاج إليه الجيش من نفس المدينة ، وكان « الراضى » حاكما على الجزيرة ، فوقع في حيرة وارتباك لا قبل له باحتمالها ، لأن الحالة التي تواجهه الآن لم يكن يتوقعها ، ولم يتمتع من تقديم ما يحتاجه جيش المرابطين من المؤن ، ولكنه كان على استعداد لدفاع القوة بالقوة متى دعت الحال لذلك .

وعدا ذلك فقد كتب إلى والده رسالة ربطها في جناح حمامة ،

---

« هلم لاجئنا له من الجهاد ، وقصد العدو . »

وجعل يظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ، وبتشوق إلى مراكش ، ويصغر قدرا الأندلس ، ويقول في أكثر أوقاته : « كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها ، فلما رأيناها ، وقعت دون الوصف . »

وهو في ذلك كله يسر حسوا في ارتفاع ، فخرج « المعتمد » بين يديه قاصدا مدينة « طليطلة » واجتمع للمعتمد أيضا جيش ضخم من أقطار الأندلس ، وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات ، وأمد ملوك الجزيرة « يوسف » و « المعتمد » بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح ، فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرزقة ، زهاء عشرين ألفا ، والتقوا هم والعدو بأول بلاد الروم ، وكان « الأذفتش » — لعنه الله قد استنفر الصغير والكبير ، ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنفضه ، وجاء يحرق الشوك والشجر . ولما كان مقصوده الأعظم ، قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الأندلس ، والتهيب عليهم .

فأما ملوك الأندلس ، فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الإتاوة . وهم كانوا أحقر في عينه ، وأقل من أن يحتفل بهم .

ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى ، رأى « يوسف » وأصحابه أمرا عظيما هالهم من كثرة عدد وجودة سلاح وخيل ، وظهور قوة ، فقال للمعتمد .



وأطلقها صوب « إشبيلية » وتربص ريثما يتلقى منه الأوامر ، فورد إليه جواب أليه على جناح السرعة ، وقد بت في الأمر بلا تردد ولا إهمال ، ورأى أنه مهما يكن مسلك « يوسف » جافا ومثبرا ، فإنه يشعر بأنه قد أمعن في المضي ، حتى لا يستطيع أن ينكص على عقبيه ، ولم يبق إلا أن تقابل هذه اللعبة السيئة الجريئة بمظاهر الارتياح والاطمئنان ، وما هو إلا أن أصدر في الحال أمره إلى ولده بإخلاء الجزيرة والانسحاب إلى « زُدة »

---

« ما كنت أظن هذا الخنزير — لعنه الله — يبلغ هذا الحد . »  
وجمع « يوسف » أصحابه ، وندب لهم من يعظمهم ويذكرهم ، فظهر منهم من صدق النية ، والحرص على الجهاد واستسبال الشهادة ما سر به « يوسف » والمسلمون ، وكان ترائيهم يوم الخميس وهو الثاني عشر من رمضان ، فاختلفت الرسل بينهم في تقرير يوم الزحف ليستعد الفريقان ، فكان من قول « الأذفونش » — لعنه الله — :  
« الجمعة لكم ، والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكتابنا ، وأكثر خدم العسكر منهم ، فلا غنى بنا عنهم ، والأحد لنا ، فاذا كان يوم الاثنين ، كان مانريده من الزحف . »

وقصد — لعنه الله — مخادعة المسلمين ، واغتيالهم ، فلم يتم له ما قصد . فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ، ولا أمانة عندهم للقتال ، وبني « يوسف بن ناشفين » الأمر ، على أن الملوك لا تغدر ، فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة ، فأما « المعتمد » فإنه أخذ بالحزم ، فركب هو وأصحابه شاكي السلاح ، وقال لأمر المسلمين :  
« صل في أصحابك ، فهذا يوم ماتطيب نفسى فيه ، وهأتانا من ورائكم ، وما أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفك بالمسلمين . » فأخذ « يوسف » وأصحابه في

وتلاحقت الجنود بالجزيرة ، ووصلها « يوسف » نفسه أخيراً ، فعنى أولاً بتحصين المدينة حتى صارت في حالة حسنة ، وزودها بالموثن والذخائر ، وترك فيها حامية كافية ، ثم سار في معظم جيوشه إلى «إشبيلية» وجاء «المعتمد» لاستقباله تحف به أعظم رجال مملكته ، ولما تلاقيا ، هم «المعتمد» أن يقبل يده فأبى وتعاثا عناقا تجلت فيه كل عواطف الإخلاص والحب والسرور ، بقاء العدو المشترك ، ولم يفعل «المعتمد»

الصلاة . فلما قعدوا الركعة الأولى ، ثارت في وجوههم الحيل من جهة النصاري ، وحل «الأذفونش» — لعنه الله — في أصحابه ، يظن أنه قد انتهر الفرصة ، وإذا «المعتمد» وأصحابه من وراء الناس ، فأغنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لأحد من قبله ، وأخذ المرابطون سلاحهم ، فاستووا على متون الحيل ، واختلط الفريقان ، فأظهر «يوسف بن تاشفين» وأصحابه من السبر ، وحسن البلاء ، والثبات ، ما لم يكن يحسبه «المعتمد» وهزم الله العدو ، واتبعهم المسلمون يتعقبونهم في كل وجه ونجا «الأذفونش» — لعنه الله — في تسعة من أصحابه ، فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس ، أعز الله فيه دينه ، وأعلى كلمته ، وقطم طمع «الأذفونش» — لعنه الله — عن الجزيرة ، بعد أن كان يقدر أنها في ملكه ، وأن رءوسها خدم له ، وذلك كله بحسن نية أمير الساميين ، وتسمى هذه الواقعة عندم وقعة «الزلاقة» .

وكان لقاء المسلمين عدوهم — كما ذكرنا — في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن في سنة ٤٨٠ هـ .

ورجع «يوسف بن تاشفين» وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحا لهم وبيهم ، فسر بهم أهل الأندلس ، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به ، وكثر الدعاء له في المساجد ، وعلى المنابر وانتشر له من النناء — بجزيرة الأندلس —

العادات الملكية المتبعة في مثل هذه الظروف من تقديم هدايا فاخرة تليق بمقام ضيفه الكريم ورجال دولته ، وقد قبلها شاكرًا مغتبطًا ، ووزعها على جنوده المرابطين ، ولم يخامرهم شك على أثر ما قدم إليه من سنى الهدايا أن « إسبانيا » في الذروة ، من تزايد الغنى ، ووفور الثروة فوقف الملكان على مقربة من « إشبيلية » وقد وافاها هناك ابنا « باديس » « عبد الله » ملك « غرناطة » و « تميم » ملك « مالقة »

مازاده طمعا فيها ، وذلك أن الأندلس ، كانت قبله بصدد التلايف من استيلاء النصارى عليها ، وأخذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة .

فلما قهر الله العدو ، وهزمه على يد أمير المسلمين ، أظهر الناس إعظامه ، ونشأ له الود في الصدور ، ثم إنه أحب أن يجول في الأندلس على طريق التفرج والنزه ، وهو يريد غير ذلك ، فجال فيها ، ونال من ذلك ما أحب ، وفي خلال ذلك كله ، يظهر إعظام « المعتمد » وإجلاله ، ويقول مصرحا :

« إنما نحن في ضيافة هذا الرجل ، وتحت أمره ، وواقفون عندما يعده . »

وكان ممن اختص بأمر المسلمين من ملوك الجزيرة ، وحظى عنده ، واشتد تهريب أمير المسلمين له « أبو يحيى محمد بن معن بن صامح المعتمد » صاحب « المرية » . وكان « المعتمد » هذا قديم الحسد للمعتمد ، كثير النفاسة عليه ، لم يكن في ملوك الجزيرة من يناوئه غيره ، وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قبيحة . وكان « المعتمد » يعيبه في مجالسه وينال منه ، ويعن « المعتمد » من فعل مثل ذلك مروءته ، ونزاهة نفسه ، وظهره سريرته ، وشدة ملوكيته ، وقد كان « المعتمد » - قبل عهده - أمير المسلمين ييسر - توجه إلى شرقي الأندلس يتطوف على مملكته ، ويطلع أحوال عماله ورعيته .

فلما داني أول بلاد « المعتمد » خرج إليه في وجوه أصحابه ، وتلقاه لغاء نبلاء ،

وانضما إلى المرابطين ، وكان مع الأول ثلثمائة فارس ، ومع ثانيهما مائتان ، وأرسل « المعتصم » ملك « المرية » كتبية من الفرسان ، واعتذر عن مجيئه بنفسه لمجاورة نصارى البدولة ، وبعد مضي ثمانية أيام زحف الجيش عن طريق « بطليوس » حيث التقى « بالمتوكل » وجيوشه ، ثم زحفوا إلى « طليطلة » ولم يتقدموا قليلاً إلا وقد فاجأهم العدو وكان « الأذفونش » لا يزال محاصراً « سرقسطة » في ذلك

وعزم عليه ليدخلن بلاده ، فأبى « المعتد » ذلك ، ثم اتفقا بعد طول مراودة ، على أن يجتمعا في أول حدود بلاد « المعتصم » وآخر حدود بلاد « المعتد » فكان ذلك واصطلحا — في الظاهر — واحتفل « المعتصم » في إكرامه ، وأظهر من الآلات السلطانية ، والذخائر الملوكية المعدة للحبالس الأئس ، ما ظنه مكشفاً للمعتد ، منيرا لغمه ، وقد أعاد الله « المعتد » من ذلك ، وصان خلقه الكريم عنه ، وعصمه بفضله منه ، ثم افترقا بعد أن أقام « المعتد » عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع ، ورجع « المعتد » إلى بلاده ، وبأثر ذلك عبر إلى « مراکش » . ولم يزل ما بينه وبين « المعتصم » معبورا ، إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا ، فلقبه « المعتصم » بهدايا فاخرة ، وتحف جليلة ، وتلطف في خدمته ، حتى قربه أمير المسلمين أشد تقرب ، وكان يقول لأصحابه : هذان رجلا الجزيرة . يعنى « المعتد » و « المعتصم » . وكان أكبر أسباب تقرب أمير المسلمين إياه ، نناء « المعتد » عليه عند أمير المسلمين ، ووصفه إياه عنده بكل فضل .

ولم يكن « المعتصم » بعيداً من أكثر ما وصفه به ، ولما استند تمكن « المعتصم » من أمير المسلمين ، بداله أن يسعى في تغيير قلبه على « المعتد » وإفساد ما بينهما ، حسن له ذلك سوء رأيه ، ودنس سريره ، وضعف بصره بعواقب الأمور ، وليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، ولبيلغ القدر ميقاته ، وإذا أراد الله أمراً هباً له

الوقت الذى علم فيه بدخول المرابطين « إسبانيا » وقد خيل إليه أن ملك هذه المدينة المحاصرة يجهل حادث دخول المرابطين إلى هذه البلاد ، فبعث إليه يطلب منه أموالا كثيرة ليرفع عنه الحصار ، ولكن « المستعين » كان قد وقف على هذا النبأ العظيم مثله ، فلم يعطه درهماً واحداً .

ثم عاد « الأذفونش » إلى « طليطلة » بعد أن أرسل إلى « ايقارو »

أسبابا ، فصرع « المعتمد » فيما أراده من ذلك ، ولم يدرك أنه ساقط في البئر التى حفر ، وقتيل بالسلاح الذى شهر ، فكان من جملة ما ألقى إلى أمير المسلمين ، أن جعل يقرر عنده عجب « المعتمد » بنفسه ، وفرط كبره ، وأنه لا يرى أحدا كفوا له ، وزعم أنه قال له فى بعض الأيام ، وقد قال له « المعتمد » :  
« طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة — يعنى أمير المسلمين — ولو عوجت له أصبعي ، ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه ، وكأنك تخاف غائلته ، وأى شيء هذا المسكين وأصحابه ، إنعام قوم كانوا فى بلادهم فى جهد من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم إلى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارا ، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم » إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم ، وأعانه على ذلك قوم من وجوه الأندلس ، إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغير قلب « يوسف » أمير المسلمين على « المعتمد » .

وقد كان أمير المسلمين ضرب لنفسه ، ولأصحابه أجلا ، وحدله ولهم مدة يقيمونها فى الجزيرة لا يزيدون عليها ، وإنما فعل ذلك تطييبا لقلب « المعتمد » وتسكيناً لحاظره ، فلما انقضت تلك المدة ، أو قاربت ، عبر أمير المسلمين إلى العدو ، وقد بوغر صدره وتغيرت نفسه :

« وما النفس إلا نطفة فى قرارة إذا لم تذكر كان صفوا غديرها »

وإلى مساعديه الآخرين أن يجيئوا بجيوشهم لينضموا إلى جيشه ، ولما  
تجمعت وحدات الجيش الذي كان به كثير من الفرسان الفرنسيين  
زحف ، إذ كان يريد أن تدور رحى القتال في بلاد العدو ، والتقى  
بالمرابطين وحلفائهم في مكان لا يبعد عن « بطليوس » واقع بالقرب من  
مكان يعرف عند المسلمين « بالزلاقة » وعند المسيحيين باسم  
« سكر الياس »

---

هذا مع ما ذكرنا من طمعه في الجزيرة ، وتشوفه إلى مملكته ، وظهرت « للمعتمد »  
— قبل عبوره — أشياء عرف بها أنه غير عليه ، ورجع أمير المسلمين إلى « مراکش »  
وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، فباغى أنه قال لبعض ثقافته من وجوه أصحابه :  
« كنت أظن أني قد ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد ، صغرت في عيني  
مملكتي ، فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ »

فاتفق رأيهم ورأى أصحابه ، على أن يرأسوا « المعتمد » يستأذونه في رجال  
من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ، ومجاهدة العدو ، والكف  
بعض الحصون المصاوبة للروم ، إلى أن يموتوا ، ففعلوا ، وكتبوا إلى « المعتمد »  
بذلك ، فأذن لهم ، بعد أن وافقه على ذلك « ابن الأفطس المتوكل » صاحب  
الثغور ، وإنما أراد « يوسف » وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبشورين  
بالجزيرة في بلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم ، أو إظهار لمملكتهم ، وجدوا  
— في كل بلد لهم — أعوانا .

وقد كانت قلوب أهل الأندلس — كما ذكرنا — قد أشربت حب « يوسف »  
وأصحابه ، فجهز « يوسف » من خيار أصحابه رجالاً لتخبيهم ، وأمر عليهم رجالاً  
من قرابته يسمى « بلجين » وأسر إليه ما أراده ، فجاز « بلجين » المذكور ،  
وقصد « المعتمد » من ملوك الجزيرة ، فقال له :

ولم يكن قد انتهى من ضرب خيامه حتى وافاه كتاب من « يوسف » يدعوه فيه إلى أحد خصال ثلاث : إما الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب ، فاستاء جد الاستياء من هذا الكتاب ، وكلف أحد كتابه من العرب أن يرد عليه بكتاب يقول فيه : إني ما كنت أتوقع أن يصل الحد بالمسلمين الذين كانوا يعطونني الجزية منذ سنين مضت ، أن يعرضوا على مثل هذه الاقتراحات الجارحة ، ومع هذا فإن لدى

« أين تأمرني بالكون ؟ »

فوجه معه « المعتمد » من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم . فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على « المعتمد » وكان مبدؤها في شوال من سنة ٨٣٤ هـ بأخذ جزيرة « طريف » المقاتلة لطنجة من العدو ، دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك . فتشعبت جوعه ، وأهواؤها ملثمة ، وانتثرت بلاده ، وقلوب أهلها على محبته منتظمة . ولما أخذ المرابطون جزيرة « طريف » ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين ، انتشر ذلك في الأندلس ، وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم الكائنون في الحصون إلى « قرطبة » فحاصروها ، وفيها « عباد بن المعتمد » الملقب بالمأمون ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البيت ، وقتل « عباد » هذا بعد أن أبلى عذرا ، وأظهر في الدفاع عن نفسه جلدأً وصبراً ، وذلك في مستهل صفر الكائن في سنة ٨٤٤ هـ ، فزادت الإحنة والحنة ، واستمرت — في غلوائها — الفتنة ، وأجعت على الثورة بحضرة « إشبيلية » طائفة ، فأعلم « المعتمد » بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف له عن مرادها ، وأثبت عنده سوء اعتقادها ، وأغرى بتمزيق أديمها ، وسفك دمها ، وحض على هتك حرمتها ، وكشف حرمها ، فأبى له ذلك مجده الأصيل ، ورأيه الأصيل ، ومنهجه الجليل ، وما حباه الله من حسن اليقين ، وصحة العقل والدين ، إلى أن

جيشا في استطاعته أن يُنزل العقوبة على هذه الوقاحة البالغة من الأعداء .  
ولما وصل الكتاب اشتغل بالرد عليه أحد الكتاب الأندلسيين ،  
ولما سمعه « يوسف » رآه مطولا فاكتفى بأن يكتب في حاشية كتاب  
الإمبراطور هذه العبارة : « الذى يكون ستره »  
وبعث بهذا الرد إليه (\*)

ولم يبق بعد هذا الإلتحيد وقت المعركة ، وبذلك كانت تقضى

(\*) رد الخليفة « هارون الرشيد » مثل هذا الرد تقريبا على كتاب للإمبراطور  
« قففور »

---

أمكتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة ، فقاموا بجيش غير  
مستنصر ، واستنصروا بغاغا غير مستنصر ، فبرز هو من قصره سيفه بيده ، وغلالته  
ترف على جسده لادرقة له ولا درع عليه ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى  
« باب الفرج » فارسا من الداخلين ، مشهور النجدة ، شاكى السلاح ، فرماه  
الفارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغلالته ،  
وخرج من تحت إبطه ، وعصمه الله منه ودفعه - بفضلته - عنه ، وصب هو سيفه على  
عائق الفارس ، فشقه إلى أضلاعه ، فخر صريحا . واتهمت تلك الجموع ، ونزل  
المتسمنون للأسوار عنها ، وظن أهل « إشبيلية » أن الحناق قد تنفس .

فلما كان عصر ذلك اليوم . عاودهم القوم . فظهر على البلد من واديه . وبش  
من سكنى ناديه . وبلغ فيه الأمل حأسده وشانيه . وشبت النار فى شوانيه .  
فأقطع عندها العمل والقول . وذهبت القوة من أيدي أهلها والحول . وكان  
الذى ظهر عليها من جهة البر رجل يعرف بالقائد « أبى حمادة » مولى « بى  
سجوت » والتوت الحال أياما يسيرة ، إلى أن ورد الأمير « سير بن أبى بكر بن  
تاشفين » وهو ابن أخى أمير المسلمين بساكر متظاهرة . وحشود من الرعية



العادة في ذلك العهد ، وقد ضربوا لها موعداً يوم الخميس ٢٢ أكتوبر سنة ( ١٠٨٦ ) ولسكن « الأذفونش » أرسل في نفس اليوم إلى المسامين يقول :

« غداً الجمعة وهو يوم عيدكم ، والأحد عيدنا ، فأقترح إذن أن تكون المعركة يوم الاثنين ، فقبل يوسف هذا الاقتراح ، ولكن « المعتمد » رأى فيه حيلة سياسية .

واقعة . والناس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع . وخالط قلوبهم الملح . يقطعون السبل سياحة ، ويعبرون النهرسباحة ، ويتولون مجرى الأقدار ، ويترامون من سرفات الأسوار ، حرصا على الحياة والموفون بالعهد ، المقيمون على صريح الود ثابتون ، إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى ، والطامة الكبرى ، فيه حم الأمر الواقع ، واتسم الحرق على الراقص ، ودخل البلد من واديه ، وأصيب حاضره وباده ، بعد أن جد الفريقان في القتال ، واجتهدت الفئتان في الزال ، وظهر من دفاع « المعتمد » — رحمه الله — وباسه ، وتراميه على الموت بنفسه ، ملامزيد عليه ، ولا تناء لخلق إليه ، وفي ذلك يقول « المعتمد » بعد ما نزل بالعدوة أسيراً حسيراً :

|                       |                      |
|-----------------------|----------------------|
| « لما تماسكت الدموع » | ونهه القلب الصديق    |
| قالوا : الخضوع سياسة  | فليبد منك لهم خضوع   |
| وألد من طعم الخضوع    | ع على في السم التقيع |
| إن تستلب عني الدق     | ملكى وتسلمني الجموع  |
| فالقلب بين ضلوعه      | لم تسلم القلب الضلوع |

وكان الأندلسيون في مقدمة الجيش معرضين للهجمات الأولى ،  
أما المرابطون فكانوا في المؤخرة تسترهم الجبال ، فلم يكن بد من أن  
تتخذ مقدمة الجيش الحيلة والحذر حتى لا يباغتها العدو ، وأخذت  
طلائع المسلمين تتربص حركات العدو ، وكانت الأفكار والخواطر في  
قلق وانزعاج ، والمعتمد لا ينفك يستشير منجميه ، وأصبح الوقت حرجا  
ودنت الساعة الحاسمة التي ستدور فيها رحى المعركة الفاصلة التي

---

|                                  |                          |
|----------------------------------|--------------------------|
| لم أستلب شرف الطبا               | ع ، أيسلب الصنف الرفيع ؟ |
| قد رمت يوم نزالهم                | ألا تحصني الدروع         |
| وبرزت ليس سوى القميــــــــــــص | عن الحمى شيء دفع         |
| وبذلت نفسي كي تسيـــــــــل      | ل إذا يسيل بها النجيع    |
| أجلى تأخر لم يكن                 | بهوى ذل والخشوع          |
| ماسرت قط إلى القنا               | ل ، وكان من أملى الرجوع  |
| شيم الأولى أنا منهم              | والأصل تنبئه الفروع »    |

فشنت الغارة في الباد ، ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبدا ولا ليدا ، وانتهت  
قصور « المعتمد » نهبا قبيحا ، وأخذ هو قبضاً باليد ، وجبر على مخاطبة ابنه  
« المعتمد بالله » و « الراضى بالله » وكانا بمعقنين من معاقل الأندلس المشهورة ،  
لو شاء أن يمتنعا بهما لم يصل أحد إليهما ، أحد الحصنين ، يسمى « رندة » والآخر  
« مارتلة » فكتب — رحمه الله — وكتبت السيدة الكبرى أمهما ، مستعطفين ،  
مسترحمين ، معلمين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما ، فأثقا من الذل ، وأيا  
وضع يديهما في يد أحد من الناس ، بعد أبيهما ، ثم عطفتهما عواطف الرحمة ،  
ونظرا في حقوق أبايهما المقترنة بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ،  
ونبذ دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ، ومواقف محكمة .

يتوقف على نتائجها مستقبل « أسبانيا » ، وكانت جيوش القشتاليين أوفر عدداً إذ كانت تتراوح - على ما يظن - بين خمسين إلى ستين ألفاً ، بينما جيوش خصومهم المسلمين لاتعدو عشرين ألفاً .

ومع طلوع الفجر بدأت مخاوف « المعتمد » تتحقق . فقد أبلغه بعض طلائعه أن الجيش المسيحي يقترب ، وعلى هذا يصبح مركزه على شفا الخطر ، ويستهدف جيشه لأن يسحق قبل أن يقترب

فأما « المعتمد بالله » فإن القائد الواصل إليه ، قبض عند نزوله على كل ما كان عليه .

وأما « الراضى بالله » فعند خروجه من قصره ، قتل غيلة ، وأخفى جسده ، ورحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أمواله ، ولم يصحب من ذلك كله بلغة زاد ، فركب السفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدوة « بطنجة » فأقام بها أياماً ، ولقيه بها « الحصرى » الشاعر ، فجرى معه على سوء عاداته من قبح السكدية ، وإفراط الإلحاف فرفع إليه أشعاراً قديمة قد كان مدحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه ، ولم يكن عند « المعتمد » في ذلك اليوم مما زود به ، فيما بلغى أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً ، فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قتلها ، سقطت من حفظي ، ووجه بها إليه ، فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره ، وخفته عليه ، كان هذا الرجل - أعنى الحصرى - الأنعمى أسرع الناس في الشعر خاطراً ، إلا أنه كان قليل الجيد منه فحركه « المعتمد على الله » على الجواب بقطعة أولها :

|                         |                   |
|-------------------------|-------------------|
| « قل لمن قد جمع العدا » | م وما أحصى صوابه  |
| كان في الصرة شعر        | فتنظرنا جوابه     |
| قد أثبتناك فهلا         | جلب الشعر ثوابه ؟ |

المرابطون من ساحة القتال ، فبعث إلى « يوسف » يستحثه أن يتقدم بجيوشه على عجل ، أو أن يوافيه على الأقل بالمدد الكبير الكافي ، وقد كان « يوسف » قد وضع خطة لا يستطيع التحول عنها ، فلم يبادر إلى تلبية طلبه ، وكان قليل الاهتمام بما يصيب الأندلسيين ، وقد صاح لهذه المناسبة قائلاً : « وماذا يهمنى إذا كان نصيب هؤلاء جميعاً الهلاك ، إنهم جميعاً أعداء » .

ولما اتصل بزغاغة المعراء ، وملحق أهل الكدية ماصنع « المعتمد » رحمه الله - مع « الحصرى » تعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق ، فقال في ذلك رحمه الله :

|   |   |
|---|---|
| « شعراء طنجة - كلهم - والمغرب<br>سألوا العسير من الأسير وإنه<br>لولا الحياء وعزة الحجة<br>قد كان إن سئل الندى يميز وإن<br>وله في هذا المعنى رحمه الله | ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب<br>بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب<br>طلى الحشا ساوأم في المطلب<br>نادى الصريخ يبابه اركب يركب» |
|---|---|

|  |   |
|--|---|
| « قبح الدهر فإذا صنعا<br>قد هوى ظاماً بمن عادته<br>ومنها : | كلما أعطى نفيساً نزعا<br>أن ينادى كل من يهوى لعا» |
|--|---|

« قل لمن يطعم في نائله  
راح لا يملك إلا دعوة  
وأقام « المعتمد » بطنجة - رحمه الله - أياماً على الحال التي تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة « مكناسة » فأقام بها أشهراً ، إلى أن نفذ الأمر ، بتسييرهم إلى « أنجات » فأقاموا بها إلى أن توفي « المعتمد » رحمه الله ودفن بها ، فقبره

ولم يسع الأندلسيين إلا الفرار حيث وجدوا أنفسهم وحدهم ، أما الإشبيليون ، فقد كانوا على غرار ملكهم الذى جرح فى وجهه ويده مثالا للشجاعة والبسالة والإقدام ، فصمدوا للعدو ، وقاوموا صدماته العنيفة ، إلى أن وصلت لمساعدتهم نجدة من عسكر المرابطين ، وحينئذ صارت المعركة أقل توازنا ، وقد دهش الإشبيليون أشد دهشة حين رأوا العدو يقاتل متقهقرا ، لأن المدد الذى وصل لم يكن من الكثرة

معروف هناك ، وكانت وفاته فى شهور سنة ٨٧٠ وقيل سنة ٨٠٨ فآله أعلم ، وسنه يوم توفى إحدى وخمسون سنة

وجاء فى كتاب «فتح الطيب» ما يأتى :

ثم إنه بقى مأسورا بأعماق إلى سنة ٨٨٦ ٤ فأخذ بمالقة رجل كبير يعرف « بابن خلف » فسجن مع أصحاب له فنتقبوا السجن وذهبوا إلى حصن « منت ميور » ليلا فأخرجوا قائدها ولم يضره .

وبينا هم كذلك إذ طلع عليهم رجل فسألوه ، فإذا هو « عبد الجبار بن المعتمد » فولوه على أنفسهم وظن الناس أنه الراضى ، فبقى فى الحصن ثم أقبل مركب من المغرب ويعرف بمركب ابن الزرقاء فانكسر بمرسى الشجرة قريبا من الحصن فأخذوا بنوده وطبوله وما فيه من طعام وعدة ، فاستعت بذلك حالتهم ووصلت « أم عبد الجبار » إليه ثم خاطبها أهل الجزيرة وأهل « أركش » فدخلها سنة ٨٨٨ ٤ ، ولما بلغ خير « عبد الجبار » إلى « ابن تاشفين » أمر بتفاف المعتمد فى الحديد وفى ذلك يقول :

« قيدى أما تعلمنى مسلما أبيت أن تشفق أو ترحما

يصرنى فيك أبو هاشم فيثنى القلب وقد هتما

وبقى إلى أن توفى رحمه الله سنة ٨٨٨ ٤ ، وقد ساق الفتح قضية ثورة «عبد الجبار

يحيث يزهى على سائر الجيش بأن يكون صاحب الفضل فى الانتصار  
على الأعداء ، والحقيقة أن الفضل فى تقهر الجيش لم يكن لمجرد  
وصول المدد .

وإليك ماوقع :

لما رأى « يوسف » أن الجيش القشتالى التحم بالأندلسيين بدأ  
ينفذ خطة وضعها ، وهى مباغتته من الخلف ، ولذلك لم يرسل إلى

ابن المتمد « بعارته البارعة فقال : وأقام بالعدوة برهة لا يروع له سرب ، وإن  
لم يكن آمنا ، ولا يثور له كرب ، وإن كان فى ضلوعه كامنا ، إلى أن ثار أحد بنيهِ  
بأركش معقل كان مجاوراً لإشبيلية مجاورة الأنامل للراح ، ظاهراً على بسائط  
وبطاح ، لا يمكن معه عيش ، ولا يتمكن من منازلته جيش ، فغدا على أهلها  
بالمكاره وراح ، وضيق عليهم المتسع من جهاتها والبراج ، فسار نحوه الأمير  
« سيف بن أبى بكر » رحمة الله عليه ، قبل أن يرتد طرف استقامته إليه ، فوجده  
وشره قد تشمر ، وضره قد تنمر ، وجره مستعر ، وأمره متوعر ، فنزل عدوته ،  
وحل للحزم جبوته ، وتدارك داءه قبل عضاله ، ونازله وما أعد آلات فضاله ،  
وانخسدت إليه الجيوش من كل قطر ، وأفرغ من مسالكه كل قطر فبق محصورا  
لا يشد له إلا سهم ، ولا ينفذ عنه إلا نفس أو وهم ، وامتسك شهورا حتى عرضه  
أحد الرماة ، بسهم فرماه فأصاه ، فهوى فى مطلقه ، وخر قتيلا فى موضعه ، فدفن  
الى جانب سريريه ، وأمن عاقبة تغريبه ، وبقي أهله ممتنعين مم طائفة من وزرائه ،  
حتى اشتد عليهم الحصر ، وارتد عنهم النصر . وعظم الجوع . وأغب أجفانهم  
الهبجوع . فنزلت منهم طائفة متهاقنة . وولت بأنفاس خافتة . فتبعهم من بقى .  
ورغب فى التمتع من شقى ، فوصلوا إلى قبضة الملمات . وحصلوا فى غصة الملمات .  
فوسمهم الحيف . وتقسمهم السيف . ولما زأر الشبل . خيفت سورة الأسد .

« المعتمد » إلا المدد القليل الكافى حتى لا يسحقه الأعداء ، ثم وفق إلى تنفيذ هذه الخطة الحربية حين زحف بأكبر جزء من جيشه على

ولم يرج صلاح الكل والبعض حتى فسد . فاعتقل « المعتمد » خلال تلك الحال وأثناءها . وأحل ساحة الخطوب وفناءها . وحين أركبوه أسودا . وأورثوه جزائبات له معاودا . قال :

« غنتك أغماتية الألحان ثقلت على الأرواح والأبدان  
قد كان كالثعبان رمحك فى الوغى فغدا عليك القيد كالثعبان  
متمندا يحميك كل تمدد متعظفا لا رحمة للعان  
قلبي إلى الرحمن يشكو به ما خاب من يشكو إلى الرحمن  
يا سائلا عن شأنه ومكانه ما كان أغنى شأنه عن شأن  
هانئك قينته ، وذلك قصره من بعد أى مقاصر وقيان  
ولما فقد من مجالسه ، وبعد عن من كان يؤانسه ، وتعادى كربه ، ولم تساله  
حربه ، قال :

تؤمل للنفس الشجيرة فرحة وتأبى الخطوب السود إلا تماديا  
لياليك فى زاهيك أصفى صحبتها كما صحبت قبل الملوك اللياليا  
نعيم ويؤس ذا لذلك ناسخ وبعدها نسخ النايا الأمانيا  
ولما امتدت فى الثقافة مدته ، واشتدت عليه قسوة الكيل وشدته ، وأقلقت  
همومه ، وأطبقته غمومه ، وتوالت عليه الشجون ، وطالت لياليه الجون قال :  
أنباء أسرك قد طبقن آفاقا بل قد عممن جهات الأرض إقلافا  
سرت من الغرب لا تطوى لها قدم حتى أتت شرقها تنعك إشراقا  
فأحرق الفجع أكبادا وأفئدة وأغرق الدمم آماتا وأحدافا  
قد ضاق صدر المعالي إذ نمت لها وقيل : إن عليك القيد قد ضافا

معسكر « الأذفونش » وأجرى مذبحه هائلة في الجنود الموكلين بحراسة المعسكر ، وأشعل النار فيه فاحترق ، وانقض على ظهر القشتاليين ، وهو

أنى غلبت وكنت الدهر ذا غلب للغالين والسباق سباقا  
قلت الخطوب أذلتنى طوارقها وكان عزمى للأعداء طراقا  
متى رأيت صروف الدهر تاركة إذا انبرت لدوى الأخطار أرمافا  
وقال لى من أثنى به : لما ثار ابنه حيث ثار ، وأثار من حقد أمير المسلمين عليه  
ما أثار ، جزع جزعا مفرطا ، وعلم أنه قد صار فى أنشودة الصر متورطا ، وجعل  
يتشكى من فعله ويتظلم ، ويتوجع منه ويتألم ، ويقول « عرض بى للمحن ، ورضى لى  
أن أمتحن ، ووالله ما أبكى إلا انكشاف من آتخلفه بعدى ، ويتحيفه بعدى ،  
ثم أطرق ورفع رأسه وقد تهلت أسرته ، وظلته مسرته ، ورأيت قد استجمع ،  
وتشوف إلى الساء وتظلم ، فعلمت أنه قد رجا عودة لى سلطانة ، وأوبة لى  
أوطانه ، فما كان إلا بمقدار مانتداح دائرة ، وتلفت مقلة حائرة ، حتى قال :

كذا يهلك السيف فى جفنه إذا هز كف طويل الحنين  
كذا يعطش الرمح لم أعقله ولم تروه من نجيح يمينى  
كذا يمتنع الطرف علك الشكى م مرتقا غرة فى كمين  
كأن الفوارس فيه ليوث تراعى فرائسها فى عرين  
ألا شرف يرحم المشرة بى مما به من سمات الوتين  
ألا كرم ينعس السهرى ويشفيه من كل داء دفين  
ألا حنة لابن محنية شديد الحنين ضعيف الأئين  
يؤمل من صدرها ضمة تبوئه صدر كفف معين

وكانت طائفة من أهل « فاس » قد عانوا فيها وفسقوا ، وانتظموا فى سلك  
الطغيان واتسقوا ، ومنعوا جفون أهلها السنوات ، وأخذوا البنين من حجور أمهاتهم  
والبنات ، وتلقبوا بالأمارة ، وأركبوا السوءى نفوسهم الأمارة ، حتى كادت تقفر



يحتوش أمامه الجنود الفارين

وإذ قد وجد «الأذفونش» نفسه بين نارين ، ورأى أن الجيش

على أيديهم ، وتدثر رسومها بافراط تعديهم ، إلى أن تدارك أمير المسلمين — رحمه الله — أمرهم ، وأطفأ جرمهم ، وأوجعهم ضرباً ، وأقطعهم ماشاء حزناً وكرهاً ، وسجنهم «بأغصان» وضمنهم جوانح الملمات ، « والمعتمد » إذ ذاك ، معتقل هناك ، وكانت فيهم طائفة شعرية ، مذنبه أوبرية ، فرغبوا إلى سجانهم ، أن يستريحوا إلى «المعتمد» من أشجانهم غفلى ما بينهم وبينه ، وغمض لهم في ذلك عينه ، فكان « المعتمد » رحمه الله يتسلى بجالسهم ، ويجدد أثر مؤاساتهم ، ويستريح إليهم بنجواه ، ويوح إليهم بسرهم ونجواه إلى أن شفع فيهم وانطلقوا من وثاقهم ، وانخرج لهم منهم أخلاقهم ، وبقي «المعتمد» في مجلسه يشتكى من ضيق الكبل ، ويبكى بدمع كالوبل ، فدخلوا عليه مودعين ومن به متوجعين ، فقال :

|                                 |                                |
|---------------------------------|--------------------------------|
| أما لا نسكاب الدم في الحذر راحة | لقد آآن أن يفنى ويفنى به الحذر |
| هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى      | بما منه قد عافاكم الصمد الفرد  |
| تخلصتم من سجن «أغصان» والتوت    | على قيود لم يحن فكها بعد       |
| من الدم أما خلقها فأساود        | تلوى وأما الأيدى والبطش فالأسد |
| فهنتم النعمى ودامت لكلكم        | سعادتة إن كان قد خانني سعد     |
| خرجتم جماعات وخلفت واحدا        | وفقاً في أمرى وأمركم الحمد     |

ومر عليه في موضع اعتقاله سرب قطا لم يعلق لها جناح ، ولا تعلق بها من الأيام جناح ، ولا عاقها عن أفراخها الأشراك ، ولا أعوزها البشام ولا الأراك ، وهى ترح في الجو ، وتسرح في مواقع النور ، فتتكد بما هو فيه من الوثاق ، ومادون حبه من الرقباء والأغلاق ، وما يقاسيه من كبله ، ويعانيه من وجده وخبله ، وفكر في بنانه وافترارهن إلى نعيم عهده ، وجور حضرته وشهدته ، فقال :

الذى باغته من الخلف ، أضخم عديداً من الجيش الذى فى مواجهته ،  
اضطر أن يحول قوته الرئيسية إليه ، وحى وطيس المعركة ، وكانت

|                                 |                               |
|---------------------------------|-------------------------------|
| سوارح لا سجن يعوق ولا كبل       | بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بى |
| ولكن حنيناً أن شكلى لها شكل     | ولم تك والله المعيد حسادة     |
| وجيع ولا عيتاى يبيكهما ثكل      | فاسرح لا شئلى صديق ولا الحما  |
| ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل | هنيئاً لها أن لم يفرق جميعها  |
| إذا احتزباب السجن أو وصلل القفل | وأن لم تبت مثلى تطير قلوبها   |
| وصفت الذى فى جبلة الخلق من قبل  | وما ذاك مما يمتريه وإنما      |
| سواى يحب العيش فى ساقه جبل      | لنفسى إلى لقيا الحمام تشوف    |
| فان فراخى خانها الماء والظل     | ألا عصم الله القطا فى فراخها  |

وفى هذا الحال زاره الأديب « أبو بكر بن اللبانة » وهو أحد شعراء دولته المرتضعين  
درها ، المنتجعين درها ، وكان « المعتمد » رحمه الله يميزه بالشفوف والاحسان ،  
ويحوزه فى فرسان هذا الشأن ، فلما رآه وحلقات السكبل قد عضت بساقيه عض  
الاسود ، والتوت عليه التواء الاساود السود ، وهو لا يطيق إعمال قدم ، ولا يريق  
دمعا إلا مزوجاً بدم ، بعد ما عهده فوق ثبر وسرير ، ووسط جنة وحرير ، تحفق  
عليه الألوية ، وتنرق منه الأندية ، وتسكف الامطار من راحته ، وتصرف الاقدار  
بمحلول ساحته ، ويرتاع الدهر من أوامره ونواهييه ، ويقصر النسر أن يقارنه أو  
يضاهيه ، ندبه بكل مقال يلهب الاكباد ، ويشير فيها لوعة الحارث بن عباد ، أبدع  
من أناشيد معبد ، وأصدع لاسكبد من مرأى أربد ، أو بكاء ذى الرمة بالمربد ، سلك  
فيها للاختفاء طريقاً لا حبا ، وغدا فيها لذبول الوفاء ساحبا ، فمن ذلك قوله :

|                             |                                 |
|-----------------------------|---------------------------------|
| « اغض يدك من الدنيا وساكنها | فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا |
| وقل لعالمها السفلى قد كتمت  | سريرة العالم العلوى أغامت       |
| طلوت مظلتها لا بل مذلتها    | من لم تزل فوقه لاهز رايات       |

الحرب سجالا بين الفريقين المتحاربين ، وكان « يوسف » يجول على  
صهوة جواده بين صفوف المقاتلة من المسلمين ، وهو يهيب بهم

|                                |                             |        |
|--------------------------------|-----------------------------|--------|
| من كان بين الندى والبأس أنفصله | هندية وعطاياه               | هنيئات |
| رماه من حيث لم تستره سابعة     | دهر مصيباته نبل مصيبات      |        |
| أنكرت إلا التواءات القيود به   | وكيف تنكر في الروضات حيات   |        |
| غلطت بين همايين عقدن له        | وبينها فإذا الأنواع أشتات   |        |
| وقلت هن ذؤابات فلم عكست        | من رأسه نحو رجلية الذؤابات  |        |
| حسبتها من قناة أو أغتته        | إذا بها لتقف المجد آلات     |        |
| دروه ليشا فخافوا منه عادية     | عنرتهم فلعدوى الليث عادات   |        |
| لو كان يفرج عنه بعض آونة       | قامت بدعوته حتى الجمادات    |        |
| بحر يحيط عهدناه تحيى له        | كنقطة الدارة السبع المحيطات |        |
| لحق على آل عباد فإنهم          | أهلة ما لها في الأفق هالات  |        |
| راح الحيا وغدا منهم بمنزلة     | كانت لنا بكر فيها وروحان    |        |
| أرض كأن على أقطارها سرجا       | قد أوقدتهم في الأذهان أنبات |        |
| وفوق شاطى واديه رياض ربي       | قد ظللتها من الأنعام دوحات  |        |
| كأن واديه سلك بلبتها           | وغاية الحسن أسلاك ولبات     |        |
| نهر شربت بعبريه على صور        | كانت لها في قبل الراح سورات |        |
| وربما كنت أسمو للخليج به       | وفي الخليج لأهل الراح راحت  |        |
| وبالفروسات لا جفت منابتها      | من النعيم غروسات جنات «     |        |

ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات ، وخلده يتردد بين النكبات والعثرات ، ونفسه  
تنقسم بين الأشجان والحسرات ، إلى أن شفته منيته ، وجاءته بها أمنيته ، فدفن بأعماق  
وأريح من تلك الأزمات ، وعطلت المآثر من حلاها ، وأفردت المفاخر من علاها

« أن تشجعوا أيها المسلمون أعداء الله أمامكم ، والجنة تنتظركم ،  
وطوبى لمن أحرز الشهادة »

ورفعت مكارم الأخلاق ، وكسدت نقائس الأعلاق ، وصار أمره عبرة في عصره ،  
وصار أبداً عبرة في مصره ، وبعد أيام وافاه أبو بكر بن عبد الصمد شاعره المتصل  
به ، المتوصل إلى المنى بسببه ، فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحاً ، وظهر كل  
متوار وضحاً ، قام على قبره عند انقضاءهم من مصلاهم ، واختيا لهم بزيئتهم وحلاهم ،  
وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخر على ترابه ولثمه :

« ملك الملوك أسمع فأنادى أم قد عدتكَ—عن الساع—عوادى  
لما خلت منك القصور فلم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد  
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا وتخذت قبرك موضع الإنشاد »

وهي قصيدة أطال إنشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها ، فانتحمر الناس إليه  
وأحفوا ، وبكوا لبكائه وأعولوا ، وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف  
الحبيج ، مديعين للبكاء والعبيج ، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم ، وأفرحوا  
مآقيهم بفيض شؤونهم ، وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش ، والأيام  
لا تدع حياً ، ولا تألو كل نصر طياً ، تطرق رزاياها كل سمع ، وتفرق مناياها  
كل جمع ، وتصمى كل ذى أمر ونهى ، وترجي كل مشيد بوهى ، ومن قبله ما طوت  
النعمان بن الشقيقة ، ولوت مجازها في تلك الحقيقة .

انتهى ما قصدنا جلبه من كلام الفتح مما يدخل في أخبار « المعتد ابن عباد »  
المناسبة لما مر ، وكلام الفتح كله الغاية وليس الخبر كالعيان ولذا قال بعض من عرف به  
أنه أراد أن يفصح الشعراء الذين ذكرهم في كتبه بنثره — سامحه الله — وأخبار  
المعتد رحمه الله تحتل مجلدات ، وآثاره إلى الآن بالغرب مخلدات .

وكان من النادر الغريب قولهم في الساء للصلاة على جنازته « الصلاة على الغريب »  
بعد اتساع ملكه ، وانتظام سلكه ، وحكمه على « إشبيلية » وأنحائها ، وقرطبة

وسرعان ما عاد الأندلسيون الفارون فنظموا صفوفهم ، وأخذوا  
أمكنتهم من ميدان القتال لشد أزر « المعتمد »

وزهرائها ، وهكذا شأن الدنيا في إغرائها ، وقد توجه لسان الدين الوزير ابن  
الخطيب إلى « اغيات » لزيارة قبر المعتمد — رحمه الله — ورأى ذلك من المهمات ،  
وأنشده على قبره أبياته الشهيرة التي ذكرتها في جملة نظمه الذي هو أرق من النسيم ،  
وأبهج من الحيا الوسيم .

قلت وقد زرت أنا قبر « المعتمد » و « الرميكية » أم أولاده — رحمهما الله —  
حين كنت بمراكش المحروسة بالله عام عشرة وألف وعمى على أمر الغير المذكور  
وسألت عنه من تظن معرفته له ، حتى هداني إليه شيخ طعن في السن ، وقال لي  
هذا قبر ملك من ملوك الأندلس ، وقبر حظيته التي كان قلبه بحبها خفافا غير مطمئن  
فرأيته في ربوة حسبا وصفه ابن الخطيب رحمه الله بالآيات ، وحصلت لي في ذلك المحل  
خشية وادكار ، وذهبت بي الأفكار في ضروب الآيات ، فسبحان من يؤتي ملكه من  
يشاء لا إله غيره وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وما أحسن قول الوزير « ابن عبدون » في مطلع رائيته المشهورة :  
« الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور »  
وهو القائل :

|                                  |                             |
|----------------------------------|-----------------------------|
| « يانائم الليل في فكر الشباب أفق | فصبح شيبك في أفق النهى بادي |
| عضت عنائك أيدي الدهر ناسخة       | علما بجهل وإصلاحا بإفساد    |
| وأسلمت للنايا آل مسلة            | وعبدت للرزايا آل عباد       |
| لقد هوت منك خاتنها قوادمها       | بكوكب في سماء المجد وقاد    |

ومنها :

« ومالك كان يحيي شول قرطبة      أستغفر الله لا بل شول بغداد

ثم جرد « يوسف » حرسه الاحتياطي من السودان فحملوا على القشتاليين من ناحية أخرى حملة منكرة أتوا فيها بالعجائب.

---

شق العلوم نطاقا والاعلا زهرا      فبتن ما بين رواد ووراد  
وأين هذه القصيدة في مدحهم من قصيدة العظة منهم وهي قول أبي الحسن جعفر  
ابن إبراهيم بن الحاج اللورق .

تعر عن الدنيا ومعروف أهلها      إذا عدم المعروف في آل عباد  
حللت بهم ضيفا ثلاثة أشهر      بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد  
وهذا يدل على أن الشعراء لم يسلم من لسانهم من أحسن فضلا عن أساء ، من  
الغضا والروساء ، وما أمدح قول أبي محمد بن غانم فيهم :  
ومن الغروب غروب شمس في النرى      وضياؤها باق على الآفاق  
وجاء في المطمح حين عرض لذكر المعتمد وبنى عباد قوله :

« هذه بقية منتها في لحم ، ومرتهاها إلى مفخر ضخم ، وجددم المنذر بن ماء  
السماء ، ومطلعم من جو تلك السماء ، وبنو عباد ملوك أنس بهم الدهر ، وتنفس منهم  
عن أعقب الزهر ، وعمرؤا ربع الملك ، وأمرؤا بالحياة والمهلك ، و« معتمد » أحدم  
أقام وأقعد ، وتبوا كاهل الإرهاب واقعد ، واقترش من عربسته ، واقترش من مكائد  
فريسته ، وزاحم بعود ، وهز كل طود ، وأخل كل ذى زى وشاره ، وختل بومى  
وإشاره ، و« معتمد » كان أجود الأملاك ، وأحد نيرات تلك الأفلاك ، وهو الفائل  
وقد شغل عن منادمة خواص دولته بمنادمة العقائل :

« لقد حننت إلى ما اعتدت ، من كرم      حنين أرض إلى مستأخر المطر  
فباتها خلا أرض السماح بها      محفوفة في أكف الشرب بالبدر  
وهو الفائل وقد حن في طريقه ، إلى فريقه :

« أدار النوى كم طال فيك تلذذى      وكم عقتنى عن دار أهيف أغيد  
حلفت به لو قد تعرض دونه      كجاة الأعادى في النسيج المسرد

وتمكن زنجي من الدنوم « الأذفونش » وطلعه بجنجر في يده  
فجرحه في فخذه ، وأقبل الليل ، والفريقان المتحاربان يتنازعان المعركة

لجرت للضرب المهند فاهضى مرادى وعز ما مثل حد المهند .  
والقاضى أبو القاسم هذا جدم ، وبه سفر مجدم ، وهو الذى اقتنص لهم الملك  
النافر ، واختصمهم منه بالحظ الوافر ، فإنه أخذ الرئاسة من أيدى جبار ، وأضحى  
من ظلالها أعيان أكبر ، عند ما أناخت بها أطماعهم ، وأصاحت إليها أسماهم ،  
وامتد إليها من مستحقها اليد ، وأناعوا أجيادا زانها الجيد ، وففر عليها فقه حتى  
هجا بيت العبدى ، وتصدى لها من تحضر وتبدى ، فافتعد سنامها وغار بها ، وأبعد  
عنها عجمها وأغارها ، وفاز من الملك بأوفر حصه ، وغدت سمته به صفة مختصة ،  
فلم يعر رسم القضاء ، ولم يتسم سمة الملك مع ذلك النفوذ والمضاء ، وما زال يحمي حوزته  
ويجول غرته ، حتى حوته الرجام ، وخلت منه تلك الآجام ، وانتقل إلى ابنه «المعتضد»  
وحل منه في روض نمله ونضد ، ولم يعمر فيه ولم يدم ولاء ، وتسمى «بالمعتضد»  
بالله ، وارتمى إلى أبعاد غايات الجود بما أناله وأولاه ، لولا بطش في اقتضاء النفوس  
كدر ذلك المنهل ، وتصور أثناء ذلك القل والنهل ، وما زال للأرواح قابضاء وللوثوب  
عليها رابضا ، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر ، وينتصف منهم بالدهاء  
والسكر ، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه «المعتد» فاحتل منه طرفه الرمد ، وأحد  
مجده ، وتقلد منه أى باس ونجده ، وندى به لحق مناه . وجر رسته ، وأقام في  
الملك ثلاثة وعشرين سنة ، لم تعد منه فيها حسنة ، ولا سيرة مستحسنة ، إلى أن  
غلب على سلطانه ، وذهب به من أوطانه ، فنقل ، إلى حيث اعتقل ، فأقام كذلك  
إلى أن مات ، ووارثه برية أغات .

وكان للقاضى جده أدب غض ، ومذهب مبين ، ونظم يرتجاه كل حين ، ويعبته  
أعطر من الرياحين ، فمن ذلك يصف النيلوفر :

« يا ناظرين ندى النيلوفر البهج وطيب مخبره في الفوح والأرج  
كأنه جام در فى تألفه قد أحكمو وسطه فصا من التبيج »

التي حى وطيسها ، ثم كان النصر فى النهاية حليف المسلمين ، وكان الفريق الأعظم من المسيحيين ملقى فى ميدان القتال بين قتيل وجريح ، ولأذ الباقون بالفرار ، وتمكن « الأذفونش » نفسه من الفرار مع كبير عناء يحيط به خمسمائة فارس من جنده ( ٥ ) أكتوبر سنة ( ١٠٨٦ ) وكان « يوسف » معتزماً أن يتعقب الفارين ، ويرحف بجيوشه إلى بلاد الأعداء ليحظى ثمرات انتصاره ، ولكنه عدل عن ذلك حين بلغه نبأ وفاة ابنه الأكبر ، وعاد إلى إفريقية مع عامة الجند ، وترك تحت إمرة « المعتمد » جيشاً من المرابطين مؤلفاً من ثلاثة آلاف جندي .



## ملوك الطوائف وعواصمهم

### «إشبيلية» (بنو عباد)

|             |                                     |
|-------------|-------------------------------------|
| ١٠٤٣ - ١٠٢٣ | أبو القاسم محمد بن إسماعيل (القاضي) |
| ١٠٦٩ - ١٠٤٣ | أبو عمرو عباد بن محمد : المعتضد     |
| ١٠٩١ - ١٠٦٩ | أبو القاسم محمد بن عباد : المعتمد   |

### «قرطبة» (بنو جهور)

|                      |                                |
|----------------------|--------------------------------|
| ١٠٤٣ - ١٠٣١ (ديسمبر) | أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور |
| ١٠٦٤ - ١٠٤٣          | أبو الوليد محمد بن جهور        |
| ١٠٧٠ - ١٠٦٤          | عبد الملك                      |

ثم ضمت «قرطبة» إلى حكم ملوك «إشبيلية»

« مالقة » ( بنو حمود )

حمود

علي الخليفة

إدريس الأول

بجي الخليفة

محمد الثاني (الثامن)

حسن  
محمد الأول (الخامس)

بجي الثاني

إدريس الثاني (الرابع والسابع)  
حسن الثالث

إدريس الثالث (السادس)

بجي

- (١) إدريس الأول  
١٠٣٥ - ١٠٣٩
- (٢) يحيى بن إدريس الأول  
١٠٣٩
- (٣) حسن بن الخليفة يحيى بن علي  
١٠٣٩ - ١٠٤١
- الصقلي : نجاء  
١٠٤٣ - ١٠٤١
- (٤) إدريس الثاني  
١٠٤٣ - ١٠٤٧
- (٥) محمد الأول الابن الثاني لإدريس الأول  
١٠٤٧ - ١٠٥٣
- (٦) إدريس الثالث  
١٠٥٣
- (٧) إدريس الثاني (للمرة الثانية)  
١٠٥٣ - ١٠٥٥
- (٨) محمد الثاني (رابع أنجال إدريس الأول)  
١٠٥٥ - ١٠٥٧
- ثم ضمت «مالقة» إلى مملكة «غرناطة» .

### « الجزيرة » ( بنو حمود )

- محمد بن الخليفة القاسم بن حمود  
١٠٣٥ - ١٠٤٨ (٩)
- القاسم ابنه  
١٠٤٨ (٩) - ١٠٥٨
- ثم ضمت «الجزيرة» إلى مملكة «إشبيلية» .

### « غرناطة » ( بنو زيري )

- زاوى بن زيري  
حتى سنة ١٠١٩
- حبّوس  
١٠١٩ - ١٠٣٨
- باديس  
١٠٣٨ - ١٠٧٣

عبد الله

١٠٧٣ - ١٠٩٠

## « قرمونة » بنو برزال

أسماء الملوك تبعاً لابن خلدون (عباد ج ٢ ص ٢١٦) هي كما يلي :

إسحاق

عبد الله ابنه

محمد بن عبد الله

حتى سنة ١٠٤٢ (٣)

العزیز المستظهر

١٠٤٢ (٣) - ١٠٦٧

( عن ابن حيان وابن بسم )

ابن عبد الله أى محمد بن عبد الله ، حكم « قرمونة » في العهد الذى كان فيه « هشام الثالث » متولياً « قرطبة » ١٠٢٩ - ١٠٣١ وعلى ما يقول المؤلف نفسه الذى كان أهلاً للثقة أكثر من « ابن خلدون » وكان خليفته « محمد بن عبد الله » .

ابنه إسحاق الذى حكم سنة ١٠٥٠

ويظهر أن ابن الأَبَّار « فى أبحاثى ص ٢٨٦ الطبعة الأولى » قد أخطأ إذ قال : إن محمد بن عبد الله ، كان لا يزال حياً سنة ١٠٥١ .

## رُندة

أبو نور بن أبى قرّة

١٠١٤ (٥) - ١٠٥٣

أبو النصر (ولده)

١٠٥٣

ثم ضمت « زُندة » إلى مملكة « إشبيلية »

## مورور

نوح ١٠١٣ (٤) - ١٠٤١ (٢)

أبو مناد محمد وابنه ١٠٤١ (٢) - ١٠٥٣

ثم ضمت « مورور » إلى مملكة « إشبيلية »

## أركش

ابن خزرون حتى سنة ١٠٥٣

ثم ضمت « أركش » إلى مملكة « إشبيلية »

## ولبة

أبو زيد محمد بن أيوب من سنة ١٠١١ (٢)

أبو المصعب عبد العزيز إلى سنة ١٠٥١

ثم ضمت « ولبة » إلى مملكة « إشبيلية »

## نبلة

أبو العباس أحمد بن يحيى اليعقوبى ١٠٢٣ - ١٠٤١ (٢)

محمد، شقيقه

فتح بن خلف بن يحيى بن أخى السابقين حتى سنة ١٠٥١

ثم ضمت « نبلة » إلى مملكة « إشبيلية »

## شلب - بنو مزين

أبو بكر بن سعيد بن مزين ١٠٢٨ - ١٠٥٠  
أبو الاصباح عيسى إلى سنة ١٠٥١ ( ٢ )  
وقد ضمت « شلب » إلى مملكة « إشبيلية »

## شنتمرية

أبو عثمان سعيد بن هارون ١٠١٦ - ١٠٤٣  
محمد ( ولده ) ١٠٤٣ - ١٠٥٢  
ثم ضمت « شنتمرية » إلى مملكة « إشبيلية »

## مرتلة

ابن طيفور إلى سنة ١٠٤٤  
ثم ضمت « مرتلة » إلى مملكة « إشبيلية »

## بطلينوس

سابور  
وبعدئذ بنو الأفطس  
أبو محمد عبدالله بن محمد بن مسلمة المنصور الأول  
أبو بكر محمد المظفر حتى سنة ١٠٦٨  
يحيى المنصور الثاني  
عمر المتوكل حتى سنة ١٠٩٤

## طليطلة

يعيش بن محمد بن يعيش      حتى سنة ١٠٣٦

وبعدئذ بنو ذى النون :

اسماعيل الظافر      ١٠٣٦ - ١٠٣٨

أبو الحسن يحيى المأمون      ١٠٣٨ - ١٠٧٥

يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر      ١٠٧٥ - ١٠٨٥

## سرقسطة

المنذر بن يحيى <sup>(١)</sup>      حتى سنة ١٠٣٩

وبعدهم بنو هود :

أبو أيوب سليمان بن محمد المستعين الأول ١٠٣٩ - ١٠٤٦ (٧)

أحمد المقتدر      ١٠٤٦ (٧) - ١٠٨١

يوسف المؤتمن      ١٠٨١ - ١٠٨٥

أحمد المستعين الثانى      ١٠٨٥ - ١١١٠

عبد الملك عماد الدولة      ١١١٠

(١) يؤخذ من رواية صحيحة لابن حيان أنى كنت على حق إذ قلت إنه لم يكن « لسرقسطة » سوى ملك واحد من هذه الأسرة ، وهو المنذر ، وأن الملك هو الذى قتل سنة ١٠٣٩ وليس ابه . ( دوزى )

## السهلة . بنو رزين

أبو محمد هذيل الأول بن خلف بن رزين ، من سنة ١٠١١  
 أبو مروان عبد الملك الأول بن خلف ، شقيقه ،  
 أبو محمد هذيل الثاني عز الدولة ، نجل السابق ،  
 أبو مروان عبد الملك الثاني حسام الدولة يحيى إلى سنة ١١٠٣

## الفنت . بنو قاسم

عبد الله الأول بن قاسم الفهرى نظام الدولة إلى سنة ١٠٣٠  
 محمد بن الدولة  
 أحمد عضد الدولة إلى سنة ١٠٤٨ ( ٩ )  
 عبد الله الثاني جناح الدولة ، شقيق السابق ١٠٤٨ ( ٩ ) - ١٠٩٢

## بلنسية

الصقليان : مبارك ، والمظفر  
 الصقلي « لبيب » صاحب « طرطوشة »

عبد العزيز المنصور ١٠٢١ - ١٠٦١

عبد الملك المظفر ١٠٦١ - ١٠٦٥

ثم ضمت « بانسية » لملكة « طليطلة »

المأمون ( طليطلة ) ١٠٦٥ - ١٠٧٥



ثم انفصلت « بلنسية » عن « طليطلة » .

أبو بكر بن عبدالعزيز ١٠٧٥ - ١٠٨٥

القاضي عثمان ( ولده ) ١٠٨٥

القادر ( ملك طليطلة سابقا ) ١٠٨٥ - ١٠٩٢

ثم صارت « بلنسية » جمهورية رئيسها ابن جحاف ١٠٩٢ - ١٠٩٤

## دانية

أبو الجيش مجاهد موفق إلى سنة ١٠٤٤ ( ٥ )

على إقبال الدولة ١٠٤٤ ( ٥ ) - ١٠٧٦

خلعه المقتدر صاحب « سرقسطة » وضمت « دانية » إلى مملكة « سرقسطة »

المقتدر ( سرقسطة ) ١٠٧٦ - ١٠٨١

المقتدر يقسم مملكته بين ولديه . فكان نصيب « الحاجب منذر » :

لاردة ، وطرطوشة ، ودانية .

الحاجب المنذر ١٠٨١ - ١٠٩١

ولده تحت وصاية بني بطير

## موسيتا

خيران ( المرية ) ١٠١٦ ( ٧ ) - ١٠٢٨

زهير ( المرية ) ١٠٢٨ - ١٠٣٨

عبد العزيز المنصور « بلنسية » ١٠٣٨ - ١٠٦١

عبد الملك المظفر « بلنسية » ١٠٦١ - ١٠٦٥

كان « أبو بكر أحمد بن طاهر » حاكما لمرسية في عهد هؤلاء  
الملوك الثلاثة وتوفى سنة ١٠٦٣ وخلفه ولده أبو عبد الرحمن محمد

١٠٦٣ - ١٠٧٨

المعتمد ( إشبيلية )

ابن عمار

إلى سنة ١٠٩٠

ابن رشيق

## المريّة

إلى سنة ١٠٢٨

خيران

١٠٢٨ - ١٠٣٨

زهير

١٠٣٨ - ١٠٤١

عبد العزيز المنصور ( بلنسية )

وبعدهم بنو صمادح :

١٠٤١ - ١٠٥١

أبو الأحوص

١٠٥١ - ١٠٩١

محمد المعتصم

١٠٩١

عز الدولة

٢

نظرات في تاريخ الاسلام

## «ديانة العرب في الجاهلية»

كان كل شئ سائرآ في طريقه المعتادة في النصف الأول من القرن السابع الميلادى سواء في الإمبراطورية البيزنطية أو الإمبراطورية الفارسية .

ولاحزم كانت هاتان المملكتان في نزاع دائم ، سببه الرغبة والطمع في تلك آسيا الغربية ، وكانتا - في ظاهرها - مزدهرتين ، تجبي لهما الضرائب والخراج فتتملى الخزائن بالمال ، وتتضخم ثروة الحكام ، حتى أصبح الترف والأبهة - اللذان انغمس فيهما سكان العواصم - مضرب الأمثال .

على أن كل ذلك لم يكن إلا مظهرآ كاذبآ ، فقد كان يسرى في كيان هاتين المملكتين داء كمين ، وظل السوس ينخر في عظامهما دائبآ على تقويض أركانهما بسبب ما أظهرناه من عسف وجور مهلكين ، وهذا إلى ما حدث من الفواجع التي نجمت من تلك الأسرات ، وما لعبته من الأدوار المفجعة التي كانت - على الحقيقة - سلسلة متصلة الحلقات ، من الاضطهادات والفتن الدينية الشعواء .

وتم رأينا شعبآ يظهر فجأة من بين تلك الصحراء التي لا يكاد يعرفها أحد ، شعبآ جديدآ بدأ يمثل دوره على مسرح الحياة ، بعد أن ظل

نهباً مقسماً ، تساوى كل قبيلة منه القبيلة الأخرى ، فيحتمد النزاع  
وتقع الحرب الطاحنة . هاقد رأيناه يتحد ويجمع شمله الشيت للمرة  
الأولى .

ذلكم هو الشعب الناهض الذى تملك نفسه حب الحرية وساعدته  
على النجاح صفاته النبيلة ، فقد كان متقشفاً فى طعامه ، مخشوشنا فى  
لباسه ، نبيلاً فى أخلاقه ، كما كان طروباً سريع البديهة حاضر النكتة .  
ولقد كان شريف النفس أريحياً - فإذا استترته مرة - فهو قاس  
غضوب شرس<sup>(١)</sup> لا يبنى عن أخذ ثأره ، ولا يردده عن انتقامه شئ .

ذلكم هو الشعب الذى قلب - فى لحظة واحدة - إمبراطورية  
الفرس بعد أن ظل السوس ينخر فى عظامها قروناً عدة ، وانتزع من خلفاء  
« قسطنطين » أجمل ضواحيهم . ثم سحق مملكة جرمانية حديثة  
العهد تحت قدميه ، وشرع يهدد - بعد ذلك - بقية أوروبا .

بينما كان فى ذلك الوقت نفسه يوالى فتوحه وانتصاره فى الجانب  
الآخر من المعمورة حتى وصلت جيوشه الظافرة إلى الهملايا .  
لم يكن ذلك الشعب فاتحاً فحسب - كغيره من الشعوب الأخرى -  
بل كان داعياً إلى دين جديد ومبشراً به أيضاً . كان داعياً إلى دين

---

(١) وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

« وكالسيف - إن لا يئنه - لان متنه ، وحداه - إن خاشتنه - خشنان »

## «ديانة العرب في الجاهلية»

كان كل شيء سائرًا في طريقه المعتادة في النصف الأول من القرن السابع الميلادي سواء في الإمبراطورية البيزنطية أو الإمبراطورية الفارسية .

ولاجرم كانت هاتان المملكتان في نزاع دائم ، سببه الرغبة والطمع في تملك آسيا الغربية ، وكانت - في ظاهرهما - مزدهرتين ، تبحي لهما الضرائب والخراج فتمتلئ الخزائن بالمال ، وتنضخم ثروة الحكام ، حتى أصبح الترف والأبهة - اللذان انغمس فيهما سكان العواصم - مضرب الأمثال .

على أن كل ذلك لم يكن إلا مظهرًا كاذبًا ، فقد كان يسرى في كيان هاتين المملكتين داء كهين ، وظل السوس ينخر في عظامهما دائبًا على تقويض أركانهما بسبب ما أظهرتاه من عسف وجور مهلكين ، هذا إلى ما حدث من الفواجع التي نجمت من تلك الأسرات ، وما لعبته من الأدوار المفجعة التي كانت - على الحقيقة - سلسلة متصلة الحلقات ، من الاضطهادات والفتن الدينية الشعواء .

وتم رأينا شعبًا يظهر فجأة من بين تلك الصحراء التي لا يكاد يعرفها أحد ، شعبًا جديدًا بدأ يمثل دوره على مسرح الحياة ، بعد أن ظل

نهباً مقسماً ، تناوى كل قبيلة منه القبيلة الأخرى ، فيحترق النزاع  
وتقع الحرب الطاحنة . ها قد رأينا يتحد ويجمع شمله الشتيت للمرة  
الأولى .

ذلكم هو الشعب الناهض الذى تملك نفسه حب الحرية وساعده  
على النجاح صفاته النبيلة ، فقد كان متعشفاً فى طعامه ، مخشوشاً فى  
لباسه ، نبيلاً فى أخلاقه ، كما كان طروباً سريع البديهة حاضر النكتة .  
ولقد كان شريف النفس أريحياً - فإذا استثرته مرة - فهو قاس  
غضوب شرس<sup>(١)</sup> لا يبنى عن أخذ ثأره ، ولا يرد عنه انتقامه شئ .

ذلكم هو الشعب الذى قلب - فى لحظة واحدة - إمبراطورية  
الفرس بعد أن ظل السوس ينخر فى عظامها قروناً عدة ، وانتزع من خلفاء  
« قسطنطين » أجمل ضواحيهم . ثم سحق مملكة جرمانية حديثة  
العهد تحت قدميه ، وشرع يهدد - بعد ذلك - بقية أوروبا .

بينما كان فى ذلك الوقت نفسه يوالى فتوحه وانتصاره فى الجانب  
الآخر من المعمورة حتى وصلت جيوشه الظافرة إلى الهملايا .  
لم يكن ذلك الشعب فاتحاً فحسب - كغيره من الشعوب الأخرى -  
بل كان داعياً إلى دين جديد ومبشراً به أيضاً . كان داعياً إلى دين

---

(١) وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

« وكالسيف - إن لا يئته - لأن منته ، وحدها - إن خاشنته - خشنان »

جديد ، فقام يناوئ الثنوية <sup>(١)</sup> الفارسية والمسيحية التي أفسدتها الخرافات والبدع ، حاملاً إلى الناس توحيداً خالصاً لم يلبث أن دان به الملايين من الناس حتى بلغ عددهم في أيامنا هذه نحو عشر الإنسانية كلها .

\*\*\*

ذلك هو الدين الذى أخذنا على عاتقنا محاولة الكلام فيه وفي تاريخه العام . ولعل أول ما يمرض لنا هو هذا السؤال :

« مم نشأ ؟ وكيف تفرع من الديانة التى سبقتة ، ثم نما حتى وصل إلى ما وصل إليه ؟ »

فكيف نجيب على هذا السؤال الذى يجدر بنا الأجابة عليه قبل كل شئ ؟ الحق أننى لم أكّد أعرض لهذا حتى وقعت فى حيرة لا مثيل لها ، فقد اعترضتني - حتى فى هذه الخطوة الأولى - صعوبة لم أكن لأتوقعها قبل أن أتصدى لبحث هذا الموضوع . وإليك البيان :

---

(١) الثنوية دين المجوس الذين أثبتوا - كما يقول الشهرستاني - أصليْن اثنين مؤثرين قديمين ، يقتسمان الخير والشر ، والنفع والضرر ، والصلاح والفساد ، ويسمون أحدهما : النور ، والثاني : الظلمة . وبالفارسية : « يزدان » و « إهرمن » وهذا رأى من يدينون بالثنوية والمناوية ، وقد أشار المنبجى إلى ذلك فى قوله من قصيدة مدح بها « سيف الدولة »

« وكَم ظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب . »



\*\*\*

إننى - على إجلالى وتقديرى لما قام به بعض الباحثين الذين تصدوا للكلام عن ديانة العرب القديمة وأصل الإسلام ، وعلى إعجابى بفطنتهم واجتهادهم - أقرر ولا أرى بدا من المصارحة : أن هذه البحوث الطريفة لاتكفينى قط ، لأنها لم تستطع أن توضح هذه الأمور أكثر من قبل . لذلك رأيتنى مضطراً إلى إعادة البحث - من جديد - سالكا طريقاً أخرى مخالفة لما نهجه غيرى من الباحثين إلى اليوم ، وقد وصلت إلى نتيجة ، أنا أول المدهوشين لها ، وليس فى وسعى أن أسردها فى بضع صفحات ، إلا أنها - فى جوهرها وأساسها - مرتبطة بعدة نتائج أخرى لها خطرهما وأهميتهما .

ولما كانت نتائج بحوثى مناقضة - على طول الخط - كل الآراء السائدة إلى اليوم لغرابتها عنها ، والعلم يقضى على الإنسان ، ألا يلقي للناس قضايا مسلمة لا يدعمها برهان ، ولا تقوم على أساس متين من الحجج العلمية الناهضة ، والأدلة الصحيحة المستقاة من مصادرها الأصلية .

« والدعاوى - ما لم يقيموا عليها بينات - أصحابها أدعياء ! »  
ولما كانت المصادر الأصلية التى أعنيها هى مصادر أجنبية بالنسبة

لقارىء هذا السفر<sup>(١)</sup> رأيتنى مضطراً إلى تفصيل ذلك الرأى فى سفر  
مستقل آخر<sup>(٢)</sup> . ولكن ماذا نصنع الآن فى هذا الفصل ؟

\*\*\*

أما أن نجتزئ ببعض الآراء التى وصلتنا ، مبدلين فيها رغبة فى أن  
نوائم بينها وبين آرائنا الخاصة ، فهذا محال ، لأن منهجين متباينين  
من مناهج البحث لاسبيل إلى التقائهما والتوفيق بينهما ، هذا فضلاً  
عن عقم هذه الطريقة التى لاغناء فيها ، فليس ثم أية فائدة من تعرف  
جزء من الحقيقة .

لذلك أعملت الفكر ، فلم أجد إلا مخرجاً واحداً من هذا المأزق ،  
هو أن أتبع الفكرة المقررة ، مقتصراً على سردها وذكر ماوصل إليه  
الباحثون من النتائج فى هذا الصدد ، لاسياً « سبرنجر » أقرب الباحثين  
وأوفاهم درساً واستيعاباً للتاريخ الإسلامى وترجمة النبى .

على أننى جدير أن أقر - منذ الآن - فى أسلوب صريح لايمحتمل  
لبساً ولا تأويلاً ، أننى إن استطعت بهذه الطريقة ، أن أرفع عن عاتق  
عبء التبعة والمؤاخذة ، بما أقره فى هذا الفصل من وصف الحال  
الدينية التى كان عليها العرب فى القرن السادس الميلادى ، فلن يكون

---

(١) يعنى الأوربيين .

(٢) ارجع إلى كتاب « دوزى » : « الإسرائيلانيون فى مكة »

ذلك شأني فيما أقرره في بقية الفصول .

\*\*\*

وقددفعتني هذه الاعتبارات السابقة ، كما دفعني غيرها من الأسباب التي لا يصعب على القارئ فهمها إلى الاختصار على ذكر ذلك الزمن السابق بأقصى ما في قدرتي من الإيجاز الذي التزمته في تبیان ديانة العرب الأولى ونشأتها في بلادهم ، فلم أحد عن هذا الشرط قيد أنملة .

## ديانة العرب الاولى

كان العرب يؤمنون بكائن أعلى - هو الله تعالى - ويعتقدون أن له ذاتا لا كذواتهم وأنه محيط بالعالم، وما يحويه من كائنات - هو بارئها - وإن اختلفت حظوظها من الطاعة والعصيان . وكانوا يدينون بأنه خالق السموات والأرض<sup>(١)</sup> . وأنه الذات المنزهة التي لا حد لحكمتها ، ولا يمارون في أنه مدبر العالم ، وأنه هو الذي يرسل عليهم المطر من السماء<sup>(٢)</sup> :

كانوا يعتقدون هذا ويعتقدون أيضا أن ليس له كهان ولا هياكل ، كذلك التي خصوا بها أوثانهم .

---

(١) كان العرب يعتقدون بوجود الله ويعتقدون أن شئون الكون كلها بيده كما ترى في الكتاب الكريم في قوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . » وقوله في آية أخرى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل : أفلا تذكرون ، قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ، قل : أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، فأتى تسحرون ؟ »

(٢) قال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار . ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ؟ » .

## العرب والجن

فإذا تركنا ذلك إلى سواء رأيانهم يعظمون الجن ويمجدونهم ، وقد دفعتهم إلى ذلك صحاريهم وجبالهم التي كثيراً ما يضلون فيها أسابيع كاملة ، فيتمثلون رؤية هذه العوالم الغريبة . ويُنبَت في نفوسهم هذه التصورات ما يكابدونه فيها من ألم الجوع والعطش ، وما يحتملونه من شمس الصحراء المحرقة ، وهوائها اللاfach ، وسوفها المهلكة ، هذا إلى ما يعانونه من تقلبات الجو الفجائية ، حتى ليصل بهم الروع إلى حد أن يتخيلوا أنهم يسمعون أصوات الجن ويبصرون ذواتهم في أشكال عدة ، وعلى صور شتى ، منها السخيف ومنها المعجب <sup>(١)</sup> ، وكانوا يعتقدون بأن أجسامهم تشغل جزءاً من الفضاء - كما تشغله أجسامنا - وأنهم ينتشرون ، ولكنهم يختلفون عنا في تكوينهم ، لأن أجسامهم مخلوقة من النار أو الهواء <sup>(٢)</sup> ، ومن ثم لا تراها العين الإنسانية إلا

---

(١) قال « أبو العلاء » على لسان جنى ، في رسالة الغفران :

« فتارة أناصل في نكارته وربما أبصرتني العين عصفورا

نلوح للإيس حولاً أو ذوى عور ولم نكن قط لا حولاً ولا عوراً »

(٢) بعض الأساطير عن الجن

افتت رواية العرب وشعراؤهم في رواية الأساطير الرائعة عن الجن ، ولعل أجل ماقرأناه في ذلك هو تلك القصة البديعة التي تخيلها « أبو العلاء » في رسالة 'لغفران بين « ابن الفارح » وشيخ من أدباء شيوخ الجن وقد أثبتناها في كتاب

شدوذا . وفي قدرتهم أن يأتوا كثيراً من ضروب الشر والخير ،  
ومن كانوا كذلك فقد وجب عليهم أن يتحببوا إليهم ويمجدوهم

أساطير « ألف يوم » ، وفي هذه القصة يرى القارى حواراً ممتعا لانغالى إذا قلنا  
لأنه منقطع النظير فى المربية كلها . ومن أجل ما نختاره من تلك القصة قول الجنى -  
وهو يقص على ابن القارح بعض ما حدث له فى الدار الأولى .

« وكنت ألف من أتراب قرطبة      خودا ، وبالصين أخرى بنت « يغبورا »  
أزور تلك وهذى غير مكترث      فى ليلة قبل أن أستوضح النورا  
ولا أمر بوحى ولا بشر      إلا وغادرته ولهان مذعورا . »  
إلى أن يقول :

« وأحضر العرب أعروم بأبدة      يزجون عودا ومزمارا وطنبورا  
فلا أفارقهم حتى يكون لهم      فعل يظل به إيايس مسرورا  
وأصرف العدل ختلا - عن أمانته ،      حتى يخون وحتى يشهد الزورا . »  
إلى آخر القصيدة .

ومما ذكره ذلك الجنى لابن القارح قوله .

« ولسنا مثلكم يابى آدم يغلب علينا النسيان والرطوبة لأنكم من حمأ مسنون  
وخلقنا من مارج من نار . »  
وقوله :

« وهل يعرف البشر من النظم إلا كما تعرف القمر من علم الهيئة ومساحة الأرس ،  
وإنما لهم خمسة عشر جنسا من الموزون قل ما يعدها القائلون ، وإن لنا لآلاف  
أوزان ماسمع بها الإنس . »  
وقوله :

« ولابد لأحدنا أن يكون عارفا بجميع الألسن الإنسانية وانا بعد ذلك لسان  
لا يعرفه الأنيس . »

ويقدسوه . ومما سهل عليهم الوصول إلى تحقيق هذه الغاية اعتقادهم  
أن لكل جنى موطنًا خاصًا به .

وقد قص الجنى على ابن الفارح — فى قصيدة أخرى — شيئًا كثيرًا مما ينسبه الناس  
إلى الجن ، فمن ذلك قوله :

« ونخرج الحسناء مطرودة      من بيتها عن سوء ظن حديس  
تقول : « لاتفنع بتطليقها      واقبل نصيحًا لم يكن بالدسيس »  
حق إذا صارت إلى غيره      عاد من الوجد بمجد تعيس  
نذكره منها — وقد زوجت —      نفرا كدر فى مدام غريس . »  
وفى هذه القصيدة يقول : —

« ونفتري جن « سليمان » كى      نطلق منها كل غاو حبيس  
صير فى قارورة رصصت      فلم تغادر منه غير النيس »  
يعنى بذلك أنهم يجوبون أنحاء البلاد باحثين عن إخوانهم من عصاة الجن الفاوين  
الذين سجنهم نبى الله « سليمان » فى قوارير أحكم سدادهما بالرصاص حتى لا يجدوا  
سبيلا إلى الفرار ، فلم يبق منهم ذلك الحبس الطويل إلا الرمق .  
وقد أشرنا فى رسالة الففران — إلى ذلك إشارة موجزة لأأس من إبتائها  
هنا لفائدة القراء :

#### أساطير الجن وسليمان النبى

شاعت أخبار « سليمان » والجن ، وانتشرت — منذ أقدم أزمنة التاريخ —  
فنسب إليه من الخوارق الفدرة المطلقة على تسخير الجن ومعرفة لغاتهم المختلفة ، ونسب  
إلى خاتمه — المشهور بما عليه من النقش معجزات لا تحصى ، كما عزى إلى بساطه قسرة  
خارقة على الطيران بما يخمله فى الجو بسرعة لا يكاد يتصورها العقل .  
وقد كادت تجمع تلك الأخبار على عدة أمور أفضجها الخيال ونسقتها التواتر ،  
فمن ذلك أن « سليمان النبى » كان يهيمن على الجن ويطلب منهم خدمات شتى

وهذا في حجر وذلك في نصب وثالث في شجرة (١)  
وكانت تجمع قبيلة — أو عدة قبائل أحيانا — على تمجيد جنى بعينه ،  
وتسكل العناية به إلى أسرة بعينها منوط بها أمر رعايته وتلبية رغباته —

---

تفاوت صعوبة ويسرا ، وقد يعن له أمر هام لا يستطيع إنفاذه إلا جنى بعينه يكون  
مشهورا بقدرته الخارقة ، فيرسل إليه ، فإذا لبى دعوته فذاك ، وإلا نكل به أو  
ختم جبهته بالنقش — الذى على خاتمه — فأحرقه تواء ، أو سجنه في قارورة مرصصة  
أو ققم من النحاس ، وربما سجنه في عمود طويل من الصخر بعد أن أوثقه  
بالسلاسل والأغلال وختمه بخاتمه .

وقد اشتهر وزيره الحكيم « آصف بن برخيا » بمساعداته القيمة لسليمان على إذلال  
الجن وإخضاعهم لأوامره .

وقد ذاع من تلك الأساطير — بين العامة والخاصة — شيء كثير ، وافتن الناس  
في رواياتها بأساليب شتى وطرق متباينة ، ولهذه الأساطير مصادر عدة — نخص  
بالذكر منها — عدا روايات وأقاصيص رواة العرب — مصدرين رئيسيين نعدهما من  
أخصب المصادر وأغناها وهما « أساطير ألف ليلة وألف يوم » وأسطورة  
« سيف بن ذي يزن » .

(١) ومن الأشجار التي كان يعظمها العرب ، في الجاهلية شجرة « ذات أنواط »  
وفيها يقول بعض الشعراء :

« لنا المهيمن يكفيننا أعادينا كما رفضنا إليه ذات أنواط . »

وفي هذه الشجرة يقول « أبو العلاء » في لزومياته :

« والحظ يدرك أقواما فيرفهم وقد ينال إلى أن يعبد الحجر

وشرفت « ذات أنواط » قبائلها ولم تباین — على علاتها — الشجر . »

وفي هذين البيتين أيضا إشارة إلى ما ذكره « دوزى » من عبادة العرب للحجر .



وكانت هذه الفئة تقوم بحراسته وتعظيم شأنه ، سواء في الحجر أو الشجرة أو الصورة التي تمثله ، كما تؤدي له حقه من المراسيم الكهنوتية والطقوس الدينية التي تقيمها في محرابه ، وربما سمع لذلك النصب صوت - كما يحدث ذلك في كثير من الأحيان - ومن الواضح أن الكهنة القائمين بحراسة الوثن قد مروا بالحيلة على إحداث تلك الأصوات لإيهام الناس أنها تتكلم - وكان لكل منها صوت خاص به يميزه عن غيره - وكان العرب يعدون ذلك من الخوارق والمعجزات التي يعزونها إلى أوثانهم .

كذلك كانت تحرص كل قبيلة على صنمها ، وتشيد بذكره ، وتفرد به بأقصى ما تستطيع من حب ، لأنها ترى فيه نوعاً من الملكية ، وكان الكهان ينضحون عنه ، ولا ينون في طلب القرابين لذلك النصب ، وإن كانوا - على الحقيقة - يطلبونها لأنفسهم ويمجرون المغنم لهم باسم الله تعالى .

هذا ما نستطيع أن نستخلصه بسهولة من القرآن ، وأقوال المفسرين على وجه الإجمال . على أن أحد المؤرخين الذين تخصصوا في درس ترجمة حياة النبي ، يعزون ذلك إلى قبيلة « خولان » وحدها ، وهي التي كانت تقطن اليمن في ناحية منه تعرف باسمها .

وكان من عادتهم ، حين تقدم القرابين إلى الآلهة - وهي من البر أو الفصال <sup>(١)</sup> - أن يقسموها قسمين ، أحدهما وقف على الله ، وهذا من نصيب المعوزين وأبناء السبيل الذي يحلون ضيوفاً على أهل القبيلة ، والآخرووقف على النصب ، وهو من نصيب الكهنة وخدمهم . فإذا وقع في القسم الأول - بطريق المصادفة - بعض النفائس ، استأنروا به وجعلوه من نصيب الوثن ، ووضعوا مكانه النصيب الأدنى لله <sup>(٢)</sup> .

ولكن ماعلاقة هذه الأرباب الصغيرة بالله ؟ لقد كانوا يعتقدون أن تلك الأرباب بنات الله <sup>(٣)</sup> ، وأن مثلها منه كمثل الفروع من

---

(١) الجمال الصغيرة ، قال الشاعر :

« لا أمتع العوذ بالفصال ، ولا أجاع إلا قرية الأجل . »

(٢) قال تعالى :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون . »

(٣) وما جاء في القرآن الكريم قوله : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون » وقوله : « ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون » وقوله : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بخرصون . »

الأصل تماماً . فهي تحكم الناس كما يحكم حاكم الإقليم بعد أن يخوله  
مليكه سلطان الحكم ، وثمة كانوا يرون في تلك الأرباب وسائط بين  
الناس وبين الله (١) .

---

(١) ينص القرآن على أن العرب لم يعبدوا الأصنام لذاتها — كما يتوهم بعض الناس —  
وقد ذكر «عبدالله بن عباس» في تفسير قوله تعالى : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا  
تنرن ودأ ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً » إن هذه الأسماء التي أطلقوها  
على أوثانهم ليست إلا أسماء قوم صالحين ، ماتوا ، فقالت عشائريهم : لو أنا صورناهم  
ليكون في ذلك تذكير لنا ، ونشيط على العبادة ، وحسن الاقتداء بهم ، فصوروهم  
حتى إذا تطاول بهم الأمد عبدوهم . «  
« المترجم »

## مكة والكعبة

وكانت مكة حاضرة الثقافة في أواسط بلاد العرب ، وقد بنتها قريش في منتصف القرن الخامس الميلادى ، في واد رملى شديد الضيق ، حتى ليبلغ أقصى اتساع فيه نحو سبعمائة خطوة - أما أضيق مكان فيه فلا يزيد عن مائة خطوة - وتكتنفه جبال جدّ عارية يتراوح ارتفاعها بين مائتى قدم وخسمائة .

في هذه المدينة المحراب الذى يفخر به كل من يملكه ويقع في حوزته ، ذلك هو محراب الكعبة الجليلة الشأن <sup>(١)</sup> وهو أقدم من المدينة نفسها بكثير ، وإن جدد وأعيد بناؤه عدة مرات ، وهو مؤلف من أربع حوائط مبنية بحجارة لم يهذبها الصقل ، وقد رصف بعضها إلى بعض دون أن يتخللها الملاط ، وقد غطيت بريطة <sup>(٢)</sup> أو بقطعة من القماش ، أما ارتفاعها فلا يزيد عن ارتفاع الرجل ، وأما مساحتها فتبلغ مائتى قدم .

وكان « هبل » <sup>(٣)</sup> اسم الصنم الكبير الرئيسى بين أصنامها ، منذ

---

(١) سميت كذلك لأنها ترى من بعيد على شكل مكعب منتظم الأضلاع « دوزى » .

(٢) ملاءة

(٣) قال ابن الكلبي : « كان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان

« المترجم »

« أعظمها هبل »

النصف الأول من القرن الثالث ، وهو تمثال عقيق<sup>(١)</sup> جلبه من الخارج بعض الرؤساء<sup>(٢)</sup> ، وكان « هُبَل » في ذلك العهد ربا لقبيلة قريش . أما الكعبة نفسها فلم تكن ملكا للقرشيين ، بل كانت — على الحقيقة — ملكا مشاعا لأكثر القبائل التي تربطهم بها وشائج المصلحة السياسية العامة ، وكان للكعبة صبغة عالمية عندهم .

وقد وضعت كل قبيلة من تلك القبائل صنمها الذي تعبد به في ذلك المحراب ( الكعبة ) حتى بلغ عدد الأرباب التي بها ثلثمائة وستين ربا ، وكان التسامح الديني سائدا ، وقد وصل بهم إلى أعظم حدوده ، فقد كنت ترى في الكعبة — زيادة على ما أسلفنا ذكره من الأصنام — صورة إبراهيم الخليل وصورة الملائكة ، وصورة العذراء مع طفلها عيسى .

\*\*\*

---

(١) روى ابن الكلبي :  
« انه كان من عقيق أحمر ، على صورة لإنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فجعلوا له يدا من الذهب » المترجم  
(٢) قالوا :  
« وكان أول من نصبه » خزيمه بن مدركة « وكان يقال له « هبل خزيمه »  
« المترجم »

## الحجر الاسود

على أنهم كانوا لا يقدسون شيئاً ، كما يقدسون « الحجر الأسود » وهو الحجر الذى يزعم المسلمون ، أنه كان فى أول أمره أبيض ، ثم اسودَّ من توالى الحريق الذى حدث فى الكعبة ، وقد لعب هذا الحجر فيما بعد - فى قابل الإسلام - دوراً خطيراً فى التاريخ الإسلامى ، ولا زال يعدّه المسلمون - حتى أيامنا هذه - حجراً مقدساً ، وسنذكر فى بعض الفصول التالية بعض أفاصيص يرويها بعض علماء الكلام واللاهوت من المسلمين عن هذا الحجر .

وقد وصفه لنا بعض السائحين الأوروبيين الذين شاهدوه ، فذكر أنه قطعة من حجر البازلت البركانى ، تلمع فى أنحائه تقط بلورية ، وتبدو فى بعض جهاته قطع صغيرة من النوع الذى يطلقون عليه اسم « فيلسبار » لونها تارة أحمر بأسفله ظلال قائمة ، وتارة أسمر ميل إلى السواد .

وقد تعاورته ظروف مختلفة ، فكسراً أكثر من مرة حتى غدا فى هذه الأيام مؤلفاً من اثنتى عشرة قطعة مضموم بعضها إلى بعض ، والكثيرون على أنه حجر من الرجوم الساقطة من السماء .

أما احترامهم الكعبة ، فقد بلغ بهم حد التقديس <sup>(١)</sup> وزاد لإجلالهم لها ، فقدسوا ما جاورها من البقاع - التي خلعت عليها الكعبة مسحة القداسة - وثم أصبح ما يكتنفها - إلى بُعد عدة فراسخ - حراما لا يجوز لكائن من كان أن يفتك بسواه فيها ، أو يصطاد من حيوانها ، احتراماً لها .

ويؤم الكعبة في كل عام جمهور ضخم من الناس من شتى الأنحاء ، لتأدية الشعائر الدينية المقدسة فيها .

## عبادة الأصنام <sup>(٢)</sup>

أما العبادة فقد فقدت معناها الأول في القرن السادس من الميلاد ،

---

(١) روى ابن الكلبي في كتابه الأصنام : « أنه لما سكن إسماعيل بن إبراهيم (ص) مكة ، ولد له بها أولاد كثيرون حتى ملأوا مكة ، وتقوا من كان بها من العبايق ، وضائق عليهم مكة ، ووقعت بينهم الحروب والعداوات ، وأخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا في الأرض التماس العاش . »

قال : « وكان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للكعبة وصيانة وصباية بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بها ، وصباية بالحرم وحباله ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتصرون ، على إثر أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتبار . »

« المترجم »

(٢) قالوا : « إن أول من أدخل عبادة الأصنام هو عمرو بن لحي » ، ولأنه أول من غير دين إسماعيل ونصب الأوثان ، وقد جاء في كتاب الأصنام . أن السبب

ودب فيها الفساد وتغير جوهرها ، فأصبحت طائفة من الخرافات والأوهام - التي يمجها العقل - تدين بها طائفة من المبطلين .  
قال أحد معاصري « محمد » <sup>(١)</sup> (ص) - :

« كنا - إذا عثرنا على حجر جميل - عبدناه ، فإذا عز علينا أن نجده ، أنشأنه من الرمل إنشاءً ، ثم سقيناه لبن ناقة درور مدة من الزمن ، ومتى تم لنا ذلك ، عبدناه ، ثم لانزال نفعل ذلك مادماً في ذلك المكان ! »

\*\*\*

ولكن هناك طائفة كبيرة من الناس كانت - على العكس من ذلك - على جانب عظيم من الرقي والحضارة ، فلم يكن عندهم عقيدة في أرباب هي من صنع أيديهم ، من الحجارة أو الخشب !  
ولقد كان الناس - في ظاهر أمرهم - يمجدون تلك الأرباب ، ويحجون إلى محرابها ، ويحتفون بواسمها السنوية ، ويذبحون القرابين

---

في ذلك أنه مرض مرضاً شديداً ، ف قيل له : إن البقاء من الشام « حة » إن أتيتها برأت ، فأثاها فاستحم بها فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : « ماهذه ؟ » فقالوا : « نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو » فسألم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . « المترجم »  
(١) هو « أبو رجاء العطاردي » تجد ترجمته في كتاب « ابن قتيبة » ص ١١٩ وفي مسند الدارمي ص ٣٦٤ .  
« دوزي »



فى هيا كلها ، ويريقون دماءها على تلك الآلهة التى يعبدونها ، سواء  
أكانت من الحجر أم من الخشب ، بل لقد كانوا يلجأون إليها كلما  
حزبهم أمر ، ليلتمسوا منها البركات ، ويتكشفوا بوساطتها مستقبل  
أمرهم الغامض .

على أن عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر ، أما فيما  
عدا ذلك ، فقد كانوا لا يترددون فى تحطيم آلهتهم إذا لم تتحقق  
نبوءتها ، أو إذا جرؤت على إذاعة شئ يكرهونه ويخشون إذاعته مما  
اقترفوه من الدنايا .

وقد تنزل بأحدهم كارثة فينذر لأحد الأصنام أن يذبح نعمة قربانا  
له إذا تكشفت غمته ، فلا يكاد يزول عنه الخطر<sup>(١)</sup> حتى يستبدل  
النعمة — وهى قيمة عنده — بغزال لا يكلفه ثمنه أكثر من أن يصطاده  
بيده ، يفعل ذلك وهو معتقد أن ذلك المعبود لا يكاد يفرق بين

---

(١) هذا هو حال أغلب الناس — على اختلاف أديانهم وأزمانهم — وليس أبلغ  
فى أداء هذا المعنى من قوله تعالى : « وإذا مس الإنسان الضر ، دعانا لجنبه ، أو  
قاعدا ، أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره ، مر كأن لم يدعنا إلى ضره ! »  
وفى ذلك يقول « ابن دريد » فى مقصورته الرائعة .

« نحن — ولا كفران لله — كما قد قيل للسائق أخلى فارتمى  
إذا أحس نبأ ريم ، وإن تطامنت عنه ، اطمان ولها . »

النعجة والغزال ! (١)

أضف إلى ذلك أن نبوءات الآلهة لم يكن لها خطر عندهم ، مالم توافق رغباتهم ، وتعتبر عما يقصدون إليه من التفاؤل ، بما هم قادمون عليه من الأمور .

يؤيد ذلك أن أعرايا اعتزم أن يثار لأبيه ممن قتله ، فأنى « ذا الخلصة » (٢) وهو نصب مربع الشكل من الحجر الأبيض - ليستشير فيه فيما هو قادم عليه ، وبدأ يقترح - على عادة العرب في ذلك - فرأى في السهم الأول أمراً بالمضى في طريقه ، وفي الثاني نهياً عن ذلك ، وفي الثالث أمراً بالانتظار والتريث ، فلم ترضه هذه النتيجة ، وأعاد الكرة مرة بعد أخرى ، فكانت النتيجة واحدة في المرات

(١) كان للنعجة قيمة كبيرة عند العرب ، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها وصوفها ولحها ، وما أجل قول أحد العرب يهدد زوجته متهمها . -

« غضبت على لأن شربت بصوف ولئن غضبت لأشرين بخروف ولئن غضبت لأشرين بنعجة كوماء مائلة الإناء سحوف . »

(٢) كان « ذو الخلصة » - فيما يقول ابن الكلبي - مروة يضاء ، منقوشا عليها كهية الناج ، وكانت « بتالة » بين مكة واليمن ، على مسيرة سبع ليال من مكة - وكان سدنتها بنو أمامة من « باهلة بن أعصر » وكانت تعظمها وتهدي لها « خشم » و « بجيلة » و « أزرد الصراء » ومن قارهم من بطون العرب من « هوازن » ومن كان يبلادهم من العرب بتالة . قال . وكانت العرب جميعا تعظمه «

« المترجم »

الثلاث ، فغضب وألقى بالسهم فى وجه الصنم وقال له :

« مصصت بظر أمك ، لو كان أبوك قتل ماعوقتنى ! » <sup>(١)</sup>

كذلك كانوا يفضيئون لأتفه الأسباب ، وكلما تعارضت أوامرها مع رغباتهم ، ولم تعبر عما يودون سماعه من الكلام ، انهالوا عليها بالسباب والتحقير .

وأقبل رجل من بنى ملكان <sup>(٢)</sup> على « سعد » صنم قبيلته المعبود ، وهو صنم فى الصحراء - وكان مع الرجل إبله جاء بها ليقفها عليه -

---

(١) قالوا : إن امرؤ القيس بن حجر ، لما أقبل يريد الفارة على بنى أسد ، مر بنى الخلصة - وكانت له ثلاثة أقداح ، « الأمر والنهى والتربص » - فاستقسم عنده ثلاث مرات ، فخرج الناهى ، فكسر القداح ، وضرب بها فى وجه الصنم ، وقال هذه الجملة ، وتروى - فى رواية أخرى - بأشنع من ذلك .

قالوا . فكان امرؤ القيس أول من أخفزه ، ثم غزا بنى أسد فظفر بهم ! وفى رواية أخرى أن رجلا كان أبوه قد قتل ، فأراد الطلب بثأره ، فأتى هذا الخلصة ، فاستقسم عنده بالأزلام ، فخرج السهم ينهائى عن ذلك ، فقال . « لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثلى ، وكان شيخك المقبوراً لم تنه عن قتل العداة زورا . »

(٢) قال ابن الكلبي . « وكان لملك ومكان ابني كنانة ، بساحل جدة ، وتلك الناحية ، صنم يقال له « سعد » وكان صخرة طويلة ، فأقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه نفرت منه - وكان يهراق عليه الدماء - فذهبت فى كل وجه ونفرت عليه ، وأسف فتناول حجرا ، فرماه به ، وقال . « لا بارك الله فيك إنما أنفرت على إبل . » ثم خرج فى طلبها وانصرف وهو يقول ( الأبيات ) .

يريد التبرك به ، وبينما كانوا يريقون عليه دماء العتائر<sup>(١)</sup> — حسب عاداتهم — ففرت الإبل وولت هاربة . فغضب صاحبها ، وتناول حجراً ، فرمى به وقال :

« لا بارك الله فيك إلهماً أففرت على إيلي » ثم خرج في طلبها حتى جمعها ، وانصرف عنه وهو يقول :

« أتينا إلى « سعد » ليجمع شملنا

فشتتنا « سعد » فلا نحن من « سعد »

وهل « سعد » إلا صخرة بتنوفة

من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد ؟ »

\*\*\*

وكان « بنو حنيفة » أنفسهم أقل الناس احتراماً لآلهتهم ، إذ كانوا يأكلونها . ونحن جديرون أن نقرر عذرهم في ذلك ، فقد كانوا يصنعون آلهتهم من نوع — بعينه — من العجوة ومن اللبن والزبد ، فلما وقعوا في قحط ومجاعة أكلوها .

\*\*\*

ومن هنا يتضح أن العرب لم تكن تعتقد في تلك الأرباب اعتقاداً

---

(١) هو الاسم الذي كانوا يطلقونه على ذبائح الغنم التي يذبحونها عند أصنامهم .

جديا ، فقد كان أكبر شيء يحترمونه هو الله تعالى . على أن الله لم يكن له عندهم أيضا عقيدة قوية راسخة في قرارة نفوسهم ، لأنهم كانوا لا يعرفون عنه شيئا كثيرا ، إذ لم يكن له كهان يدعون الناس إليه ، ويرغبونهم في عبادته وطاعته ، ويذيعون إرادته ويوضحون لهم ما قدره من خير وشر .

## عقيدة البعث

ولم يكن الناس على عقيدة واحدة ، بل كانوا شديدي الاختلاف ، فمنهم من كان يؤمن بحياة ثانية بعد هذه الحياة ، ويدين باليوم الآخر ، ولا يقف عند حد الاعتقاد في بعث الإنسان ، بل يدين ببعث الحيوان أيضا .

ومن ثم كان يدفن راحلته إلى جانبه أو يتركها تموت على قبره ، ليركبها يوم القيامة ، فلا يتكبد عناء السير على قدميه . على أن سوادهم كان يستهزئ بفكرة البعث ويسخر منها ، وكانوا يدينون في كل مكان برأى القائل :

« حياة ، ثم موت ، ثم حشر حديث خرافة يا أم عمرو . »

\*\*\*

وليس في هذا موضع للعجب ، فإن هذه الفكرة - فكرة البعث -

لمحبة إلى نفوس الآريين ، شديدة الغرابة عند الساميين ، وآية ذلك ، أن اليهود أنفسهم لم يقبلوها من الفرس إلا بعد تشريدهم <sup>(١)</sup> ، إن لم تقل في أوائل التاريخ الميلادي ، على أن جماعة الصدوقيين نفسها — وهي كبيرة العدد — قد رفضت فكرة البعث ، ولم تقبلها قط <sup>(٢)</sup> .

(١) يعرف تشريد اليهود ونفيهم عند المؤرخين باسم جلاء بابل ! فقد تولى « مختصر » في عام ( ٦٠٦ ق م ) وأجلى اليهود عن بيت المقدس ، وضربه وأخذ آتيته الثمينة وقد مكث مخرباً نحو مائة عام ، وشرد اليهود كل مشرد ، وذهب فريق منهم أسرى إلى بابل وبلاد « مادي » . وفي عام ( ٢١٠ ب م . ) جاء « طيطوس » فنكس اليهود مرة أخرى وهدم « بيت المقدس » وشتت شملهم ، وحرّم عليهم الإقامة في « فلسطين » وقد كتب « يوسفوس » المؤرخ كتابه عن اليهود ، وما حدث لهم في تلك الموقعة .

« المترجم »

#### (٢) الصدوقيون

فرقة من اليهود ظهرت في وقت العهد الجديد ، وهي تنسب — في رأى بعض المؤرخين — إلى « صدقيا » وهو من أسرة أرستقراطية ، من أحبار « بيت المقدس » في زمن « سليمان » عليه السلام ، وفي رأى آخرين أنهم منسوبون إلى الكلمة العبرية التي معناها « الحق » وهي قريبة الحروف من الكلمة العربية . وأهم مميزات الصدوقيين هي : أنهم كانوا حزب الأرستقراطية . وأنهم كانوا لا يعترفون بغير التوراة المكتوبة ، ويرفضون كل ما عداها مما زيد عليها من الأحاديث الشفوية المروية عن « موسى » — عليه السلام — كما كانوا يرفضون كل ما أضيف إليها من التفاسير والدروس ، التي أدخلها فيها النساخ .

ولهذا رفض الصدوقيون الإيمان بأهم الأسس التي بنيت عليها الديانة اليهودية ، فلم يؤمنوا بالبعث ، ولم يقبلوا فكرة الخلود ، ولا فكرة الجزاء في الدار الآخرة ،

كذلك لم يلق «محمد» صلى الله عليه وسلم مقاومة جديّة من العرب

وكانوا — إلى ذلك — ينكرون الملائكة ويحسدون الأرواح ، ويفرون — تهرير الجازم المستيقن — أن الإنسان بخير — بأوسع ماتحويه هذه الكلمة من معان — وأنه متمتع بحرية الإرادة في كل مايفعله من خير أو شر ، وأن سعادته وشقاوته — على هذا — ثمرة غرسه وتناج عمله .

ويرى بعض المؤرخين أن الصدوقيين ، لم ينكروا وجود الملائكة والشياطين ، كما يتبادر إلى ذهن من أقوالهم ، وأن هذا الوهم سببه عدم تحرّى الدقة في فهم عبارتهم التي التبس على الكثيرين فهمها ، وإنما أنكر الصدوقيون أن يكون للملائكة والشياطين دخل في أعمال الإنسان ، فعبارة إنكارهم الملائكة والشياطين يجب أن يفهمها المؤرخ بعد أن يتعرف المناسبة التي قبلت فيها والقرينة التي اقترنت بها . ولقد كان ينقص الصدوقيين حرارة الإيمان وقوة العقيدة اللتان امتاز بهما الفريسيون الذين كانوا يعقدون آمالهم على الدار الآخرة ، ومايتوقعونه فيها من الجزاء . فلم يحفلوا بالاعتبارات الدنيوية ، على أن الانصاف يقضى علينا أن نقرر أن ذلك لم يكن إلا في ظاهر معتقداتهم ، وأنهم قد تاجروا بهذه المبادئ ، واتخذوها وسيلة إلى المداهنة والرياء ، حتى أصبح خصومهم يطلقون من اسمهم هذا — على سبيل المجاز — صفة لكل من يناق أو يعنى بظاهر اللفظ ويستغنى بالمشهور عن اللباب ، ويفضل المصطلحات والمظاهر ، على جوهر الحقيقة الخالصة المقصودة لذاتها .

وكان سقوط الدولة اليهودية مصحوبا بالقضاء على الصدوقيين وقد ورد ذكرهم في « التلمود » ولسكن عبارة « التلمود » غامضة لايسهل اجتلاؤها لمن يريد تعرف الحقيقة .

وقد قسم « ابن حزم » — في كتاب الملل والنحل — اليهود إلى خمس فرق، وهي :  
١ — السامرية : وهم يقولون إن مدينة « القدس » هي نابلس — وهي من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلا — ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه ، ولهم

إلا حين دعاهم إلى هذه الفكرة ، ونادى فيهم بوجوب الإيمان بصحتها ،

توراة غير التي بأيدى سائر اليهود ، ويطلبون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام وبعد يوشع — عليه السلام — فيكذبون بنبوة « شمعون وداود وسليمان وأشعيا واليشع وإلياس وعاموص وحقوق وزكريا وأرميا » وغيرهم ، ولا يقرون بالبعث البتة ، وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها .

٢ — الصدوقية : وينسبون إلى رجل يقال له « صدوق » وهم يقولون من بين سائر اليهود إن العزيز هو ابن الله — تعالى الله عن ذلك — وكانوا بجهة اليمن .

٣ — والعنانية : وهم أصحاب عانان الداودي اليهودي ، وتسميهم اليهود العراس والمس ، وقولهم إنهم لا يتعدون شرائع التوراة وما جاء في كتب الأنبياء ويتبرأون من قول الأحبار ويكذبونهم ، وهذه الفرق بالعراق ومصر والشام ، وهم من الأندلس بطليطاة وطليبة ،

٤ — والرباية : وهم الأشعنية — : وهم القائلون بأقوال الأحبار ومذاهبهم وهم جمهور اليهود .

٥ — والعيسوية ، وهم أصحاب أبي عيسى الأصبهاني — رجل من اليهود كان بأصبهان — وبلغني أن اسمه كان « محمد بن عيسى » وهم يقولون بنبوة « عيسى ابن مريم » و « محمد » ( ص ) .

ويقولون إن « عيسى » بعثه الله — عز وجل — إلى بني إسرائيل — على ما جاء في الإنجيل — وإنه أحد أنبياء بني إسرائيل ، ويقولون إن « محمدا » ( ص ) نبي أرسله الله تعالى بشرائع القرآن إلى بني إسماعيل عليهم السلام ، وإلى سائر العرب كما كان « أيوب » نبيا في بني عيص ، وكما كان « بلعام » نبيا في بني « مواب » بإقرار من جميع فرق اليهود .



وما زال البدوى - إلى أيامنا هذه - لا يعنيه أمر البعث ، ولا يكثر له (١) .

(١) قال « أبو العلاء » في رسالة النفران :  
وبعض العلماء يقول : « إن سادات قریش كانوا زنادقة » وما أجدرهم بذلك ،  
وفي ذلك يقول شاعرهم :

|                               |                          |
|-------------------------------|--------------------------|
| « أملت بالتحية أم بكر         | غيا أم بكر بالسلام       |
| وكائن بالطوى - طوى بدر -      | من الأحساب والقوم الكرام |
| ألا يا أم بكر لا تنكرى        | على الكأس بعد أخى هشام   |
| وبعد أخى أبيه وكان قرما       | من الأرقام شراب المدام   |
| ألا من مبلغ الرحمن عني        | بأق تارك شهر الصيام      |
| إذا ما الرأس زایل منكبيه      | فقد شبع الأنيس من الطعام |
| أيوعدنا « ابن كبشة » أن سنحيا | وكيف حياة أصداء وهام ؟   |
| أترك أن ترد الموت عني         | وتحيني إذا بيت عظامي ؟   |

ولا يدعى مثل هذه الدعاوى إلا من يستبسل وراءها للحام ، ولا بأس له  
إلا عند إلمام . ا . ه . م . « المترجم »

## المسيحية واليهودية

قلنا إن ديانة العرب الأولى كانت واهية ، لا تركز على أساس متين ، ومتى أقررنا ذلك ، سهل أن نفرض أنه كان من اليسير على العرب أن يقبلوا دينًا آخر - غير دينهم هذا - فيدينوا بالمسيحية أو اليهودية مثلاً .

وهذا كلام صحيح ، ولكن إلى حد ما . فقد انتشرت المسيحية لهذا السبب نفسه في جهتين ، انتشرت في بلاد الحبشة - جنوباً - وفي سوريا - شمالاً - حيث لقيت شيئاً من القبول ، وقد انتشرت كذلك في مدينة « نجران » في وقت مبكر ، ودانت شبه جزيرة سينا بالمسيحية ، كما تنصر عرب سوريا ، وأصبح علم النصرانية خفاقاً على كثير من الأديرة والكنائس .

على أن هذا النجاح كله لم يكن - في أى مكان تقريباً - إلا مظهراً من المظاهر للاحقة من الحقائق .

أما في أواسط بلاد العرب ، وفي قلب جزيرتهم حيث نبتت جرثومة العربي القح وأرومته ، فلم تنجح فيها الدعاية للدين المسيحى ، ولم نكن لنرى ثم إلا أثراً ضعيفاً له - إن لم تقل - معدوماً .

وكانت المسيحية في ذلك الزمن - على وجه عام - بما تحويه من

معجزات ، وبما فيها من عقيدة الثلاث ، وما يتصل بذلك من رب مصلوب - قليلة الجاذبية ، بعيدة عن التأثير في نفس العربي الساخر الذكي .  
وآية ذلك ما تراه واضحا فيما حدث للأساقفة الذين سعوا إلى تنصير « المنذر » الثالث ملك « الحيرة » - حوالي عام ٥١٣ من الميلاد -  
وإن المنذر ليصنى إلى ما يقولون بانتباه ، إذ دخل عليه أحد قواده ، فأسر إليه بضع كلمات ، ولم يكذب ينتهى منها حتى بدت على أساور الملك أمارات الحزن العميق ، فتقدم إليه أحد القساوسة يسأله متأدبا متلطفنا عما أشجاء ، فأجابه الملك :

« ياله من خبر سيء ! لقد علمت أن رئيس الملائكة قد مات ، فواحسرتا عليه ! »

فقال القسيس :

« هذا محال أيها الأمير ، وقد غشك من أخبرك بذلك ، فإن

الملائكة خالدون يستحيل عليهم الفناء ! »

فأجابه الملك :

« أحق ما تقول ؟ وتريد أن تقنعني بأن الله ذاته يموت ؟ »

\*\*\*

أما حظ اليهودية في اجتذاب العرب إليها ، فهو أكثر من حظ المسيحية ، فقد رحلت جمهرة كبيرة من اليهود بعد أن شردهم الإمبراطور

« أدريان » الذى ثاروا عليه ، فألحق بهم الأذى ، وشتت شملهم ، فوجدوا فى بلاد العرب ملجأ لهم ، وبثوا دعايتهم فيها ، فدان باليهودية قبائل عدة من سكان الجزيرة العربية .

ولعل هؤلاء هم وحدهم المتهودون الذين أخلصوا لليهودية حقاً ، وقد صارت اليهودية نفسها - فى زمن ما - دين اليمين الرسمى . على أنها ضعفت - على مرور الزمن - وقل إقبال العرب عليها ، لأن اليهودية لاتلائم إلا شعباً مختاراً ، أما أن تكون ديناً عامة للناس قاطبة فلا ! ذلك أنها ملأت بالشكايات والآمال الغامضة التى تعلق بها اليهود بعد أن خرب « بيت المقدس » . وليس هذا مما تلائم طبيعته الشعب الطموح إلى المجد !

وليس من أصالة رأى أن نقول إن سواد العرب ، كانوا يشعرون بحاجة إلى دين آخر ، فإن العربى - ذلك البدوى الحركى سنراه فى كثير من المناسبات التى ستيحها لنا الفرص أثناء دراسته - ليس متديناً بطبعه ، كما أن كل محاولة بذلت فى سبيل جعله كذلك كان نصيبها الفشل التام .

فالعربى رجل على مادى ، لا يعنى بغير الحقائق حتى فى شعره ، فهو لا يسبح فى الخيال والوهم ، ولا يميل إلى الأخذ بتلك الألفاظ والمعميات الدينية . التى يعتمد الإنسان فى استيعابها على التخيل

أكثر من اعتماده على التعقل .

\*\*\*

إن ديانة العرب التي ألفوها ، لم تكن مهيمنة على نفوسهم ومشاعرهم ، بل كانت ضعيفة الأثر ، قليلة الخطر ، ولكنها كانت دين سوادهم على كل حال ، فإذا كان من الحق علينا أن نعترف أن المستنيرين منهم لم يؤمنوا بتلك الأرباب ، فمن الحق علينا أن نقرر أيضاً أن عدم إيمانهم بها لم يكن كافياً للقضاء عليها .

والحق أن أحداً لم يكن مضطراً إلى العقيدة ، فقد كان البدو لا يبالون أن يسخروا حتى من أربابهم التي يعبدونها ، ولا يترددون في إلحاق الأذى والضرر بها ، بقلوب جد مغتبطة ، بيد أن القضاء - بعد كل هذه الاعتبارات - على عبادة يدين بها أجدادهم وآباؤهم من قبل ، كان يثير في نفوسهم كبرياءهم القومي ، أنفة من أن يتركوا دين أسلافهم الذين كانوا يفردونهم بكل إجلال وإكبار .

وجماع القول أن الديانة كانت في نظر العربي القديم - كما هي في نظر البدوي أيامنا هذه - أمراً لا خطر له . وآية ذلك أن شعراء الجاهلية ، لانكاد نراهم يذكرون ديناً أو عقيدة في أشعارهم ، ولو فتشنا أناشيدهم لم نرفيها - إذا استثنينا أسماء الآلهة وبعض الشعائر

المختلفة - إلا عبارات مقتضبة ، لا تكاد تعثر فيها على ذكر لعبادتهم القديمة .

لقد عاش العرب للحياة الحاضرة ، ولم يشغلوا أذهانهم بشيء من مسائل وراء الطبيعة ، وكان مؤمنوهم يتابعونهم في ذلك الشعور ويصدرون عنه .

ومع كل هذه الاعتبارات ، فقد وجدت لهذه القاعدة شواذ - شأن كل قاعدة - فإن وجود جماعات شتى من متأهلي العرب الذين يدينون بوحدانية الله وإن اختلفت وجهاتهم وتباينت نحلهم - لَتَدَيِّنُ بعضهم باليهودية أو المسيحية - كان أمرا له خطره عند العرب ، وله أثره في نفوسهم ، إذ كان أولئك المتألهون لا يفتنون يثون عقائدهم فيمن حولهم من العرب .

## الحنيفية

ومن ثم رأينا في أواخر القرن السادس الميلادي لبعض الشعراء دلائل وآثارا لإيمان عميق بوحدانية الله ، ورأينا منهم شعورا يقظا بالتبعة المترتبة على ماتصنعه أيديهم من خير أو شر . وهذه الفئة - التي ترى هذا الرأي - هي طائفة الحنفاء <sup>(١)</sup> ، وقد كانوا في شتى الأنحاء ،

---

(١) يذهب الأستاذ « سبرنجر » إلى أن كلمة « حنيف » معناها في الأصل ملحد ، أو كافر وعندى أن في هذا التفسير إسرافا ومغالاة لا يقبلها باحث ، وليس يتسع المقام لظهور حقيقة الحنيفية والحنفاء التي سأبينها في بعض الفصول الأخيرة من هذا الكتاب ، فلاكتف الآن بحالة القاريء على ما كتبت في أوائل هذا الفصل « دوزى »

### الحنيفية

اختلف الناس في تفسير هذه الكلمة واضطرب الفراح في معانيها اضطرابا شديدا . بلغت مسافة الخلف فيه من التقيض إلى التقيض ، ولهم العذر في ذلك فقد تطورت معاني هذه الكلمة - بمرور الزمن - فكان هذا التطور سبب الحيرة والشك اللذين وقع فيها أكثر المفسرين ، وقد ذكر صاحب « لسان العرب » وغيره معاني مختلفة لهذه الكلمة لا تربطها صلة ، وليس هنا مجال التوسع في سرد ما قالوه ، وكتبوه في ذلك ، فلنجتزئ بمرح معناها الذي نفهمه بإيجاز ، وهو فهم يلازم بين تلك الآراء كلها :

« كلمة الحنيف أصل معناها المائل عن الطريق المعبود سوى الذي ألفه سواد الناس إلى طريق آخر ، وهذا هو ما فعله « إبراهيم » عليه السلام - فقد خالف ما كان عليه قومه من الشرك والوثنية ، ومال عن سنتهم إلى طريق التوحيد ،

لا تربطهم أية آصرة ، ولا يضمهم مذهب بعينه كما يفعل الصابئة المنتسبون إلى « ابراهيم » الذين كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء أيضا ! .

فأطلق عليه قومه اسم « الحنيف » ثم خلفه من بعده من أبنائه فاتبعوه في حنيفته ولكن مذهب « ابراهيم » وشريعته دخلهما كثير من الضلالات والأوهام والبدع ، ومن ثم تباین اتباعه في نحلهم وعقائدهم ، فوجد منهم المؤمن الحق والمشرك الوثني ، ولكن كلا منهم احتفظ لنفسه باسم الحنيفية ، وأطلقوا على أنفسهم لفظة الحنفاء . فلما جاء الاسلام وجد لفظة الحنيفية في حاجة إلى تحديد ، فلم يكتف بوصف ابراهيم — عليه السلام — بالحنيفية ، بل احتس ، فقال عنه إنه كان حنيفاً مسلماً . ولعل خير ما نختّم به هذه الكلمة هو قول الأستاذ الامام « محمد عبده » في تفسير الآية : « قل بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . » وإليك ما قال :

« قال بعض المشتغلين بالعربية من الافرنج : إن الحنيفية هي ما كان عليه العرب من الشرك ، واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى — في زمن الجاهلية — « إن فعلت هذا أكون حنيفا . » وإنها لفلسفة جاءت من الجهل باللغة ، وقد ناظرت بعض علماء الافرنج في هذا ، فلم يجد ما يحتاج به إلا عبارة ذلك النصارى . وهو الآن يجمع كل ما نقل عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها ولا دليل في كلمة النصارى العربى على أن الكلمة تدل — لغة — على الشرك ، وإنما مراده بكلمته ، البراءة من دين العرب مطلقا ، وذلك أن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء أيضاً . والسبب في هذه التسمية هو الدعوى أن سلفهم كانوا على ملة ابراهيم حقيقة ، ثم طرأت عليهم الوثنية فأخذتهم عن عقيدتهم وأنستهم أحكام ملتهم وأعمالها ، فانسوا بعضها بالمرّة ، وخرجوا ببعض آخر عن أصله ، ووصفه كاللحج .



وكان لهاتين الطائفتين - من الحنفاء - رأى واحد في رفض اليهودية والمسيحية معاً ، والاعتراف بدين « إبراهيم » . وإبراهيم هذا - الذى عرفوه من اليهود والنصارى - هو الأصل الذى ينسبون إليه ، فهو والد جدهم « إسماعيل » وهو الذى بنى الكعبة فى مكة . وكانت شريعته الحنفاء سمحة رشيدة ، واضحة المحجة ، سهلة الاقتناع لهؤلاء العرب العاملين - وهى فى جوهرها - صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة ، ولم ينقصها بلوغ هذه الغاية - إلا أن تكون عقيدة ثابتة مستقرة ، وأن تكون لها هيئة روحية ذات سيادة دينية ، وأن تكون منزلة من السماء ، أو تفهم على أنها كذلك .

\*\*\*

وهذا هو العمل العظيم الذى أخذ « محمد » ( صلى الله عليه وسلم ) على عاتقه القيام به ليتم نقص الحنيفية . ولكن هذا العمل - على ما فيه من صعوبة - قد ضوعفت مصاعبه ، لأن العرب لم يكونوا فى غير حاجة إلى الدين فحسب ، بل كانوا - إلى ذلك - ينفرون بطبيعتهم من كل مظهر من مظاهر العبادة ومراسمها ، كما كانوا يكرهون الفروض الغامضة والمعميات التى تتصل بما وراء الطبيعة .

ولابد من إقناع جازم ، و يقين لا يتزعزع للتغلب على هذه العقبات .

---

ونفى المرك عن إبراهيم - فى آخر الآية - احتراس من وهم الواهين وتكذيب لدعوى المدعين . « ١ هـ .  
« المترجم »

## بعد وفاة النبي<sup>(١)</sup>

مات النبي ولم يترك ولداً له ، ولم يعين خليفة يخلفه ، فكانت الساعة غاية في الحرج ، وأصبح كيان الإسلام نفسه مهدداً نهب الحوادث والظروف ، وقد انتشر خبر وفاته بسرعة لا مثيل لها ، وكان له وقع شديد على أصدقائه المخلصين ، وكأنما أصابهم صاعقة حين بلغهم هذا النبأ المروع ، وكان الناس قسمين : قسماً يحسبه خالداً لن يموت ، وقسماً لا يتوقع موته بهذه السرعة ، بل يؤمل له حياة طويلة وعمراً مديداً ، وكان « عمر » - خاصة - ممن يؤمل هذا الأمل .

وبعد أن مات النبي ، وأسلم آخر أنفاسه بزمن يسير ، دخل « عمر » مخدع « عائشة » فرفع الغطاء - الذي كانت جثة النبي مسجاة به - وتأمل محيا سيده ملباً - وهو في نومه الأبدية - فرأى كل شيء هادئاً ونظراً إلى ما حوله ، فرأى سكونا طبعياً ، فلم يعد يصدق ذلك النبأ المروع ، وصاح - :

« كلا لم يميت النبي ، بل هو في غيبوبة ! »

وكان « المغيرة » حاضراً ، فحاول عبثاً أن يرشده إلى خطئه ، فقد صرخ فيه « عمر » - :

« كلا ، بل تكذب ، إن رسول الله لم يميت ، ولكن خبث طوييتك »

---

(١) فصل آخر من كتاب : « الاسلام » لدوزى .

وفساد نفسك الشريرة ، قد أدخلنا في روعك هذا الوهم الخاطيء ، ولن يموت النبي قبل أن يقضى على المنافقين ، ويبيد أهل الشرك . »

ثم ذهب « عمر » من - توه - إلى المسجد ، فصاح فيمن تجمهر من الناس : -

« لقد زعم الزاعمون ، وأرجف المرجفون ، أن محمداً قد مات ، وبئس ما يقولون ، ألا إن محمداً لم يمت وإنما ذهب للقاء ربه ، كما فعل « موسى » إذ غاب عن قومه أربعين يوماً ، ثم رجع إلى أصحابه - بعد أن يئسوا من عودته - ووالله ليعودن النبي كذلك ، ثم ليعاقبن كل من اجتراً على هذا القول ! »

ولم يكديسمع الحاضرون قوله حتى أمنوا عليه ، ولا غرو في ذلك ، فقد كانوا - إلى زمن يسير جداً - يرون محمداً في نفس المكان الذي يخطبهم فيه « عمر » فلم يكن أحب من تصديق ما يقوله « عمر » .

وجاء « أبو بكر » في هذه اللحظة فاخترق المسجد ، وأصغى هنيهة قصيرة إلى كلام « عمر » المتأجج عاطفة وحماسة ، ثم أسرع إلى مخدع « عائشة » ووقف أمام جثة النبي أيضاً ، فرفع الغطاء عنها ، وقبل وجه صاحبه - وهو مستغرق في نومته الأبدية - ثم صاح قائلاً :

« طبت حياً وميتاً . »

ورفع رأس النبي بتودة وأناة ، وتأمل أسارير ذلك الوجه الذى

طلما تلى به من قبل ، ثم قال : —

« نعم ، لقد مت ، فوا أسفاه عليك أيها الصديق المحبوب ، أبى أنت وأخي ، فقد قاسيت من غمرات الحمام ما قاسيت ، وتجرعت من غصص الموت ما تجرعت . وإنك لأكرم على الله من أن تتجرع هذا الكأس مرة أخرى ! »

ثم وضع رأس النبي برفق — على وسادته — وقبل رفيقه مرة أخرى ، ثم سجاه بغطائه ورجع — أدراجه — إلى المسجد ، فوجد « عمر » لا يزال يتأجج حاسة . وهو يخطب الناس ليقنعهم أن الرسول لم يمت ، فصاح فيه — :

« حسبك يا عمر؟ هدىء من ثائرتك واجلس حيث أنت ! » فلم يصغ إليه « عمر » وطفق يخطب الناس ، فولى « أبو بكر » وجهه شطر الناس ، فأقبلوا عليه ، وتركوا « عمر » فقال لهم « أبو بكر » :  
« أما قال تعالى — فى محكم آياته — لنبيه : « إنك ميت وإنهم ميتون ؟ »

أما قال تعالى فى آية أخرى — بعد موقعة أحد — :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو

قتل اتقلبتم على أعقابكم ؟ »

ألا إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت . ! »

\*\*\*

وكأثما كان الناس في حلم ، فأفاقوا منه بعد ما سمعوه من قول « أبي بكر » . فقد ذهل الناس من فداحة الخطب عن هذه الآيات القرآنية حتى إذا ذكرهم بها « أبو بكر » الرزين أيقنوا جميعاً أنهم لن يروا النبی بعد .

## انتخاب الخليفة

بقيت عقدة خطيرة لا بد من حلها ، وهى أن « محمدآ » قد مات ، ولم يعين من يخلفه ، فلا مندوحة إذن عن انتخاب أمير لهم . ولكن من الذى يعيّن هذا الأمير ؟

أيعينه كل المسلمين ؟ هذا حسن ، فهل من سبيل إلى تحقيقه ؟  
لقد كان الوقت عصيبا ، وكان من السهل أن يرى الإنسان أمامه أزمة رهية وشيكة ، وجهرة من القبائل لن تلبث أن ترتد عن الإسلام ؟ إذن يتعين أن يقتصر انتخاب الخليفة على القبيلة التى لها الصدارة والسلطان بين قبائل العرب قاطبة ، وثم اجتمع الأنصار « أهل المدينة » الذين عز بهم الإسلام وانتصر ، فمن يختارون ؟

لا مجال للتردد والحيرة ، فأمامهم الفارس النبيل « سعد بن عبادة » رئيس « الخزرج » ، وقد كان من الطبيعى المألوف أن يختاروه - ولم يكن حينئذ قد تم شفاؤه من مرض خطير كان قد ألم به - فخلوه مُدْتَرَأً مُدَوَّجًا إلى جمهور المدنيين - وكان ضعيفا من أثر المرض ، فلم يستطع إبلاغهم صوته ، فقام أحد أصحابه يردد ما يقول .

وقد ذكر « سعد بن عبادة » أصحابه بأنهم أول من دخل الإسلام من القبائل ، وأن نصرته لم تتم إلا بهم بعد ، وأنهم لذلك

جديرون بالزعامة على العرب قاطبة ؟

فقابلوا كلامه بالاستحسان والتحييد ، وأظهر جمهورهم له حماسة شديدة ، ونادوا به - في الحال - خليفة لرسول الله ، ولكن فئة قليلة منهم أبدت خوفها من رفض المهاجرين هذا الرأي ، وعدم رضائهم عنه ، فأجابهم أصحابهم :

« لاعلينا من ذلك ، سنقول لهم حينئذ : « اقمدا اخترنا لنا أميراً ، فاختاروا لكم أميراً ، واقتربوا عنا ، فلن ندعن - بحال ما - لغير أميرنا الذي اخترناه . »

ولم يكذب يبلغ « أبا بكر » هذا النبأ ، حتى أقبل عليهم بأقصى ما في قدرته من سرعة - ومعه عمر وأبو عبيدة - وما كادوا يصلون ، حتى انبرى « عمر » للكلام ، فمنعه « أبو بكر » - وله كل الحق فيما فعل - خشية من تحمسه واندفاعه ، وقال له :

« تريث حتى أتكلم ، ثم قل ما شئت بعدى ؟ »

\*\*\*

وبدا « أبو بكر » يخطب الناس - بكل تواضع - فاعترف للمدنيين بما قاموا به من خدمات جليلة للإسلام ، ثم أظهر لهم - إلى هذا - جدارة المهاجرين بالخلافة ، لقرباتهم من الرسول وكونهم من أسرته ، ثم لأنهم أول من دان بالإسلام ، وقد لقوا في سبيله ألوانا من العسف ،

وضربوا من النكال ، واحتملوا ذلك كله صابرين .

ثم قال :

« فأتم تلوننا في هذه المرتبة ، فليكن الأمير منا ، والوزراء منكم . »

فأجابوه :

« بل منا أمير ، ومنكم أمير ! »

فصاح « عمر » :

« كلا ، ومحال أن نولى أميرين ، ولن تعترف العرب بمن تختارون ،

فليس نبيهم من قبيلتكم ، ولن يخضعوا لأحد إلا أن يكون قريباً

للنبي ، ومن رفض ذلك ، أرغمناه على قبوله إرغاماً . »

وحى وطيس الكلام ، وكاد اللجاج ينقلب خصومة ، لو لم يقل

لهم « أبو عبيدة » :

« لقد كنتم أول ناشر للإسلام ، وأول معين للنبي ، فلا تكونوا

الآن أول ساع في التفرقة ، وتشيت الوحدة الإسلامية ! »

وهنا قام « بشير » - قريب « سعد » ومنافسه - فقررما للمهاجرين

المسكين من الحقوق في أعناق المسلمين ، فأثر كلامه في نفوس فئة من

الحزرج ، ولكن الأثر لم يبلغ أشده ، إلا في نفوس القبيلة المدنية

الأخرى ، وهي قبيلة « الأوس » بسبب ما كان بينها وبين قبيلة

« الحزرج » من نفور قديم ، جعلهم لا يرتاحون إلى « سعد » ،



ولا يرضون به أميراً عليهم ، وكانوا - منذ لحظة - يقررون حق المهاجرين وجدارتهم بالخلافة ، فلما سمعوا كلام أبي عبيدة ثبتوا على رأيهم وظاهروا المهاجرين على الأنصار .

وبذلك سنحت فرصة ملائمة ، فأسرع « أبو بكر » إلى انتهازها وأمسك يده - عمر وأبا عبيدة - داعياً المدينين إلى اختيار واحد منهما لمبايعته بالخلافة ، فصاحا في نفس واحد :

« بل أنت خير منا ، فامدد يدك نبأيك ، وتقسم لك على الخضوع والطاعة » .

وامتدت بين يديهما يد ثالثة إلى يد أبي بكر ، وهى يد « بشير » الذى أسرع بمبايعته معهما ، ثم نهج « الأوس » منهجه ، وأقبل المسلمون يبايعونه أفواجا ، واشتد الزحام ، وعلت صيحات الفرح ، فاختلطت بأصوات الدهشة ، وأراد « حباب » الخزرجى أن يناوىء الدعوة ، فصرخ مهدداً بالحرب ، واستل سيفه ، فانتزعه « عمر » من يده . ورأى « سعد » آماله فى الخلافة تنبذ هباء . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فقد أصبح « سعد » نفسه فى خطر حين تكأ كأت عليه الجموع ، فكادت تسحقه - وهو فى محفته التى كان محمولا عليها - وعبثا حاول أصحابه أن يقنعوا جمهرة المسلمين بوجوب احترامه ،

فإن « عمر » نفسه لم يتورع عن إهائته ، ووصفه بأقبح النعوت - على الرغم من أنه خصم أعزل جليل القدر - وقد تداركه « أبو بكر » فصد هذه الجموع عنه ، وأنقذه من أذاهم وشرهم .

\*\*\*

وإذن فقد تم انتخاب الخليفة - خليفة النبي - وسط هذه الفوضى الشاملة - كما اعترف بهذه الحقيقة « عمر » نفسه ، على ملأ من الناس في المسجد المدني فيما بعد . وقد كسب المسكينون بهذا الفوز أمرين :  
« زعامة العرب ، وحسن اختيار الخليفة » .

فقد ولوا أمورهم رجلاً كان أخلص صديق لنبيلهم ، ولوبرك أمر اختيار الخليفة إلى الرسول ، فقد لا يختار سواه ، ذلك أنه جمع - إلى حبه الرسول - متانة الإيمان ، وقوة اليقين ، وصدق العزيمة في إعزاز الإسلام ونصرته . وبهذه الصفات نجح « أبو بكر » في التغلب على المصاعب والعقبات التي كانت تكسفته . وفي الحق أن الوقت كان عصبياً ، وكانت الظروف غاية في الحرج ، فقد كان موت النبي - الذي كانت تترقبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر - مؤذناً بالثورة في كل مكان ، ولقد كنت ترى التأثيرين - حيثما ذهبت - رافعين علم الثورة والتمرد ، وقد رجحت كفتهم أيما رجحان ، حتى لقد طردوا

ولأنهم من بلادهم ، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجأ إلا المدينة ، فتقاطروا عليها من كل فج يحتمون فيها من أذاهم .

وكان لا يروم حتى يفد على المدينة بعض الولاة والعمال المطرودين وأعدت القبائل المجاورة للمدينة عدتها لحصارها .

فكيف يقاومهم « أبو بكر » وليس لديه جيش يحاربهم به ، بعد أن أرسل جيشه إلى « سوريا » ليفتحها تنفيذاً لأمر النبي - رغم نصيحة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال ، ولقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة الفتح حينئذ ، فقال لهم .

« لن أخالف ما أمر به النبي ؛ ولو أصبحت المدينة نفسها نهياً للثائرين والمتمردين ، ولا بد لي من تحقيق مشيئته ! »

ومن ثم ترى الخطر العظيم بادياً ، على أنه - على الحقيقة - خطر أقل مما تدل عليه ظواهره ، فإن قوة الخصم الحقيقية لا تقاس بما لديه من عدة ورجال ، بل بما عنده من قوة معنوية ، وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطاعم إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها ، باذلاً في سبيلها النفس والنفيس .

فما هي الغاية التي يسعى إليها الثائرون ؟ وأي حافز يدفعهم إلى إضرار الحرب ؟

أهو إيمان وثيق متوشج في أعماق قلوبهم ، كإيمانهم القديم الذي

كانوا عليه قبل البعثة ؟ لو كان ذلك ، لما كان ثمة شك في انتصارهم الحاسم ! .

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فإنهم لا يحاربون الآن لينصروا دينهم القديم ويؤيدوه ، بل هم يثرون على دينهم الجديد لأنهم لا يطبقون احتماله .

وليس هذا بالسبب القوي الذي يلهب حماسهم ويحفزهم إلى الإتيان بمجلائل الأعمال ، ولا هو بالسبب الذي يخلق البطولة والأبطال ، فقد كان رؤساء القبائل المتمردة - أنفسهم - شاعرين كل الشعور ، بضعف المعنوية ، فلجأ بعضهم إلى فكرة سخيفة حسبوا أنها تعيد إليهم تلك القوة ، فادعوا النبوة ! وخيل إليهم أن « محمدا » لم ينجح إلا بهذه الفكرة ، فأرادوا تقليده .

ولكنهم نسوا أمراً واحداً - هو سر نجاحه في بث دعوته - ذلك أنه كان مؤمناً بما يدعو إليه إيمان المستيقن الجازم ، وهذا هو الذي يعوزهم وبغيره لا يتم نجاح .

وكانت تلك الثورة الهائلة ، وتلك الحرب الشعواء - على ما أريق فيها من دماء غزيرة - إذا قورنت بما أتاه المسلمون في غزواتهم التي عز بها الإسلام - ظاهرة سخيفة مضحكة ؛ يتمثل فيها الإنسان - عن غير

قصد - كيف قلبوا تمثيل هذه الرواية الجديدة التي مثلها النبي وأصحابه مهزلة وعيباً !

ألا ترى « مسيلمة » الذي مثل دور النبي في اليمامة ؟  
ألا ترى ذلك الدجال السوقى التعس ، ذلك المشعوذ السمج الذي لا يصلح لغير التدجيل وإدخال بيضة في زجاجة ضيقة الفوهة ؟ ألا تراه ينشئ قرآناً سخيلاً يقلد به محمداً ، ثم يرخص لأتباعه في شرب الخمر أتى شاءوا ، ولا يكاد ينشر دعوته ، حتى يصادفه سوء الحظ ، فتحاصره « سجاح » وتنازعه النبوة ؟

\*\*\*

أما « سجاح » هذه فقد كانت مسيحية نشأت في « بلاد النهرين » وجاءت تبث الدعوة لنفسها - على رأس جيش عظيم - فماذا يصنع « مسيلمة » ؟

ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى طريق المسالمة - وقد فعل - فأرسل إليها هدايا فاخرة ، ودعاها إلى محادثته ، وطال بينهما الحوار <sup>(١)</sup> .  
ولما عادت « سجاح » إلى قومها سألوها عن رأيها في « مسيلمة » فقالت لهم : -

---

(١) لهذه المحادثة التي أقنع بها مسيلمة سجاحاً بنبوته قصة طريفة يعرفها أكثر القراء ولا حاجة لذكرها في هذا المقام . « المترجم »

« لقد رأيته نبياً حقاً فتزوجت منه ! »

فسألها التميميون :

« وهل أهدى إلينا شيئاً من مهر الزواج ؟ »

فقلت : « لا » . فقالوا لها :

« عار علينا أن نزوج نبيتنا بلا مهر ! ولن قبل ذلك بحال ما ! »

فأرسلت إليه بذلك - وكان مسيلة خائفاً متحصناً - فلما جاءه الرسول لم يأذن له ، حتى عرف الغرض الذى جاء من أجله ، فاطمأن إليه ، وقال له :

« عد إلى قومك ، فأخبرهم أن « مسيلة بن حبيب » رسول الله قد رفع عن التميميين - من الصلوات الخمس - صلاتي الصبح والعشاء » ولقد فرح التميميون بذلك ، وساروا عليه حتى بعد أن عادوا إلى الإسلام من جديد .

\*\*\*

ومن ثم ترى أن هؤلاء التائبين ، ليس لهم عقيدة جديدة يدافعون عنها ، فلا غرو إذا قهرهم رجل كأبي بكر وثيق الإيمان قوى الإرادة ، صلب العزيمة ، لا يعرف هوادة - فى إرغام أنوفهم - ولا رحمة ! ولو شاء « أبو بكر » أن يهادنهم ، لتنازل لهم عن قليل من مطالبه ، فكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل - أو ضمن حيادهم على الأقل - فقد

وعدوه بالمواظبة على إقامة الصلاة المفروضة عليهم . على شريطة أن يعفيهم من إيتاء الزكاة ، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم ، فرفض رأيهم بإباء شديد ، وقال لهم <sup>(١)</sup> :

« إن الإسلام قانون واحد لا يتجزأ ، وليس لأحد أن يأخذ ببعضه ويرفض البعض الآخر . »

وقد كان هذا الإصرار الحازم ، وذلك الحقد الشديد على أهل الردة سبباً في منحه قوة أكبر مما تنصور .

\*\*\*

ولم يكد ينتهى من إخضاع القبائل المجاورة له ، حتى بدأ يهاجمه « طلحة » الذى كان بطلا من قبل ، وقد جاء يدعى النبوة كغيره ، ثم يجين عن دخول المعركة ، فيرقب الحرب - وهو بعيد عن الميدان - مدثراً فى عباءته ، كأنما يؤمل أن ينزل وحى من السماء ، أو تحدث معجزة

---

(١) قال له « عمر » :

« أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله . فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله ! »

فقال له « أبو بكر » : « ألم يقل « إلا بحقها ؟ » وهذه الزكاة من حقها والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة ، وقد جمع الله بينهما ، والله لومنعونى عقاب بعير - كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - لفاتلتهم عليه . » (المترجم)

خارقة ، وقد ترقب ذلك زمناً طويلاً ، ثم وقعت المعجزة - إذ بدأت تنهزم قبيلته أشنع انهزام - وحينئذ صاح في جنده :

« احتذوا حذوى إن استطعتم . »

ثم امتطى جواده ، وأطلق له العنان ، وأمعن في فراره .

\*\*\*

وكانت تلك المعركة التى اصطلاها المسلمون ، معركة مروعة هائلة ، وفى الحق أن الدماء التى أريقت فى هذه الحرب ، كانت أكثر مما أريق فى تلك الحروب الطاحنة التى نشبت فيما بعد بين المسلمين والفرس ثم بين المسلمين والإمبراطورية الرومانية ، وقد اقتترف العرب من الفظائع فى هذه الحرب « حرب الردة » شُنعاً لم يعرفها الإسلام قط . فكانوا إذا انهزم العدو تعقبوه ونكلوا به ، لأن الردة جزاؤها القتل ، لاهوادة فى ذلك ، ولا رحمة . وقد بعث « أبوبكر » إلى « خالد » يأمره بقوله :

« عليك إبادة الكفرة بالحديد والنار ، ولا تأخذنك فيهم رحمة قط . »

\*\*\*

ولقد انهزم أصحاب « سيلة » - وكان عددهم زهاء عشرة آلاف



مقاتل - ومزقهـم المسلمون شر ممزق ، وغرقت بلاد العرب كلها  
فى الدماء !

ولكن الإسلام قد خرج من تلك المعارك - الناشئة فى كل مكان -  
مؤيداً منصوراً ، ودان به العرب بعد ذلك - طوعاً أو كرها - فقد  
أقنعهم خذلانهم بوجوب الاعتراف بالدين الإسلامى ، إن لم يكن  
اعتراف المستيقن المؤمن ، فاعتراف الخائف الذى يعرف قوة هذا الدين  
العظيمة التى لاتجدى معها أى مقاومة .

## بعد النصر

ولم يكد يتم انتصار « أبي بكر » حتى وجه هؤلاء البدو الظالمين إلى السماء ، إلى مهاجمة فارس والإمبراطورية الرومانية ، وهذا العمل عند من ينظر إلى ظواهر الأمور وحدها جرأة وتهور ، ولكنه - على الحقيقة - رزاة وتعقل .

وإنما سار « أبو بكر » في هذا على خطة النبي التي كان يتبعها ، وهي أن يشغل العرب عن التفكير في خضوعهم ، ولا يدع لهم وقتاً كافياً لذلك ، وقد رأى أن خير ماير بطهم بالإسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية ، وما يجره ذلك من الغنائم .

\*\*\*

وهكذا انتهت حروب الردة ، ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة ، فقد كان عقاب الردة القتل ، ومن هنا تظاهر الناس بالإسلام ووقفوا عند هذا الحد . ونحن - إذا استثنينا صفوة المسلمين ، ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتون إليهم بسبب - لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عدداً غاية في القلة ، أما العرب الذين استوطنوا أفريقية ، فقد ظلوا - حتى بعد مضي قرن من الهجرة - لا يعرفون من الإسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر .

أما أولئك الذين استوطنوا مصر، فإنهم ما تحدثوا عن الإسلام أو شغلوا به أنفسهم قط، وكانوا لا يذكرون إلا أيام الوثنية، وعهودها الطيبة بالثناء والحنين.

\*\*\*

ولما انتصر العرب على الفرس في موقعة « القادسية » ( ٦٣٥ م ) وأخذ كل واحد نصيبه من الغنائم، بقيت نفائس أخرى وافرة لم تقسم بعد، فكتب الخليفة « عمر » - أمير المؤمنين حينئذ - يأمر القائد بتوزيع باقي الغنائم على من يحفظ أوفر قسط من القرآن.

فجمع القائد إليه أبطال الجهاد الذين تم بفضلهم النصر والفوز، فسأل « عمرو بن معد يكرب » النبيل عما يحفظه من القرآن فأجابه : « لا شيء، لأنني دنت بالإسلام في بلاد اليمن، ثم صرفتني الحروب العديدة عن القرآن وعن الاشتغال به »<sup>(١)</sup>

فالتفت القائد إلى « بشر بن طائف » يسأله، فكان جوابه : « ليس حظي من ذلك بأوفر من حظ عمرو : » بسم الله الرحمن الرحيم

(١) وفي هذا يقول « عمرو بن معد يكرب » :

« نعطى السوية في طعن له تقذ ولا سوية إذ تعطي الدنانير »

« المترجم »

وقد كان هذا هو كل ما يحفظه من القرآن ! .

\*\*\*

زد على ذلك ، أن الإسلام - وإن لم يلق معارضة قوية في أثناء فتوحاته المتوالية المظفرة - فإن سراً مكة وطبقة الأرستقراطية العربية لم يغفروا لأصحاب هذا الدين الجديد ومؤسسيه هذا الفوز الذي أحرزوه ، ولم يرضوا عن ذلك السلطان الذي أراد الموحدون أن يسيطروا ظله عليهم .

ولقد كانت تقوم المنازعات بين الشعب على مسألة من المسائل ظاهر أمرها أنها شخصية لا علاقة لها بمبدأ أو عقيدة . وهي - في حقيقتها وجوهرها - غير ذلك ، فقد كان يتخذ النزاع غرضاً يحوم حوله ومبدأ يناضل عنه ليتخذ منه تكة يبرر بها غايته من الشعب .

وقد بدأ ذلك بمحادث عثمان - ثالث الخلفاء - حين تولى الخلافة بعد وفاة « عمر » ( ٦٤٤ م ) وكانت سن « عثمان » حينئذ سبعين عاماً . وكان حليماً لين العريكة ، ضعيف الإرادة أمام أسرته وأعيان مكة وسراتها ورجال بني أمية ، أى أنه كان ضعيف الإرادة أمام كل من ناصبوا « محمداً » العداء عشرين عاماً ، ثم أسلموا ، فكان في إسلامهم مجال واسع للظنون والحذر ، ولقد نالوا بفضل « عثمان » أرفع المناصب وانتهت المأساة الكبرى بقتل خليفته الشيخ المسن « عثمان » .

ثم ولى الخلافة بعده « على » ابن عم « محمد » ولكن لم يتم الاعتراف به في كل مكان، فقد هبت « سوريا » متحمسة إلى امتشاق الحسام - وعلى رأسها واليها « معاوية بن أبي سفيان » - وكان انتصاره حينئذ هو انتصار جبهة المعادين للإسلام ، الذين كانوا يناوئونه من صميم قلوبهم ، على أن المسلمين حقاً لم يخضعوا لهم ، فقد أشعلوا نيران الحرب - من جديد - في زمن « يزيد الأول » ابن معاوية الذي ولى الخلافة من بعده . ولقد قام « الحسين » - وهو الابن الأصغر لعلى - يطالب بالخلافة ، ولكنه صرع هو وفئته القليلة التي كانت تناصره في موقعة « كربلاء » <sup>(١)</sup> ومن ثم قام « عبد الله بن الزبير » - وهو ابن صحابي من صحابة الرسول - إلى « مكة » رافعاً علم الثورة ، وظل سنة كاملة لا يحفل به الخليفة ، ولا يلتفت إليه استصغاراً لشأنه . ذلك أنه لما يغادر « مكة » إلى غيرها من البلدان ، فلم ير له الخليفة خطراً يستحق أن يناوئه من أجله . ورأى أن من الحزامة أن يتركه وشأنه ، حتى لا يثير عليه حفيظة المسلمين أكثر مما أثار من قبل - بلا حاجة - فلم تكن ثمّة ضرورة قاهرة تضطره إلى إراقة الدماء في بقاع كانت - حتى

(١) وفي ذلك يقول « الكميّ » :

« يجلئن من ماء الفرات وظله « حسينا » ولم يشهر عليهم منصل  
كأن حسينا والبهاليل حوله لأسياهم ما يحتلى المبجل !  
« المترجم »

فى زمن الوثنية - حرماً مقدساً لا يمه أحد بسوء .

ولكن لكل شىء حدا ، فقد صبر « يزيد » حتى عيل صبره ، فلما لم يبق فى قوس الصبر منزع ، طلب إلى « عبد الله بن الزبير » - للمرة الأخيرة - أن يياعه ، فلما رفض امتزج الخليفة بالغضب وأقسم إنه لن يقبل من هذا التأثير طاعة حتى يؤتى به بين يديه مكبلاً بالأغلال . ولما هدأت ثائرة الخليفة ندم على قسمه - وكان طيب السريرة - ففكر فى وسيلة يبر بها فى قسمه دون أن يمس كبرياء « عبد الله » - ثم استقر على أن يرسل إليه غلام من الفضة ومعه حلة فاخرة ليخفيه تحتها - إذا شاء - وبعث إليه يرسل يحملون معهم هدايا ثمينة ، فساروا من مقر ملكه « دمشق » حتى بلغوا « مكة » ولكن « عبد الله » رفض - بطبعه - أن يقبل تلك الهدايا ، وعثا حاول الرسل أن يتوصلوا إلى اقناعه وإنزاله عن رأيه . فقد أصر « عبد الله » على عناده ، لأنه كان يعتقد أن كائنا من كان لن يفكر - بحال ما - أن يلجأ إلى العنف والشدة معه وهو فى تلك البقاع المقدسة ، وكان هذا سرطاً نينته ، وقد أكد له الرسل بصراحة أن الخليفة لن يعنف معه ولن يقدم على مثل ذلك العمل .

على أن « عبد الله » لم يكن أول من تعرض لغضب الخليفة وقمته ، فقد سبقه إلى ذلك ثوار « المدينة » . وكانت روح الشر مهيمنة عليهم

فى ذلك الحين ، فقد وقعت بينهم وبين الوالى - حينئذ - خصومة بسبب النزاع على تملك بعض الأراضى ، وأراد الوالى إزالة أسباب الخلاف - وكان ابن أخت الخليفة يزيد - فنصح سراة المدينة وأعيانها أن يذهبوا إلى بلاط الخليفة ، فلما ذهبوا ، قابلهم الخليفة أحسن مقابلة وأكرم وفادتهم وتلطف معهم رغبة فى أن يستميلهم إليه ، ولكن «يزيدا» كان - على أدبه ونبله - غير مشبع بروح احترام الدين الذى كان يمثله وهو خليفة المسلمين الأعظم - فبدرت منه آراء - عن غير قصد - صدمت بعض أصول الدين التى يقدسها أهل المدينة ، فلما عادوا إلى بلادهم عادوا ساخطين وأخذوا يشهرون بالخليفة ويذمونهم عند مواطنهم متأثرين بعامل الغضب وقالوا لهم :

« إنه يشرب الخمر ، ويعزف على الأوتار ، ويصرف نهاره بين كلاب الصيد - وقد كان « محمد » يمتك ذلك أشد المقت - فإذا جن الليل جلس بين اللصوص وقطاع الطرق »  
يعنون بذلك البدو والأعراب الذين نشأ بينهم « يزيد » وترعرع ، فلما كبر أدناهم من مجلسه .

\*\*\*

وزادوا على ذلك أنه لا يصلى قط ، وأنه جاحد ، وعزوا إليه - فوق هذه التهم التى بنوها على أساس واه أو متين - تهما أخرى لا أساس لها ولا وجود ، وإن كان ذكرها مما يثير فى نفس خصومه من أهل

« المدينة حفاظ وأحقادا بعيدة الأثر .

وقد كانوا يميلون إلى تصديق كل تهمة تلصق بكل أموى . ومن ثم  
انقلب المسجد مسرحا عجيبا تصب فيه اللعنات على « يزيد » وأتباع  
« يزيد » واجتمع أهل المدينة قاطبة - وهم صახبون - فشرع كل  
واحد منهم يتجرد من شئ من ملابسه فيلقى به صائحا :

« إني أخلع يزيد كما أخلع قبائى هذا . »

أو « عمامتى »

أو « نعلى »

ثم طردوا كل من فى المدينة من الأمويين وصدوا عن تعيين خليفة  
جديد لهم ، فقد كان القرشيون الذين فى المدينة لا يحبون أن يعترفوا  
بأهلها ، كما كان أهلها كذلك لا يحبون أن يعترفوا بهم ، فقررأيهم على  
أن يترشوا فى تعيين الخليفة حتى يتم خلع « يزيد » !

واستحوذ عليهم عداؤى جنونى - لا يحدوه رشد - فلم يتبصروا عواقب  
هذا الاندفاع وكيف تقف مدينة واحدة أمام جيوش الإمبراطورية  
الإسلامية العظيمة كلها .

ولقد حاول عبثا أحد المدنيين - وكان قد عاش فى بلاط الخليفة ،  
ثم أوفده سيده إلى المدينة - أن يبين حقيقة الخطر لمواطنيه ولكن



الغضب أعماهم فأصبحوا لا يعيرون الناصحين التفاتا ولا يصيخون إلى  
آية موعظة تقدم إليهم بحسن نية .

\*\*\*

وحينئذ رأى الخليفة أنه مضطر إلى الالتجاء إلى القوة ، فأرسل  
إليهم جيشاً عهد بقيادته إلى « مسلم » وكان « مسلم » أقرب إلى  
الوثنية منه إلى الإسلام - فأمره أن يترك لأهل المدينة ثلاثة أيام  
يفكرون فيها ، فإذا أبوا أن يخضعوا - بعد ذلك - هاجمهم ودمر  
مدينتهم تدميراً في ثلاثة أيام أخرى ، ثم أخذ على من فيها الموائيق  
بأنهم عبيد « يزيد » وأمرهم أن يقسموا على ذلك فإذا رفض أحدهم  
أن يفعل قطعت رقبته .

ولم يكذب يبلغ أهل المدينة رسالته حتى هبوا ثائرين أففة من الخضوع  
وأعدوا عدتهم للقاء العدو ، وجاهد الفريقان بشدة وصبر نادرين  
- وكانت موقعة الحرة سنة ٦٨٣ م - وظهرت الخسائر من الفريقين  
متكافئة ، وكان أهل المدينة متحمسين يذكى فيهم الحرارة والقوة  
تعصبهم الشديد واعتقادهم الثابت أنهم المختارون ، وأن أعداءهم - من  
جيش سوريا - هم عند الله كالوثنيين سواء - وكانوا على يقين من أن  
خصومهم إذا ماتوا صبت عليهم اللعنات وباءوا بغضب من الله ، أمامهم  
( ٢٥ - م )

فإنهم سالكون - بلا شك - مسالك الشهداء والأبرار .  
 وبقى مصير الحرب معلقا في كف الأقدار زمانا طويلا ، حتى كشفت  
 الحياة عنه ، فقد ارتشت أسرة من المدنيين فتحت أحد أبواب المدينة  
 لفرقة من جيش العدو ، فدخل السور يوز وسمع أهل المدينة من خلفهم  
 - فجأة - صيحات النصر من أفواههم ، فضاع كل أمل لديهم  
 في الفوز والغلبة ، وأصبحت المدينة في قبضة العدو ، وصار كل هجوم  
 عبثا أو مستحيلا ، على أن جهرتهم لم تفكر في الخطر المحدق بها فهجم  
 أهل المدينة على أعدائهم فرادى و باعوا حياتهم بأعلى ثمن استطاعوا أن  
 يبيعوها به !

وكان من بين القتلى سبعائة من حفظة القرآن وأربعة وعشرون  
 من الصحابة ، ولم يكن أحد من الصحابة الذين حاربوا مع النبي قد  
 حارب - بعد أن نصره في حرب بدر على المكين حتى شهدوا هذا  
 اليوم المشئوم .

ودخل « المدينة » فرسان « سوريا » فلما لم يجدوا مكانا يربطون  
 فيه خيلهم ربطوها في مسجد المدينة - بين قبر النبي ومنبره - أي في  
 نفس المكان الذي طالما سماه النبي نفسه : « جنة من جنان الفردوس »

\*\*\*

ثم نهبوا المدينة في ثلاثة أيام وسبوا كل من فيها من نساء وأطفال ،

ولم ينتج أحد ممن بقي من أهلها - وقد فرأ أكثرهم - إلا بعد أن أقسم أن يكون عبداً من عبيد « يزيد » . وهكذا أقسموا جميعاً على أن يكون الخليفة « يزيد » سيدهم ومولاهم ، وأن يكون في حل من التصرف فيهم بما شاء ، من عتق أو بيع ، كما أقسموا أن يكون له الحق في كل ما تملك أيماهم من نساء وأولاد وأزواج .

ولما رأى أبناء مؤسسى الإسلام أنهم مضطهدون معذبون وأن بنى أمية قد أهرقهم إرهاباً ، لم يجدوا أمامهم وسيلة إلا المهاجرة ، فهاجر الكثيرون منهم إلى حيث انضموا إلى جيش إفريقية ، ثم انضم أغلبهم - فيما بعد - إلى جيش العرب في أسبانيا .

وكان « مسلم » مكلفاً أيضاً بإخضاع « مكة » . ولكن الموت عاقه عن تحقيق إرثته ، فأخذ « الحصين » - وهو أحد رجال جيشه - على عاتقه أن يحقق ذلك ، فتولى قيادة الجيش ، وبدأ يحاصر « مكة » ويقذف الكعبة بالحجارة والصخور ، حتى حطم عمدتها وقواعدها ، ثم نجح أخيراً في إحراقها جملة ، ولقى الحجر الأسود في هذه المرة أول نكبة حاقت به ، لأنه لم يطق مقاومة النار ، فتحطم أربعة أجزاء .

على أن « مكة » لم يتم إخضاعها ، فقد حال دون ذلك موت « يزيد » وما أعقبه من الفوضى التى اضطرت الجيش إلى رفع الحصار والرجوع بالجيش توا إلى « سوريا » . وبهذا استعاد « عبد الله بن

الزبير» قوته ، واستتب له أمر الخلافة في « مكة » وخارجها أيضا .

ولكن الأمويين مالبثوا أن تم لهم الأمر من جديد بعد أن تولى الخلافة « عبد الملك » وخضعت البلاد كلها له ، ولم تبق إلا « مكة » وحدها ثائرة ، وفيها « عبد الله بن الزبير » فلما رأى « عبد الملك » ذلك وحه إليها جيشاً بقيادة « الحجاج » . فذهب إلى تلك البقاع المقدسة . وحاصر المدينة . وطلق يرمى الكعبة بالصخور والحجارة ليدكها دكا ، وبينما كان يقذفها بالنار - ذات يوم - هبت عاصفة شديدة . فأحرقت النار اتني عشرين جنديا ، فرأى الجيش في ذلك عقابا من الله على انتهاك حرمة ذلك المكان المقدس ، فأحجم رجال « الحجاج » وكفوا عن ذلك .

•••••

فاغتاز « الحجاج » وخلع بعض ملابسه ، وتقدم إلى المنجنيق فأخذ بيده حجراً ووضع فيه . ثم حرك حباله بعد ذلك ، وهو يقول . « لقد أخطأتم الفهم ، فليس معنى ما حدث هو ما فهمتموه ، ألا أني لخبير بطبيعة هذه البلاد ، ففيها ولدت ، وكه رأيت هذه العاصفة أسبابها لا تحصى ! »

وظل يشدد الحصار عليها بقوة عدة أشهر ، ثم أخذت بعد أن مات  
« عبد الله بن الزبير » سنة ٦٩٣ م .

وهكذا لم تهدأ أثارة هذه الفثة المناوئة للإسلام ولم تليج صدورهم  
إلا بعد أن تمت لهم الغلبة على أنصار هذا الدين وظفروا بتقويض معالهم  
وإذلال أهل المدينتين المقدستين ، وتحويل مسجد المدينة إصطبلا  
لخيلهم وإحراق الكعبة ، وتحقير سلالته المجاهدين الأولين الذين عَزَّ  
بهم الإسلام وانتصر .

\*\*\*

وقد عرفت تلك الأقلية العربية - التي اضطُرَّت إلى الإسلام  
اضطرابا وأكرهت على الدخول في هذا الدين إكراها - كيف تتأثر  
لنفسها حين سنحت لها فرصة الانتقام فتقاضتهم ثمن ذلك الفوز مضاعفا  
وشفت به غلة صدورها المكبوتة .

## أنصار الرجعية

ولم يكن عهد الأمويين إلا عهداً تتمثل فيه الرجعية والانتصار للوثنية ، وكان خلفاء بني أمية أنفسهم - إلا القليل النادر منهم - لا يُعَنَوْنَ بنُصرة هذا الدين ولا يخلصون له . وقد تجاوز الوليد الثاني - وهو أحد هؤلاء الخلفاء - كل حد في الإضرار بهذا الدين ، وطوح به استهتاره إلى أبعد مدى ، فاعتاض عن صلاة الجماعة بِصَلَاتِ جواريه ، ومغازلة سراريه ، ولم يحجم عن تحريق كتاب الله بالنشاب <sup>(١)</sup> ولم يكن راضياً عن إسلام الشعوب الجديدة التي دخلت في هذا الدين أفواجاً من سوريين وأقباط وفرس وبربر شمال إفريقية ، لأنه كان يرى في ذلك شراً مستطيراً على خزانة الدولة ، فقد كان القانون يفرض الضرائب على غير المسلمين الذين يعيشون في ظل الحكم الإسلامي ، فإذا أساءوا سقطت عنهم الجزية وأعفوا من أداء تلك الضريبة التي فرضها عليهم القانون .

وقد ساعد ذلك على انتشار الإسلام ، وشجع الناس على الدخول في هذا الدين ، وتغلبت المصلحة على العقيدة ودان بالإسلام ملايين من الناس الذين آثروا المال على كل شيء .

---

(١) ارجع إلى « مصرع الوليد » في كتابنا « مصارع الخلفاء » . « المترجم »

والحق أن انتشار الإسلام بين هذه الجماهير والشعوب قد رزق بيت المال ، فقل الأيراد حتى اضطر الخليفة إلى مضاعفة الجزية تقريباً ، فقد كان الخراج في مصر في عهد الخليفة « عثمان » أكثر من نصف ما وصل إليه بعد زمن قليل في خلافة « معاوية » وكان السبب في ذلك أن جمهرة كبيرة من الأقباط دخلوا في الإسلام ، وكان فريق منهم يتظاهر بلاسلام من غير أن يعتقد ، وفريق آخر ارتضاه ديناً له هرباً من دفع الجزية المفروضة عليه ، وثمة رأى الخلفاء ألا يعفوه من تلك الضريبة متعللين بأنهم لم يدخلوا حظيرة هذا الدين إلا طمعاً في إعفائهم منها ، وأنهم لا يقومون بتنفيذ أحكام الدين والأخذ بتعاليمه .

## عمر بن عبد العزيز

ولم يشذ من بين هؤلاء الخلفاء إلا الخليفة « عمر الثاني » - عمر بن عبد العزيز - ذلك المسلم الورع التقى الذى آثر نصرة الإسلام على كل شئ ، والذى احتقر المال ، وزهد فيه كل الزهد ، بعد أن امتلأ قلبه بالإيمان ، فأصبح لايهمه إلا أن ينتشر الإسلام ويدين به كل إنسان . ولم يكن عماله يرتضون النزول على هذا المبدأ الجديد لأنه يهدم النظام الذى ألفوه ، ويقوض صرح بيت المال .

وقد كتب إليه أحد عماله - فى هذا المعنى - يقول :

« لو دامت الحال على هذا المنوال لدان بالإسلام كل مسيحي ، ولم يشذ منهم أحد ، وبذلك تفقد الدولة كل دخلها . »

فأجابه « عمر » :

« لو تم ذلك لمت لى أسباب السعادة كلها ، فليست لنا غاية نسعى إليها إلا نشر هذا الدين بين الناس كافة ، وقد بعث الله نبيه مبشراً بالإسلام وداعياً إليه ولم يبعثه محصلاً للمال ، ولا جانياً للضرائب . »

وهكذا أجاب عامله كما أجاب عامل « خراسان » الذى شكاه إليه بإقبال الفرس على هذا الدين لا عن رغبة فيه ، بل فراراً من دفع



الضرائب ، وآية ذلك أنهم يدخلون الإسلام ولا يُخْتَنُونَ .

فأجابه « عمر » :

« لقد أرسل الله نبيه ليهدى الناس إلى الدين الحق ، ولم يرسله

ليفرض عليهم الختان . »

وهو بهذا لم يكن صارما في تطبيق أصول لشريعة ، ولم يكن يجهل

أن أكثر من دانوا بالإسلام كان ينقصهم الإخلاص والصدق .

ولكنه على ذلك كان يرى - وهو على حق فيما رآه - أن أبناء

هؤلاء المتظاهرين بالإسلام وأحفادهم سينشئون في ظل الإسلام

والمسلمين . ويشبون في أحضان هذا الدين ، وتشربه دماؤهم فيصبحون

مسلمين يخدمون الإسلام وينصرون كلمته . وربما ظهر منهم من هو

خير من المسلمين أنفسهم .

## قواعد الاسلام

أما سواد هؤلاء الذين دخلوا في الدين أفواجا ، فقد كان في عهد  
الأمويين لم يتعد أولى مراتب هذا الدين وهي الإسلام فإن لهذا الدين  
ثلاث مراتب يفسرها الحديث المأثور عن النبي .

فقد حدث : أن « جبريل » جاءه — ذات يوم — في ربيّ ،  
وحياه وجلس إليه ، وأدنى ركبته حتى مست ركلة النبي ، وسأله :  
« ما الإسلام يا رسول الله ؟ » <sup>(١)</sup>

---

(١) عن « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه قال :  
« بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم — ذات يوم — إذ طلع علينا  
رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا  
يعرفه منا أحد ، حتى جالس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبته إلى ركبته ،  
ووضع كفيه على فخذه . وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم :

« الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ونقيم الصلاة ،  
ونؤتي الزكاة ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .  
قال : « صدقت » .

قال : « فعجبنا منه يسأله ويصدق .  
قال : « فأخبرني عن الإيمان .  
قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن  
بأنفاس خيره وسره . »

فأجابه « محمد » ( ص ) :

قال : « صدقت »  
 قال : « فأخبرني عن الإحسان »  
 قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فانه يراك . »  
 قال : « فأخبرني عن الساعة »  
 قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . »  
 قال : « فأخبرني عن أماراتها »  
 قال : « أن تلد الأمة ربها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الخماء يتطاولون في البنيان ، في خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله عنده علم الساعة ، ونزول الغيب ، ويعلم مافي الأرحام . »  
 ثم أدبر ، فقال « ردوه » . فنه يروا شيئا ، فقال : « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

\*\*\*

وفي بعض روايات الحديث : « بينما نحن ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسنده ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، فقال : ما الايمان ؟ قال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وبقائه ورسوله . وتؤمن بالبعث ، قال : ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ، ولا تسرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تره فلا ير ، قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أسرها ، إذ ولدت الأمة ربه . وإذا تطاول رعاة الابل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله ، إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام ، ثم أصرف الرجل ، فقد ردوه على ، فنه يرو شيئا ،

« الإسلام هو شهادة ألا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وإقامة

فقال هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم . »

والمعنى أن جبريل عليه السلام جاء وتخطى الناس حتى انتهى إلى النبي عليه السلام ، وجلس كهيئة المتعلم بين يدي من يتعلم منه تأديبا ، أو فعل ذلك من باب المبالغة في تعمية أمره على الحاضرين حتى يظنوا أنه من جفاة الأعراب ، ولذلك استغربوا منه أنه تخطى الناس . وأنه جاء ماشياً وليس عليه أثر السفر مع أنه ليس من أهل البلد ، وقد نظر بعضهم إلى بعض حين رأوه فقالوا: « ما نعرف هذا » والقصود من هذه القصة أن يسأل جبريل وينجيبه النبي عليه الصلاة والسلام ليتعلم الصحابة أموراً هي جملة الدين وجماعه ، وذلك لأنه بدأ أولاً بسؤاله عن الإيمان ، ومعلوم أن الإيمان هو التصديق بوجود الله تعالى ، وأنه لا يجوز عليه العدم ، وأنه موصوف بكل صفة من صفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر والحياة منزّه عن أضداد هذه الصفات ، وعن الجسمانية والتحيز ، وعن كل صفات النقص ، وبأنه سبحانه واحد فرد حق صمد . وأنه خالق جميع المخلوقات يتصرف فيها بما شاء من التصرفات ، يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء ، ثم التصديق بجميع الملائكة تفصيلاً بمن عرف تعيين أسمائهم ، وإجمالاً بمن لم يعرف اسمه ، وكذلك التصديق بجميع الرسل تفصيلاً بمن علمنا اسمه ، وإجمالاً بمن لم نعلمه ، واعتقاد أنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى ، وأنه أيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم ، وأنهم بلغوا عن الله ما أمروا بتبليغه للخلق ، وأنهم بينوا للكافرين ما أمرهم ببيانه ، تؤمن بهم جميعاً ولا تفرق بين أحدهم منهم ، ونصدق بلقاء الله تعالى ورؤيته في الآخرة ، وبالقدر خيره وشره . هذا هو الإيمان فالإيمان هو الاعتقاد بالباطن ، والتصديق الجازم بأصول الشريعة الإسلامية ، وقواعد السمع والخبر ، وهو يتعنق بأعمان القلب ، أما الإسلام فهو الاقنيد وامتثال الأعمال الظاهرة المتعلقة بالجوارح كالصلاة بما فيها من خشوع القلب والجوارح وكالزكاة والصيام والحج ،

الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . »

والحديث قد فرق بين حقيقة الايمان والاسلام كما فرقت بينهما الآية في قوله تعالى « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » على أن الاسلام الذى هو اسم للأعمال الظاهرة ، والايمان الذى هو اسم للاعتقادات الباطنة كل منهما بما يتناوله ويشتمل عليه يصح أن يطلق عليه اسم الآخر وهما معا بكل ما يصدقان عليه من أعمال واعتقادات كالأجزاء التفصيلية التى تتركب منها جملة الدين وبها يكون جماعه وقوامه ، ولهذا جاء في الحديث : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم . »

( والاحسان ) من أحسنت العبادة إذا حسنتها وكنيتها وذلك أن العبد إذا قوى إيمانه تشتمل دائما عظمة المولى ، وأيقن أنه مطلق عليه في كل أحواله شهيد على عمله في كل وقت ، فاذا لم يفعل معصية من المعاصى على اختلاف أنواعها ، علم أن الله يراه على أى حالة ارتكب فيها المعصية وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فيكف عن المعصية ويرجع عنها لقيام الدليل اليقيني الذى يجعله يحس في قرارة نفسه أن الله تعالى موجود حق وأنه ناظر إليه في كل عمله وفي كل ما يصدر منه من حركة أو سكون فيحول علمه بذلك بينه وبين جميع المنكرات ، وكذلك لا يستطيع أن يترك العبادات الواجبة عليه تهاونا بها فإن المضيعين للفرائض إنما ضيعوها لجهلهم بتمام الألوهية وعدم معرفتهم بقدر الأمر وقدر الأمور ، وجحدهم وعدم إقرارهم بالربوبية ، ولذلك يقول الحديث أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تره فانه يراك أى تعبد عبادته من يرى الله تعالى ويراه الله تعالى ، ومن هذه حاله وتلك صفه مادام في عبادته لا يترك شيئا من الخشوع والاخلاص وحفظ القلب والجوارح ومراعاة الآداب إلا فعله ، وفي الحديث أيضا الايمان بالغيب ، وباليوم الآخر . والسؤال عن الساعة ، وبيان شئ من أمثراطها وعلاماتها ، فأصبح هذا الحديث — بما اشتمل عليه — كالجامع لعلوم الشريعة كلها . « المترجم »

فقال له :

« صدقت ، وما الإيمان ؟ »

فقال له :

« الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وقضائه في

الخير والشر »

فقال له :

« صدقت ، وما الإحسان ؟ »

فقال له :

« هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك . »

\*\*\*

وثمة ترى أن الإسلام يدل على إيمان خارجي بحت ، وهو مراعاة  
قواعده الخمس الجوهرية .

وقد كان المسلمون في عهد بنى أمية قد وصلوا إلى هذه المرتبة ،  
على أن كثيراً منهم كان يؤمن بالله ، ولكنه ينكر الوحي .  
وقد أشار إلى ذلك القرآن بقوله :

« قالت الأعراب : آمنا ، قل <sup>(١)</sup> : لم تؤمنوا ولكن قولوا :

(١) لا يفوتنا أن نذكر التمازي بأن القرآن هو كلام الله وأنه جعل الجواب على

« دوزي »

لسن نبيه محمد » (س)

أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم »  
وعلى كل خلاف في ذلك بين العرب وخلفائهم وعلى ما بذلوه من  
جهد قليل في نشر هذا الدين للتغلب على عاداتهم في محاربة انتشاره  
وإذاعته ، بدلا من الترويج له ، فإننا نرى أن الإسلام قد انتشر  
بسرعة مذهشة بين تلك الشعوب التي غزوها ، وهذه ظاهرة لم ير لها  
العالم مثيلا من قبل ، وهي تبدو - لأول وهلة - لغزا مستسرا لاسبيل  
إلى حله وتعليله ، لاسيما إذا عرفنا أن هذا الدين الجديد لم يُكرِه أحدا  
على الدخول فيه .

وقد كان « محمد » ( ص ) يأمر بالتسامح والإغضاء ، وقد وضع  
للمسلمين قاعدة الجزية وفرضها على كل من لم يدن به من أهل الكتب  
المنزلة من يهود ونصارى ، فمنحهم حريتهم الدينية على أن يدفعوا  
ما فرضه عليهم من الجزية ، وزاد في تسامحه فمنح هذه الميزة لمن يقطنون  
إقليم البحرين من المشركين

وجاء من بعده « عثمان » فخطا خطوة جديدة أخرى ، فاعتبر بربر  
شمال افريقية كاليهود والنصارى وسكان إقليم البحرين .  
ولسنا نعرف - على الحقيقة - شيئا عن ديانة هؤلاء البربر القديمة إلا  
معلومات تافهة ضئيلة لاتغنى شيئا ، ولن نعدو الصواب إذا قلنا أننا  
نجهل كل شيء عن هذه الديانة القديمة .

على أننا إذا أخذنا بالحكم على طبع الشعب وخلقه واتخذنا من ذلك مقياساً للحكم على ديانته استطعنا أن نستنتج أن ديانة البربر القديمة كانت أقرب الى أن تكون كهنوتية منها الى أن تكون إلهية .

ومها يكن من أمر . فليس ثمة مجال للشك في أن البربر لم يكونوا أهل كتاب مقدس قط . وعلى هذا نرى - في جلاء ووضوح - أن التسامح الديني قد وصل في هذه الطريق إلى آخر مداه . إن لم تقل إنه أربى على ما كان يرمى إليه النبي .

أضف إلى هذا أن الحكم الإسلامي كان يتوخى التيسير والخير العام والبر بالشعوب المحكومة لاسيما النصارى . فقد كان سواد المسيحيين في الشرق ينتسب إلى مذاهب لقبت من اضطهاد حكومة القسطنطينية وإعانتها ما أرهاق أصحابها إرهاقا . فلما جاء الإسلام - ومن طبيعته التسامح والإخاء - ترك لهم الحرية التامة في البقاء على دينهم ماداموا يؤثرونه على غيره من الأديان ، وظلهم بحجائته ، وسوى بينهم في الحقوق ، على اختلاف مذاهبهم وشتى نحائهم .

ولا تنس أنهم كانوا مضطرين الى دفع ضرائب فادحة للإمبراطور الروماني ، فلما جاء الإسلام أعفاهم منها ، ولم يفرض عليهم إلا جزية معتدلة لا ترهق أحداً . ومتى عرفت هذه الأسباب زالت دهشتك وعجبك من إشارهم حكم المسلمين على حكم الرومان واندفاعهم الى مساعدة العرب في فتوحاتهم بكل قلوبهم وقواهم بدلا من مناوأتهم والتألب عليهم



## أسباب انتشار الاسلام

وإذا كان ذلك كذلك ، فما بالهم لم يبقوا على دينهم ؟ وأى شيء حفزهم إلى الدخول في هذا الدين الجديد من غير أن يكرهوا على الدخول فيه ، وهم يعلمون أن إسلامهم لا يرتاح إليه ملوكهم ؟

لقد تضافرت أسباب عدة على الوصول إلى هذه النتيجة ، وقد ألمعنا - آفا - إلى ما يعود عليهم من الفائدة المادية إذا أسلموا ، لأن إعفاءهم من الجزية - على اعتدالها - كان مما يرغبهم في الإسلام . أضف إلى هذا ما يشعرون به من الكرامة الشخصية إذا أسلموا وأصبح لهم من الحقوق ما للمسلمين .

نعم كان المسلمون متسامحين ، ولكنهم لم يزدوا على ذلك شيئا ، فقد كانوا - على تسامحهم - لا يضعون المسيحي والمسلم في صف واحد بل ينظرون إلى النصراني كما ينظرون إلى جنس منحط .

وقد سن « عمر » لهم قانونا يحوى إذلالهم ومهاتهم بين طياته ، فلم يسمح لهم بإنشاء الكنائس والمعابد ، بل حرمهم حتى بناء الأديرة الصغيرة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعداه - بعد قليل - إلى ما هو شر

منه، فقد حظر عليهم تجديد بناء الكنائس التي تهدم. وإن لم يتمسك المسلمون بتنفيذ هذا الشرط دائماً - وقد أباح القانون للمسلمين أن يدخلوا الكنائس في أى وقت شاءوا ليلاً أو نهاراً ، وحتم على المسيحيين أن يفتحوا أبوابها للمسافرين من المسلمين ليل نهار ، وشرط عليهم أن يقدموا الطعام لضيوفهم ثلاث مرات في كل يوم ، وحظر عليهم أن يرفعوا الصلبان على كنائسهم ، وأن يبيعوا الكتب المقدسة في شوارع المسلمين ، كما حظر عليهم إقامة الصلاة وترتيل الأناشيد الدينية في الكنائس بصوت مرتفع إذا كانت قريبة من بيوت المسلمين ، وأمرهم أن يشيعوا موتاهم إلى قبورهم في صمت وسكون ، وألا يوقدوا شموعاً أمامهم متى وصلوا إلى الأحياء الإسلامية .

كما حرّم عليهم التعصب لدينهم والتعرض بأى سوء لمن يتحول عنه إلى الإسلام ، وفرض عليهم احترام المسلمين في كل فرصة أو مناسبة فإذا جلس المسلم وجب على المسيحي أن يقوم .

وشرط عليهم أن يحتفظوا بأزيائهم ولا يتزويروا بزى المسلمين ليميزوا للناظر عنهم ، ولم يُعَفِّ مسيحياً من شد الزنار إلى وسطه ، وحرّم عليهم أن يتحدثوا بالعربية أو ينقشوها على أختامهم .

ولم يبح لهم أن يتخذوا لخيولهم سروجاً أو يتقلدوا سلاحاً أو يستخدموا مسلماً عندهم .

\*\*\*

ولا ريب أن هذه الشروط لم تكن تطبق بمخافيرها - في أول الأمر - إلا في أحوال استثنائية نادرة ، لأن الولاة المنوط بهم تنفيذها كانوا على جانب كبير من التسامح والعدل والرحمة ، فلم يبالوا بتنفيذ هذه الشرائط القاسية ، وقد وصل بهم التسامح إلى حد أنهم كانوا يبرمون معاهدات - في بعض الأحيان - بينهم وبين المسيحيين تعفيهم من تنفيذ أكثر هذه الأمور .

\*\*\*

ومهما يكن من أمر فقد كان مركز المسيحيين عند المسلمين يكاد يكون مماثلاً لمركز اليهود في أوروبا إبّان القرون الوسطى . وهو المركز الذي لا يزال يضعهم فيه السواد الأعظم من الناس . فقد كان سادتهم ينظرون إليهم باشمئزاز واحتقار وبعدونهم من الأنجاس ، فلا يتحدث مسلم إلى مسيحي أو قسيس - على الأخص - إلا عن بعد حذراً من ملامسته كيلا يدنس ثوبه .<sup>(١)</sup>

\*\*\*

ومتى دان المسيحي بالإسلام تطهر من رجسه كما يتطهر اليهودي

---

(١) ارجع إلى كتاب «دوزى» «تاريخ المسلمين في أسبانيا» (ج ٢ ص ١٠٩)

عندنا حين يدين بالمسيحية بعد أن نَعَمَّدهُ ، ثم يصبح إلى حد ما على قدم المساواة مع المسلم .

أقول إلى حد ما لأن مسلمي العرب دائماً أرستقراطيون لا ينظرون إلى المسيحي - حتى بعد إسلامه - إلا نظرة السيد ، ولا يخاطبونه إلا من حائق . على أن إسلام المسيحي كان الخطوة الأولى إلى الكرامة والشعور بالعزة ، والزمن وحده كفيل بتحقيق ما يليها من الخطوات ، ولن يلبث ابن المسيحي أن يصبح مسلماً أصيلاً يتمتع بكل ما يتمتع به العربي من عزة وكبرياء .

## معجزة الاسلام

أضف إلى هذا أن انتقال السوريين والمصريين من المسيحية إلى الإسلام لم يكن عسيراً شاقاً فقد كانوا - على الحقيقة - يجهلون من أمور دينهم كل شيء، لأن الجهل في تلك العصور كان ضارباً بجذوره ، وقد اقتبس الإسلام كثيراً من أصول المسيحية - اقتباساً مباشراً أو غير مباشر - ولا تنس أن عقيدة الحساب كانت ذائعة في القرون الوسطى ، وقد كان لها أكبر الأثر في نفوس الناس ، وكانوا يؤمنون بأن الغالب لابد أن يكون على حق . وكانوا يتساءلون مدهوشين :

« لو صح ما قاله القساوسة من أن محمداً نبي منافق كذاب ، فكيف نعلل انتصاره ، وما بال فتوحات أتباعه تترى وتتلو إحداها الأخرى ، وما بال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حد ؟ وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول ؟ »

ولقد كانوا يعتقدون - أول أمرهم - أن خذلان المسلمين سيتم بمعجزة قريبة ، فقد طالما سمعوا عن معجزات الكنيسة التي كانت تحدث لأقل مناسبة ، وانتظروا هذه المعجزة التي تخص البلاد المسيحية من غزوات المسلمين ، ولكن انتظارهم تلك المعجزة قد طال وذهب صبرهم أدراج الرياح ، وعبثا حاولوا وقوع هذه المعجزة .

وهكذا أصبح الاعتقاد بوقوع المعجزة ، الذى طالما روجت له الكنيسة وغلت فى الدعاية له أكبر نكبة حاقت بها وطوحت بنفوذها .

وأعجب من ذلك أن المعجزة - إن لم تقل المعجزات - قد حدثت حقا فى ذلك العصر ، وكانت معجزات أعظم مما كان يتوهمه القديسون أنفسهم ؟ وأى معجزة أروع وأعجب من أن نرى شعبا كان إلى زمن قليل فى غيابة من الخمول ، ثم ظهر إلى الدنيا فجأة ، وظل يتقدم بسرعة لا مثيل لها وهو يفز الأرجاء الفسيحة ، وينتصر على قطر بعد قطر فتدين له البلاد بالطاعة والولاء ، وتقبل على دينه من كل حذب وصوب ، راضية غير مكرهة .

ولو أننا عزونا إقبال المسيحيين على الإسلام إلى الفائدة الشخصية أو الرغبة فى التخلص من النذل والضعمة ، فنحن جديرون أن نقرر أن من الثابت المحقق أن كثيرا من المسيحيين دانوا بالإسلام عن عقيدة وإيمان .

## دين الفرس

وأهم من ذلك أن الفرس أقبلوا على هذا الدين الجديد ودخلوا فيه أفواجا وآمنوا به مخلصين عن ثقة ويقين .

فإن الديانة الفارسية العتيقة التي نشأت من انشقاق البرهمية قد أسسها « زارواستر » وزاد انتشارها بفضل من خلقه من الكهان ، قد فقدت قوتها وقد استهت بها بعد أن خضعت بلاد فارس للعرب .

ولقد غزا « الإسكندر » بلاد الفرس من قبل ، فلم يصبح هذا الدين دين الدولة ، ويظهر أنه لم يستطع أن ينهض بعد هذه الصدمة .

ولا جرم أنه وجد نصيراً وعوناً عند بنى ساسان ، فقد دأبت هذه الأسرة جادة في الاستيلاء على العرش في القرن الثالث بعد الميلاد المسيحي ، واستطاعت أن تستميل الشعب إلى مناصرتها وتأييدها بعد أن أخذت على نفسها عهداً بإعادة المجوسية .

وكان رئيس هذه الأسرة كثيراً ما يقول :

« إن العرش في عون المذبح ، كما أن المذبح في عون العرش »

ولم يجد من خلفوه أيضاً سلاماً إلا بعقد معاهدة وثيقة بينهم وبين كهنة الزورواستر .

وعلى الرغم من حماية هؤلاء الملوك ، فإن المجوسية لم تجد قط

حياة قوية لها . ذلك لأنه شعر بمؤثرات خارجية قوية وآراء وأفكار جديدة نجح في إدخالها إغريق ومسيحيون . وكان كسرى أنوشروان قليل التبصر في هذا الأمر إذ قبل حوله فلاسفة من الإغريق الذين كان يضطهدهم جوستانيان ، وأمر بترجمة كتب أفلاطون وأرسططاليس . وبعد زمن قليل - ولعله كان في عهد حكم الإغريق والهند - ذهب مبعوثون من البوذيين <sup>(١)</sup> ينشرون تعاليمهم في أرجاء فارس ، وكانوا يقولون : « إن بوذا » رسول من عند الله وسيط بين الخالق والمخلوقات ، وإن واجب الإنسان هو ألا يعيش لهذه الحياة الدنيا ، بل يعيش للسماء <sup>(٢)</sup> .

وهكذا نشأت هذه الشيع التي كانت ترمى إلى إدخال عناصر إصلاحية لترقية الاجتماع ، ومزجت - في طياتها - اعتقادات جديدة في ديانة المجوسية ، فأضافت إليها التقمص أو التناسخ ، وهو من معتقدات البراهمة <sup>(٣)</sup> والوحي الذي أوحى به الله للإنسان الأول ، وهو من معتقدات البوذيين ، واعتقاد أن الزمن غير محدود ، وأنه هو الله العلي الأعظم ، والإيمان بأن الله تعالى يتقمص في شخص الملك

(١) من المعروف عن « بورنوف » الذي يسلم كئبر من الفارسيين إلى اليوم بصحة قوله : « إن بوذا مات سنة ٥٤٤ قبل الميلاد » . « دوزى »

(٢) هذا مقاله « السعوى » في مذكراته عن الهند ص ٩٠ « دوزى »

(٣) أرجع إلى رسالة الغفران ( ج ٢ ) « المترجم »



الحاكم<sup>(١)</sup> الخ .

وهذا من اعتقاد البوذيين أيضا ، وقد تفرع عن هذه الملل كثير من النحل .

\*\*\*

وجماع القول أن بلاد الفرس كانت مسرحا لكثير من التخرصات الدينية، حيث التقت فيها أخلاط من المذاهب المختلفة وأمشاج من النحل المتباينة ، ووجدت في هذه البلاد حقلا خصبا لازدهارها .

وقد انتهت هذه المقدمات بالنتيجة الطبيعية المنتظرة فظهرت بينهم فئة آثرت تحكيم العقل ، فأنكرت كل عقيدة ، وظهرت فئة من الطبيعيين ، وهو دين قديم من أديان الفرس ، وكان من تعاليمهم حب التعذيب ، والدعوة إلى قهر النفس ، وكبح جماح الشهوات والعمل على ترقية النفس الإنسانية ورياضتها على الصبر والجلد .

وكانوا يؤمنون - إلى ذلك - بكائن أعلى ويدينون بقدرة الله وخلود الروح بينما غيرهم لا يعتقد ذلك ، وهم أحرار الفكر يبيحون لأنفسهم أقصى مدى من الحرية .

وعبثا حاول الملوك والكهنة مجتمعين أن يتألبوا على هدم هؤلاء المبتدعين الذين يروجون البدع الدينية ، وأن يقضوا على أولئك

---

(١) لاننس أنه لا يزال إلى اليوم في التبت يعدونه إلها في شكل إنسان . «دوزى»

به المزدكيون . وقد أثرت المسيحية في هذين المذهبين كما أثر فيهما الإسلام .  
وكان إسلام الفارسيين عظيم الخطر جليل النفع على الدين  
الإسلامي ، فقد نهض بالإسلام إلى حدٍّ ما ، ولئن رأينا من مسلمي  
العرب قلة اكتراث بالدين ، فإننا نرى الفرس - على عكس ذلك -  
يلتهبون غيرة وحماسة لنصرة هذا الدين .

وقد ألف الفارسيون - إلى ذلك - ممارسة العلوم ، ومعاونة  
البحوث العويصة ، وطبعوا على التحصيل ، فلما أساموا ظهر من بينهم  
واضعو أساس « اللاهوت » الإسلامي ، وقد قال المؤرخ « ابن  
خلدون » : « إن أغلب الحفاظ الذين استظهروا الحديث والدين  
وأعوذهم نفعا على الإسلام ، كانوا من الفرس ، وقد نقلوها إلى الفارسية ،  
وتوفروا على درس القرآن وبرعوا في تفسيره والتفقه فيه . »

\*\*\*

ومن ثم نرى أن الإسلام قد أصبح - بفضل الفرس - قوة عظيمة  
الخطر في العالم ، ولم يكن ليتاح له أن يصل إلى هذه الذروة بفضل  
جهود العرب وحدهم .

ولقد كان تاريخ الإسلام - أعنى تاريخ نشأته وانتشاره ونموه -  
مماثلا لتاريخ البوذية والمسيحية ، فقد نشأت البوذية في الهند ، وماتت  
في مهدها وصرعتها البرهمنية . ولم تطق البوذية أن تصمد لها في نضالها ،

ولكنها - مع ذلك - انتشرت في بلاد أخرى كالصين وسيلان والتتر واليابان ، وما وراء « الجنج » .

كذلك نرى أن المسيحية لم تظفر بالحياة في مهدها ، فقد أنكرها اليهود ، ولجّأوا في مناوأتها - مع أنها وليدة الموسوية - ولكنها على ذلك قد ذاعت خارج موطنها ودان بها الرومان ، وإن كان تدينهم اسماً ، وقتن بها شعب ثالث هو الشعب الجرمانى حيث لقيت بين ظهرانيه كل إقبال وترحيب .

ولسنا ننكر خطر الإسلام واستقامة مبادئه ونفعها وإن كان يحوى - على ذلك - ضرراً جسيماً ، فإن أكثر من دانوا به لم يكونوا مخلصين في اعتقادهم ، وثمة رأينا كثيراً منهم يطرقون أبواب الكنائس ويأوون إليها ، وهم غير معتقدين بالإسلام ، وإن تظاهروا به رغبة فيما يلقونه من كرم الوفادة وحسن الضيافة .

ولقد كان الداخلون في حظيرة الإسلام فريقين ، فريقاً يرى أن الإسلام أيسر مما يطلبون لأنه لا يمنح المؤمنين به ما تطمح نفوسهم إليه ، وفريقاً يرى أنه أصعب مما يطيقون لأنه يفرض عليهم أكثر مما يحتاجون إليه .

فأما الفرس فكانوا من الفريق الأول - وقد ألفوا ديناً معقداً - فلما جاء الإسلام وجدوه أيسر وأبسط مما ألفوه ، ورأوا تعاليمه جافة

شديدة الجفاف بعيدة عما ألفوه من خيال خصب بهيج .  
أما سواد المفكرين الأحرار فقد وجدوا هذا الدين شاقا شديدا  
العسر - على مافيه من تيسير وتسهيل - وهكذا وجدوا كل دين آخر  
عسيرا شاقا ، مادام يفرض عليهم بعض القيود ، فلم يرضوا عن الإسلام .  
ولا عن غيره من الديانات .

و ثم نرى نزعتين باديتين في الشيع الإسلامية ، إحداها ترمى إلى  
اقتباس التعاليم الدينية من الأديان الأخرى ، والثانية تنزع إلى انتهاز  
الفرص للتخلص من أكثر أوامره ونواهيه ، وتخوير نصوص أحكامه  
حتى يصبح وفق رغباتهم وأهوائهم .

\*\*\*

و كانت هاتان النزعتان تمشيان أحيانا جنباً إلى جنب ، فقد عرف  
الجاحدون كيف يستفيدون من المتشدددين في العقيدة ، وتضافرت  
المصالح الشخصية والمآرب السياسية على ذلك ، ورأى الفرس أن  
يسلكوا كل وسيلة للتخلص من نير الاستعباد ، وفكروا في مواصلة  
العمل على استقلال فارس .

وفي كل مكان في الدنيا نرى الشيعة والنحل في كل زمن تنشأ لغاية  
سياسية أكثر منها دينية ، ولا تحوى الفصول التالية جميع هذه  
المذاهب بل تشير إلى أعظمها خطراً وأكبرها أثراً . فليس من ههنا

أن نذكر تاريخ الشيع والنحل . وبحسبنا أن تتبع النزعات السياسية مغفلين منها ما لا خطر له .

\*\*\*

وقد كتب المؤلفون المسلمون في هذا الصدد مدفوعين باعتبارات دينية عن الإسلام وقرروا عكس ماقرره ، فإذا قامت الشبهة قوية في الإسلام ، لجأوا إلى اختراع تقليدى - ولا جرم أنه تقليدى - من مقتضاه أن النبي ( ص ) قال : « تنقسم أمتى إلى ثلاث وسبعين شعبة اثنتان وسبعون منها هالكة وواحدة ناجية . »

وقد أضافوا إلى هذا أنه كان لازراً واستر سبعون شعبة ، وللإهود إحدى وسبعون ، وللمسيحيين سبعون ، ثم ذهبوا إلى قياس عظمة الدين إلى عدة ما يحويه من شعب .

وهذه البدعة التي نعدها غريبة مردها إلى قيمة رمزية ، فإن العدد المقدس : وهو يبدأ من سبعين إلى اثنين وسبعين كان في آسيا - منذ أقدم العصور - متداولاً نظراً لقيمته الرمزية .

وقد رد الباحثون أصل ذلك إلى الفلك فعدد سبعين هو خمس أيام السنة القمرية القديمة ، وعدد اثنين وسبعين هو خمس أيام السنة الشمسية .

وقد أخذت هذه الفكرة من الديانة المجوسية ، وفي كتاب «ياسنا» .

- فيما أعرف - أقدم مثال ذكر فيه هذا العدد . فهذا الكتاب يحوى اثنين وسبعين باباً . وذلك التقسيم - كما يقول « هوج » - لم يكن جزافاً بل وضع عن خبرة وتقدير فإن البابين فى هذا الكتاب وهما الواحد والستون والثانى والسبعون متشابهان ، والباب الثامن عشر لا يحوى غير أشعار من قسم « الغطاس » فى كتاب « ياسنا <sup>(١)</sup> » وبعبارة أخرى ترى أن كتاب « ياسنا » قسمه فى أول الأمر إلى سبعين باباً ( خمس أيام السنة القمرية ) ثم مضى على هذا التقسيم زمن طويل ، فقسموا هذا الكتاب بعد ذلك إلى اثنين وسبعين باباً ( خمس أيام السنة الشمسية ) وفى العهد الذى نقى فيه « بابليون » تسربت هذه الفكرة إلى اليهود مع غيرها من جمهرة الأفكار الأخرى .

ثم انتقلت بعد ذلك - مع الزمن - من اليهود إلى المسلمين .

---

(١) هذا المثال عظيم الخطر لأنه أقدم مثال نسدل به على أصل هذه الفكرة ، وما أجدره بأن يضاف إلى المجموعة الفنية التى جمعها « سنين شنيدر » . ولو اطلع « هوج » على كتاب « شنيدر » لأمن الوقوع فيما وقع فيه من الخطأ حين تصدى لتفسير هذا الرمز العددي ، فقد نسب هذا الرقم - حين عرض للكلام عنه - إلى مضاعفات العدد (٦) ، وعلل ذلك بأن رقم ستة يدل على عدد الأيام التى تم فيها خلق العالم .

وكان المسلمون يجهلون أصل هذه الفكرة ، وقد كانوا خلقاء  
أن ينسبوا تلك الرموز العددية إلى كتاب « ياسنا » بل ما كان أجدرهم  
أن ينسبوها إلى مصادرها الأربعة التي أخذت عنها وأصبحت عدداً  
أكبر من رقم ( ٧٢ ) وقد عناهم أن ينسبوا إليهم وحدهم هذا الرقم .

\*\*\*

ومتى أقررنا ذلك أصبحنا جديرين ألا نأخذ بهذه الأرقام وألا  
تشبث بحرفيتها ، وإن أبي رجال اللاهوت من المسلمين إلا أن يتشبثوا  
بها ويؤمنوا بصحتها . وقد تم لهم ذلك ورأوا من واجبهم أن يصلوا  
بالفرق الإسلامية إلى هذا الرقم .

على أن لحظة من لحظات الروية والتفكير كانت جديرة أن تقفهم  
على خطأ هذا الرأي وأفذه . ولناخذ « الشهرستاني » مثلاً للتدليل  
على صحة ماقول - وهو من رجال القرن الثاني عشر - فقد تأثر بهذا  
الرقم ( ٧٣ ) وما كان أجدره أن يترى ويعن الفكر ويطيل الروية  
ليعلم أن هذا العدد عرضة للزيادة والنقص - كما أثبتت الحوادث  
صحة هذه النظرية في المستقبل - ولكنه آثر التشبث بهذا الرقم ، وقد  
جره ذلك إلى نتيجة تافهة قليلة الخطر ، ولم يصل به تمسكه بهذا الرقم  
( ٧٣ لا أكثر ولا أقل ) إلى غاية محودة موقفة .

ولأنه أطلال الروية لأمن العثار والزلل كما آمنه من جاء بعده من  
الباحثين الذين لم يبهروا أبصارهم هذا الرقم الخلاب .

\*\*\*

والحق أن هذا الرقم الخاطئ ( ٧٣ ) وهذا الرأى المأفون الذى  
دفعهم إلى التشبث به قد وصلا بن أخذ بهما إلى نتائج مُعْتَسَفَة  
شوهدت تاريخ الإسلام إلى مدى بعيد، وأدخلت فيه من ألوان التعقيد  
والغموض ما أفسد بساطته ويُسرّه .

وقد وجد - لحسن الحظ - مؤلفون جاءوا بعد الشهرستانى ، ورأوا  
- كما رأى الشهرستانى - أن يميزوا هذه الشيع فيجعلوها قسمين ، مِلَلًا  
ونحلا (١) .

وبهذا التمييز أصبحنا ندرك المذاهب الأصلية وما نشأ عنها من  
الفروع .

---

(١) قال أبو العلاء المعرى فى نشأة المذاهب :

« محل غدت مللا . فكل شرعة بدى - لمضمر غيرها - إكفارها »

« المترجم »



فَهْرَسْت

تفصلي ملاوك الطوائف

وَنظَرَاتٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ

# ملوك الطوائف

## الفصل الأول

- ٦ ١ - بعد إلغاء الخلافة .
- (٦) (نشأة ملوك الطوائف )
- ٧ نتائج إلغاء الخلافة
- (٧) (أسبانيا بعد عبد الرحمن الثالث)
- ٨ تكوين حكومتين شورييتين
- (٨) (وصف كاهن قرطبة لانصراف أبناء دينه إلى العرب)
- ٩ ٢ - قرطبة
- (٩) تمكن الثقافة الاسلامية من نفوس المسيحيين الأسبان ، ميزات الشعر العربي في أوروبا
- ١٠ تولية ابن جهور على قرطبة .
- (١٠) (تاريخ ابن جهور وولده أبي الوئيد)
- ١١ استتباب الأمن في عهد ابن جهور . استمسك ابن جهور بنظام الشورى ، إقامة ابن جهور في بيته وتركه تقصر الخلافة
- (١٢) (وصف صاحب كتاب المعجب لحكم ابن جهور وحكم ولده)
- ١٣ نزاهة ابن جهور ، رفض ابن جهور أن يكون بيت المال في داره
- (١٣) (وصف ابن بشكوال لحكم ابن جهور)

- ص  
١٤' إيثار ابن جهور للمصلحة العامة ، حرص ابن جهور وإثراؤه  
(١٤) (وصف صاحب كتاب المطمح لحكم ابن جهور)  
١٥' تحسين العلاقات بين قرطبة والممالك المجاورة ، تقدم العمران في قرطبة  
(١٥) (قطعة من شعر ابن جهور)  
١٦ ٣ — إشبيلة ، إشبيلة تحرز الشأن الأول في المركز السياسي ، التجاء  
قاسم بن حمود والى قرطبة إلى إشبيلة  
١٧ سعى القاضي أبي القاسم إلى أن يكون ملكا على إشبيلة  
(١٧) (تاريخ القاضي أبي القاسم وابنه عباد وحفيده العتمد ، تاريخ القاسم بن حمود  
وعلى بن حمود)  
١٨' محاولة القاسم الوصول إلى إشبيلة ثم عودته خائبا ، تفكير أهل إشبيلة  
في اختيار حاكم  
١٩ ٤ — بنو عباد ، رفض القاضي أن يكون حاكما على إشبيلة لعدم ملائمة الوقت  
٢٠ زعم آل عباد أنهم من سلالة ملوك لخم ، صلة آل عباد بقبيلة لخم  
٢١ تاريخ آل عباد  
٢٢ ٥' — قاضي إشبيلة ، عرض حكم إشبيلة على القاضي  
(٢٢) وصف كتاب المعجب لحكم القاضي لإشبيلة  
٢٣' قبول القاضي لحكم إشبيلة على شرط أن تعاونه هيئة شورية  
(٢٣) (وصف كتاب عقدا لجان حكم القاضي لإشبيلة)  
٢٥ قبول الإشبيليين لشرط القاضي وأسماء الوزراء الذين اختارهم ، عناية  
القاضي بالجيش  
٢٦ محاصرة القاضي لقصرين في شمال فيزي ، استيلاؤه على القصرين ، مهاجمة  
إشبيلة من الخليفة الحمودي وأمير بربر قرمونة ، اعتراف الإشبيليين بسيادة  
الخليفة الحمودي عليهم ، طلب الخليفة أن يكون لديه نبلاء إشبيلة رهينة

- ص  
لواء الإشبيلين ، إحيام الإشبيلين عن أن يرسلوا أحداً وإرسال  
القاضي ابنه عباد
- ٢٧ ارتفاع منزلة القاضي في نفوس الشعب ، إسناد القاضي رئاسة الوزراء إلى الرجل  
اسمه حبيب ، عزم القاضي الاستيلاء على باحه بمساعدة أمير قرمونة ،  
استيلاء ابن أمير بطليوس على باحه
- ٢٨ محاربة جيش القاضي لابن أمير بطليوس ووقوعه أسيراً
- ٢٩ صلح القاضي مع أمير بطليوس وإطلاق سراح ابنه ، انتقام أمير بطليوس  
من جيش القاضي أثناء إغارته على مملكة ليون
- ٣٠ تقوية الخليفة الحمودى لسلطانه بضم جميع الأمراء حوله ، خشية القاضي من  
سلطان الخليفة الحمودى وتفكيره فى أن يجتمع العرب والصقالبة تحت راية حاكم  
٦ - هشام الثانى
- ٣١ الأشاعات حول موت هشام الثانى وحياته ومقر إقامته
- ٣٢ خلف الحصرى وشبهه بهشام الثانى ، ادعاء خلف أنه هو الخليفة هشام
- ٣٤ موافقة قاضى إشبيلية لخلف على ادعائه ليكون باسمه حزبا ضد البربر ،  
استدعاء قاضى إشبيلية لخلف وانتصاره لدعواه ، الاعتراف بسيادة خلف  
على أنه هشام
- ٣٥ تكذيب ابن جهور للخليفة المزعوم وميله عن إعلان ذلك رغبة فى اتحاد  
العرب ، محاصرة يحيى لإشبيلية انتقاما من القاضي ، خيانة البربر للفتن  
حول يحيى ، توجيه القاضي حملة لمباغنة يحيى على رأسها ابنه اسماعيل ومعه  
محمد بن عبد الله
- ٣٦ وصول الجيش إلى يحيى وهو تمل ، انتصار الجيش على يحيى ومن معه ،  
قتل يحيى نفسه .
- ٣٧ استيلاء محمد بن عبد الله على قصر الأمارة ، النداء بإدريس أحد أشقاء

ص

يحيي خليفة في مالقة ، تطلع القاضي والخليفة هشام المزعوم إلى قصر الخلافة  
بقرطبة ، يقظة ابن جهور وإقناعه أهل قرطبة بحقيقة الخليفة المزعوم  
٣٨ جيوش ابن جهور تمسك عند الأمير الصقلي الذي أبى الاعتراف بهشام  
المزعوم ، عقد محالفة مع حبوس القرناطي ، زحف جيش إشبيلية ثم تهقره

## الفصل الثاني

- ٣٩ ظهور ابن عباس وصمويل في غرناطة والمرية ، تاريخ صمويل (إسماعيل)  
اليهودي ونبوغة في الأدب العربي ، اتصال صمويل بوزير حبوس ملك غرناطة  
٤٠ صمويل يصحب الوزير إلى غرناطة  
٤١ الوزير يسلم صمويل بملك غرناطة ، صمويل يصيغ ناموس الملك ومستشاره  
٤٢ تحليل سمو صمويل إلى هذا المنصب بتملكه من ناصية البيان وقدرته  
على تحرير الرسائل  
٤٣ تأثر صمويل بالروح الدينية المألوفة عند كتاب المسلمين  
٤٤ خدمة صمويل للأدب العبري وكراهة العرب ذلك منه  
٤٥ سهر صمويل على مصالح اليهود ومنحهم إياه لقب « زعيم »  
٤٦ حكمة صمويل ومعرفته بأخلاق الناس  
٤٧ تاريخ ابن عباس وزير أمير المرية ، ثروته الطائلة  
٤٨ قنعة أهل قرطبة عليه  
٤٩ كراهية ابن عباس للبربر  
٥٠ وفاة حبوس وإعقابه ولديه : باديس وبلقين  
(٥٠) (قسوة باديس ولد حبوس)  
٥١ البربر وجماعة من اليهود يريدون تولية بلقين ، العرب وآخرون من اليهود  
يعلمون إلى باديس

- ٥٢٠ ص  
نشوب حرب أهلية وتنازل بلقين عن العرش لباديس  
(ذكر مقتل اليهودى يوسف بن نغزالة الإسرائيلى) (٥٢)
- ٥٣  
سمى الأمير باديس لتوطيد أركان المحالفة بينه وبين أمير المرية ، خروج  
أمير المرية لمقابلة باديس بغرناطة
- ٥٤  
إخفاق المفاوضات بين الأميرين ، غضب باديس من استطالة أمير المرية عليه ،  
توسط بلقين أخى باديس لدى وزير أمير المرية للتوفيق  
(وصف البيان للغرب للحرب بين أمير المرية وباديس) (٥٤)
- ٥٤  
خطاب بلقين لابن عباس وزير أمير المرية
- ٥٥  
رد ابن عباس
- ٥٦  
غضب بلقين من هبة ابن عباس وإفضاؤه إلى أخيه باديس بمدار ، استعداد  
الغرناطين لحرب زهير أمير المرية ، قطع باديس للقطرة التى لابد من  
اجتياز زهير لها فى عودته
- ٥٧  
إرسال باديس إلى زهير يعلمه بالخطر المحدق وينصحه بالسفر ليلا ، قبول  
زهير للنصيحة ورفض ابن عباس وزيره لها
- ٥٨  
سفر زهير فى اليوم التالى ووقوعه فى المضايق ، تقهقر فرسان زهير واضطرارهم  
جميعاً إلى الهرب
- ٥٩  
لحاق جنود غرناطة ببغيت زهير وقتل أكثره ، أمر باديس بأسر أرباب  
الوظائف وفيهم ابن عباس ، مثول ابن عباس بين يدى باديس ومحاولته  
أن يخدعه
- ٦٠  
ابن شبيب الأسير يلقي التبعة على ابن عباس ويستحلف باديس أن يقتله ،  
عطف باديس على ابن شبيب وإطلاقه سراحه ، قتل الأسرى من الجيش  
وإطلاق سراح الأسرى من أرباب الوظائف ، إبقاء ابن عباس أسيراً
- ٦١  
طلب ابن عباس إطلاق سراحه مقابل فدية من المال ، حيرة باديس فى  
قتل ابن عباس أو إطلاق سراحه وأخذ الفدية

- ٦٢ مفاوضة بين باديس وأخيه في شأن ابن عباس ، إحضار باديس لابن عباس ومحاسبته على أخطائه
- ٦٣ طعن باديس وأخيه لابن عباس وقتله بين يديهما
- (٦٣) (وصف البيان المغرب للحرب بين باديس وزهير)
- ٦٤ سرور الأفريقيين بمقتل ابن عباس
- ٦٥ فرح اسماعيل بمقتل ابن عباس وأوهامه عنه
- (٦٥) منزلة ابن عباس من الأدب والعلم
- ٦٦ نبوءة اسماعيل بمقتل ابن بقة نصير ابن عباس

## الفصل الثالث

- ٦٧ خدمة باديس للحليفين الذين اعترفوا بهشام المزعوم
- (٦٧) (ترجمة عبد العزيز أمير بالنسية، ترجمة مجاهد العامري، ترجمة محمد بن برزال)
- ٦٧ بدء الاستيلاء من باديس وأسبابه
- ٦٨ تأمر أبي الفتوح على باديس ، تاريخ أبي الفتوح
- ٦٩ اشتغال أبي الفتوح بالتنبؤ بالمستقبل واستغلاله ذلك في التأمر على باديس، اكتشاف باديس للمؤامرة وفرار أبي الفتوح إلى قاضي إشبيلية ، مهاجمة جيش القاضي للأمير قرمونة وانتصاره ، مساعدة أمير مالقة وباديس للأمير قرمونة
- (٧٠) (فصل لابن الأثير في تاريخ هذه الحروب)
- ٧٠ ثقة جيش القاضي بيسالته ووفرة عدده
- ٧١ انسحاب باديس ووزير أمير مالقة وتركهما أمير قرمونة أول الأمر
- ٧٢ عودة باديس ووزيره أمير مالقة واستعدادهما لمحاربة جيش القاضي

- ٧٣ من  
هزيمة الجيش الإشبيلي وفراره طلبا للنجاة ، عودة أبي الفتوح إلى باديس واستعطافه
- ٧٤ حديث باديس مع أبي الفتوح
- ٧٥ وعد باديس لأبي الفتوح أن لا ينتقم منه ، دفاع بلقين أخى باديس عن أبي الفتوح وإظهاره لبراءته ، استحضار باديس لأبي الفتوح وهو فى غفوة الدراب
- ٧٦ تهريم باديس لأبي الفتوح ، ورباطة جأش أبي الفتوح واعترازه بكرامته
- ٧٧ إغمداد باديس لسيفه فى صدر أبي الفتوح ، دفن جثة أبي الفتوح فى قبر ابن عباس قتل باديس للجندي الأسير
- ٧٨ حزن العلماء والأدباء على قتل أبي الفتوح

## الفصل الرابع

- ٧٩ قوة نفوذ باديس
- (٧٩) (الجماعات والفرق التى كانت تنضم إلى كل من الحزبين العربى والبربرى )
- ٨٠ ضعف الخلافة الموحدية وركونها إلى الدعة ، المفارقة بين بلاطى غرناطة ومالقة
- ٨١ موت الخليفة الموحدى إدريس الأول ، اختلاف وزيرى الصمالية والبربرى على تعيين الخليفة ، قيام الوزير الصمالي بالبيعة لحسن بن يحيى ، إذعان الوزير البربرى لهذه البيعة ، وصول الأسطول الأفريقى إلى مالقة ، فرار الوزير البربرى مع الخليفة الذى كان يريد أخذ البيعة له
- ٨٢ رغبة نجباء مدير دولة حسن فى تقوية نفوذه ، إغراء نجباء البربرى بالوعود لتعيينه خليفة ، خوف البربرى من نجاء لاحترامه للسلاطة الهاشمية ، تظاهر البربرى بالطاعة ونجاء ومبايعته ، تجريد نجاء جيشا لمحاربة الخليفة الموحدى ، ملاحظة وزير نجباء أن البربرى يقاتلون بتراخ



- ٨٣ ص  
صدور أمر نجاء إلى الجند بالارتداد ، محاولة نجاء اجتذاب العنصر الصقلي  
بالمال ، قتل البربر لنجاء ، فرار الصقالبة خوفاً من البربر ، ذهاب البربر  
إلى مالقة ، إخراج البربر لإدريس شقيق حسن من السجن وإقامته خليفة  
٨٤ . أخلاق إدريس ومواهبه ، احترام الشعب للمحموديين لأنهم من سلالة الرسول ،  
احتجاب الحموديين عن عيون الشعب تمكيناً لهيبتهم واحترامهم ، بساطة  
إدريس وخروجه على تقاليد أسلافه  
٨٥ قصة إدريس مع شاعر من إشبونة  
(٨٥) (قصة إدريس بن يحيى العلوى مع عبد الرحمن الأشبونى)  
٨٦ المقارنة بين الشاعر الإشبونى وعشيقه جيوبتير  
٨٧ ضعف إدريس واستسلامه ، طلب باديس من إدريس لإرسال وزيره  
للتنكيل به ، موافقة إدريس على إرسال وزيره إلى باديس  
٨٨ غضب البربر على إدريس لضعفه ولينه ونزعاته الاشتراكية ، ثورة رئيس  
الحصن وصاحب الشرطة والحرس على إدريس ورغبتهم فى إقامة محمد مكانه ،  
٨٨ أهل مالقة يتجددون لنجدة خليفته إدريس  
٨٩ إباء إدريس أن يمكن أهل مالقة من السلاح حقناً للدماء ، إبداع إدريس  
فى السجن ، إقامة محمد خليفة مكان إدريس ، قوة الخليفة محمد وجهه لسفك  
الدماء ، انقلاب البربر على محمد وندمهم على سلفه إدريس  
٩٠ إخراج إدريس من السجن وإقامته خليفة ، تغير أخلاق إدريس وإثارته  
لحرب أهلية ، مقاتلة محمد لخصومه وظفره بهم ، ذهاب إدريس إلى أفريقية  
ومبايعته والخطابة باسمه فى المنابر  
(٩٠) (تقويم سبتة وطنجة)  
٩١ رحلة محمد إلى الاندلس وإقامته عند صاحب رندة  
(٩١) (تقويم رندة)

- س  
٩١ محاربة باديس للخليفة محمد ، ثم صلحه معه ، عدد الخلفاء بالأندلس في هذا العهد
- ٩٢ موت أمير الجزيرة ، موت الخليفة محمد وتظلم إدريس الثالث إلى منصبه ، إقامة إدريس الثاني خليفة ، موت إدريس ومحاولة حمودى أن يخلفه وقضاء باديس على آماله ، رغبة باديس في أن يضم مالقة ضمن ولاياته
- (٩٣) (تقويم مالقة)
- ٩٣ استيلاء باديس على مالقة بلا كبير عناء ، إذغان العرب له على كره ، انتصار البربر لباديس وأسبابه
- (٩٣) (تاريخ الدولة الحسينية الحمودية)
- ٩٤ تمكن باديس من القضاء على الحموديين

## الفصل الخامس

- ٥٥ وفاة الفاضى أبى القاسم وقيام ابنه ( ابن عباد ) على إشبيلية ، اشتهاره في التاريخ باسم المعتضد ، قوة شخصيته وزعامته للحزب العربى ، المقارنة بين المعتضد وخصمه باديس زعيم البربر
- ٩٦ تهالك المعتضد وباديس على الشهوات ، الفرق بين المعتضد وباديس في الثقافة والتعليم ، قيمة شعر المعتضد في الدلالة على أخلاقه
- (٩٧) (أخبار المعتضد وأشعاره)
- ٩٨ أريحية المعتضد وشغفه بالفنون
- ٩٩ المقارنة بين المعتضد وباديس في أساليب السياسة
- ١٠٠ ولع المعتضد وباديس بهرب الحر
- ١٠١ رقة حاشية المعتضد
- ١٠٢ اجتماع شروط اللياقة في مجلس سراب المعتضد

- ١٠٣ ص اعتدال طريقته في ضرب البحر  
١٠٤ حسن قيام المعتضد بأعباء الملك مع تفانيه في الملاذ  
١٠٥ المقارنة بين فساد المعتضد وفساد باديس ، موت باديس في ساحة القتال ،  
قلة اشتراك المعتضد في المعارك الحربية ، وضع المعتضد للخطط الحربية  
وترك تنفيذها للقواد  
١٠٦ حيل باديس في السكاكة بأعدائه وسقمها  
( ١٠٦ ) فصل للفتح بن خاقان عرض فيه لذكر باديس والمعتضد  
١٠٧ رقة المعتضد في حيله للسكاكة بأعدائه  
١٠٨ دهاء المعتضد ، قصة المعتضد مع رجل من العرب استخدمه في توصيل  
الرسائل إلى جاسوسه  
١١٣ محافظة المعتضد على الانتقام ممن بغضبه ، قصة انتقام المعتضد من المكفوف  
الذي كان يشهر به  
١١٥ المقارنة بين المعتضد وباديس في معاملته اغتلى والتكيل بهم  
١١٦ أسوة المعتضد بالخليفة المهدي  
( ١١٦ ) تشبيه الناس للمعتضد بأبي جعفر المصور

## الفصل السادس

- ١١٨ انفراد المعتضد بالحكم بلا منازع ولا مشاور ، ظنونه في نية البربر وخوفه  
من إيقاعهم به ، محاربتهم له ، اتساع مملكة المعتضد  
في الجهة الغربية ، محاربتهم لابن طيفور واستيلائه على مرتولة  
( ١١٨ ) ( جغرافية مرتولة )  
١١٩ مهاجمة المعتضد ليحي أمير بلبة العربي رغبة في اتساع مملكته ، استنجاد  
يحي بالمظفر صاحب بطليوس ، تأليف حلف من البربر لصعد المعتضد

عن فتوحاته ، سعى رئيس قرطبة لعقد صلح بين الفريقين وإخفاقه ،  
محاربة المعتضد للمظفر بيدا من حلفائه .

١٢٠ خروج ابن يحيى من الحلف البربرى وانضمامه إلى المعتضد على كره منه ،  
معاينة المظفر ليحيى على خروجه واستنجاذ يحيى بالمعتضد

١٢١ انتصار جيش المعتضد على المظفر وتخريب بلاده

١٢٢ تظاهر المظفر بعدم مبالاته بانتهزامه ، نجاح رئيس قرطبة فى عقد صلح  
بين المظفر والمعتضد

٢٢٣ محاربة المعتضد ليحيى أمير لبلة وانتصاره ، شعور أمير ولبلة بأن المعتضد  
سيوجه إليه حملته ، تعلق أمير ولبلة للمعتضد وتنهته على انتصاراته ،  
عرض أمير ولبلة على المعتضد أن يتنازل له عن ولبلة فى مقابل أن يبقى  
حاكماً على ساطس ، وضع المعتضد يده على ولبلة

١٢٤ سفر أمير ولبلة إلى قرطبة ، مهاجمة المعتضد لولاية شاب واستيلاؤه عليها

١٢٥ زحف المعتضد على شتمرية واستيلاؤه عليها ، اتساع إمارة إشبيلية  
فى الجهة الغربية ، أسباب انصراف المعتضد عن مهاجمة الجهة الجنوبية

وأمرائها أولاً ، تفكير المعتضد فى قتل أولئك الأمراء والاستيلاء على ولاياتهم  
١٢٦ زيارة المعتضد لأمير بنى مرين ، حفاوة الأمير بالمعتضد ، دسائس المعتضد

ضد الأمير ورشوته للبربر

١٢٧ استئثار المعتضد سفره إلى أمير رندة ، إجلال الأمير له وترجيئه به ،  
تدبير البربر مؤامرة ضد المعتضد ومحاولة قتله ، صرف معاذ بن قرة للبربر

عن تنفيذ المؤامرة

١٢٩ علم المعتضد بهذه المؤامرة وسفره توا إلى إشبيلية

١٣٠ دعوة المعتضد لأميرى رندة وبنى مرين وكبار رجالها

١٣١ وصول الأمير بن إشبيلية وحفاوة المعتضد بها ، دعوة المعتضد للأميرين

ص

- ورجالها إلى دخول الحمام واستبقاؤه معاذ بن قرة ، خيانة المعتضد  
المستحمين وإماتهم جميعاً بالاختناق  
١٣٢ تطيب المعتضد لحاطر معاذ وإعلامه بأنه أئمنه اعرافاً بحميله عليه  
١٣٣ بقاء معاذ بن قرة بإشيلية محل عناية المعتضد وعطفه ، إرسال المعتضد  
جيشاً للاستيلاء على بني مرين وورندة ، انتصار المعتضد واستيلاؤه على  
ولايات كثيرة  
١٣٤ فرح المعتضد باستيلائه على رندة وتحصينه لها ، ذهاب المعتضد لمعاينة  
رندة ونظمه شعراً فيها

## الفصل السابع

- ١٣٥ حزن باديس وغضبه لانتصارات المعتضد وثورة العرب للجنسية والوطن ،  
عزوه أن يبید العرب  
١٣٦ تفكيره في أن يقتل العرب يوم اجتماعهم لصلاة الجمعة ، استشارة باديس  
لوزير اسماعيل في ذلك ، رفض وزير باديس لهذه الخطة  
١٣٧ ترك باديس لمشورة وزيره واستعداده لقتل العرب ، إذاعة الوزير لخطة  
باديس ونصيحته لزعماء العرب بعدم الاجتماع لصلاة الجمعة  
١٣٨ لوم باديس لوزيره على إذاعة خطته ، اعتزام باديس أن يفزو ولايات إشبيلية  
١٣٩ حماسة البربر للانتقام من العرب ، انتصار العرب وارتداد البربر  
١٤٠ مهاجمة المعتضد للقاسم بن حمود أمير الجزيرة ودخول القاسم في طاعة المعتضد  
إعلان المعتضد أن هشاماً الثاني المزعوم لا يزال حياً  
١٤١ جمع المعتضد لرجال الدولة وقبيله هشاماً وأمره بالأياد الخبر ، عزم المعتضد  
على الاستيلاء على قرطبة ، أمر المعتضد ابنه اسماعيل أن يستولى على  
مدينة الزهراء ، كراهة اسماعيل لأبيه المعتضد والشكوى من قسوته وظلمه

- ١٤٢ س إثارة عبد الله البرزيلي لاسماعيل على أبيه المعتضد ، طلب اسماعيل من أبيه زيادة المعونة ورفض أبيه ذلك ، غضب المعتضد على ابنه وتسميته إياه بالجبان
- ١٤٣ اشنداد الخلاف بين اسماعيل وأبيه المعتضد ، نكول اسماعيل عن مواصلة الحرب وعودته إلى إشبيلية ، استيلاؤه على الكونوز والنفاثس وذهابه إلى الجزيرة المحصورة
- ١٤٤ تسرب خبر اسماعيل إلى أبيه المعتضد وإرسال المعتضد فرسانه لمحاصرة ابنه ، لجوء اسماعيل إلى حصن شذونة ، توسط صاحب الحصن لدى المعتضد في الصفح عن ابنه اسماعيل
- ١٤٥ قبول المعتضد للوساطة وعودة اسماعيل إلى إشبيلية ، سدّد رقابة المعتضد على ابنه وقتل من كان معه ، حباه اسماعيل في الخلاص من أبيه والفرار ليلا بمساعدة الحراس والعبيد ، اطلاع المعتضد على حله ابنه اسماعيل قبل فراره وقتله له ، عودة المعتضد إلى الحزن على ابنه وتأنّب نفسه على قتله
- ١٤٦ تصريحه بسناعات ابنه في المجالس
- ١٤٧ فتور المعتضد وتركه سهاحة قرطبة ، عودة المعتضد إلى ساطع واستعداداته للاستيلاء على مالقة
- (١٤٧) (فصول من كتاب الدخيرة عن المعتضد )
- ١٤٨ تدمير العرب من حكم بادس في مالقة
- (١٤٨) (ما ذكره ابن حيان عن المعتضد وما إليه )
- ١٤٩ أمل العرب في الخلاص من بادس على يد المعتضد ، فضل العرب للمعتضد على بادس
- ١٥٠ اتفاق العرب مع المعتضد على مؤامرة ضد بادس
- ١٥١ تنفيذ المؤامرة وشبوب ثورة في العاصمة
- ١٥٢ وصول جيوش إشبيلية بقيادة المعتضد بن المعتضد
- ١٥٣ أخذ البربر على غرة وهلاك أكثرهم

- ١٥٥ فتح جميع الولاية إلا حصن مالفه ، أسباب تعذر فتح حصن مالفه
- ١٥٥ الحثية من أن يشد باديس أزر حامية الحصن
- ١٥٦ الإشارة على العتمد بأن يشدد الحصار على من بالحصن
- ١٥٧ عدم تقدير العتمد لهذه الإشارة ، إطلاق العتمد سراح جنده
- ١٥٧ (فصل لابن بسام عن ابن الأفطس)
- ١٥٨ خديعة البربر للعتمد بطلبهم أن يترك الحصن ، إخبار حامية الحصن باديس بأن الفرصة سانحة لمباغطة صكر العتمد ، وصول جنود غرناطة إلى مالفه وغفلة العتمد عنها ، قيام جنود غرناطة بمذبحة في عسكر إشبيلية ، انسحاب العتمد إلى رندة ، خضوع مالفه لحكم باديس
- ١٥٩ حق العتمد حين وصله خبر الهزيمة ، إصدار العتمد أمره باعتقال ابنه العتمد ، إرسال العتمد قسيده إلى والده العتمد يستعطفه ويعتذره ، قسيده العتمد
- ١٦٠ إلقاء العتمد النبعة على خيانة البربر
- ١٦١ تأثر العتمد بقسيده والده العتمد وعطفه عليه
- ١٦٢ إباحة العتمد للعتمد العودة إلى إشبيلية وصفحه عنه ، يقظة باديس وخوفه من مهاجمة العتمد لمالفه مرة أخرى ، الحديث عن يوسف ولد اسماعيل وزير باديس ، أخلاق يوسف وصفاه
- ١٦٣ سيطرة يوسف على باديس ، احتقار يوسف للأدبان ، إساءته للعرب والبربر واليهود ، معاداته لأبي اسحاق الالبيري
- ١٦٤ قسيده أبي اسحاق في الإغراء باليهود ، تطلع أبي اسحاق لمنصبه في البلاد وتخيب يوسف لآماله ، رحلة إسحاق ونظمه لقصيدته في تهيج العامة على يوسف
- ١٦٦ أثر القسيده في نفس باديس ، رغبة البربر في الانتقام من يوسف ، إشاعة الفسواء يوسف تحت لواء العتمد أمير المرية

- ١٦٧ <sup>س</sup> رغبة يوسف في قل باديس والصعود إلى عرشه ، تمليل غضب البربر على يوسف ، مهاجة يوسف في قصر الأمارة وقتله وصلبه  
( مديحة اليهود ) ( ١٦٧ )  
١٦٨ قتل صنهاجة لليهود ونهب دورهم  
١٦٩ عدد القتلى من اليهود

## الفصل الثامن

- ١٧٠ الحالة في بقية أنحاء اسبانيا ، توجيه فردينند جيوشه اقبال المسلمين ، انتزاع فردينند من المظفر مدينتين ، انتزاع فردينند من ملك سرقسطة جميع الحصون والمعاقل ، زحف فردينند على المأمون صاحب طليطلة  
١٧١ تقدم المأمون لفردينند بالهدايا والولاء ، دعاه فردينند إلى المعتضد وإحراقه قرى إشبيلية ، إعطاء المعتضد لفردينند إتاوة ، الاتفاق على أن يعطى للمعتضد لفردينند جربة سنوية  
١٧٢ الاتفاق على أن يرسل المعتضد جثمان القديسه حوست ، الأخفاق في العنود على رفات القديسة  
١٧٥ حيلة المعتضد في الماطلة في دفع الجزه  
١٧٦ توجيه فردينند حملة إلى بلنسية ، انسار جيش فردينند على جيش بلنسية  
١٧٧ استيلاء جيش فردينند على قلعة باريستر وقتل جنود الحاميه عدراً  
١٧٨ سمر جيش فردينند وتركه حامية ضعيفة على بلنسية ، استيلاء المنذر ملك سرقسطة عليها بتعاونة المعتضد  
١٧٩ مرض فردينند  
١٨٠ وفاة فردينند ، وفاه المعتضد  
١٨١ مخاوف المعتضد في أواخر أيامه



- ١٨٢ ص استأجعه الى الغناء قبيل موته  
١٨٣ موت ابنته قبيل موته  
(١٨٣) ( رثاء ابن زيدون لابنة المعتضد )  
١٨٤ قيام المعتمد بن المعتضد على إشبيلية خلفاً له

## الفصل التاسع

- ١٨٥ تاريخ المعتمد ، اتصال المعتمد بابن عمار  
١٨٦ معاونة رجل من شلب لابن عمار  
١٨٧ إمامة ابن عمار والمعتمد بشلب ، شك ابن عمار وارتبابه بالناس  
١٨٨ عدم ثقة ابن عمار في صداقة المعتمد له  
( ١٨٨ ) ( نشأة ابن عمار وطرف من أخباره وأشعاره )  
١٨٩ قصة سمر ابن عمار مع المعتمد  
١٩١ نوم المعتمد وابن عمار بعد السر على فراش واحد  
١٩٤ أحلام ابن عمار المزعجة في تلك الليلة ، توهمه ان المعتمد سيقنتله  
١٩٥ مطاردة ابن عمار لأوهامه وتعليلها بتأثير التبيذ  
١٩٦ معاودة الأحلام المزعجة لابن عمار  
١٩٨ إيقان ابن عمار بأن هذه الأحلام وحى سماوى  
١٩٩ إدراج ابن عمار نفسه في حصار ونومه في دهليز القصر  
٢٠٠ عزمه على الهرب صباحاً واستعداداه  
٢٠١ تفقد المعتمد لابن عمار والعتور عليه داخل الحصار ، إلحاح المعتمد على ابن عمار أن يقضى إليه بسر  
٢٠٢ إفضاء ابن عمار للمعتمد بالسر ، تطييب المعتمد لحاظ ابن عمار ، قصة المعتمد وابن عمار بشلب وخروجهما للترجم

- ٢٠٣ وقوع المعتمد في شرك حب فتاة طارحته الشعر ، طلبه إلى الفتاة أن تذهب إلى قصره وقبول الفتاة ذلك
- ٣٠٤ اقتران المعتمد بالفتاة ، صفات الفتاة ومواهبها
- ٢٠٥ غرائب أطوار الفتاة وميولها ، غرام الفتاة بالثلح المتساقط على الأزهار
- ٢٠٦ غرام الفتاة بأرجل النسوة المتعلات بالطين
- ٢٠٧ تحقيق المعتمد لرغبات الفتاة
- ٢٠٨ مقت رجال الدين لزرق فتاة المعتمد ، شعر المعتمد إلى الفتاة
- ٢٠٩ حفظ المعتمد لصداقة ابن عمار
- ٢١٠ غضب المعتمد من استيلاء ابن عمار على ابنه المعتمد ، تفرقة المعتمد بين ابنه المعتمد وابن عمار ، عودة المعتمد إلى ابن عمار بعد أن تولى الحكم خلفاً لأبيه المعتمد ، تولية ابن عمار على شلب
- ٢١١ شعر المعتمد إلى ابن عمار في مقره الجديد ، دخول ابن عمار شلب
- ٢١٢ سؤال ابن عمار عن التاجر الذي واساه في محبته ومكافأته له ، استدعاء المعتمد لابن عمار وتعيينه كبيراً لوزرائه

## الفصل العاشر

- ٢١٣ غرام المعتمد ووزيره ابن عمار بالشعر والشعراء
- (٢١٣) (ترجمة عبد الجليل بن وهبون )
- ٢١٥ قصة المعتمد مع عبد الجليل بن وهبون وإكرامه له
- ٢١٦ قصة البازي السنجاني اللص وحكم المعتمد عليه بالقتل والصلب
- ٢١٨ حديث المعتمد مع السنجاني اللص وتبسطة معه
- ٢١٩ عقو المعتمد عن السنجاني اللص وتوليته رئيساً للشرطة
- ٢٢٠ اشتغال المعتمد بالولائم والملاهي ، مشاركة زوج المعتمد له في قراءة الشعر وقرضه

- ٢٢١ ص غضب زوج المعتمد عليه ورسائله إليها في الاعتبار ، إتمام المعتمد لأعمال  
 " أبيه وجده في الفتح
- ٢٢٢ ص المعتمد قرطبة إلى ملكته
- ٢٢٤ شعر المعتمد في قرطبة
- ( ٢٢٤ ) ( فصول من البيان المغرب في فتح المعتمد لقرطبة )
- ٢٢٥ محاولة انتزاع قرطبة من حاكمها عباد بن المعتمد
- ٢٢٦ عملة عباد عن الدسائس التي تحاك للاستيلاء على قرطبة
- ٢٢٧ صبان ابن عكاشة للمأمون أن يأخذ قرطبة من عباد
- ٢٢٨ صفات ابن عكاشة
- ٢٢٩ خبرة ابن عكاشة بقرطبة
- ٢٣٠ ضعف عباد عن امتلاك أزمة الحكم وتركها لمحمد بن مارتن ، صفات محمد  
 ابن مارتن رئيس حامية قرطبة ، اكتشاف تدبيرات ابن عكاشة
- ٢٣١ توافد عباد ورئيس حاميته في مناوأة ابن عكاشة ، دخول ابن عكاشة  
 قرطبة واقتحامه قصر المعتمد ، قتل المعتمد ، مهاجمة ابن عكاشة لقصر  
 رئيس الحامية
- ٢٣٢ قتل رئيس الحامية ، جمع ابن عكاشة أهل قرطبة بالمسجد الجامع وأخذوه  
 السبي للمأمون
- ( ٢٣٣ ) ( فصول من قلائد المعيان في فتح ابن عكاشة لقرطبة )
- ٢٣٤ دخول المأمون قرطبة
- ٢٣٥ تظهر المأمون بالثناء على ابن عكاشة وإخفاؤه بية قتله
- ٢٣٦ قتل المأمون بقرطبة بيد أحد المترددين على مجلسه ، حزن المعتمد على ضياع  
 قرطبة وموت ابنه عباد
- ٢٣٧ ضياع مجهود المعتمد في استرداد قرطبة والتأثر لابنه عباد أول الأمر ،

- ٢٣٧ س استيلاء المعتمد على قرطبة وتمكنه من اللحاق بابن عكاشة وقتله ، فتح المعتمد طليطلة ، المقارنة بين المعتمد وبقية ملوك الطوائف ، تأدية المعتمد الإتاوة لأولاد فردينند
- ٢٣٨ غزو الأذفونش السادس لإشبيلية ، حيلة كبير وزراء اشبيلية ابن عمار مع الأذفونش السادس
- ٢٣٩ لعبه الشطرنج معه ، شرط ابن عمار على الأذفونش إذا غلب أحدهما الآخر
- ٢٤٠ رفض الأذفونش للشرط أولاً
- ٢٤١ قبول الأذفونش للشرط ، غلبة ابن عمار للأذفونش وطلبه منه العودة إلى بلاده تنفيذاً للشرط
- ٢٤٢ طلب الأذفونش جزية من ابن عمار وإعطاؤها له وعودته إلى بلاده

## الفصل الحادى عشر

- ٢٤٣ اتجاه أطماع ابن عمار إلى فتح مرسية ، ذهاب ابن عمار الى مرسية وتركه ضيقاً على ريمون
- ٢٤٤ عقد ابن عمار للصدقة بينه وبين أعيان مرسية ، عرض ابن عمار على ريمون مالا لمساعدته بمجنده ، تعاقد ابن عمار مع ريمون على أن يبقى ابن المعتمد قائداً للجيش رهينة عنده حتى يصل اليه المال . احتياج جود ريمون بخنود إشبيلية لفتح مرسية ، تعاون المعتمد فى إرسال المال ، ظن ريمون أن ابن عمار يخدعه ، إلغاء ريمون القبض على ابن عمار وابن المعتمد
- ٢٤٥ محاولة الجيش الإشبيلى لإتقاذ ابن عمار وابن المعتمد وهزيمة ، إبلاغ المعتمد أثناء سيره إلى مرسية : اعتقال ابن عمار وابن المعتمد ، إطلاق سراح ابن عمار ووصوله إلى المعتمد

- ٢٤٦ قصيدة ابن عمار إلى المعتد في استعطافه  
(٢٤٧) ( فصل من فلائد القيان في شأن قصيدة ابن عمار )  
٢٤٧ احتفاظ المعتد بصدائقه بابن عمار وعطفه عليه  
٢٤٨ قصيدة المعتد إلى ابن عمار  
٢٤٩ رجاء ابن عمار إلى المعتد أن يرسل المال إلى ريمون لأطلاق سراح ابن  
المعتد ، طمع ريمون في أكثر من المال المشروط ، ضرب المعتد مسكوكات  
مزيفة وإعطاؤها لريمون ، قبول ريمون للمسكوكات وإطلاق سراح ابن  
المعتد ، طلع ابن عمار إلى فتح مرسية ، ذهب ابن عمار بجيش إشبيلي لحصارها  
٢٥٠ مساعدة ابن رشيق صاحب حصن بلج لابن عمار ، سقوط مرسية في يد  
الجيش الإشبيلي  
٢٥١ دخول ابن رشيق مرسية وتسليمها واعتقال صاحبها ابن طاهر ، أخذ  
البيعة للمعتد  
٢٥٢ استقبال ابن عمار بمرسية ، استئثار ابن عمار بالأمر وتوقيعه على الرقاع  
مغفلا اسم المعتد ، تغير المعتد على ابن عمار لزهوه  
٢٥٣ سعى جماعة من الإشبيليين للإيقاع بين ابن عمار والمعتد  
٢٥٤ أثر الوزير أبي الوليد في إيفار صدر المعتد على ابن عمار ، حصومة ملك  
بلنسية صديق صاحب مرسية المخلوع لابن عمار ، محاولة ابن عمار اصطناع صاحب  
مرسية المخلوع ، إرسال ابن عمار هدية إلى صاحب مرسية المخلوع ورفضه لها  
٢٥٥ وساطة ملك بلنسية لدى المعتد في إخراج صاحب مرسية المخلوع من  
السجن ، أمر المعتد إلى ابن عمار بالافراج عن صاحب مرسية وإهمال ابن  
عمار لأمر المعتد ، فرار صاحب مرسية ولجوءه إلى صديقه ملك بلنسية ،  
تحرير ابن عمار أهل بلنسية على الثورة على ملكهم ، هجاء ابن عمار  
لملك بلنسية ، علم المعتد بهجاء ابن عمار لملك بلنسية وغضبه لذلك

٢٥٦ ص  
شعر المعتد في هجو ابن عمار ، شعر ابن عمار في هجو المعتد وزوجاته ،  
اطلاع يهودى على شعر ابن عمار في هجو المعتد ، إرسال اليهودى شعر  
ابن عمار إلى ملك بلنسية ، إرسال ملك بلنسية الشعر إلى المعتد ، غضب  
المعتد على ابن عمار

٢٥٧  
تعهد بعض أنصار المعتد له بالانتقام من ابن عمار ، انصراف ابن عمار إلى  
مبايعه ولذاته ، انقلاب ابن رشيق على ابن عمار وتخريضه الجند عليه ،  
إيقان ابن عمار بالهلاك وليأذنه بالفرار ، لجوءه إلى الأذفونش ، أمل ابن  
عمار في أن يساعده الأذفونش على فتح بلنسية ، تخيب الأذفونش أمل  
ابن عمار وميله إلى ابن رشيق

٢٥٨  
تحول ابن عمار إلى سرقسطة واتصاله بصاحبها المقندر ، تحول ابن عمار  
إلى «لارده» واتصاله بصاحبها المظفر ، عودة ابن عمار إلى سرقسطة واتصاله  
بصاحبها المؤتمن بن المقندر

٢٥٩  
ثورة أحد أصحاب الحصون على المؤتمن ، قيام ابن عمار بأخضاع صاحب  
الحصن ، قل ابن عمار لصاحب الحصن وسرور المؤتمن بذلك

٢٦٠  
طلب المؤتمن من ابن عمار الاستيلاء على شقورة ، ذهاب ابن عمار لفتح  
شقورة وهزيمته ووقوعه أسيراً

٢٦١  
عمل المعتد على تخايص ابن عمار من الأسر بالمال ، وصول ابن عمار إلى  
قرطبة ومثوله بين يدى المعتد ، تفرغ المعتد لابن عمار وعبت نساء  
المعتد به جزاء له على هجوه له

٢٦٢  
قل ابن عمار إلى إشبيلية وجبسه في قصر المعتد ، وساطة الراشد بين  
المعتد لدى أبيه للعفو عن ابن عمار

٢٦٣  
تظاهر المعتد لابن عمار بالعطف عليه ووعدته بالعفو عنه ، إذاعة ابن عمار  
لوعده المعتد له

ص  
٢٦٤ غضب المعتد على ابن عمار وتقريره له على اذاعة وعده  
٢٦٥ قتل المعتد لابن عمار

## الفصل الثاني عشر

- ٢٦٦ اعتزام الأذقوش فتح شبه الجزيرة ، ضعف القادر أمام الأذقوش ودفعه  
الجزيرة له. لجوءه إلى الأذقوش في حمايته من أهل بلده طليطلة  
٢٦٧ طلب الأذقوش من القادر مالا ، طلب القادر من كبار رجال المملكة دفع  
المال وامتناعهم ، تسليم الطليطيون أمرهم إلى التوكل وهرب القادر ليلا  
لجوءه إلى الأذقوش وطله منه أن يساعده على إعادة ملكه إليه ، وسل  
الأذقوش إلى المعتد لطلب الجزية  
٢٦٨ طلب رسول الأذقوش اليهودى زيادة الجزية ونهديه لرسول المعتد ،  
تبليغ المعتد تهديد اليهودى ، أمر المعتد بإيداع رسل الأذقوش في السجن ،  
قتل اليهودى وصلبه  
٢٦٩ غضب الأذقوش على المعتد وعزمه على غزو إشبيلية ، سير الأذقوش  
بجيوشه إلى إشبيلية ، إرسال الأذقوش إلى المعتد بطلب الافراج عن رسله  
المسجونين ، إطلاق المعتد سراح رسل الأذقوش بشروط ، حصار الأذقوش  
لإشبيلية  
٢٧٠ توجيه الأذقوش بجيوشه إلى طليطلة ، مظاهرة القادر للأذقوش على فتح بلقسية  
٢٧١ مهاجرة أهل بلنسية إلى سرقسطة ، معاهدة الأذقوش مع القادر  
٢٧٢ دخول الأذقوش عاصمة مملكة القوط  
٢٧٣ ( سقوط طليطلة وقصيدة شاعر منها في التضع عليها )  
٢٧٤ عظمة الأذقوش وكبرياؤه

- ٢٧٤ من  
رياسة الأذفونش على ملوك الديانتين الإسلامية والنصرانية
- ٢٧٥ تنازع ابنى عبد العزيز على بلنسية
- ( ٢٧٥ ) ( فصل من البيان المغرب عن ابنى عبد العزيز )
- ٢٧٦ عمل فريق على إعطاء بلنسية لملك سرقسطة
- ٢٧٧ إبقاء القادر لجيش الأذفونش ليحميه ، إقطاع القادر جيش الأذفونش أرضاً يزرعها
- ٢٧٨ غارة جيش الأذفونش على بلنسية وفضاعتهم فى قتل رجالها ونسائها ، عزم الأذفونش على الاستيلاء على سرقسطة
- ٢٧٩ حالة عرب أسبانيا فى ذلك الوقت
- ٢٨٠ تفكير العرب فى الاستنجاد بأفريقية ، اتنباه رأى العرب إلى الاستنجاد بالمرايطين وهم بربر الصحراء ، استدعاء العرب للمرايطين إلى إسبانيا
- ٢٨١ مكتابة المعتمد إلى يوسف ملك المرايطين ، تصميم المعتمد على الاستعانة بالمرايطين ومخالفة ابنه الراشد له
- ( ٢٨٢ ) ( فصل من كتاب آخر ملوك بنى سراج فى أحوال اسبانيا فى ذلك الوقت )
- ٢٨٣ إبرام المعتمد لحطه فى الاستعانة بالمرايطين ، إفضاؤه بخطته إلى المتوكل صاحب بطليوس
- ٢٨٤ إفضاؤه بخطته إلى عبد الله صاحب غرناطة
- ٢٨٥ طلب المعتمد من المتوكل وعبد الله إرسال فاضيهما إلى إشبيلية
- ٢٨٦ انضمام ابن أدم والوزير أبى بكر بن زيدون ، إيجار الوفد إلى يوسف ملك المرايطين وطلبه إليه العبور على رأس جيش ، شروط يوسف على الوفد ومراوغته له ، شك ملوك الاندلس فى نيات يوسف
- ٢٨٨ قيام شك ملوك الأندلس فى نيات يوسف على غير أساس
- ( ٢٨٨ ) ( فصل من كتاب المعجب عن يوسف والمعتمد )



- ٢٨٩ س  
لستشارة يوسف للفقهاء والعلماء فيما يجب عمله ، إشارة العلماء والفقهاء  
على يوسف بقتال الأذفونش
- ٢٩٠ شروط يوسف والمواقفة عليها
- ٢٩٢ سير يوسف بحيشه إلى إشبيلية واستقبال المعتمد له
- ٢٩٣ تقديم المعتمد هدايا إلى يوسف ، انضمام باديس وملك غرناطة وملك مالقة  
إلى المرابطين
- ٢٩٤ إرسال المعتمد كتيبة من الفرسان إلى المرابطين ، زحف جيش المرابطين  
والتقاؤه بجيش التوكل ، زحف الجيوش إلى طليطلة
- ٢٩٥ محاصرة الأذفونش لسرقسطة في ذلك الوقت
- ٢٩٦ إرسال الأذفونش إلى مساعديه أن يحيشوا جيوشهم ، التقاء جيش  
الأذفونش بجيش المرابطين
- ٢٩٧ كتاب يوسف إلى الأذفونش بطلب الجزية أو الاسلام أو الحرب
- ٢٩٨ رد الأذفونش على كتاب يوسف
- ٢٩٩ ضرب موعد الحرب وحيلة الأذفونش فيه ، فهم المعتمد لحيلة الأذفونش
- ٣٠٠ تقدم الأندلسيين في الجيش
- ٣٠١ زيادة جيوش الأذفونش على جيوش المرابطين ، اقتراب الجيش المسيحي  
ومخاوف المعتمد
- ٣٠٢ استنحاث المعتمد ليوسف ليتقدم بالجيوش ، قلة اهتمام يوسف بما يصيب  
الأندلسيين
- ٣٠٣ فرار الأندلسيين وبقاء الإشبيليين وملكهم ، وصول نجدة من عسكر  
المرابطين ، تهقر العدو
- ٣٠٤ خطة يوسف في مباغطة العدو من الخلف
- ٣٠٥ توفيق يوسف في تنفيذ خطته

- ٣٠٦ حدوث مذبحة هائلة في معسكر الأذفونس  
٣٠٨ اشتداد المعركة بين الجيشين  
٣٠٩ إهابة يوسف صفوف المسلمين  
٣١٠ كلمة يوسف للمسلمين في الترعيب في الاستشهاد  
٣١١ عودة الأندلسيين الفارين وانضمامهم إلى صفوف الجيش  
٣١٢ تحرير يوسف لحرسه من السودان وحمله على حيس الأذفونس  
٣١٣ طعن زنجي للأذفونس بمنجبر في بده  
٣١٤ انتصار المسلمين ، فرار الأذفونس وعسكره ، نية يوسف في تعقب الفارين  
وزحفه إلى بلاد الأعداء ، إبلاغ يوسف نبأ وفاة ابنه وعودته إلى إفريقية ،  
بقاء المعتمد وتحت إمرته جيش من المرابطين

## ملوك الطوائف وعواصمهم

- ٣١٥ إشبيلية — بو عباد ، قرصة — بو جهور  
٣١٦ مالقة — بو حمود  
٣١٧ الجزيرة — بو حمود ، غرناطة — بو ررى  
٣١٨ قرمونة — بو برزال ، رنده  
٣١٩ مورور ، أركش ، ولبه ، تبلة  
٣٢٠ شلب — بو مرين ، ستمرية ، مرتله ، بطليوس  
٣٢١ طليطلة ، سرقطة  
٣٢٢ السهلة : بو رزين ، الفت : بو قاسم ، لمسية  
٣٢٣ داية ، مرسية  
٣٢٤ المرية

## نظرات في تاريخ الاسلام

- ص  
 ٣٣٦ ديانة العرب في الحاهلية  
 ٣٣٢ ديانة العرب الأول  
 ٣٣٣ العرب والجن  
 ( ٣٣٣ ) ( بعض الأساطير عن الجن )  
 ( ٣٣٥ ) ( أساطير الجن وسليمان النبي )  
 ( ٣٣٩ ) ( نص القرآن على أن العرب لم يعبدوا الأصنام لذاتها )  
 ٣٤٠ مكة والكعبة  
 ( ٣٤٠ ) ( أعظم أصنام الكعبة )  
 ( ٣٤١ ) ( وصف الصنم « هبل » ، ( أول من نصب « هبل » )  
 ٣٤٢ الحجر الأسود  
 ٣٤٣ عبادة الأصنام  
 ( ٣٤٣ ) ( نشأة عبادة الأصنام ) ، ( أول من أدخل عبادة الأصنام )  
 ( ٣٤٥ ) ( حال الناس في الرضاء عن الدين والكره له )  
 ( ٣٤٦ ) ( قيمة النعجة عند العرب ) ، ( وصف الصنم ذى الخلصة )  
 ( ٣٤٧ ) ( أول من أخفر ذا الخلصة )  
 ٣٤٩ عقيدة البعث  
 ( ٣٥٠ ) ( تسريد اليهود ) ، ( الصدوقيون )  
 ( ٣٥٣ ) ( زندقة سادات قريش )  
 ٣٥٤ المسيحية واليهودية  
 ٣٥٩ الحنيفة  
 ( ٣٥٩ ) ( تفسير الحنيفة )

- ٣٦٤ بعد وفاة النبي  
 ٣٦٦ انتخاب الخليفة  
 (٣٧٣) (الإلحاح إلى قصة مسيلمة)  
 (٣٧٥) (بين عمر وأبي بكر)  
 ٣٧٨ بعد النصر  
 (٣٧٩) (بيت معد يكره في السوية)  
 (٣٨١) (قول الكهنة في واقعة الحنين)  
 ٣٩٠ أنصار الرعية  
 ٣٩٢ عمر بن عبد العزيز  
 ٣٩٤ قواعد الاسلام  
 (٣٩٤) (حديث حريث مع رسول الله ص)  
 ٤٠١ أسباب انتشار الاسلام  
 ٤٠٥ معجزة الاسلام  
 ٤٠٧ دين العرب

# رَوَائِعُ مِنْ قِصَصِ الْغَرْبِ

ترجمة

كامل كيداني

يحتوي جبهة من أروع القصص الإنسانية العالمية ، ونخبة من الأدب  
العالي لأكبر كتاب فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وأسبانيا ، في زهاء ستائة  
صفحة وقد عرف القراء ما يمتاز به أسلوب مترجم هذا الكتاب من  
صفاء الديباجة ، وقوة التصوير ، ودقة الأداء .

والكتاب مطبوع أخضر طبع ، محلي لكثير من الصور الفنية .

ويطلب من مكتبة ومطبعة

عيسى البائلي الحلبي وشركاه بمصر

ومن المكتبات الشهيرة

# كتب للمؤلف

---

روائع من قصص الغرب  
صورة جديدة من الأدب العربي  
مختار القصص  
رسالة الغفران  
نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي  
مصارع الخلفاء  
مصاوع الأعيان  
ديوان ابن الرومي  
ديوان ابن زيدون  
مختارات كامل كيلاني  
موازين النقد الأدبي  
فن الكتابة  
أساطير ألف يوم

مكتبة ومطبعة

عيسى الباني الجليلي وشركاه

مخارسة البحريين بمصر

صندوق بوسطة القورية نمرة ٢٦ مصر

هذا ترسل هذه من سنة

• سنة ١٣٠٠ هـ كتب سنة ١٣٠٠ هـ طبقاً لمؤرخه

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)